المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد



خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير «التحرير والتنوير»

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في البلاغة

إعداد

إبراهيم علي الجعيد

إشراف

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو موسى

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : إبراهيم علي بركات الجهيد كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا ـ فرع البلاغة والنقد

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراه في تخصص : البلاغة

عنوان الأطروحة : خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير التحرير والتنوير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه والتي تمت مناقشتها بتاريخ / / ١٤ هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الداخلي
الاسم : محمد محمد أبو موسى	الاسم : أ.د/ محمود توفيق محمد سعد	الاسم : د/ يوسف عبد الله الأنصاري
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع : ......

يعتمد :

رئيس قسم الدراسات العليا العربية

أ . د . محسن بن سالم رشيد العميري

● يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في محكم التنزيل : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(١) .

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلقه ، وصفوة بشره ، القائل : "من سلك طريقا يلتمس به علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة"(٢) .

وبعد :

فإن من أجل العلوم قدرا ، وأرفعها شأنا ، وأعظمها منزلة ، وأسماها مكانة مايتصل بسبب إلى القرآن الكريم .

والبلاغة العربية التي نشأت في سامق بيان الجملة القرآنية ، ووارف ظلها تجاوزت آصرة السببية البعيدة إلى أصل النشأة والوجود ، كعلم قائم بذاته ، له ضوابطه وقواعده ومقوماته .

لتتجلى هذه الرابطة القوية المتأصلة بين البلاغة العربية والجملة القرآنية ، وليكون ذلك منطلقا عاما تتبارى فيه أذهان ترنو للأصالة والجدة ، وتشرف بمدارسة البيان المعجز الخالد .

لأنه أولى ماتوجهت إليه العارفة من الأنظار ، والبصيرة من البصائر ، والنيرة من الأفكار .

وطالما كانت تتوق النفس إلى دراسة تعنى بالبلاغة القرآنية ، لكونها بمنزلة الأصل في الدراسات البلاغية إن لم تكن الأصل ، ولكونها الأكثر جدة ، والأثرى بلاغة ، والأغزر علما .

ولكون مايكتب حولها من جاد الدراسات هو المكتوب الخالد والباقي والأوفى أجرا وحظا .

---

(١) سورة المجادلة : آية (١١) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، حديث رقم (٢٦٩٩) .

ولكوني أؤمن أن وجه الجدة في البلاغة هو ماتقوم به من دراسات تصل فيها إلى أغوار النص وأعماقه ، لافيما تقوم عليه من دراسات في كتب البلاغيين . فدوافع الموضوع أكبر من أن تحيط بها هذه المقدمة ؛ لأنها أقرب إلى الستين منها إلى الست التي صرحت بها آنفا ، وربما تزايدت إلى أكثر من ذلك .

ويكفي من الدوافع أن يقف الدارس أمام آية واحدة ليتأمل خصائص بنائها ، ودلالات تراكيبها ، لأن الكلام كلام الله فهو غير مخلوق ، والدارس له ، والمتأمل فيه مخلوق .

وقد ثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال : ماعندي مماليس في كتاب الله شئ إلا فهما يؤتيه الله[1] .

ولما طلبت هذه الوجهة ، وأزمعت هذه الغاية ، شمرت عن ساعد الجد ، وأبديت صدق العزم ، في دراسة جادة حول : خصائص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية .

ولاأعني بذلك العموم ؛ لأني لم اسوره بألفاظه ، ولأن الاستقصاء يخرج عن طاقة البشر في الشعر بله القرآن ، وإنما أردت أن أقف على أهم خصائصها ، ومايتاح لمثلي من استكشاف دلالاتها .

فكان التحرير والتنوير هو المنطلق لهذه الدراسة ، لأن هذا الموضوع لايسخو فيه كل عالم إلا عالما مجتهدا محققا محررا جمع بين أمرين :

الأمر الأول : كونه عالما ذا باع طويل ، وقدم صدق راسخة في العلوم الشرعية وعلوم اللسان المسماة بعلوم الآلة .

الأمر الثاني : كونه ذا حس يقظ ، وذوق أدبي سام ، مسترسل الطبيعة ، وقاد القريحة ، يملك دربة بأساليب اللسان ، ورهافة متميزة بمعرفة أسرارها .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢/١) .

وقد تحقق ذلك في مفتي تونس وفقيهها وعلامتها في عصره ، وأحد أعضاء المجمع العربي في القاهرة ، وأحد أعضاء المجمع العربي في دمشق ، الذي اعتنى إلى جانب ذلك كله عناية بالغة بالجانب الأدبي من تحقيقه ونشره عدة دواوين كديوان بشار بن برد ، وديوان النابغة ، وجمعه وشرحه ديوان سحيم ، وشرحه ديوان الحماسة ، وشرحه معلقة امرئ القيس ، وشرحه قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلق ، وغيرها ... مما هو مسطور في موضعه من الترجمة .

فالعلامة ابن عاشور جمع بين الصفات الوهبية الربانية ، والأخرى الاجتهادية الكسبية ، ليسطر التحرير والتنوير الذي يعد من المفاخر العلمية في القرن الرابع عشر الهجري .

حتى أن أحد الباحثين الأكاديميين هو الدكتور علي العطار الذي درس تراث العلامة ابن عاشور دراسة علمية من خلال رسالته الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير ، وصف العلامة ابن عاشور بأنه أمة وحده ، حين قال : "وإنما أقدم رجلا أمة وحده"[1] ، وذكر الدكتور أن تفسير التحرير والتنوير في حاجة لتوفر فريق من الباحثين أولي العزم والحزم والتجرد ، وأقسم على ذلك قائلا : أي وربي[2] .

والذي استنطق الدكتور هذه العبارات إنما هو علم العلامة ابن عاشور ؛ لأن الذي يقرأ تحريراته وتدقيقاته ونفاذه إلى أعماق النصوص ، واستظهاره حقائق معرفية ليست إلا له ، ولاتنسب إلا إليه ، يدرك القيمة العلمية لهذا الرجل ؛ لأنه يعد من الأئمة الذين بلغوا حد الاجتهاد ، وله من الآراء البلاغية والنحوية ماخالف فيها الأئمة بأدلة قوية وحجج معتبرة .

حتى أني كنت أحدث نفسي ومن أثق به بأني سأقوم بدراسة لآرائه واعتراضاته واستدراكاته ، ريثما أنتهي من هذا البحث ،وفيما استقبل من الحياة العلمية القادمة بإذن الله تعالى .

---

(١) الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير (ص/ أ) .

(٢) ن.م.س (ص/ و) .

فيشاء الله أن أرى باحثا جادا يشرف بتلك الدراسة في الآراء البلاغية بصورة موسعة ، لنيل درجة الدكتوراة ، هو الدكتور علي عبد الحميد عيسى ، موردا للطاهر مائتين واثنين وسبعين اعتراضا في جميع أبواب علم المعاني لتبقى في النفس الدراسة النحوية التي طالما هزتني فيها آراء ابن عاشور وتحقيقاته ، وألمحت إلى بعض منها في مواضع من هذا البحث .

وهاتان الرسالتان العلميتان ـ للدكتور العطار وللدكتور علي عبد الحميد عيسى في التحرير والتنوير ـ شاهدا حق ، ودليلا صدق على مافي هذا التفسير من بلاغة حية وجديدة تستوجب منا كمال العناية بمزيد من البحث والدراسة .

ولعل مايكتب في تفسير التحرير والتنوير من أعمال علمية أكاديمية يكون قرائن صحيحة وأدلة قائمة على صحة ماذهب إليه صاحب الاستعارة التمثيلية من الحاجة لتوفر فريق من الباحثين أولي الحزم والعزم والتجرد لدراسة التحرير والتنوير .

وتكون تلك الأعمال قرائن صحيحة وأدلة قائمة على أن هذا التفسير يضاهي تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية ، ولايقلل من قيمته العلمية تأخره عنهما في الزمن ، بل ربما يعد تأخره من جهة بعده الزمني عنهما ميزة له ، إذ أنه يرى ماسطر قبله من الأسفار ، ويأتي بما لم يأتيا به من دقيق الأنظار ، وقد صدق من قال : كم فاق المتأخر .

وإني لما استحضرت مايتوارد على ذهن قاصر وخاطر فاتر مما يستحث خطا المعرفة ، وعزائم ركائب الفكر ، لاقتحام هذا اللج الذي لاساحل له ، وهذا البحر الذي لايدرك غوره ، وهذا المرتقى الصعب ، وهذا المنال الذي تتقاصر دونه الهمم ، أشفقت على نفسي من الوقوف بين هذه الجبال الراسيات من العلم ، والأنهار الجاريات من الفهم ، وزاد من ذلك مابدا لي من صعوبات تثبط من العزائم مااشتد عودها ، وبزغ سعودها ، فضلا عما زالت في بداية الطريق ، وفي نهل أول الموارد وفي الأولوية من أمرها .

وتلك الصعوبات أعد كل صعوبة منها بمنزلة شهلان أو رضوان ، لأن من حسن البصيرة إدراك الأشياء قبل خوض غمارها ، ومعرفة حنادس دجى ليلها قبل

انبلاج ضوء نهارها ، لتتضح في ذهن طالبها الأمور ، ويعرف قبل الورود كيفية الصدور ، ولايقدم على خطوة إلا وقد حسب حسابها ، وعرف مشاق صعابها قبل شرف حصولها واكتسابها .

فأقدمت مستصغرا تلك الصعاب ، لشرف خدمة ذلك الكتاب ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وجعلت نصب عيني ، أن المورد العذب يغري باستسهال الصعب ، فاستعنت بالله وهو المعين ، وتوكلت عليه وهو نعم الوكيل ، متجاوزا تلك الصعاب التي تنضوي تحت قسمين:

الأول : هو كون البحث في الدراسات القرآنية ، فلامجال فيه إلا للعلم المستند على الأدلة ، والقول الذي يتحرى أقصى درجات الصواب ، مع الأخذ بحظ وافر في جميع علوم اللغة واللسان ، والوعي التام بالقضايا العقدية ، والبينة من مزال بعض الفرق والنحل الإسلامية ، حتى يكون المرء على بصيرة وحذر من تأويل صفات الله كما هو الحال عند الأشاعرة وغيرهم ، أو نفيها كما هو الحال عند المعتزلة .

الثاني : طبيعة الموضوع نفسه ؛ إذ أنه في خصائص بناء الجملة القرآنية ، فاستلزم ذلك مزيدا من التأمل وطول المراجعة ، وتأن ، وبصيرة ، وحسن إدراك ، وتتبع دقيق لكلام الأئمة ، وفهم واع ، واستيعاب ، وإحاطة بجوانب المقاصد ، وبعيد المرامي في تحرير الأئمة وتحبيرهم .

ولن أذكر ماقاسيته ولاماواجهته مما يكرره الباحثون قبلي ، وسيكرره الباحثون بعدي ، لأنها طبائع البحوث التي لاتنفك عنها .

ولربما أتناسى الهم عند احتضاره بذلك التطواف الحافل بين ثنايا رياض التفاسير ، وبالوقوف الماتع والنظر الشائق إلى تحريرات وتدقيقات الأئمة النحارير ، ليصح النظر ، ويحرر القول ، ويشتد العود ، ويبزغ السعود .

وقد من الله علي بفضله العميم أن يستوي هذا العمل العلمي على سوقه ، وتدنو جني قطوفه وعذوقه ، في خمسة أبواب تضم ثلاثة عشر فصلا يسبقها توطئة

في مبتدأ كل باب ، وقد قدمت بين يدي ذلك كله بتعريف موجز بالطاهر ابن عاشور ، وعرجت بوقفة موجزة مع التحرير والتنوير ، وذكرت أهم مصادره البلاغية .

ثم شرعت في أبواب الرسالة ، وهي كالتالي بشئ من الإيضاح .

الباب الأول : التوكيد .

به توطئة وفصلان .

التوطئة : وبها الحد اللغوي والاصطلاحي ، حتى يصح التفريق بين التوكيد النحوي والبلاغي الذي نحن بصدد دراسته .

وشملت إشارة إلى كثرة أسلوب التوكيد في القرآن الكريم ، ومحاولة لبيان سر تلك الكثرة .

الفصل الأول : دواعي التوكيد وأغراضه .

ابتدأ هذا الفصل بذكر التوكيد في التحرير والتنوير ، وعرج على أضرب الخبر الثلاثة ، ثم بسط القول في دواع للتوكيد كثيرة وجليلة ذكرها ابن عاشور والمفسرون ، ولم يذكرها البلاغيون .

الفصل الثاني : عناصر التوكيد ووسائله .

استقصى الباحث في التحرير والتنوير مايقارب من ستين عنصرا ووسيلة ، لم يذكر البلاغيون منها إلا النزر اليسير .

وقد أفرد كل عنصر منها بمبحث خاص بحسب مادتها العلمية .

الباب الثاني : التقديم .

وبه توطئة وفصلان .

التوطئة : بها الحد اللغوي والاصطلاحي ، ليصح جمع مباحث التقديم المتناثرة في كتب البلاغيين ، من تقديم المسند إليه ، وتقديم المسند ، وتقديم متعلقات الفعل ، وتقديم ماحقه التأخير من باب القصر .

الفصل الأول : تقديم عناصر الجملة .

قد شمل دراسة سبعة مباحث هي كالآتي :

(١) تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في حالة الإثبات .

فيه بيان المقصود بصور الإثبات ، وموافقة العلامة ابن عاشور مذهب الإمام عبد القاهر الجرجاني في هذه الحالة من التقديم ، وبيان أرجحية مواطن قصد التخصيص أو التقوية أو العكس في الجملة القرآنية .

(٢) تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في حالة النفي .

فيه بيان رؤية العلامة ابن عاشور التي يخالف فيها مذهب الإمام عبد القاهر ويحتكم فيها إلى السياق والمقام .

(٣) تقديم المسند إليه على المسند المشتق .

فيه رؤية خاصة للعلامة الطاهر وتحقيقات بديعة في موضعها .

(٤) تقديم المسند على المسند إليه في حالة الإثبات .

وفيه أن مثل هذا التقديم في هذه الحالة يفيد أحد القسيمين ، إما الاختصاص وإما الاهتمام الذي تنضوي تحته نكات خاصة بالمقام نفسه .

(٥) تقديم المسند على المسند إليه في حالة النفي .

فيه بيان أن هذا المبحث مما يدق خفاؤه ، ويصعب استظهار صورة الاختصاص منه ، حتى زلت فيه ثوابت الأقدام كالعلامة الخلخالي ، وتوضيح طريقة ذلك الاستظهار ، وفيه بيان أرجحية الاختصاص على غيره من النكات إذا احتملها السياق .

(٦) تقديم متعلقات العامل عليه .

قد قدمته على لاحقه لكونه يفيد القصر في غالب أحواله ، فهو أمس من جهة المعنى بالمباحث السابقة .

وفيه صور للتراكيب التي تعد من مبتكرات القرآن ، وأخرى يخالف فيها العلامة الطاهر الجم الغفير من البلاغيين .

(٧) تقديم بعض المعمولات على بعض .

فيه أغراض بلاغية عديدة في أسرار التقديم في الجمل القرآنية .

الفصل الثاني : تقديم الجملة .

فيه بيان إغفال البلاغيين هذا الجانب من التقديم ، وذكر عذرهم في ذلك .

يضم هذا الفصل مبحثين :

(١) تقديم جاء على الأصل .

(٢) تقديم جاء عن تأخير .

ذكرت صور التقديم في ذين الجانبين ، وأمطت اللثام عن أسرارهما ، بآراء الأئمة .

الباب الثالث : الحذف .

به توطئة وثلاثة فصول .

التوطئة : وتناولت فيها التعريف اللغوي والاصطلاحي ، ثم ذكرت اتساع أفق الطاهر ابن عاشور في النظر إلى مفهوم الحذف ، مما اضطرني إلى التعريج على من تناول ظاهرة الحذف قبل الطاهر ، لأجل بيان وجه الإضافة عنده .

ثم ذكرت دليل الحذف وأنواعه وحسنه .

قد أطلت في هذه التوطئة ليصح الدخول على هذا الباب بجميع أدواته ، ولأجل المادة العلمية التي فرضت نفسها في هذا المقام .

الفصل الأول : صور الحذف ومواقعه .

قد تناولت فيه أربع صور للحذف حاولت تأصيلها ، وبيان صورها بكثير من الشواهد وهي :

(١) الاقتطاع

(٢) الاكتفاء

(٣) الاحتباك

(٤) الاختزال

ثم أشرت إلى مواقع هذا الحذف وبينت أنه يتناول غالب عناصر الجملة القرآنية ، ثم قسمته إلى أقسام ثلاثة ، هي :

(١) مااتفق الطاهر مع العلماء على وقوعه في الجملة القرآنية .

(٢) مااختلف الطاهر والعلماء على وقوعه في الجملة القرآنية .

(٣) ماصح عربيه ولم يقع في الجملة القرآنية .
وقد أوردت الشواهد القرآنية .

الفصل الثاني : أغراض الحذف .

أردت بها أغراض الحذف في غير المفعول ، وقد بينت في هذا الفصل النكت البلاغية العامة للحذف ، وبينت أيضا أن أغراض الحذف غير محصورة ، خلافا لمن فهم ذلك من المعاصرين ، وأوردت ماذكره الطاهر والمفسرون من أغراض بلاغية للحذف لم يذكرها البلاغيون .

الفصل الثالث : أغراض حذف المفعول .

قد خصصته بذلك لأهميته البالغة ؛ لكونه بيت قصيد الحذف ، وقلب مباحثه . وتناولت فيه أن الفعل المتعدى عند الصرفيين يكون لازما في أسلوب الاستعمال عند البلاغيين ، وأن الفعل المتعدي إلى مفعولين يكون متعديا إلى مفعول واحد في أسلوب الاستعمال عند البلاغيين ، واستشهدت على ذلك بالنظم الجليل وكلام ابن عاشور .

ثم بينت قلة ورود ترك المفعول ليجعل الفعل مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص ، في أساليب النظم الجليل .

وحققت القول في أن مفعول المشيئة إذا كان غريبا يحسن ذكره ولايجب خلافا لمن فهم ذلك من المحققين .

واستقرأت في الجملة القرآنية ماشاكل مفعول المشيئة من الأفعال في موضعين من البحث ، وذكرت أغراضا بلاغية عديدة لحذف المفعول .

الباب الرابع : التعريف .

به توطئة وثلاثة فصول .

التوطئة : وبها تعريف التعريف لغة واصطلاحا ، وأقسام التعريف عند النحاة وعند البلاغيين وتحقيق القول في أعرف الأقسام ، وترتيبها في الأعرفية ، ثم ذكرت فائدة بلاغية عامة في التعريف .

الفصل الأول : التعريف بالإشارة .

فيه أغــراض بلاغيـة عديـدة ونفيسـة ذكرهـا ابـن عاشـور والمفسـرون ، ولم يذكرها البلاغيون .

ثم تناولت تراكيب لاسم الإشارة وردت بها الجملة القرآنيــة وللعلمـاء فيهـا آراء مختلفة غير متضادة ، وخصصت كل تركيب بمبحث خاص . وهي كالآتي :

(١) ورود اسم الإشارة بعد الضمير نحو ﴿هاأنتم أولاء﴾ .

(٢) دخول كاف التشبيه على اسم الإشارة نحو ﴿كذلك جعلناكم أمة وسطا﴾.

(٣) ربط الكلام السابق باللاحق نحو ﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب﴾ .

(٤) الانتقال من غرض إلى غرض نحو ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ .

الفصل الثاني : التعريف بالموصولية .

قد أوردت شواهد قرآنية كثـيرة ، وأغراضـا بلاغيـة دقيقـة يفيدهـا التعريـف بالموصولية . لم يذكر منها البلاغيون إلا النزر اليسير .

ثم بينت أن الموصول يفيد ماتفيده "أل" المعرفـة مـن معـان عـن طريـق جملـة الصلة ، وهذه حقيقة أفادها النحاة قبل البلاغيين .

الفصل الثالث : التعريف بغيرهما .

المراد هنا التعريف بأداة التعريف ، والتعريف بالإضافة ، وقد جمعتهما في هذا المبحث لأن مادتهما العلمية أقل مما سبقها .

وقد ذكرت وجه تعرض النحاة لأداة التعريف "أل" ودراستهم لها ، وذكرت وجه تعرض البلاغيين لهذه الأداة ودراستهم لها .

ثم ذكرت تقسيم النحاة لها وتقسيم البلاغيين لها ، وذكرت وجه الفرق بـين التقسيمين .

ثم ذكرت أغراضا بلاغية للتعريف بالأداة في الجملة القرآنية .

أما قسم التعريف الآخر وهو الإضافة ، فقد ذكرت له من الأســرار البلاغيـة الدقيقـة في تراكيـب الجملـة القرآنيـة مـاذكره ابـن عاشـور والمفسـرون ولم يذكــره البلاغيون .

ثم بينت أن الإضافة تفيد ماتفيده أداة التعريف "أل" من معان .

الباب الخامس : الإنشاء .

به توطئة وثلاثة فصول .

التوطئة : وبها تعريف الإنشاء لغة واصطلاحا .

قد سرت على ماسار عليه البلاغيون من تعريف للإنشاء ، وبينت وجه النظر وكلام الأئمة من المحققين حوله ، ونقدت تعريف الخبر والإنشاء عند أحد المعاصرين ، ومفهوم خاطئ عند آخر .

ثم ذكرت في هذه التوطئة أقسام الإنشاء .

الفصل الأول : الأمر والنهي .

قد عرفتهما ، وذكرت أن مسائلهما قد اختلطت بها مسائل بعض العلوم ، ثم ذكرت وجه تناول البلاغيين لهما .

وقد أوردت أغراضا لهما في الجملة القرآنية لم يذكرها البلاغيون .

الفصل الثاني : الاستفهام .

قد عرفته ، وذكرت أن أسلوب الاستفهام هو في السور المكية أكثر منه في المدنية ، وأوردت أغراضا بلاغية عديدة في الجملة القرآنية ، لم يذكرها البلاغيون .

الفصل الثالث : التمني والنداء .

قد عرفت التمني بثلاثة تعاريف ، وبينت وجوه النظر في بعضها والاعتذار عنها ، ثم نبهت على أن أسلوب التمني يكثر في الشعر عنه في الجملة القرآنية .

وقد ذكرت شواهده في الجملة القرآنية .

أما النداء ، فبعد أن عرفته ، ذكرت أغراضا بلاغية له في الجملة القرآنية .

وبعد هذا كله .. فقد آثرت الإيجاز حتى لايطول البحث في معاده ومتشابهه واكتفيت ببعض الأمثلة أو الشواهد القرآنية في بعض المواطن التي تكثر فيها المادة العلمية دون بعض .. فما لم أثبته في تلك المواطن يدخل فيما أثبته .. وربما لاأجد في بعض المواطن إلا شاهدا أو شاهدين فأثبتهما .

هذا ماأحببت التنبيه عليه والإشارة إليه مما اعتمدته في هذا البحث .

فلله الحمد والمنة على إتمام هذا الموضوع الذي لم يسبقني إليه باحث ، ولم يجر مداد قلم فيه قبل مداد قلمي .

وفي نهاية هذا البحث ذكرت أبرز النتائج التي رأيت رصدها من خلال هـذا العمل العلمي في الخاتمة .

ووليها ملحق لمواطن عناصر التوكيد ووسائله في التحرير والتنوير .

ثم ذكرت ثبتا بالمصادر والمراجـع مطبوعهـا ومخطوطهـا والرسـائل العلميـة ، والدوريات ، فالفهرس العام للموضوعات .

وفي الختام أتقدم بجزيل الامتنان وخالص الشكر لأستاذنا أستاذ هـذا الجيـل الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى على مابذله من توجيـه وتقويـم خـلال هـذه السنوات التي لم يبخل فيها علي بوقت ولاجهد ولاأبوة علمية وروحية ، فجـزاه الله خير الجزاء .

وأشكر جميع من أسهم في إخراج هذا العمل العلمي على هذه الصورة .

وصلى الله على النبي الأمين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تعريف موجز بالعلامة ابن عاشور

وقفة مع التحرير والتنوير ومصادره البلاغية

ترجمة العلامة ابن عاشور[1]

اسمه ونسبه ومولده :

هو العلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي ابن عبد القادر ابن عاشور[2] .

رئيس المفتين المالكيين بتونس ، وشيخ جامع الزيتونة ، ومن أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة[3] .

وهذا البيت بيت آل عاشور من أكابر أهل العلم ، ومن الأشراف الأندلسيين[4] .

وترجع اصول نسبهم الشريف إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه[5] .

وقد ولد صاحب التحرير والتنوير بتونس سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م[6] .

---

(١) مصادر الترجمة : الأعلام (١٧٤/٦) ، معجم المؤلفين ، المستدرك (ص٦٦٢) ، الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير ، رسالة دكتوراه للدكتور علي العطار ، وقد ترجم فيها للشيخ ترجمة رائدة فيما يقارب مائتي صفحة بعد أن وقف على مكتبة الشيخ وتراثه العلمي ، والتقى بأحفاده وهي مخطوطة بكلية اللغة العربية في الأزهر تحت رقم ٤٨/٢٧٢ ، ومؤلفاته المطبوعة .

(٢) ينظر : الأعلام (١٧٣/٦-١٧٤) .

(٣) ينظر : ن.م.س (١٧٤/٦) ، معجم المؤلفين ، المستدرك (ص٦٦٢) .

(٤) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٥٠) .

(٥) ينظر : ن.م.س (ص٥١) .

(٦) ينظر : الأعلام (١٧٤/٦) ، الاستعارة التمثيلية (ص٥١) .

نشأته :

نشأ في كنف جده لأمه الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بوعتور ، وكان جده وزيرا في الدولة ومن المعتنين بالعلم إعتناء بالغا ، فتهيأ له من أسباب الحياة الكريمة والتوجيه العلمي الواعي ماأسهم في بناء شخصيته العلمية .

إضافة إلى مواهب ربانية تفضل الله بها عليه خلق بها ، وفطر عليها ، من الذهن الوقاد ، والذكاء الحاد ، والنظرة الشمولية ، والدقة المتناهية ، وسرعة الحفظ والإحاطة .

فابتدأ بحفظ القرآن الكريم وعمره ست سنوات ، ثم حفظ الأجرومية وغيرها من متون العلم .

ثم التحق بجامع الزيتونة وهو لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره ، وبدأ ينهل من معينه العذب حتى اشتد عوده ، وبزغ سعوده ، فألقى ختما في الحديث بمجلس العلماء وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره .

وقد حاز على شهادة التطويع بتقدير "فائق" وعمره واحد وعشرون عاما ، ثم بدأ التدريس في هذه السن المبكرة لأمهات الكتب .

وقد كان إلى جانب معرفته الواسعة بعلوم اللغة العربية متقنا للغة الفرنسية .

أما المناصب العلمية والإدارية التي تولاها فسأفرد لها ــ إن شاء الله ــ مبحثا خاصا ، بعد التعريف بهذه الأسرة الشريفة[1] .

أسرته :

هذه الأسرة أسرة عريقة علما ونسبا ، فقد جمعت بين الحسنيين ، شرف النسب ، وشرف العلم .

فهم يرجعون بنسبهم إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ، وبالتالي فهم يمتون إلى البيت الطاهر الشريف بيت الرسول ﷺ .

---

(١) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٥١) ومابعدها .

وأما العلم فحدث ولاحرج ، فجده لأبيه هو العلامة محمد الطاهر بن محمد ابن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن عاشور ، له مؤلفات عديدة منها :

ماهو مطبوع وهو :

(١) هدية الأريب إلى أصدق حبيب وهو شرح لقطر الندى لابن هشام

(٢) شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح

وماهو مخطوط وهو :

(١) حاشية على شرح المحلى على الجوامع للسبكي مخطوطة في مكتبة الأسرة تحت رقم ق.أ٦٦ .

(٢) حاشية علي عبد الحكيم على المطول سماها "الغيث الأفريقي" مخطوطة تحت رقم ٣٤٢١ .

(٣) حاشية على شرح العصام لرسالة البيان مخطوطة تحت رقم ٢٣٥٢ .

وغيرها من المصنفات[١] .

وجده لأمه هو الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بوعتور ، كان ممن أخذ العلم عن مشايخ عصره وتتلمذ عليهم بعد حفظه كتاب الله ، وكان ذا ذكاء حاد وذهن وقاد ، وقلم مطبوع ،وقريحة خصبة النتاج شعرا ونثرا .

انتصب للتدريس في جامع الزيتونة المعمور ، وحضر درسه كثير من العلماء فضلا عن طلبة العلم ، حتى حاز منصب الدولة في تحقيق الأنظار الفقهية .

وتولى عدة وزارات ، منها : وزارة القلم ، ووزارة المال ، ثم رئاسة الوزراء[٢] .

وورث مكتبته العامرة لحفيده العلامة صاحب التحرير والتنوير الذي نحن بصدد التعريف به والترجمة له .

ولئن ظهر شئ من تسامق عز هذه الشجرة المباركة في أصولها ، فقد تواصل في فروعها ، ومالشيخ الفاضل نجل صاحب التحرير والتنوير إلا دليل على ذلك .

---

(١) ترجمته تنظر في : الأعلام (١٧٣/٦) ، معجم المؤلفين (١٠١/١٠) ، الاستعارة التمثيلية (ص٤٤) .

(٢) تنظر ترجمته في : الأعلام (٢٦٨/٦) ، الاستعارة التمثيلية (ص٤٨) ومابعدها .

فقد تتلمذ على والده العلامة وكبار علماء عصره حتى نال أسمى رتبة يحصل عليها دارس في الزيتونة ، وهي رتبة مدرس من الطبقة الأولى .

وكان خطيبا مفلقا وأديبا متفننا ، ومفتيا وعالما ، وعضوا في المجمع اللغوي بالقاهرة ، وعضوا في رابطة العالم الإسلامي بمكة ، وعميدا للجامعة الزيتونية .

ألقى محاضرات في السربون بفرنسا ، وفي جامعة استنبول ، وفي جامعة عليكرة في الهند .

له مؤلفات عديدة منها ماطبع وهو :

(١) المصطلح الفقهي في المذهب المالكي
(٢) التفسير ورجاله
(٣) اختلاف المبرد مع سيبويه
(٤) تقديم وتحقيق كتاب "أفعل"
(٥) الإمام سحنون والفقه الإسلامي
(٦) الحركة الأدبية والفكرية في تونس
(٧) أعلام الفكر الإسلامي في المغرب العربي
(٨) فلسطين الوطن القومي للعرب
(٩) أركان النهضة الأدبية في تونس

وغيرها من المؤلفات المطبوعة الأخرى .

وله بحثان مخطوطان :

(١) تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوي فاسد
(٢) جواب في شروط فعل التعجب[1]

وهكذا كان هذا البيت بيت علم اعتنى به وحفل بطلبه ، ولم يركن إلى النسب الشريف .

---

(١) تنظر ترجمته في : الأعلام (٦/٣٢٥) ومابعدها ، معجم المؤلفين المستدرك (ص٧٢٠) ، الاستعارة التمثيلية (ص٣٣) ومابعدها .

مناصبه العلمية والإدارية :

علامتنا مع علو منزلته العلمية إلا أنه يعد من رجال الإصلاح الذين وقفوا حياتهم لإصلاح مجتمعهم ، فقرنوا العلم بالعمل .

ويصور ذلك بجلاء كتابه "أليس الصبح بقريب" الذي عرض فيه لمسيرة التعليم والتربية والمناهج .

وقد تقلد من المناصب العلمية والإدارية ماحاول بها تعليم مجتمعه وإصلاحه.

فبدأ مهمة الإصلاح وعمره واحد وعشرون عاما من خلال تنوير الناشئة ونشر العلم خارج نطاق أسوار جامعة الزيتونة في مدرسة الصادقية ذات المناهج والاتجاه المدني الغربي .

"فكان عمله بها كعمل محمد عبده في مدرسة الألسن ودار العلوم ، وبدأ أثره في تلاميذه هناك بأن تخرج من الصادقية من كانوا زيتونيين أكثر من أبناء الزيتونة"(١) .

وهكذا دأب العلم النافع يقرنه العمل الجاد بنية صالحة وعزيمة صادقة .

ولست بصدد ذكر إصلاحاته فذلك مقام يطول الحديث فيه ، ولكني بصدد مناصبه العلمية والإدارية .

ففي سنة ١٣٢٥هـ عين نائبا عن الدولة لدى نظارة جامع الزيتونة ، وتولى عضوية إصلاح التعليم ، وعضوية مجلس المدارس ، وعضوية إدارة المدرسة الصادقية وعضوية الكتب الموقوفة على مكتبات الجامع الأعظم وعلى الصادقية أيضا .

وقد أسندت إليه خطة القضاء في سنة ١٣٣١هـ لمدة عشر سنوات ، ولقب بشيخ الإسلام المالكي ، وعين رئيسا للنظر في شئون التعليم في جامع الزيتونة ، ومن ثم ترقى إلى خطة الإفتاء سنة ١٣٥١هـ .

وفي سنة ١٣٧٤هـ سمي عميدا للجامعة الزيتونية(٢) .

---

(١) الاستعارة التمثيلية (ص٥١) .

(٢) ينظر : الأعلام (١٧٤/٦) ، معجم المؤلفين المستدرك (ص٦٦٢) ، الاستعارة التمثيلية (ص٥١) ومابعدها .

آثاره العلمية :

قد ترك الشيخ تراثا علميا حافلا يشهد لـه بسعة الاطلاع ، ودقة الفكر ، ورسوخ القدم ، وهو تراث جليل وعظيم ، متعدد الجوانب والفنون ، في التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة والنحو والأدب والسيرة والتاريخ والإصلاح ، منه ماطبع وانتشر وأفاد منه الناس ، وهو كالآتي :

(١) التحرير والتنوير ـ خمسة عشر مجلدا (في التفسير)
(٢) النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح (في الحديث)
(٣) كشف المغطى في أحاديث الموطأ (في الحديث)
(٤) تحقيق مسمى الحديث القدسي (في الحديث)
(٥) الوقف وآثاره في الإسلام (في الفقه)
(٦) التوضيح والتصحيح (في أصول الفقه)
(٧) مقاصد الشريعة (في أصول الأصول)
(٨) موجز البلاغة (في البلاغة)
(٩) شرح قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلق (في الأدب)
(١٠) نشر وتحقيق ديوان بشار ـ في مجلدين (في الأدب)
(١١) المقدمة الأدبية (في الأدب)
(١٢) ديوان النابغة الذبياني ـ جمع وشرح وتعليق (في الأدب)
(١٣) شرح المقدمة الأدبية على شرح المرزوقي (في الأدب)
(١٤) شرح قلائد العقيان (في الأدب)
(١٥) سرقات المتنبي (في الأدب)
(١٦) الواضح في شرح مشكلات شعر المتنبي (في الأدب)
(١٧) أصول الإنشاء والخطابة (في الأدب)
(١٨) قصة المولد الشريف (في السيرة)
(١٩) أليس الصبح بقريب
(٢٠) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام
(٢١) نقد علمي لكتاب الإسلام

وهذه الكتب الثلاثة الأخيرة وإن تباينت موضوعاتها ، وتقاربت همومها ، فيمكن أن توصف بأنها كتب إصلاحية .

وبقي من آثار علامة تونس ماهو مخطوط ، وهو لايقل عن المطبوع كما ولاكيفا ، وهو كالآتي :

(١) تعليقات وتحقيق على حديث أم زرع (في الحديث)

(٢) الفتاوى (في الفقه)

(٣) قضايا وأحكام شرعية (في الفقه)

(٤) مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ، ويعول في الأحكام عليها (في الفقه)

(٥) آراء اجتهادية (في الفقه)

(٦) آمال على مختصر خليل (في الفقه)

(٧) تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر المعروف بـ"مقدمة النحو" (في النحو)

(٨) أمال على دلائل الإعجاز (في البلاغة)

(٩) تعاليق على المطول وحاشية السيلكوتي (في البلاغة)

(١٠) جمع وشرح ديوان سحيم (في الأدب)

(١١) شرح ديوان الحماسة (في الأدب)

(١٢) شرح معلقة امرئ القيس (في الأدب)

(١٣) تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي (في الأدب)

(١٤) مراجعات تتعلق بكتابي معجز أحمد واللامع العزيزي (في الأدب)

(١٥) غرائب الاستعمال (في اللغة)

(١٦) تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب "الاقتضاب"لابن السيد البطليوسي مع شرح كتاب أدب الكاتب (في اللغة)

(١٧) كتاب تاريخ العرب (في التاريخ)

(١٨) تراجم لبعض الأعلام (في التراجم)

(١٩) تصحيح وتعليق على كتاب "الانتصار" لجالينوس للحكيم بن أزهر (في الطب)

(٢٠) أصول التقدم في الإسلام (في الدعوة والإصلاح) [(١)]

وفاته :

بعد عطاء علمي متميز في شقيه التدريس والتصنيف ، وبعد جهد إصلاحي ودعوي في البناء والارتقاء ، وبعد جهاد مرير ضد المستعمر الدخيل ، وبعد سنوات حافلة بالعطاء في شتى المجالات العلمية والإدارية .

بعد سبع وتسعين سنة خبا نور طالما اضاء أفريقيا بل العالم الإسلامي .

بعد سبع وتسعين سنة قضى الكتاب أجله ، واستوفى صاحبه رزقه وعمله .

ففي يوم الأحد السابع عشر من رمضان ١٣٩٣هـ[(٢)] ودع العالم الإسلامي علامة تونس ، بكته قلوب الأمة الإسلامية قبل عيونها ، ومالسان حالها إلا قولها :

وكم حسرات في بطون المقابر

ولكن العزاء في هذه الأسفار التي ستبقى بإذن الله خالدة على مرور الأزمان وتتابع الليالي والأيام .

---

(١) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٦١) ومابعدها .

(٢) ينظر : الأعلام (١٧٤/٦) ، معجم المؤلفين المستدرك (ص٦٦٢) ، الاستعارة التمثيلية (ص٦٣) .

وقفة مع التحرير والتنوير ومصادره

يعد هذا السفر العلمي العظيم ، الذي أسهم به علامة تونس في إثراء المكتبة العربية سمة علمية بارزة في إنجازات القرن الرابع عشر الهجري .

ويعد أيضا دليل صدق وشاهد حق على أن البلاغة العربية متجددة بتجدد إنعام النظر وإدامة التأمل في الإعجاز البياني الخالد ، ومتجددة أيضا بتجدد النصوص الأدبية على الإطلاق .

ولايعني هذا أن تفسير ابن عاشور كله بلاغة ، وليس فيه ثمة علم غير البلاغة ولكن يعني أني رأيت فيه من البلاغة مالم أره في غيره ، وهذا حقائق علمية ماثلة أمام الأنظار في هذا البحث المتواضع .

إن البلاغة العربية التي نسعى إليها هي في النص لافي القاعدة ، هي في الأسلوب والاستعمال لافي التمثيل والتنظير .

بلاغة اللغة العربية هي سر أي سر من أسرار إعجاز كلام الله المعجز ، وهي التي جعلت أساطين البلاغة وأرباب الفصاحة يذعنون لبلاغته ، ويقفون عاجزين عن معارضته ، رغم تحديه لهم ، وتقويضه لآلهتهم وجاهليتهم ، حتى أقروا له وهم الأعداء بالإعجاز البياني ، فقال قائلهم : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولايعلى عليه .

إن هذا الجانب البياني على أهميته العظيمة هو الجانب المغفول عنه في كثير من كتب التفاسير ، وذلك لكونه لايتأتى لأي عالم إلا عالما ذا مواهب ربانية ومؤهلات خاصة مع إطالة التأمل ودقة النظر .

وابن عاشور من أولئك المفسرين الذين خصوا الإعجاز البياني بمزيد من الاهتمام ، فقال في مقدمة تفسيره : "وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال ..."[1] .

---

(١) التحرير والتنوير (٨/١) .

وقد استلزم ذاك منه أن تطول مدة تأليف هذا التفسير ، لأجل استظهار مأمكنه استظهاره من دقائق البلاغة وأسرار الإعجاز حتى صنفه في أربعين سنة إلا ستة أشهر .

فقال مؤلفه : "وكان تمام هذا التفسير عصر يوم الجمعة الثاني من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف ، فكانت مدة تأليفه تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر"[١] .

وقد تناول هذا التفسير إلى جانب البلاغة علوما عديدة وفنونا شتى ، من حديث وفقه وأصول ، ولغة ونحو وأشعار ومقامات ، وسيرة ، وتاريخ ، وأسباب نزول ، وعلم قراءات ، وعلم كلام ، وعلم آثار .

ونقل عدة نصوص من التوراة ومن الإنجيل .

وقد بين في مقدمته أنه يعرض عن عزو النقول إلى التفاسير ، فقال : "ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها"[٢] .

أما النقول الأخرى فربما يشير إليها وينص عليها ، نحو مانقله عن دلائل الإعجاز فقال : "قال الشيخ في دلائل الإعجاز ..."[٣] ، ثم همش عليه برقم ، وحدد الصفحة والطبعة .

أما علمه الذي استنبطه بنفسه فقد ذكر أنه ميزه ولكنه لم يذكر المميز فقال : "وقد ميزت مايفتح الله لي من فهم معاني كتابه ومأأجلبه من المسائل العلمية ، مما لايذكره المفسرون" . هكذا العبارة ، ولاثمة ذكر للمميز .

فلم أجد من بد في البحث عن هذا المميز ، لأعثر على نسخة في مكتبة مكة المكرمة أهديت للمكتبة قبل واحد وثلاثين عاما ، أي في عام ١٣٨٨هـ ، أهداها الدكتور الصادق المقدم من مجلس الأمة بالجمهورية التونسية ، ومن منشورات دار الكتب الشرقية بتونس ، لم تضم إلا المقدمات وسورة الفاتحة وجزء عم ، تحت رقم

---

(١) التحرير والتنوير (٦٣٦/٣) .

(٢) ن.م.س (٧/١) .

(٣) ن.م.س (٤١٤/١) .

٤/٢١٢م ش ، فوجدت بها ماقتطع من العبارة السابقة التي جلبت لي الحيرة ، و لم أتبين وجه المميز إلا من خلال مقدمة هذه النسخة ، إذ العبارة فيها كالآتي : "وقد ميزت مايفتح الله لي من فهم معاني كتابه ومأأجلبه من المسائل العلمية ، واقوال العلماء مما لم يذكره المفسرون بعلامة نجم في ابتدائه ونقطة غليظة في انتهائه"[١] .

ولعل تغيير العبارة من الناشرين لامن مؤلف الكتاب ، لأن المعنى غير مستقيم ولاتام .

وعلى كل ، فكأني بدعوة ابن عاشور قد أجيبت ، إذ دعا في خاتمة كتابه فقال : "وأرجو منه تعالى لهذا التفسير أن ينجد ويغور ، وأن ينفع به الخاصة والجمهور ، ويجعلني به من الذين يرجون تجارة لن تبور"[٢] .

أما مصادر هذا التفسير فهي من الكثرة والتنوع بمكان ، فهناك مصادره التي في التفسير ، والتي في الحديث ، والتي في الفقه ، والتي في الأصول ، والتي في اللغة ، والتي في النحو ، والتي في الصرف ، والتي في البلاغة ، والتي في السيرة ، والتي في التاريخ ، والتي في علم الكلام ، والتي في الأديان ، حتى نافت على الثلاثمائة مرجعا علميا[٣] .

ومايهمني في هذا الصدد هو الإشارة للمصادر البلاغية وهي تدور حول جانبين اثنين :

(١) البلاغة المسطورة في كتب البلاغة ، أي تلك الكتب المختصة بفن البلاغة ، وهي بلاغة بصفة عامة نظرية إلا في كتابات الإمام عبد القاهر وأضرابه من الأئمة .

(٢) البلاغة المذكورة والمبثوثة في كتب التفسير ، وهي بلاغة تطبيقية ، وهي أثرى وأغزر .

وقد أفاد الشيخ من ذلك كله ونقل عنه .

---

(١) التحرير والتنوير (٧/١) .

(٢) ن.م.س (٦٣٧/٣٠) .

(٣) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٧٠) .

فمن الجانب الأول أخذ الشيخ عن دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، ومفتاح العلوم ، وتلخيص المفتاح ، والإيضاح ، والمختصر والمطول ، والأطول ، وشرح القسم الثالث من المفتاح لمحمود بن مسعود الشيرازي ، وحاشية السيد على المطول ، وحاشية محمد بن الخطيب على المطول ، وحاشية الحفيد على المطول ، وحاشية محمد الطاهر ابن عاشور على المطول الموسومة بالغيث الأفريقي ، وإيضاح المشكلات من متن الاستعارات للسمرقندي ، وشرح الوشاح على شواهد التلخيص ، ورسالة في البلاغة للشهاب الخفاجي ، ورسالة في التضمين ،وفي تقسيم المجاز إلى مفرد ومركب[1] .

ومن الجانب الآخر نقل الشيخ عن الكشاف وحواشيه ، حاشية التفتازاني ، وحاشية السيد الشريف ، وحاشية القطب الشيرازي ، وحاشية الطيبي الموسومة بالكشف .

وتفسير المحرر الوجيز ، ومفاتيح الغيب ، وتفسير البيضاوي ، وحاشية الشهاب الخفاجي ، والنسفي ، والبحر المحيط ،والكواشي ، وأبي السعود ، والألوسي .

وأفاد من تفسير الطبري والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز[2] .

---

(١) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٦٦) ومابعدها .

(٢) ينظر : الاستعارة التمثيلية (ص٦٨) ومابعدها .

الباب الأول

التوكيد

وبه توطئة وفصلان :

الفصل الأول : دواعي التوكيد وأغراضه .

الفصل الثاني : عناصر التوكيد ووسائله .

التوطئة

التوكيد

قبل البدء في صلب هذا الباب ، والوقوف على مافيه من نكات ولطائف تنكشف للمتأملين من أولى الألباب ، ودقائق في المعاني لم تقيدها كتب البلاغة المشهورة إلا التفاسير ، ولم يشر إليها ويبسط القول فيها مقعدو هذا الفن إلا النحارير ، آليت على نفسي بما جرت عليه التقاليد ، وأراه لزاما هنا بالتوضيح والتقييد لدافعين ؛ للتمييز بين المتشابه ولو كان في الاسم[١] ، وللولوج في الموضوع ولو كان بالرسم[٢] ، جليا بالإيضاح ، ودفعا للاستيضاح .

وهذا ماسأنتهجه - إن شاء الله - في جميع أبوابها ، لتكون واضحة المعالم .

التوكيد لغة :

وكد العهد توكيدا بمعنى أوثقه ، وهذه لغة الواو ، وهي الأفصح .

وفيه لغة أخرى وهي الهمز ، يقال : أكد العهد تأكيدا ، وقيل : إن الهمز في العقد أجود ، تقول : إذا عقدت فأكد ، وإذا حلفت فوكد ، وتوكد الأمر وتأكد بمعنى[٣] .

التوكيد اصطلاحا :

لم أر من عرف التوكيد تعريفا اصطلاحيا علميا ، يكون جامعا ، مانعا ، أو مايعبر عنه بعض علماء المنطق بعبارة الاطراد والانعكاس .

---

(١) أي : تمييزا بين التوكيد النحوي والتوكيد البلاغي .

(٢) أي : دخولا للموضوع عن طريق التعريف به لغة واصطلاحا .

(٣) ينظر : الصحاح ، مادة (وكد) (٥٥٣/٢) ، لسان العرب (وكد) (٤٦٦/٣) ، المعجم الوسيط ، مادة (أكد) (ص٢٢) ، (وكد) (ص١٠٥٣) .

ومعنى كونه جامعا أي : لحدود المعرف ـ بصيغة اسم المفعول ـ ومانعا : من دخول غيره فيه[١] .

بله لم يفردوا له بابا ، رغم أهميته ، ودقة ماهيته ، وكثرة أدواته ومسائله ، ودواعيه ووسائله ، بل جعلوه كالتابع في أضرب الخبر ، واكتفوا عن العين بالأثر ، وسيأتي مزيد بيان ـ بإذن الله ـ في هذا الصدد .

ويمكن أن يشار ويستأنس بتعريف المراغي ـ رحمه الله ـ للتوكيد ، حيث قال مانصه : "التوكيد : تمكين الشئ في النفس وتقويته ، وإماطة الشبهات عما أنت بصدد الإخبار عنه ، والمراد به في هذا الباب ، تأكيد الحكم لاتأكيد المسند إليه ، ولاتأكيد المسند ، فلو قلت : علي نفسه قائم ، أو جاء جاء علي ، لايكون مما نحن فيه ..." [٢] .

وهذا تعريف وشرح . وفي التعريف نظر كما لايخفى .

وأكاد أجزم أن المراغي أفاد هذا الكلام من العلوي في طرازه ؛ إذ يقول : "اعلم إن التأكيد : تمكين الشئ في نفسه ، وتقوية أمره ، وفائدته : إزالة الشكوك ، وإماطة الشبهات عما أنت بصدده ، وهو دقيق المأخذ ، كثير الفوائد ..." [٣] .

---

(١) ينظر : شرح السلم للملوي (ص٨٤) ومابعدها ، حاشية الصبان على شرح الملوي (ص٨٤) ، تسهيل المنطق (ص٣٥) .

(٢) علوم البلاغة للمراغي (ص٥١) .

(٣) الطراز للعلوي (ص٢٨٧) .

كثرة التوكيد في البيان القرآني

لقد حظي التوكيد في تراكيب الجمل القرآنية بالنصيب الصيب ، الذي لم يندرس عن قارئ فضلا عن دارس .

إذا يتجلى في وجود أكثر من جملة مؤكدة في آية واحدة ، قال تعالى : ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[١] .

بل يكون أشد تجليا في تكرير آية شريفة بعينها في السورة نفسها ، على ماهو جار في الشعراء من تكرار قوله تعالى : ﴿إن في ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ ، والقمر من تكرار قوله تعالى : ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ، والرحمن من تكرار قوله تعالى : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ ، والمرسلات من تكرار قوله تعالى : ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ وجميعها مكية .

ولعل مرده يعود إلى ما عليه حال المتلقين من أمة الدعوة[٢] ، لاأمة الإجابة[٣]

كما يعود أيضا للمدة الزمنية التي استمر فيها نزول القرآن الكريم في مكة عنها في المدينة .

مما استتبع زيادة عدد السور المكية التي تتحدث عن قضايا المعتقد المفتقرة إلى التوكيدات ، خلافا للسور المدنية التي تحكي في مجملها التشريع ، وإن لم تكن تخلو أيضا من قضايا العقيدة .

وفي الإتقان : "قال أبو الحسن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ : المدني بإتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه أثنتا عشرة سورة ، وماعدا ذلك مكي بإتفاق"[٤] انتهى كلامه .

---

(١) سورة يوسف : آية (٣٢) .

(٢) أمة الدعوة : المراد بها كافة الخلق المرسل إليهم عليه الصلاة والسلام : ﴿وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ الأنبياء : آية (١٠٧) .

(٣) أمة الإجابة : المراد بها من أجاب وأسلم من كافة العالمين .
ينظر في هاتين الفقرتين : إيضاح المبهم من معاني السلم للعلامة الدمنهوري (ص٤) .

(٤) الإتقان للسيوطي (٣٣/١) .

أي : المكي اثنتان وثمانون سورة .

كما أن وجود التوكيد في القــرآن مـرده لمـا في التـنزيل مـن الأنبـاء الغيبيـة ، والأخبار الماضية ، المفتقرتين إلى أضرب التوكيد في مخاطبة متلقيها .

وفيما تم إيراده في هذا المطلب من الإشارة ، مـايكفي مـن استقصاء الطلـب عن إطالة العبارة .

الفصل الأول

دواعي التوكيد وأغراضه

- **في التحرير والتنوير**
- **أضرب الخبر**
- **دواعي التوكيد**
  - الاهتمام بالخبر وتقويته
  - ملح أصل الحرف
  - دفع الإيهام
  - دفع الاستبطاء والوعد بحصول المستبطئ
  - الرضا والتسليم
  - دفع احتمال المجاز وإثبات حقيقة الخبر
  - دفع المبالغة في الوعيد
  - شدة الترغيب في الأمر المؤكد والحث عليه
  - التأييس وانقطاع الأمل ودفع التوهم
  - في تأويل المعنى بمعنى آخر يجري في التركيب
  - الإعجاب بمطابقة الوعد للموعود به
  - الثناء بالخير ، والشهادة
  - قصد تحقيق الخبر لغرابته
  - المبالغة في التهكم
  - التعجيب
  - إفادة سرعة الاقتران والتوقيت بين الفعلين المترتب أحدهما على الآخر
  - مجئ التوكيد على خلاف مقتضى الظاهر
  - التفنن
  - المشاكلة

قبل البدء في دواعي التوكيد وأغراضه لابد أن نقف وقفة قصيرة مع أضرب الخبر في التحرير والتنوير .

أضرب الخبر

عرض ابن عاشور ـ رحمه الله ـ لأضرب الخبر عرضا تقليديا ، لاأراه أتى فيه بجديد ، يسجل له فيه شيئا يذكر ، فجرى على ماجرى عليه سابقوه ، من تقسيم الخبر إلى ثلاثة أضرب ، ابتدائي ، وطلبي ، وإنكاري .

فنرى في أحد احتمالات عدم التأكيد في ﴿آمنا﴾ من قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾(١) .

قال ابن عاشور مانصه : "على أنه قد يكون المؤمنون أخلياء الذهن من الشك في المنافقين ، لعدم تعينهم عندهم ، فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقتضى الظاهر"(٢) .

وهذا هو الضرب الأول من أضرب الخبر .

كما صرح بالاسم الاصطلاحي للضرب الثاني عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾(٣) .

قال : "ويسمى هذا ضربا طلبيا"(٤) .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٩١/١) .
(٣) سورة يس : آية (١٤) .
(٤) التحرير والتنوير (٣٦٠/٢٢) .

كما صرح أيضا بالاسم الاصطلاحي للضرب الثالث في الآية التي تليها في نفس السورة : ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "ويسمى هذا المقدار من التأكيد ضربا إنكاريا"[(٢)] .

وهذه الأضرب للخبر إنما هي مداخل بينة لباب يتجاوز المخاطب وحاليته التحقيقية والاعتبارية ، إلى ساح أبعد ، وفساح أوسع وأسعد في مجئ الخبر مؤكدا .

وهو حقيق بإفرادي له المبحث التالي الخاص به ، الذي يحاول كشف أسراره وسبر أغواره .

---

(١) سورة يس : آية (١٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٦٢/٢٢) .

دواعي التوكيد

لقد ربط بعض مقعدي هذا الفن رباطا وثيقا بين التوكيد وإنكار المخاطب في صورتيه المباشرة ـ مقتضى الظاهر ـ وغير المباشرة ـ خلافه ـ . وأسسوا على ذلك بنيانه ، وشيدوا أركانه وكيانه ، ولم يتجاوزوا ـ إلا فيما ندر ـ تلك الملاحظات ، فيحثوا خطا سيرهم ، حتى تنكشف لهم من الدواعي المخبآت ، ويتجلى لهم منها ماهو قمن بالإضافة ، والزيادة ، والإفادة ، والتسجيل والإثبات . بل وقفوا عند هذا القدر من التقرير والتحرير ، واكتفوا بهذا النزر اليسير ، وأهملوا الإشارة إلى دواع لاتتناهى ، تقتضيها المقامات ، فضاقت دائرة البحث البلاغي في هذا المجال الرحب الفسيح ، أو بالأصح قل التوجه في هذا الموضع إلى مواد وموارد إثراء الدرس البلاغي المتسمة به في واقع حالها .

وإن كانت نظرتهم صائبة ومحقة في ذلك الربط ، فهي على خلافها في ذلك الاقتصار ، الذي كررته في هذا الصدد كتبهم ، في القصة المشهورة للمتفلسف الكندي مع المبرد ، لأنهم غضوا الطرف عن دواعي التوكيد الأخرى[1] ؛ التي تتصل بالمتكلم وحده كمتكلم ، أو الخبر وحده كخبر ، ومافيها من أسرار بلاغية ، ونكات بيانية .

بينما تجد في كتب قلة منهم تجاوزا لتلك النظرة ، وإشارة إلى ذلك المستوى العالي في المقامات الخطابية في أغراض التوكيد ودواعيه .

ففي دلائل الإعجاز لإمام هذا الفن ، إشارة لباب مغاير لما قرروه ، عند حديثه عن (إن) نبه عليه ، ولفت النظر إليه ، قال : "واعلم أنها ــ أي : إن ــ قد تدخل للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لايكون ؛ وذلك قولك للشئ هو بمرأى من المخاطب ومسمع : إنه كان من الأمر ماترى ، وكان مني إلى فلان إحسان ومعروف ، ثم جعل جزائي مارأيت .

فتجعلك كأنك ترد على نفسك ظنك الذي ظننت ، وتبين الخطأ الذي توهمت ، وعلى ذلك ـ والله أعلم ـ قوله تعالى ـ حكاية عن أم مريم ــ رضي الله

---

(١) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (ص٤١٣) .

عنها : ﴿قالت رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت﴾ ، وكذلك قوله عز وجل ـ حكاية عن نوح عليه السلام ـ : ﴿قال رب إن قومي كذبون﴾ .

وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية بالشئ يدرك بالهوينا"[١] .

وقد أفاد من هذه الإشارات الدقيقة ، واستوعب تلك اللفتات البديعة البعيدة علامة خوارزم ، فكشف في كشافه جوانب أخرى لهذه الأغراض التي أفصحت لنا عن مجئ التوكيد ، في آيات الكتاب المجيد ، ثم نرى الصورة قد توسعت بشكل واضح في معالجة هذا الموضوع في التحرير والتنوير ، بإفادة وزيادة ، يلحظ من خلالها الباحث أن هنالك اتساعا في مدى الرؤية لمجئ الخبر مؤكدا ، تجاوزت تلك الضوابط المقعدة في كتب هذا الفن ، وسمت إلى مستوى نظرة الإمام عبد القاهر ـ المتقدمة الذكر ـ ومن سار على منواله كالزمخشري ، والطيبي ، والألوسي وغيرهم .

فذكر ابن عاشور أن التوكيد قد يكون للاهتمام بالخبر وتقويته .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[٢] .

يقول ابن عاشور : "وقد أكد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل أيضا ـ كما أكد به القصر في قوله تعالى : ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ كما تقدم قريبا .

ودخول "إن" على الجملة وقرنها بألا المفيدة للتنبيه ، وذلك من الاهتمام بالخبر وتقويته ، دلالة على سخط الله تعالى عليهم"[٣] .

وهو بهذا المعنى يلمح إلى أن القصر في الآية الكريمة الذي أفاده ضمير الفصل "هم" إنما هو تأكيد على تأكيد ، كما أشار إلى ذلك صاحب المفتاح في القصر لافي الآية[٤] .

وعلى هذا المعنى من التأكيد الذي أفاده القصر فإن حرفي التأكيد "ألا" و"إن" لابد أن يكون لمجيئهما في الجملة القرآنية سر بلاغي قد يكون هو التأكيد أيضا أو يكون معنى آخر ـ وهو الأولى ـ غير الذي أفاده القصر .

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٣٢٧) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٦/١) .

(٤) ينظر : مفتاح العلوم (ص١٤٠) .

فذكر أن مجيئهما لإفادة الاهتمام بالخبر وتقويته . وهو من الملامح التي يمكن أن تدخل ضمن تلك الرؤية في أن الإفادة خير من الإعادة ، والتأسيس أولى من التأكيد ، مندرجا في الضوابط التي تثري المعاني ، وتزيدها ، ولاتعيدها ، إلا فيما أوجب ملمحا آخر ، وهو معنى سبقت إشارة أئمة المعاني من المفسرين إليه(١) .

كما ذكر أن من دواعي التوكيد لمح أصل الحرف الذي أكد به ، مثل "من" وأصل معناه الابتداء ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "يفيد تذكير الدهريين من المخاطبين الذين يزعمون أنهم إنما خلقهم آباؤهم ، فقالوا : ﴿نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر﴾ ، فكان قوله : ﴿والذين من قبلكم﴾ ، تذكيرا لهم ، بأن آباءهم الأولين لابد أن ينتهوا إلى أب أول فهو مخلوق لله تعالى .

ولعل هذا هو وجه التأكيد بزيادة حرف "من" في قوله تعالى : ﴿من قبلكم﴾ الذي يمكن الاستغناء عنه بالاقتصار على قبلكم ، لأن "من" في الأصل للابتداء ، فهي تشير إلى أول الموصوفين بالقبلية ، فذكرها هنا استرواح لأصل معناها مع معنى التأكيد الغالب عليها إذا وقعت مع قبل وبعد"(٣) .

ولعل قول العلامة ابن عاشور ـ رحمه الله ـ "بزيادة حرف من" ، فيه تسامح في العبارة ، والأولى كما نبه إليه العلماء ؛ أن يقال "صلة" بدل "زيادة" .

وإن كان يمكن حمل كلامه على توجيه آخر ـ وهو واضح ولاتكلف فيه ـ بأن يقال : إن ابن عاشور أراد بزيادة "من" مع اقترانها بسابق كلامه : "وجه التأكيد" أي : زيادتها من جهة الصناعة النحوية .

والذي يحذره العلماء ، إنما هو إطلاق "الزيادة" على القرآن بدون تقييد ، فتأمل .

---

(١) ينظر : الكشاف (١/١٨٠) ، البيضاوي وحاشية الشهاب (١/٣٣١) ، روح المعاني (١/١٥٣) ومابعدها .

(٢) سورة البقرة : آية (٢١) .

(٣) التحرير والتنوير (١/٣٢٧) .

ولست ممن يحاول أن يتلمس مزال أقلام العلماء ، وينقد كلامهم ، وإنما ممن يحاول أن يتحاور معه ويستفهم عنه ، ويستنير بثاقب أفكارهم ، وعلى أقدارهم .

وتوجيه كلام العلماء والوقوف أمامه ، ومحاورته من العلم الشريف الذي تستهل بواكير بركات وبله ، ولعل خروجي بهذا الكلام عن أصل المعنى إنما يعد مدخلا إليه ؛ إذ أن نظرة ابن عاشور إلى أصل معنى "من" في الآية الكريمة إنما هو إضافة معنى آخر يفهم في هذا السياق من هذا الحرف إلى المعنى الأول وهو التوكيد.

كما ذكر أن من دواعي التوكيد دفع الإيهام ، الذي ربما يتوهم المتلقي في كون الخبر ضعيفا ولايمكن بلوغه تلك المرتبة فيؤكد له ، حتى يستقر ويثبت عنده ، ويندفع إيهامه .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وفعل قدس يتعدى بنفسه ، فالإتيان باللام مع مفعوله في الآية لإفادة تأكيد حصول الفعل نحو : شكرت لك ، ونصحت لك ، وفي الحديث عند ذكر الذي وجد كلبا يلهث من العطش ، فأخذ خفه فأدلاه في الركية فسقاه ، فشكر الله له ، أي : شكره مبالغة في الشكر ؛ لئلا يتوهم ضعف ذلك الشكر من أنه عن عمل حسنة مع دابة ، فدفع هذا الإيهام بالتأكيد باللام ، وهذا من أفصح الكلام ..."[2] .

يفهم من كلام الطاهر أن مجئ هذه اللام التي يتعدى الفعل بدونها ، إنما يكون لحصول تأكيد الفعل - وقد ألمح بعض المفسرين[3] إلى ذلك ، وهو معنى تفهمه تلك اللام .

والحديث الذي ساقه الطاهر ، فيه معنى آخر يفهم من تلك الحادثة وذلك السياق ، وهو أن ذلك العمل الذي قام به الساقي ، ربما يتوهم أنه عمل لايصل

---

(١) سورة البقرة : آية (٣٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٤٠٦) .

(٣) ينظر : البيضاوي (١/١٢٣) ، تفسير أبي السعود (١/٨٣) ، روح المعاني (١/٢٢٢) .

بصاحبه إلى شكر الله له ، وإدخاله الجنة بسببه ؛ لأنه عمل مع دابة ذم الدين اقتناءها بل حرمه إلا ماكان للصيد .

فربما يقع من هنا أن الرفق بها والسقي لها لايصل إلى تلك الدرجة العالية التي يشكر الله فيها للقائم بذلك العمل عمله ، فأتت اللام لتؤكد حصول هذا الفعل ولتدفع الوهم المتبادر إلى الأذهان في مثل هذه الحال .

فأصل معنى اللام في الآية الكريمة والحديث الشريف واحد ، وهو تأكيد حصول الفعل ؛ لأن الفعل في ذاته ربما كان حوله من الإيهام مايبث الاحتمالات التي تنافي حصوله أو تقلل من حقيقة وقوعه ، فتدفع اللام مثل تلك الايهامات وتؤكد حصول الفعل ووقوعه .

كما أن منها دفع الاستبطاء ، والوعد بحصول المستبطئ .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾[(١)] .

يقول ابن عاشور : "ولما كان علم الله بذلك مما لايشك فيه ـ النبي ﷺ ـ حتى يحتاج لتحقيق الخبر به ، كان الخبر به مع تأكيده مستعملا في لازمه على وجه الكناية ؛ لدفع الاستبطاء عنه ، وأن يطمئنه ؛ لأن النبي ﷺ كان حريصا على حصوله ، ويلزم ذلك الوعد بحصوله ، فتحصل كنايتان مترتبتان ..."[(٢)] .

ولايخفى أن تأكيد الفعل "نرى" بـ"قد" التي تفيد تحقيق وقوع رؤية الله عز وجل لنبيه الكريم ﷺ متجها بنظره جهة الكعبة المطهرة ، إنما لايراد من حرف التوكيد هذا المعنى في مثل هذا المقام ، لأن النبي ﷺ لايشك في تلك الرؤية حتى تؤكد ، وإنما يراد معنى آخر يلزم من تأكيد تلك الرؤية ، وهو دفع الاستبطاء عنه برؤية الله سبحانه وتعالى له ؛ ليلزم من دفع الاستبطاء أن يحصل تغيير القبلة من جهة بيت المقدس إلى جهة مكة المكرمة فيتحقق هذا الوعد .

وهذا معنى كنائي يخرج به عن معناه الأصلي ليفيد لازم لازمه ، ويتجاوز به الاعتبارات التأكيدية المشهورة بين أرباب هذا الفن ، ليتجه اتجاها أبعد مرمى من ظاهر المقاصد .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٢/٢٦) .

كما أن منها الرضا والتسليم بما قدره الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأراده ، فيؤكد الخبر لإظهار الرضا والتسليم بأقدار الله .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾[١] .

يقول ابن عاشور : "وتكرر التأكيد في ﴿وإني سميتها﴾ ، ﴿وإني أعيذها بك﴾ للتأكيد ؛ لأن حال كراهيتها يؤذن بأنها ستعرض عنها فلا تشتغل بها ، وكأنها أكدت هذا الخبر إظهارا للرضا بما قدر الله تعالى ، ولذلك انتقلت إلى الدعاء لها الدال على الرضا والمحبة ، وأكدت جملة أعيذها مع أنها مستعملة في إنشاء الدعاء ، لأن الخبر مستعمل في الإنشاء برمته التي كان عليها وقت الخبرية ..."[٢] .

ويختلف تناول الطاهر لهذه الآية الكريمة عن تناول الإمام عبد القاهر لها ، إذ تناول الإمام عبد القاهر في دلائله[٣] الجملة القرآنية : ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾[٤] وذكر أن "إن" هنا للتأكيد على أن الظن من المتكلم في الذي كان أنه لايكون ، أي أن التأكيد لإظهار التحسر .

أما الطاهر ابن عاشور فتناول وجه التأكيد في الجملتين القرآنيتين اللتين تليها ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾[٥] ليبين أن وجه التأكيد هنا لإظهار الرضا الذي عقب ذلك الظن في الذي كان أنه لايكون ، لتظهر صورة الصالحين في رضاهم بأقدار الله عز وجل على هذه الطريقة البيانية التي تتابع فيها تأكيد التحسر إلى تأكيد الرضا بجملتين على وجه التأكيد الواضح .

كما ذكر ابن عاشور أن من دواعي التوكيد دفع احتمال المجاز ، وإثبات حقيقة الخبر ، كما يكون أيضا من الدواعي دفع المبالغة في الوعيد ، وذكر هاتين النكتتين في آية واحدة ، والنكت لاتتزاحم .

---

(١) سورة آل عمران : آية (٣٦) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٣٤/٣) .
(٣) ينظر : دلائل الإعجاز (ص٣٢٧) .
(٤) سورة آل عمران : آية (٣٦) .
(٥) سورة آل عمران : آية (٣٦) .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة ، وقعت اعتراضا بين قوارع أهل الكتاب ، ومواعظهم ، فيكون حرف "إن" لتوكيد الخبر ، لقصد دفع إحتمال المجاز ، أو المبالغة في الوعيد ..."[٢] .

يظهر للمتأمل الذي أعمل الفكر وأنعم النظر أن مجيء "إن" في الآية الكريمة يدق استظهار وجه التأكيد بها الذي أشار إليه العلامة ابن عاشور من القصد إلى دفع احتمال المجاز .

أما الوجه الثاني وهو المبالغة في الوعيد فالأمر جلي في حملها عليه إذ يدفع به أن عدم مغفرة الله للمشرك قد تكون على سبيل المبالغة ، لعموم رحمة الله ـ جل وعلا ـ جميع خلقه .

ولقد تأملت مليا الوجه الأول لأستخلص منه وجه التأكيد على محامل لم تسعفني النفس بقبولها أو الرضا عنها ، لأني لم أستبصر في الآية الكريمة بمجاز ، بل يظهر لي عند التحقيق أن الكلمات حال إفرادها وتركيبها حقائق وليس بها ثمة مجاز اللهم أن يحمل الإشراك على أنواع فيراد حقيقته ويدفع مجازه .

ومنها شدة الترغيب في الأمر المؤكد ، والحث عليه .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وقد دلت الآية على شدة الترغيب في هذا الصلح ، بمؤكدات ثلاثة ؛ وهي المصدر المؤكد في قوله : ﴿صلحا﴾ ، والإظهار في مقام الإضمار في قوله : ﴿والصلح خير﴾ ، والإخبار عنه بالمصدر ، أو بالصفة المشبهة فإنها تدل على فعل سجية"[٤] .

---

(١) سورة النساء : آية (٤٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٥/٨١) .

(٣) سورة النساء : آية (١٢٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٥/٢١٧) .

ومنها تأكيد لصوق معنى الفعل بمفعوله .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "والباء التي عدى بها فعل ﴿كذبتم﴾ هي لتأكيد لصوق معنى الفعل بمفعوله ، كما في قوله تعالى : ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾ ، فلذلك يدل فعل التكذيب إذا عدي بالباء على معنى الإنكار ؛ أي : التكذيب القوي . ولعل الاستعمال أنهم لايعدون فعل التكذيب بالباء ، إلا إذا أريد تكذيب حجة أو برهان مما يحسب سبب تصديق ، فلايقال : كذبت بفلان ، بل يقال :كذبت فلانا ، قال تعالى : ﴿لما كذبوا الرسل﴾ ، وقال : ﴿كذبت ثمود بالنذر﴾"(٢) .

ربما يكون من المعلوم أن حرف الجر يأتي مع الفعل اللازم ليكون وسيلة لاتصال الفعل بالمفعول . أما إذا كان متعديا وواصلا إلىمفعوله ، فإنه لايؤتى بحرف الجر إلا إذا كان هناك معنى مفاد من مجيئه في ذلك التركيب .

وابن عاشور تنبه إلى وجه تعدي الفعل (كذب) إلى مفعوله في النظم القرآني فتارة يجئ على الأصل ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾(٣) ، وتارة يجئ على خلاف الأصل ليتعدى إلى المفعول بحرف الجر ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾(٤) ، وذلك يوحي بأن هناك فرقا في التعبيرين مما دفعه للتفريق الذي يكشف سر المعنى بين تعدي الفعل الواحد بنفسه أو بحرف الجر على هذا النحو المشار إليه .

ولعل هذا يفتح بابا في محاورة استنطاق دقائق معاني البلاغة من خلال طرائق استعمالات الفعل الواحد في الكتاب المجيد والمحتج به من شعر ونثر في لغة العرب .

ومن دواعي التوكيد التأييس ، وانقطاع الأمل ، ودفع التوهم في تأويل المعنى بمعنى آخر يجري في التركيب بدون توكيد .

---

(١) سورة الأنعام : آية (٥٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٧/٢٦٦) .

(٣) سورة الفرقان : آية (٣٧) .

(٤) سورة القمر : آية (٢٣) .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وأكد الخبر بـ"أن" لتأييسهم من دخول الجنة ، لدفع توهم أن يكون المراد من الخلود المتقدم ذكره الكناية عن طول مدة البقاء في النار ؛ فإنه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى"[٢] .

لم يرد الخلود كناية عن طول مدة البقاء في النار إلا في مواضع منها[٣] :

الأول قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾[٤] .

والثاني قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾[٥] .

وقد تتبعت تفسير ابن عاشور نفسه فلم أجده يشير إلى غير هذين الموضعين رغم اختلاف المفسرين حول معنى الخلود فيهما .

وهذا لايناكد حمل ابن عاشور وجه التوكيد على دفع توهم كون الخلود كناية عن طول مدة البقاء في النار بتأييسهم ، وقطع أملهم . لأنه يصح دفع التوهم في احتمال ورود مثل هذاالمعنى وإن قل ، لجواز أن يقع التأويل حملا على موضع واحد .

وإنما كان وجه ماأوردته من تتبع مواضع الخلود واستقرائها في القرآن الكريم لأجل الوقوف عن كثب لتحقيق ماأشار إليه ابن عاشور بقوله : "فإنه ورد في مواضع كثيرة مرادا به هذا المعنى" ، والمعنى المشار إليه هو طول مدة البقاء في النار.

و لم أرد بهذا التحقيق أو بالأصح الإيراد استبعاد ماذكره الطاهر في التوكيد من وجه .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٤٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢٥/٨) .

(٣) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة (خلد) (ص٢٣٦) ومابعدها .

(٤) سورة النساء : آية (٩٣) .

(٥) سورة النساء : آية (١٤) .

ومن دواعي التوكيد الإعجاب بمطابقة الوعد للموعود بـه ، أو يكـون الثنـاء بالخير على الأنبياء بما يستحقونه من الثناء والشكر ، والشهادة لهم بما هم أهل له من عظيم الأخلاق ، وجميل الصفات ، أو يكون الداعي هو الثناء على المولى عز وجـل بجميع المحامد وكاملها .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[1] .

يقول ابن عاشور : "وتأكيد الفعل بلام القسم وبقد ، مع أنهم غير منكريـن لمجئ الرسل ؛ إما لأنه كناية عن الإعجاب بمطابقة ماوعدهم به الرسل من النعيم لمـا وجدوه ، مثل قوله تعالى : ﴿وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلـذ الأعـين﴾ ، وقـول النبي ﷺ : "قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين مـالاعين رأت ، ولاأذن سمعـت ، ولاخطر على قلب بشر" .

وإما لأنهم أرادوا بقولهم هذا الثناء على الرسل ، والشهادة بصدقهـم جمعـا ، مع الثناء على الله ، فأتوا بالخبر في صورة الشهادة المؤكدة التي لاتردد فيها"[2] .

وهذه وجوه متعددة لحمل مجئ التأكيد بـ"لقد" عليها في هذه الآية الكريمة .

وهي اعتبارات يصح أن يحتملها التوكيد دون تكلف ودون تضاد .

ولعل ورود أكثر من محمل للتـأكيد ، في الجملـة القرآنيـة يسـاعد علـى ثـراء المعنى ووفرته بتعدد احتمالات مقاصده التي تسد مسد مرادات كثيرة بتوكيد يلمـح لها بإيجاز بليغ .

وهذه الاعتبارات نوعية لاضدية يمكن اجتماعها جملة واحدة في الآية الشريفة على حد قولهم : النكت لاتتزاحم .

فالمعنى الكنائي الذي يفيده التوكيد يخرج به عـن معنـاه الأصلـي ليفيـد لازم لازمه الذي هو الإعجاب ؛ لأنهم أكدوا مجئ الرسل بالحق الذي يـلزم منـه مطابقـة الواقع الذي هم فيه لما وعدوه فيلزم منه الإعجاب فهو كنايتان مترتبتان .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٤٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٣٣/٨) .

والمعنى الآخر هو كون كلامهم شهادة منهم بصدق رسل ربهم ، فيكون وجه التوكيد المفاد في هذه الجملة القرآنية بـ"لقد" مرادا به الثناء على الله والثناء على رسله .

ومن الدواعي التي ذكرها ابن عاشور للتأكيد قصد تحقيق الخبر ، لأنه غريب.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ﴾(١) .

يقول ابن عاشور : "وتأكيد الخبر بلام القسم وبقد ، لقصد تحقيقه ؛ لأن غرابته تنزل سامعه خالي الذهن منه منزلة المتردد في تأويله ، ولأن المخبر عنهم قدوصفوا بـ﴿لهم قلوب لايفقهون بها﴾ إلى قوله ﴿بل هم أضل﴾ ، والمعنى بهم المشركون ، وهم ينكرون أنهم في ضلال ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وكانوا يحسبون أنهم أصحاب أحلام وأفهام ، ولذلك قالوا للرسول ﷺ في معرض التهكم ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر﴾"(٢) .

لاغرو أن غرابة الخبر في ذاته توقع في نفس المتلقي له من التردد مايتطلب تأكيد الخبر ، حتى يزول ذلك التردد ، ويندفع ذلك الإيهام ، ليتحقق الخبر .

وقد أكد الخبر هنا باللام و"قد" ، واللام هي المسماة باللام الموطئة للقسم ، وقد التحقيقية ، وهما من المؤكدات المنطوية على معنى قوي للتأكيد ، لأن غرابة الخبر الذي قرنا به من سلب الحواس وظائفها رغم وجودها ، وصحتها ، فلهم قلوب ولكنها لاتفقه ، ولهم أعين ولكنها لاتبصر ، ولهم آذان ولكنها لاتسمع . بل أنزلهم الخبر عن درجة الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية التي لاتؤهلها حواسها للوصول إلى درجة التكليف بل أقل منها ﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾ ، فكانت هذه الغرابة حقيقة بتحقيق الخبر .

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٧٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٢/٩) .

كما تكون المبالغة في التهكم من دواعي التوكيد وأغراضه .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[١] .

يقول ابن عاشور : "وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة[٢] إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة ولاتلازم بين المعتقدين ، ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه ، ولذلك عقب ذلك بقوله : ﴿ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا﴾ ، تهكما بصاحبه ، وقرينة التهكم قوله : ﴿وماأظن الساعة قائمة﴾ ، وهذاكقول العاص بن وائل السهمي لخباب بن الإرت : ليكونن لي مال هنالك ، فأقضيك دينك منه ، وأكد كلامه بلام القسم ونون التأكيد مبالغة في التهكم"[٣] .

وموضع التوكيد في الآية الكريمة هي جملة (لأجدن) ، وأداتا التوكيد هما اللام ونون التوكيد الثقيلة .

ووجه التهكم في هذه الجملة هو ادعاء وجود جنة خيرمن جنته في الآخرة التي يجحد حصولها ، وينكر قيامها ، بدليل قوله : ﴿وماأظن الساعة قائمة﴾ ، وإنما جرى ذلك القول على لسانه مجرى السخرية من إيمان صاحبه المؤمن ، والاستهزاء به ، فكان منه هذا التهكم ﴿لأجدن﴾ ، الذي لغرابته كان موضع شك ، ومبعث تردد في نفس صاحبه المؤمن ، فأكد تلك الجملة لأجل أن ينبئ عن صدق استهزائه ولاذع سخريته مبالغة في التهكم .

كما ذكر ابن عاشور أن التعجيب داع من دواعي التوكيد .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[٤] .

---

(١) سورة الكهف : آية (٣٦) .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ الكهف : آية (٣٥) .

(٣) التحرير والتنوير (١٥/٣٢١) .

(٤) سورة طه : آية (٥٦) .

قال ابن عاشور : "وتأكيد الكلام بلام القسم و"قد" ، مستعمل في التعجيب من تصلب فرعون وعناده ، وقصد منهـا بيـان شـدته في كفـره ، وبيـان أن لموسـى آيات كثيرة أظهرها الله لفرعون ، فلم تجد في إيمانه .

وأجملت وعممت فلم تفصل ؛ لأن المقصود هنا بيان شدة تصلبه في كفـره ، بخلاف سورة الأعراف[(١)] ، التي قصد منها بيان تعاقب الآيات ونصرتها"[(٢)] .

أشار ابن عاشور رحمه الله تعالى إلى مجئ التوكيـد بـ"لقـد" في الآيـة القرآنيـة الكريمة إلى معنى يجمع ماأفاده مفعولا الفعل المؤكد ، ﴿ولقد أريناه آياتنا كلهـا﴾ . لأن المتبادر في مثل هذا السياق أن يقال : إن التأكيد بالقسم المتمثل بـ"لقـد" ، إنما يفيد إبراز العناية بمضمون الجملة الداخل عليها ذلك القسم ، وهـو في هـذه الجملـة ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها﴾ ، يفيد بيان شدة تصلب فرعون في كفره ، وبيـان كـثرة وتتابع آيات الله على فرعون كل آية أكبر مـن أختهـا . فجمـع ابـن عاشـور هذيـن المعنيين في معنى ثالث يشملهما ، وهوالتعجيب ، فتأمل .

ومنهـا العمـوم الـذي يكتسبه اسـم الموصـول مـن التـأكيد فيتحـول شـبيها بالشرط.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾[(٣)] .

قال ابن عاشور : "و"أي" اسم موصول مبهـم مثـل "مـا" ، وزيـدت بعدهـا "ما" للتأكيد ليصير شبيها بأسماء الشرط ، لأن تأكيد مافي اسم الموصول من الإبهـام يكسبه عموما فيشبه الشرط ، فلذلك جعل له جواب كجواب الشرط"[(٤)] .

لعل المعنى الذي أفاده دخـول التوكيـد الـذي هـو حـرف "مـا" الصلـة على الاسم الموصول الذي هو "أي" في هذه الآية جعلها شـبيهة بالشـرط ؛ إذ إن أدوات الشرط متمحضة في المعنى إلى العموم وإن كانت معـارف ؛ لأن العمـوم أو الإبهـام

---

(١) الآية في سورة الأعراف رقم (١٣٣) ، وهي قوله تعالى : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ .

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٢٤٢) .

(٣) سورة القصص : آية (٢٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/١١٠) .

لايلزم منه تنكير الاسم ، فيقال إنه نكرة لأجل عمومه . فمثلا : ﴿من يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ ، يكون مرادا به عموم العاملين من الثقلين والجنسين ، أي : من الإنس والجن ، ومن الذكور والإناث .

وليس الإبهام بمخرجها عن كونها معرفة ، وإنما يفيدها معنى العموم ، أما الأسماء الموصولة فبها قدر من الإبهام ، وليست متمحضة له ، لأن صلتها هي مصدر تقليل إبهامها ، نحو قولك : جاءني من أكرمته ، فأفادت الصلة التي هي "أكرمته" تقليل المبهم في "من" وأنه ممن أكرمته .

فدخول "ما" الزائدة على اسم الموصول يقطعها عن صلتها ، ويكسبها عموما ، فيجعلها شبيهة بالشرط .

وهذا داع لطيف له تعلق بالنحو ، يستطرد النظر في دخول "ما" على بعض الكلم ، أسماء نحو : كيفما ، وحيثما ، وأينما .

وأفعال نحو : طالما ، وقلما .

وحروف نحو : ربما وكأنما ، وليتما .

ومن الدواعي أن يكون التأكيد لإفادة سرعة الاقتران والتوقيت بين فعلين مترتبا أحدهما على الآخر .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[1] .

قال ابن عاشور : "و"أن" حرف مزيد للتوكيد ، وأكثر مايزاد بعد "لما" وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد "لما" فهي هنا لتحقيق الربط بين مجئ الرسل ، ومساءة لوط بهم ؛ ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران والتوقيت بين الشرط والجزاء ، تنبيها على أن الإساءة عقبت مجيئهم وفاجأته من غير ريث ، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم ، فلم يكن لوط عالما بأنهم ملائكة ؛ لأنهم جاءوا في صورة رجال ، فأريد هنا التنبيه على أن ماحدث به

---

(١) سورة العنكبوت : آية (٣٣) .

من المساءة ، وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية ، وقبل أن يقولوا : ﴿لاتخف ولاتحزن﴾"(١) .

و"لما" في هذه الآية ليست شرطية ، لأنها لاتأتي شرطية أصلا ، وليس هذا من معانيها .

وإنما هي "لما" الرابطة التي تقتضي جملتين وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما(٢) .

ولعل المراد بتعبير ابن عاشور بالشرط والجزاء مطلق الترتب ، فلايفهم منه الاصطلاح الخاص بأدوات الشرط .

وقد تحاشى العلامة الزمخشري مثل هذا التعبير اللفظي عندما عرض لإيضاح معنى ترتب أحد الفعلين على الآخر ، فقال : "(أن) صلة ، أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر ..."(٣) .

ومجئ "أن" الصلة بعد "لما" الرابطة يفيد أن الفعلين كأنما وقعا في جزء زمني واحد دون فاصل .

وهذا ماأشار إليه ابن عاشور بقوله : "ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران والتوقيت بين الجزاء والشرط" .

وقد استقى هذا المعنى كلية من الزمخشري ووافقه عليه ، حيث يقول الزمخشري : "(أن) صلة ، أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين ، لافاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل كما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث ، خيفة عليهم من قومه"(٤) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢٤٤) .

(٢) ينظر : كتاب الأزهية في علم الحروف للهروي ، تحقيق عبد المعين الملوحي (ص٢٠٦) ومابعدها ، مغني اللبيب (١/٢٨٠) ومابعدها ، الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين لهادي الهلالي (ص٥٩٦) ومابعدها .

(٣) الكشاف (٣/٢٠٥) .

(٤) ن.م.س .

بينما نراه يخالف في تفسير سر التوكيد الزمخشري ويستغرب ماقاله في مقاله ، وماعناه في معناه ، من نكته نفسية في ترك التوكيد ، مرجعها قطع النظر عن إنكار السامع والاهتمام بالخبر في أوائل التفسير عند قوله تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وقد وجه صاحب الكشاف العدول عن التأكيد في قولهم آمنا ، والتأكيد في قولهم : إنا معكم ، بأن مخاطبتهم المؤمنين انتفى عنها مايقتضي تأكيد الخبر ، لأن المخبرين لم يتعلق غرضهم بأكثر من ادعاء حدوث إيمانهم ، لأن نفوسهم لاتساعدهم على أن يتلفظوا بأقوى من ذلك ، ولأنهم علموا أن ذلك لايروج على المسلمين ، أي : فاقتصروا على اللازم من الكلام ؛ فإن عدم التأكيد في الكلام قد يكون لعدم اعتناء المتكلم بتحقيقه ، ولعلمه أن تأكيده عبث ؛ لعدم رواجه عند السامع ، وهذه نكتة غريبة ، مرجعها قطع النظر عن إنكار السامع والإعراض عن الاهتمام بالخبر ، وأما مخاطبتهم شياطينهم فإنما أتوا بالخبر فيها مؤكدا لإفادة اهتمامهم بذلك الخبر ، وصدق رغبتهم في النطق به ، ولعلمهم أن ذلك رائج عند المخاطبين ، فإن التأكيد قد يكون لاعتناء المتكلم بالخبر ، ورواجه عند السامع أي : فهو تأكيد للاهتمام لا لرد الإنكار"(٢) .

أما توجيهه ـ أي ابن عاشور ـ فيتلخص في مجئ الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ؛ لأنه الأجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر ، وقد قدمه قبل تعقيبه على الزمخشري .

قال ابن عاشور مانصه : "واعلم أنه حكى خطابهم للذين آمنوا بما يقتضي أنهم لم يأتوا فيه بما يحقق الخبر من تأكيد ، وخطابهم موهم بما يقتضي أنهم حققوا لهم بقاءهم على دينهم بتأكيد الخبر بما دل عليه حرف التأكيد في قوله : ﴿إنا معكم﴾ ، مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك ، لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين ، وقومهم لايشكون في بقائهم على دينهم ، فجاءت

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٢٩٢) .

حكاية كلامهم الموافقة لمدلولاته على خلاف مقتضى الظاهر ؛ لمراعاة ماهو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر .

فخلو خطابهم مع المؤمنين عما يفيد تأكيد الخبر ؛ لأنهم لايريدون أن يعرضوا أنفسهم في معرض من يتطرق ساحته الشك في صدقه ؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك فقد أيقظوهم إلى الشك ، وذلك من إتقان نفاقهم ، على أنه قد يكون المؤمنون أخلياء الذهن من الشك في المنافقين ، لعدم تعينهم عندهم ، فيكون تجريد الخبر من المؤكدات مقتضى الظاهر .

وأما قولهم لقومهم إنا معكم بالتأكيد فذلك ؛ لأنه لما بدا من ابداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين مايوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر ، وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم ، احتاجوا إلى تأكيد مايدل على أنهم باقون على دينهم ، وكذلك قولهم : ﴿إنما نحن مستهزءون﴾ ، فقد أبدوا به وجه ماأظهروه للمؤمنين..." [(١)] .

وفي هذا التوجيه الذي يرى فيه ابن عاشور أن العدول عن التأكيد في قول الله تعالى : ﴿آمنا﴾ حكاية عن مقالة المنافقين للمؤمنين ، إنما يكون ترك التوكيد فيها لسببين :

أحدهما مراعاة مقتضى الظاهر من أن المخاطبين وهم المؤمنون أخلياء الذهن عن الخبر فألقى إليهم الخبر دون توكيد .

وثانيهما : خروجه خلاف مقتضى الظاهر ، فلم يؤكد المنافقون الخبر ، رغم اقتضاء الخبر التوكيد لئلا يضعوا أنفسهم موضع من يشك في صدقه .

والتوجيه الأول توجيه لايخرج عن نطاق ماقرره العلماء في أضرب الخبر الثلاثة ، وإن كان المقام هنا لايمكن أن يكون مقام الخبر الابتدائي من خلو أذهان المؤمنين عن مثل هذا الخبر ؛ لتضافر الأدلة النقلية على خلافه ، ومنها هذه الآيات الكريمة في سورة البقرة : ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩١/١) .

بمُؤْمِنِينَ﴾[١] ، إلى قوله تعالى : ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] ، وهي اثنتا عشرة آية في المنافقين ، في مطلع هذه السورة الكريمة ، وليكن في الذهن مقارنتها في هذا المقام السياقي القرآني بما نزل في المؤمنين من خمس آيات ، وكذا الكافرون من آيتين ، وذلك لأجل كشف حال تلك الفئة التي استجد ظهورها في المدينة ؛ بل نزلت سورة كاملة باسم "المنافقون" ، تكشف أحوالهم ، وتهتك أستارهم ، ناهيك بالأدلة النقلية الأخرى ، مما يؤكد معرفة المؤمنين معرفة قوية بحال هذه الفئة في المجتمع ، فكيف يقال : إن المؤمنين أخلياء الذهن عنهم وعن حالهم؟ بل هناك معرفة نبوية لأفرادهم وتحديد ذواتهم ، وإخباره ﷺ أمين هذه الأمة بأسمائهم ، عدا الأخبار النبوية الأخرى ، من مثل عدم قتل النبي ﷺ لهم مخافة أن يقال : إن محمدا يقتل أصحابه[٣] ، مما فيه دلالة على ظهور أحوالهم في مواقف متعددة أمام المؤمنين ، وعليه فإني أرى هذا التوجيه في العدول عن التأكيد في قوله ﴿آمنا﴾ لاتساعد عليه حكاية الحال ، حتى أنه ليظهر لي أن ابن عاشور لم يكن يراه التوجيه الذي يمكن أن يعول عليه ، فأردفه بالتوجيه الآخر ، بل إن ابن عاشور صرح في بداية كلامه بما ينقض هذا التوجيه إذ قال ـــ بعد توضيحه العدول عن التوكيد في مخاطبة "المؤمنين" ﴿آمنا﴾ ومجيئه في مخاطبة قومهم إنا معكم "مع أن مقتضى الظاهر أن يكون كلامهم بعكس ذلك ، لأن المؤمنين يشكون في إيمان المنافقين ، وقومهم لايشكون في بقائهم على دينهم ، فجاءت حكاية كلامهم الموافقة لمدلولاته على خلاف مقتضى الظاهر ، لمراعاة ماهو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر"[٤] .

والتوجيه الآخر الذي ذكره ابن عاشور من خروج التأكيد خلاف مقتضى الظاهر لأجل ألا يضعوا أنفسهم موضع من يشك في صدقه .

---

(١) سورة البقرة : آية (٨) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٠) .

(٣) ينظر أسباب النزول للواحدي (ص٤٥٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١/٢٩١) .

يتبين جليا من خلال ماقدمته من أدلة أن أمرهم مكشوف ، وسترهم مهتوك وقد ظهر في مواطن كثيرة أمام المؤمنين ، فهو مرجوح بظاهر الحال .

وتوجيه الزمخشري أوجه في ترك التأكيد ؛ لعدم إرادتهم أكثر من ادعاء الإيمان ، ليستظلوا بوارف ظل الإسلام الذي يمنحهم من الحقوق مالايتحصلوه إذا لم يدعوه ، ولأنهم يعلمون أن توكيد الخبر لايمكن أن يروج عند المؤمنين ؛ ولأن أنفسهم المريضة لاتساعدهم على أن يتلفظوا أكثر من ادعاء الإيمان ؛ لأجل التمتع النفعي في ظل تلك الظلال الوارفة ، وهذه النكتة مرجعها كما قال ابن عاشور : "لعدم اعتناء المتكلم بتحقيق خبره ، ولعلمه أن تأكيده عبث لايروج عند السامعين".

أما الجملة الأخرى في الآية وهي المؤكدة ﴿إنا معكم﴾ في خطاب المنافقين لقومهم فتوجيه ابن عاشور لمجئ التأكيد فيها فحواه أنهم أبدعوا النفاق حتى تطرق الشك إليهم في بقائهم على دينهم ، فأرادوا أن يدفعوا عنهم ذلك الشك فأكدوا الخبر .

وتوجيه الزمخشري هو أنهم أكدوا الخبر لقومهم لأجل اهتمامهم بالخبر ، وقوة دوافعهم النفسية للتلفظ به ، وعلمهم رواجه عند قومهم . فكان تأكيد الخبر .

وهذان التوجيهان لهما حظهما من النظر ، ولاتثريب في الجمع بينهما لأن الاختلاف نوعي لاضدي ، حيث يمكن أن يقال : أكد الخبر ؛ لأجل اهتمامهم بالخبر ، ودفع الشك عنهم ، وصدق الدافع في التلفظ به ، لعلمهم برواجه عند قومهم . فتأمل .

ويمكن ختم هذا المبحث بذكر غرضين لفظيين من أغراض التوكيد ، وهما المشاكلة والتفنن عند ابن عاشور .

فالأول كما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[1] .

---

(١) سورة النور : آية (٤٣) .

قال ابن عاشور : "ووقوع "من" زائدة لقصد مشاكلة قوله : ﴿من جبال﴾ أي : في قوله تعالى : ﴿من برد﴾"[١] .

ومنه أيضا مارآه ابن عاشور في سورة المجادلة ، الآية الثانية ، فقال : "وتأكيد الخبر في قوله تعالى : ﴿وإن الله لعفو غفور﴾ لمشاكلة تأكيد مقابله في قولهم : ﴿وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا﴾"[٢] .

والثاني كما في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وقوله ﴿من بعد علم﴾ أي : بعد ماكان علمه فيما قبل أرذل العمر . و"من" الداخلة على "بعد" هنا مزيدة للتأكيد على رأي الأخفش ، وابن مالك ، من عدم انحصار زيادة "من" في خصوص جر النكرة بعد نفي وشبهه أو هي للابتداء عند الجمهور ، وهو ابتداء صوري ، يساوي معنى التأكيد ، ولذلك لم يؤت بـ"من" في قوله تعالى : ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئا﴾ في سورة النحل . والآيتان بمعنى واحد ، فذكر "من" هنا تفنن في سياق العبرتين"[٤] .

لايمكن موافقة ابن عاشور على ماقرره من أن أغراض التوكيد لفظية ، في هذه الآيات الثلاثة ، وهي آية سورة النور ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[٥] ، وآية سورة المجادلة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[٦] ، وآية سورة الحج ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[٧] ؛ لأن النكت اللفظية وحدها لايمكن أن تقنع بها نفس الباحث في تعليل أغراض مطلق الكلام ، لأنها لاتتجاوز اللفظ ، فكيف تعلل بها مقاصد تأكيد أبلغ كلام؟ لتقف إلى هذا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦٢/١٨) .
(٢) التحرير والتنوير (١٤/٢٨) .
(٣) سورة الحج : آية (٥) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٠٢/١٧) .
(٥) سورة النور : آية (٤٣) .
(٦) سورة المجادلة : آية (٢) .
(٧) سورة الحج : آية (٥) .

الحد ولاتعدو عنه ، وتغض الطرف عن أثر التأكيد في المعنى ، أو بالأصح الأغراض المعنوية للتأكيد . ولعل الوقوف أمام هذه الآيات لإيضاح أغراض التأكيد المعنوية التي تتجاوز الأغراض اللفظية أصبح لزاما علي ، ومناطا بي وإلي ، لاستظهار هذه النكات من المنقول أو المقول ، مع المناقشة الجادة لكلام علامة تونس في بيان مأخذ القول بما قال به ، فآية سورة الحج يرى ابن عاشور أن "من" فيها صلة على رأي ابن مالك والأخفش ، وذكرها في هذه الآية الكريمة إنما هو لمجرد التفنن مقارنة بآية سورة النحل التي لم ترد "من" بها .

وفي هذا الكلام نظر من جهتين : الجهة الأولى أن القول بزيادة "من" في سياق الإثبات خلاف مذهب الجمهور[١] ، ولايذهب إلى القول بزيادتها إلا إذا تعذر حملها عليه ، وهذا غير متعذر في هذا المقام ؛ لإمكان حملها على الإثبات ؛ لأن أفصح كلام وأبلغه لابد أن يخرج على أقوى مذهب وأرجحه .

والجهة الأخرى : أن النكت اللفظية والمحسنات البديعية لايمكن أن تكون وحدها ، خلوا عن المعنى والتأثير فيه ، من مقاصد بليغ الكلام فكيف بأبلغه ، إلا إذا قرنت بأغراض معنوية ، وحمل الآية على هذين الأمرين ماهو إلا خروج بها عن الأرجح إلى المرجوح ، ولاأقول : على مجانبة سبيل الصواب ؛ لأن اختلافات العلماء وتقريراتهم لها حظها من النظر ، التي لاتصل إلى القدح في آرائهم ، ولاالتقليل من أفكارهم ، ولربما وعى من رسخ في العلم باعه ، وكثر عمله واطلاعه ، بعد طول البحث والتحصيل ، والتقرير والتأصيل ، أن الرفيع من ذوي البيارق والأعلام، عرضة لمزال هفوات الأقلام ؛ لأن كمال العلم لكامله ، وإن ملاك الإعجاز لمالكه ، وأن الحقيقة التي هي كالشمس في كبد السماء ، وكنير الكواكب في حالك الظلماء ، بأن الحق الذي لايأتيه الشك والارتياب ، هو آلم ذلك الكتاب الذي يحمل من المعاني الجمة ، مايزيد كثرة على مفهوم جميع الأئمة ، لاتساع أفق معانيه ، وبلاغة نظم مبانيه .

---

(١) ينظر : الأزهية في علم الحروف (ص٢٣٤) ومابعدها ، رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي (ص٣٢٤) ومابعدها ، مغني اللبيب (٣٢٢/١) ومابعدها .

وهذه الآيات الكريمات هي كلام الله المعجز الذي لايمترى في أن كل لفظ من ألفاظه قد بلغ من البلاغة غايته التي ليس بعدها غاية ، وقد وقع موقعه الذي لايمكن أن يكون إلا فيه ، ليفيد معاني لازخارف لفظية فقط ، وليضرب بأوفر مراد لاصور لفظية فحسب .

ففي هذه الآية الكريمة ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئا﴾ تكون "من" للابتداء وليس ابتداء صوريا ، بل ذو معنى ومغزى ؛ لأن سياق الجمل التي قبلها في الآية نفسها ، يعضد هذا الفهم ، قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١] .

فقد ورد في الآية الكريمة حرف "من" تسع مرات ؛ وهي قوله تعالى :

(١) ﴿من البعث﴾ .
(٢) ﴿من تراب﴾ .
(٣) ﴿من نطفة﴾ .
(٤) ﴿من علقة﴾ .
(٥) ﴿من مضغة﴾ .
(٦) ﴿ومنكم من يتوفى﴾ .
(٧) ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ .
(٨) ﴿لكيلا يعلم من بعد علم﴾ .
(٩) ﴿وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ .

فمن هذه المواضع التسع خمسة مواضع تكون "من" فيها ابتدائية ابتداء ذا معنى ومغزى في ابتداءات الخلق وأطواره ، وتلك المواضع هي الثاني والثالث

---

(١) سورة الحج : آية (٥) .

والرابع والخامس والثامن ، وأما الموضعان الأول والتاسع فـ"من" فيهما بيانية ، وأما الموضعان السادس والسابع فـ"من" منهما تبعيضية ، والذي يهمنا هو الموضع الثامن وتفسير معنى الابتداء بها واضح ، أي : منكم من يرد إلى آخر العمر حتى يعدم العلم بدءا من بعد علمه ، أي : يكون فقدانه العلم ابتداء من ذلك الزمن ، أي : بعد علمه .

وبالإجمال فهذه الآية الكريمة فصلت أحوال الخلق وأطواره ، وأشارت إلى ابتداءاته ، بخلاف آية سورة النحل ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[1] فحذفت منها "من" ؛ لأنها أوجزت مراحل الخلق ، وطوت ذكر البدايات ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2] .

فهذه الآية مجملة لاتفصيل فيها ، بخلاف الآية التي نحن بصددها في سورة الحج .

ولاشك أن مثل هذا الملمح الدقيق الذي يتجاذب المعنى أولى من التوجيه الذي لايتجاوز اللفظ ، ويرى صلة "من" على مذهب مرجوح ، خلاف مذهب الجمهور .

وقد سبقت إشارة صاحب درةالتنزيل وغرة التأويل[3] إلى هذا الملمح الذي فصلت القول فيه ، ورأى ابن عاشور خلافه .

أما الآية الثانية وهي آية سورة المجادلة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[4] ، فيرى ابن عاشور أن التأكيد فيها لمشاكلة تأكيد مقابلة قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنْ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾[5] .

---

(١) سورة الحج : آية (٥) .
(٢) سورة النحل : آية (٧٠) .
(٣) درة التنزيل وغرة التأويل (ص٢٦٨) ومابعدها .
(٤) سورة المجادلة : آية (٢) .
(٥) سورة المجادلة : آية (٢) .

وقد تتبعت التفاسير ، وكتب معاني القرآن ، وإعرابه ، لعلي أجد معنى للتأكيد في هذه الآية ، فلم أر من أشار إلى ذلك أصلا .

ثم تتبعت نظائر هذا التأكيد ، فوجدت ابن عبد الله الإسكافي[١] ، وتاج القراء الكرماني[٢] ، وابن الزبير الغرناطي[٣] ، أشاروا جميعا إلى أن التأكيد في سورة الحج في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٤] .

يقصد منه بناء هذه الآية الكريمة على الآيات المذكورة قبلها ، بدءا بقوله تعالى :

(١) ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[٥] .
(٢) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٦] .
(٣) ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾[٧] .
(٤) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٨] .
(٥) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾[٩] .
(٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾[١٠] .
(٧) ﴿لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾[١١] .
(٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[١٢] .

---

(١) ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل (ص٣١٣) .
(٢) ينظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن (ص١٣٣) .
(٣) ينظر : ملاك التأويل (٧٢٦/٢) .
(٤) سورة الحج : آية (٦٤) .
(٥) سورة الحج : آية (٥٣) .
(٦) سورة الحج : آية (٥٤) .
(٧) سورة الحج : آية (٥٨) .
(٨) سورة الحج : آية (٥٨) .
(٩) سورة الحج : آية (٥٩) .
(١٠) سورة الحج : آية (٥٩) .
(١١) سورة الحج : آية (٦٠) .
(١٢) سورة الحج : آية (٦٠) .

(٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[١] .

فكان سياق الآيات التوكيد ـ كما هو واضح ـ فبنيت الآية الكريمة ، على التلاؤم والمشاكلة لما قبلها من آيات ، ويظهر لي أن هناك سرا بلاغيا غير هذا ، ينفذ إلى أعماق المعنى ، ويتجاوز هذه الإشارة اللفظية ، لم يصل إليه هؤلاء العلماء على رفعة قدرهم وعلو منزلتهم في العلم .

أما الآية الثالثة ، وهي آية سورة النور ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[٢] .

فيرى ابن عاشور أن "من" في قوله "من برد" صلة ؛ لقصد مشاكلة قوله : ﴿من جبال﴾ .

وفي هذا الكلام نظر من جهتين ، الجهة الأولى : القول بزيادة "من" في سياق الإثبات ، وقد سبق[٣] بيانها في التعليق على كلام ابن عاشور في آية سورة الحج .

والجهة الأخرى : أن "من" في قوله ﴿من جبال﴾ ، يصح فيها أن تخرج على أعاريب[٤] تكون فيها "من" أصلية ، ولها معنى من معاني حروف الجر الأصلية ، دون اللجوء إلى زيادتها ، أو بالأصح صلتها ؛ لأن الذي رأى أنها تكون صلة هو الأخفش الذي كثر تفرده بآرائه عن النحاة .

وليكن في أذهاننا ألا نعمد إلى آراء الأفراد في القرآن الكريم إلا إذا كان لها مايسندها من بديع المعاني ولطيفها ، وقوي الحجج وداحضها ، وعليه فإن وجوه الإعراب في الآية الكريمة التي حفلت بورود "من" ثلاث مرات ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ .

(١) ﴿من السماء﴾ .

(٢) ﴿من جبال﴾ .

(٣) ﴿من برد﴾ .

---

(١) سورة الحج : آية (٦٣) .

(٢) سورة النور : آية (٤٣) .

(٣) ينظر (ص٤٣) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٦/٤٢٦) ومابعدها ، الدر المصون (٥/٢٢٥)ومابعدها ، روح المعاني (١٨/١٩٠) .

يجوز فيها أن تكون "من" الأولى والثانية لابتداء الغاية ، والثالثة تبعيضية ، ويصح أن تبدل "من" الثانية من الأولى بدل بعض ، أو بدل اشتمال ، فيكون المعنى حينئذ ، وينزل ابتداء من السماء من جبال فيها بعض برد .

وفيها أيضا من وجوه المعاني أن "من" الأولى ابتدائية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة للبيان ، ويكون المعنى حينئذ : وينزل ابتداء من السماء بعض جبال من برد.

وهذان معنيان جليان لايحتاجان إلى مزيد بيان ، والأولى أن تخرج عليهما الآية الكريمة .

وهناك إعراب زعمه الحوفي[1] ، وفيه نظر ، على أنه لايرى فيه أن تكون "من" صلة . فهو يرى أن "من" الأولى ابتدائية ، والثانية ، والثالثة كلتاهم للتبعيض ويرى على هذا الوجه إبدال الثانية من الأولى ، وهذا لايصح في الإبدال لاختلاف معنى "من" في كل منهما .

وهناك وجوه من الإعراب تكون فيها "من" صلة ؛ فمنها أن تكون "من" الأولى للابتداء و"من" الثانية للابتداء أيضا ، و"من" الثالثة صلة ، وهذا مارتضاه ابن عاشور ، وأجرى غرض الحذف عليه ، والتقدير على هذا الوجه يكون حينئذ : وينزل ابتداء من السماء ، ابتداء من جبال فيها ، بردا .

فيكون "بردا" مفعولا للفعل "ينزل" .

ومنها أيضا أن تكون "من" الثانية ، والثالثة ، صلتين ، ويكون التقدير على هذا الوجه : وينزل من السماء جبالا بردا ، على أن يكون (جبالا) ، مفعولا للفعل (ينزل) ، و(بردا) ، بدلا من المفعول .

ومنها أيضا أن تكون "من" الأولى ابتدائية ، والثانية صلة ، والثالثة بيانية ، ويكون التقدير حينئذ : وينزل من السماء جبالا فيها من برد .

---

(١) الحوفي هو علي بن إبراهيم بن سعيد بن يوسف الحوفي ، مفسر ونحوي وأديب ، من علماء القرن الخامس .
من تصانيفه : إعراب القرآن ، الموضح في النحو ، البرهان في تفسير القرآن وغيرها .
توفي سنة ٤٣٠هـ .
ينظر : إنباه الرواه للقفطي (٢/٢١٩) ، معجم الأدباء (١٢/٢٢١) ، شذرات الذهب (٣/٢٤٧) .

ومنها ايضا أن تكون "من" الأولى ابتدائية ، والثانية والثالثة صلتين ، ويكون التقدير على هذا النحو : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ ، فتكون (جبالا) مفعولا للفعل (ينزل) وتكون (برد) مبتدأ ، وخبره الظرف (فيها) .

وبعد هذا الإيراد لوجوه الإعراب المختلفة في الآية ، يظهر أن تخريج الآية على الوجوه التي لاتكون فيها "من" صلة أوجه ، لأنه لاثمة معنى بديع في حمل الآية على من يرى زيادة "من" في الإثبات .

ويمكن أن يستخلص من هذا كله أن الآيتين الكريمتين في سورة الحج ﴿لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ ، وفي سورة النور ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ ، إذا أعربتا على مذهب الجمهور الذي لايرى زيادة "من" في الإثبات ، تكونان خلوا من التأكيد الذي لايصح أن تخرج عليه إلا بوجه من البعد عما قرره الجمهور ، وعلى هذا الوجه المختار فلايكون بهاتين الآيتين موضع شاهد للتوكيد ، فضلا عن توجيهه إلى التفنن والمشاكلة ؛ لأن أمثال هذا الضرب الذي خرج عليه ابن عاشور الآية يكون مما تتوارد عليه مساءلات العلماء ومناقشتهم .

أما آية سورة المجادلة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ، فإن التأكيد بها قائم ، إلا أن التوجيه الذي وجهت به غير وجيه ، وبهذا نختم هذا المبحث الذي طوف بنا على أغراض متعددة ، ومعاني للتوكيد جاوزت آفاق ماقرره علماء البلاغة من دواع لاتكاد تعدو حالات المخاطب التحقيقية والاعتبارية إلى المتكلم ، أو إلى الخبر أو إلى معان أخرى في النظم .

الفصل الثاني

عناصر التوكيد ووسائله

عناصر التوكيد ووسائله

ذكر ابن عاشور مايربو على ستين عنصرا من عناصر التوكيد ، ووسائله ، كان مسبوقا في أغلبها ، متفردا في بعض منها .

ومما أراه تفرد به ـ ويمكن إيراده مثالا على ذلك ـ صيغة المفاعلة ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "صيغة المفاعلة غير مقصود بها حصول الفعل من جانبين ، بل هي لتأكيد الاحتجاج ، أي ليحتجوا عليكم به"[٢] .

وأما ماكان مسبوقا إليها ، فمنها أثرة منصوص عليها في كتب البلاغة[٣] ، وشروحها وحواشيها وتقريراتها نحو : إن ... لام الابتداء ... نونا التوكيد ... القسم ... أما الشرطية ... أحرف التنبيه ... أحرف الزيادة ... ضمير الفصل ... تقديم الفاعل في المعنى ... قد التي للتحقيق ... إنما تكرير النفي ... السين ... وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد ... أو وعيد ... كأن ... لكن ... ليت ... لعل .

ومنها الجم الغفير ، المتناثر في كلام أئمة التفسير ، الذين عنوا عناية بالغة ، بفني المعاني والبيان ، كالزمخشري ، وابن عطية ، والقطب الشيرازي محمود بن مسعود ، والطيبي ، وأبي السعود ، والألوسي ، والشهاب الخفاجي ، وغيرهم .

فمن تلك العناصر ماأشار إليه أستاذنا محمد أبو موسى في كتابه الموسوم بـ"البلاغة القرآنية عند الزمخشري" ، قال مانصه : "والمؤكدات كثيرة لايمكن الإحاطة بها ، فإن كثيرا من طرق بناء الكلام ، تعطيه تقوية ووكادة ، فالذكر قد يفيد توكيدا ، والحذف قد يفيد توكيدا ، والوصل والفصل ، والتكرار والاعتراض والالتفات ، وصور التشبيه ، والاستعارة ، وأنواع المجاز ، والكناية ، كل هذا وغيره

---

(١) سورة البقرة : آية (٧٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٥٧٠/١) .

(٣) ينظر : المطول (ص٨٠) ، شروح التلخيص (٢٠٤/١) ، حاشية الفنري (ص١٧٩) ، تقرير الشمس الانبابي (٤٥٢/١) ، علوم البلاغة (ص٥٢) ، بغية الإيضاح (٤٦/١) .

تفيد أنواعا من التوكيد ، والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه"[١] .

وفي هذا إشارة واضحة وجلية إلى كثرة أدوات التوكيد ، ووسائله ، التي تتطلب من الباحثين مزيدا من الجهد والدراسة ، للكشف عن نقابها ، ولتوضيح دقائق أسبابها ، وجمع متفرقاتها ، وترتيب ورقاتها ، مع إلقاء ضوء البيان ، على كل عنصر من عناصرها ، ووسيلة من وسائلها ، لأنه لايمكن تغافلها ، على ماهي عليه من الكثرة والدقة في أساليب الاستعمال سواء في نظم القرآن الكريم ، أو كلام سيد المرسلين ، أو بليغ كلام شقاشق العرب وفصحائهم .

وقد كانت إلماحة أستاذنا تلفت النظر إلى أن ماأفاد المعنى توكيدا ، وتثبيتا ، يدخل في هذا الباب ، الذي كان حريا بالبلاغيين الوقوف عليه ، وإفراده ـ كما أفردوا غيره ـ بمباحث خاصة به ، لا أن يكون كمن أسهم في إكمال غير مراده ، أو جرى فرسه في غير مضمار طراده .

فلكم تتوق النفس إلى ذكر أبواب لم توف حقها من التحرير والتقرير ، ومايمكن إضافته هنا من عناصر التوكيد ، والإحاطة بها ، هو ماحاولت استقصاءه في التحرير والتنوير ، لافي مطلق كتب التفسير التي تعد أرضا خصبة للباحثين في هذا الفن من العلم .

وقد ذكر الطاهر من تلك العناصر أيضا الاشتغال ، والبدل ، وصيغة الجحود والتفصيل بعد الإجمال ، وصيغة الشرط ، وفعل كان غير الزائدة ، ولن ، وأسماء الإشارة ، وكي ، والتنوين ، وإن ، ولو ، وصيغ المبالغة ، والحال المؤكدة ، والإضافة ، ونفي الصفة اللازمة للموصوف ، والتعريف ، وصيغة الماضي ، ومن غير الزائدة ، والقصر ، وأداة التعقيب ، والفذلكة ، والتعليق ، وتوكيد الشئ بنفي ضده ، وتوكيد المدح بما يشبه الذم ، والمصدر المؤكد ، والإظهار في مقام الإضمار والصفة المشبهة ، وإذن ، وأن مفتوحة الهمزة خلافا لمن لم يعدها من المؤكدات .

وربما عرض لبعض هذه العناصر من الأسرار البلاغية مايستدعي الوقوف عليها ، وعرضها بصورة إفرادية ، تحاول استجلاءها عن كثب .

---

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري (ص٤١٧) .

إن مكسورة الهمزة ومشددة النون :

وهي أم الباب ، ومدخولها الجملة الاسمية .

ذكرها ابن عاشور فيما ينيف على مائة وسبعين موضعا ، فأفاد أنها تأتي للتأكيد ، وهذا هو أصل معناها ، وأمثلتها كثيرة منها : ماأورده في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾[1] .

قال ابن عاشور في مجئ التوكيد في هذه الآية : "وتوكيد الخبر "بإن" ولام الابتداء للرد على المشركين لأنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿وماكان من المشركين﴾"[2] .

وقد ذكر ابن عاشور لإن معنى جديدا لم أر من سبقه إليه بالصورة التي قررها وضبطها وذكر حدودها ، وهو أن "إن" تأتي للاهتمام ، وضابطه إذا جاءت "إن" في غير مقام شك ولاإنكار ، والمراد بالاهتمام ــ بعد طول الاستقراء ــ هو مجيئها للفت النظر إلى مضمون الخبر ، والتنبيه عليه في المقام السابق ، ونظيرها في هذا المعنى كلمة "اعلموا" إذا افتتح بها الخبر .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾[3] .

قال ابن عاشور :"وافتتاحه باعلموا للاهتمام بشأنه ، والتنبيه على رعاية العمل به"[4] .

فالاهتمام على هذا المعنى يكون لإبراز كمال العناية بمضمون الجملة التي بعد (إن) ، والتنبيه على أنها من الجمل التي لابد أن يكون لمرامي النظر فيها اعتبار ، ويبدو أنها على هذا المعنى ربما تكون أقل أثرا من المؤكدة في معنى الجملة الداخلة عليها .

وقد ذكرها بهذا المعنى فيما يربو على عشرين موضعا[5] .

---

(١) سورة الصافات : آية (٨٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٣٦/٢٣) .

(٣) سورة الأنفال : آية (٤١) .

(٤) التحرير والتنوير (٥/١٠) .

(٥) سيكون هناك ملحق في آخر الرسالة يشير إلى هذه المواطن وغيرها مما سيذكر على نحوها من عناصر التوكيد ووسائله فيما سيأتي ـ بإذن الله تعالى ـ .

ومن تلك المواضع ماأورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وقولهم : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ ، مسوق مساق التعليل لسؤال الوقاية من النار ، كما تؤذن به "إن" المستعملة لإرادة الاهتمام إذ لامقام للتأكيد هنا"[٢] .

وفي هذا يرى ابن عاشور أن الجملة المؤكدة التي لايكون للتأكيد بها وجه يمكن أن تحمل عليه من وجوه التأكيد وأغراضه ، فلن تكون خلوا من معنى مراد لمجيء أداة التوكيد فيها ، وذلك المعنى هو الاهتمام بالجملة ، وإبراز كمال العناية بمضمونها .

ومنها أيضا ماأورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[٣] .

يقول ابن عاشور : "وجملة ﴿إن الله يأمركم﴾ صريحة في الأمر بالوجوب ، مثل صراحة النهي في قوله في الحديث : "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم" ، و(إن) فيها لمجرد الاهتمام بالخبر لظهور أن مثل هذا الخبر لايقبل الشك حتى يؤكد ؛ لأنه إخبار عن إيجاد شئ ، لاعن وجوده فهو والإنشاء سواء"[٤] .

يلمح ابن عاشور بحس أدبي يقظ أن "إن" في قول الله تعالى : ﴿إن الله يأمركم﴾ إنما لمجرد الاهتمام ، وحجته على ذلك أن الخبر في هذه الآية ليس معناه حقيقة الخبر ، وإن جاء على صورته ؛ لأن المتأمل لـ﴿إن الله يأمركم﴾ ، يرى أنه طلب صريح في الأمر ، يستدعي نسبة غير مقصودة في الخارج ، وهذا هو معنى الإنشاء لاالخبر ؛ لأن الخبر يحكي نسبة خارجية لها وجود في الواقع قبل التحدث بالخبر ، بينما النسبة الموجودة في الإنشاء إنما توجد في الواقع بعد التحدث بالإنشاء.

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٩٢) .

(٢) التحرير والتنوير ١٩٨/٤) .

(٣) سورة النساء : آية (٥٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٩١/٥) .

وهذا معنى كلام الطاهر "لأنه إخبار عن إيجاد شئ لاعن وجوده ، فهو والإنشاء سواء" ، وعليه فلاوجه للتأكيد في خبر حقيقته حقيقة الإنشاء ، فتأمل .

وقد جمع ابن عاشور في تفسير بعض الآي الشريف بين معني "إن" التأكيد ، والاهتمام .

ومن تلك ماأورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وافتتاح جملة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ، بحرف "إن" مراعى فيه ماستعمل فيه الخبر من الامتنان فيحمل حرف "إنَ" على الاهتمام بالخبر .

وماأريد به من التعريض بالذين أنكروا أن يكون منزلا من الله ، فيحمل حرف "إن" على التأكيد استعمالا للمشترك في معنييه"(٢) .

يلحظ من كلام ابن عاشور حول هذه الآية الكريمة ، أن البليغ لابد أن يتباصر بجميع مقاصد المعاني في التركيب التي يمكن استظهارها منه ؛ بشمولية النظر وقرائن الأحوال ، دون تكلف أو تضاد ، وعليه ألا يقف على استظهار معنى واحد مكتفيا به ، ويتغاضى في الوقت نفسه عن معان أخر يفيدها التركيب ، لأن في ذلك تحجيرا لما كان يمكن أن يجود بإثراء المعاني في أوجز العبارات ، ولعل من يحاول أن يستخرج معنى واحدا ويراه هو أصل هذا التركيب وبيت قصيده ، ويعد ماسواه هذرا من القول ، وتكلفا يقلق النصوص ، هو الذي يقف بالبلاغة في غير مكانها ، ويتكلم بغير لسانها ويحجم من وظيفتها في المسألة العلمية الجادة في استظهار جميع نكات التركيب ودلالاته .

وماستظهار ابن عاشور لهذين المعنيين من "إن" إلا إفادة مضمون معنى ماوسعني إدراكه من كلام هذا الجهبذ العلامة في هذه السانحة المسجلة والشاردة المقيدة .

---

(١) سورة الزمر : آية (٢) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/٣١٥) .

ومنها أيضا ماأورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "واقتران الكلام بحرف "إن" لفائدتين : إحداهما الاهتمام بصريحه الإخباري ، وثانيهما تأكيد ماتضمنه من التعريض بالمشركين ؛ لأن الكلام وإن كان موجها للنبي ﷺ وهو لايشك في ذلك ، فإن المشركين يبلغهم ، ويشيع بينهم ، وهم لايؤمنون بعذاب الآخرة ، فكانوا جديرين بتأكيد الخبر في جانب التعريض ، فتكون "إن" مستعملة في غرضيها من التوكيد والاهتمام"[٢] .

يؤكد ابن عاشور صحة ماسبق أن أشار إليه من أن أداة التوكيد "إن" قد تحتمل في تركيب واحد معنى التوكيد ، ومعنى الاهتمام .

وهو ممن يرى أن سياق الآيات ، ومنها الآية الكريمة خطاب موجه للنبي ﷺ فالتأكيد في الخبر يكون بمعنى الاهتمام على هذا الوجه .

وهناك وجه آخر يمكن أن تفيده "إن" المؤكدة ، من خلال التعريض ، ويكون المعرض بهم هم كفار مكة ، الذين ينكرون حقائق مثل هذه الأخبار ، فيكون التأكيد على بابه ، أو بالأصح على أصله المقعد له في كتب البلاغيين . والشاهد في ذلك كله هو حمل "إن" المؤكدة على معنيين أو غرضين في الجملة نفسها ، باعتبارين : باعتبار معنى الخبر الصريح فهي للاهتمام ، وباعتبار فحوى الخبر الضمنية من التعريض بالمشركين فهي للتأكيد .

وهذا المعنى الجديد الذي أطلقه ابن عاشور على "إن" إنما استفاد معناه من إمام هذا الفن الإمام عبد القاهر الجرجاني ، عند كلامه في دلائل الإعجاز على بيت بشار بن برد :

بكرا صاحبي قبل الهجير   إن ذاك النجاح في التبكير[٣]

---

(١) سورة القمر : آية (٤٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١٥/٢٧) .

(٣) ينظر : الديوان (٢٠٣/٣) .

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "والذي دل على أن هذا القول مسوق للتعليل ، وليس مجرد ثناء هو تصديره بإن في غير مقام رد إنكار ولاتردد .

قال الشيخ في دلائل الإعجاز : ومن شأن "إن" إذا جاءت على هذا الوجه (أي : أن تقع إثر كلام وتكون لمجرد الاهتمام) ، أن تغني غناء الفاء العاطفة (مثلا) وأن تفيد من ربط الجملة لما قبلها أمرا عجيبا ، فأنت ترى الكلام بها مقطوعا موصولا ، وأنشد قول بشار :

بكرا صاحبي قبل الهجير   إن ذاك النجاح في التبكير

وقول بعض العرب :

فغنها وهي لك الفداء   إن غناء الإبل الحداء

فإنهما استغنيا بذكر إن عن الفاء"[٢] .

وهكذا فهم الطاهر ابن عاشور من كلام الإمام عبد القاهر أن "إن" التي في بيت بشار بن برد ليست "إن" المؤكدة ، التي غرضها تأكيد الخبر ، وإنما هي "إن" التي تدخل على الخبر لتفيد مفهوما آخر ، هو مفهوم ذلك الوجه المشار إليه في كلام الإمام عبد القاهر والذي فسره ابن عاشور بقوله : أي : أن تقع إثر كلام ، وتكون لمجرد الاهتمام ، وقد حاول إيضاح مافهمه ، فأردف قائلا :

"وقال الشيخ في موضع آخر ، ألا ترى أن الغرض من قوله : (إن ذاك النجاح في التبكير) ، أن يبين المعنى في قوله لصاحبيه (بكرا) ، وأن يحتج لنفسه في الأمر بالتبكير ، ويبين وجه الفائدة منه"[٣] .

وابن عاشور في هذا النص يكشف للقارئ المتأمل ، أن كلام العلماء يحسن بقارئه كثرة تأمله ، وتكرار قراءته ، واستلهام مطارح أبعاد معارفه ، بإعادة النظر

---

(١) سورة البقرة : آية (٣٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٤١٤/١) ، وينظر : دلائل الإعجاز (ص٢٧٣) .

(٣) نفس المرجع السابق (٤١٤/١) ، وينظر : دلائل الإعجاز (ص٢٧٣) .

مصحوبة بالتفكر ؛ لكـي يمكـن استيعاب جميع مقـاصده ، وإدراك كـل مراميـه ، واستظهار حقيقة معرفية منه ، يقدح أوار زنادها في ذهن متقد ، من خلال روابـط فكر يدق خفاؤها إلا على أربابها ، والعارفين بها بسبيل الإنماء أو الجدة .

ومافعله ابن عاشور مع كلام الإمام عبد القاهر في هذا الصدد من استكهان حقائق مراداته ،ومطـامح نظراتـه في هـذه الإلماحـة ، إلا مـن النمـط الأول ، الـذي تتباصر به أفئدة أهل العلم قبل أنظارهم ، فهو يسـتخرج مـالم يسـتخرجه غـيره مـن كلام الإمام ، ويفهم مالم يفهمه غيره مـن معنـاه ، ويصـل ماكـان يختلـج في صـدر الإمام ، ويتمنى إيصاله بما بقي رصده من تلك المعرفـة المقيـدة في أوراقـه ، وهكـذا تتنامى أطوار المعارف في كلام الأئمة بهذا الفهم الواسع ، وتلك الإضافـة الواعيـة ؛ حتى تتزايد المعرفة بهذا الضرب الذي يكون رافدا آخر من روافد البناء العلمي .

ولعل رؤية ابن عاشور هذه في استخراج معنى لـ"أن" فهمه من كلام الإمـام الجرجاني تحقيق لهذا الإنماء المعرفي .

وهذا من الدقة بمكان في تحرير الكـلام وتدقيقـه لتظهـر عليـه إضافـة جديـدة ومعرفة جديدة فتكسبه معاني أخرى وحياة متجددة .

وربما يلحق في هذا المبحث تكرار حرف إن وإعادته في جملة واحدة ، وذلك لنكتتين بلاغيتين ، إما لمزيد العناية والتحقيق ، وإمـا للحـرص علـى التذكـير بإفـادة التوكيد لطول الفصل .

فالأول كما في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وافتتاح الجملة بحرف التوكيـد "إن" لتحقيـق مضمونهـا ، وإعادة حرف "إن" في الجملة المخبر بها عن المبتـدأ الواقـع في الجملـة الأولى ، لمزيـد العناية والتحقيق ، كقوله تعالى في سـورة الحـج : ﴿إن الذيـن آمنـوا والذيـن هـادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصـل بينهـم يـوم القيامـة﴾ ، وقوله تعالى : ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ ، ومثله قول جرير :

---

(١) سورة الكهف : آية (٣٠) .

إن الخليفة إن الله سربله سربال ملك به تزجى الخواتيم

وموقع "إن" الثانية في هذه الآية أبلغ منه في بيت جرير ، لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها ، من حيث هي مفيدة حكما يعم ماوقعت خبرا عنه وغيره ، من كل من يماثل المخبر عنهم في عملهم ، فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه بخلاف بيت جرير .

وأما آية سورة الحج فقد اقتضى طول الفصل حرف التأكيد حرصا على إفادة التأكيد"[1] .

وفي هذا تطبيق جزئي لمنهج نهجه الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ، حينما فاضل من نواح بلاغية بين سور من القرآن الكريم ، وعيون من الشعر العربي . ولايفهم من هذه المفاضلة التقليل من الشعر والتحقير من قدره ، وإنما يفهم منها بيان مقدار سمو إعجاز القرآن ورفعة منزلته ، من خلال مفاضلته بأرقى ماجادت به قرائح شعراء العرب ، وموهبيهم ، في عصور تميزهم البياني . وجرير الخطفي من أهل الحقبة الذين يحتج بشعرهم ، ولم تدخلهم العجمة ، فتفسد عليهم ألسنتهم ، فضلا عن كونه شاعرا مفلقا من مبدعي شعراء العرب ومشهوريهم .

ولعل استظهار حرف "إن" في الآية الكريمة في سورة الكهف ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ، وفي قول جرير : "إن الله سربله" ، يظهر جليا ـ كما ذكر ابن عاشور ـ البون الشاسع في الاستعمالين .

فوجه إعادة التوكيد في الآية هو استقلالية تلك الجملة بحكم عام يصح أن يقع خبرا لهم ولغيرهم ممن يماثلهم ، فكان حريا بإعادة التوكيد .

أما بيت جرير فوجه إعادة التوكيد فيه هو زيادة توكيد لحكم جزئي يخص المخبر عنه المؤكد بـ"إن" الأولى : "إن الخليفة" ، ولايتجاوزه إلى غيره ، ولايفيد عموما يستقل بمعنى جديد يقتضي تأكيدا ، وإن اقتضى التوكيد فهو للمعنى الجزئي الخاص .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٣١٠) .

إن الخليفة إن الله سربله سربال ملك به تزجى الخواتيم

وموقع "إن" الثانية في هذه الآية أبلغ منه في بيت جرير ، لأن الجملة التي وقعت فيها في هذه الآية لها استقلال بمضمونها ، من حيث هي مفيدة حكما يعم ماوقعت خبرا عنه وغيره ، من كل من يماثل المخبر عنهم في عملهم ، فذلك العموم في ذاته حكم جدير بالتأكيد لتحقيق حصوله لأربابه بخلاف بيت جرير .

وأما آية سورة الحج فقد اقتضى طول الفصل حرف التأكيد حرصا على إفادة التأكيد"[1] .

وفي هذا تطبيق جزئي لمنهج نهجه الإمام الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن ، حينما فاضل من نواح بلاغية بين سور من القرآن الكريم ، وعيون من الشعر العربي . ولايفهم من هذه المفاضلة التقليل من الشعر والتحقير من قدره ، وإنما يفهم منها بيان مقدار سمو إعجاز القرآن ورفعة منزلته ، من خلال مفاضلته بأرقى ماجادت به قرائح شعراء العرب ، وموهبيهم ، في عصور تميزهم البياني . وجرير الخطفي من أهل الحقبة الذين يحتج بشعرهم ، ولم تدخلهم العجمة ، فتفسد عليهم ألسنتهم ، فضلا عن كونه شاعرا مفلقا من مبدعي شعراء العرب ومشهوريهم .

ولعل استظهار حرف "إن" في الآية الكريمة في سورة الكهف ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ، وفي قول جرير : "إن الله سربله" ، يظهر جليا ـ كما ذكر ابن عاشور ـ البون الشاسع في الاستعمالين .

فوجه إعادة التوكيد في الآية هو استقلالية تلك الجملة بحكم عام يصح أن يقع خبرا لهم ولغيرهم ممن يماثلهم ، فكان حريا بإعادة التوكيد .

أما بيت جرير فوجه إعادة التوكيد فيه هو زيادة توكيد لحكم جزئي يخص المخبر عنه المؤكد بـ"إن" الأولى : "إن الخليفة" ، ولايتجاوزه إلى غيره ، ولايفيد عموما يستقل بمعنى جديد يقتضي تأكيدا ، وإن اقتضى التوكيد فهو للمعنى الجزئي الخاص .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٣١٠) .

والثاني كما في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(١) .

يقول ابن عاشور : "وأعيدت "إن" في صدر الجملة الواقعة خبرا عن اسم "إن" ، الأولى توكيدا لفظيا للخبر ، لطول الفصل بين اسم "إن" وخبرها ، وكون خبرها جملة . وهو توكيد حسن بسبب طول الفصل ، وتقدم منه قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾ في سورة الكهف.

وإذا لم يطل الفصل فالتوكيد بإعادة "إن" أقل حسنا ، كقول جرير :

إن الخليفة إن الله سربله ... سربال ملك بن تزجى الخواتيم

ولايحسن إذا كان مبتدأ الجملة الواقعة خبرا ضمير اسم "إن" الأولى كما تقول : إن زيدا إنه قائم ، بل لابد من الاختلاف ، ليكون المؤكد الثاني غير الأول فتقبل إعادة المؤكد ، وإن كان المؤكد الأول كافيا"(٢) .

يقرر ابن عاشور هنا أمرا آخر ، ويتناول بيت جرير من جهة أخرى ؛ فهو يرى أن إعادة حرف التوكيد إنما يكون بضوابط يحسن مراعاتها والتنبيه عليها .

من تلك الضوابط التي يحسن مراعاتها أن يطول الفصل بين كل من المؤكدين لاقتضاء ذلك حسن التذكير بإعادة السابق ، في هذا الموقع ، والبعد عن تقارب مواضع تكرارهما مع إمكان إيرادهما فيما يمكن أن يوصف بالأولى ، وإن تركه أي الأولى إنما هو إيقاع للألفاظ في مراتب تفوت عليها تلك المنزلة العالية ، وتوردها إلى مصاف الأقل حسنا ، كما هو جلي في بيت جرير من تقارب موضع المؤكدين زيادة على تلك الوجهة المعنوية السالفة من الحكم الجزئي الخاص ؛ فهو يتناول بيت جرير هنا من جهة موضع "إن" المؤكدة ـ بكسر الكاف ـ وقربها من "إن" المؤكدة ـ بفتح الكاف ـ وهي ناحية يجوز أن يطلق عليها أنها ناحية لفظية ، بخلاف تناوله له في الآية السابقة ، آية سورة الكهف ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا﴾ ، فهي ناحية معنوية .

---

(١) سورة الحج : آية (١٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢٤/١٧) .

وأيضا من الضوابط التي يحسن مراعاتها أن يكون هناك اختلاف بين كلا الاسمين الواقعين بعد حرفي التوكيد ، لإفادة معنى آخر جديد غير السابق ، ولتحاشي إعادة التوكيد لغير داع .

لام الابتداء :

غير عاملة لفظا ، ومفيدة للتوكيد معنى .

ولذا إذا دخلت عليها "إن" ، نقلت إلى الخبر كراهة ابتداء الكلام بمؤكدين . كما أنها تخلص المضارع إلى الحال خلافا لابن مالك النحوي ، ومدخولها المبتدأ أو خبر "إن" سواء كان اسما ، أو ظرفا ، أو فعلا مضارعا[١] .

ذكرها ابن عاشور فيما يقارب أربعين موضعا ، وقد وردت هذه اللام في القرآن الكريم على أساليب مختلفة وطرائق متعددة ، يمكن محاولة حصرها في ثلاث صور ، بالنظر إلى أدوات التوكيد .

أولى تلك الصور أن ترد مع مجموعة مؤكدات وهو قليل .

منها قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[٢] .

قال ابن عاشور في تفسيرهذه الآية : "وقد اشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات وهي "إن" ، ولام الابتداء ، وضمير الفصل ، وإضافة شبه المترادفين"[٣] .

والمراد بشبه المترادفين هو قوله : "حق اليقين" ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والتقدير : لهو اليقين الحق ، ثم قدمت الصفة على الموصوف ، فكانت الإضافة .

ونعته ابن عاشور بشبه المترادفين ، لأن مآل معنى هذين اللفظين ، يرجع إلى معنى واحد ، حتى فسره ابن عطية[٤] بمعنى أن هذا يقين اليقين ، وصواب الصواب ثم ذكر أن هذا أحسن ماقيل فيه ، وقد أشار الطاهر[٥] إلى ذلك .

---

(١) ينظر : معاني الحروف للرماني (ص٥١) ومابعدها ، رصف المباني (ص٢٣١) ومابعدها ، مغني اللبيب (٢٢٨/١) .

(٢) سورة الواقعة : آية (٩٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٥٠/٢٧) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز (٢٥٤/٥) ومابعدها .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٥٠/٢٧) .

وثانيها أنها ترد وحدها وهو أقل .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾[١] ، وأيضا قوله تعالى : ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ﴾[٢] .

وثالثها أنها تكون مع "إن" وهو الأكثر .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾[٥] .

وجوز في لام القسم كونها لام ابتداء ، وهي اللام الداخلة على الفعل المتصرف المقرون بقد ، وذلك عند قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ﴾[٦] ، ثم جرى - بعد تفصيله في هذه الآية - في تفسير باقي الآي الشريف على أنها لام القسم ، وهو المشهور عند النحاة[٧] .

ومن أمثلة لام التوكيد ماأورده عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٨] .

قال ابن عاشور : "وتأكيد الخبر بأن ولام التوكيد وصيغتي المبالغة في ﴿غفور رحيم﴾ لمزيد من الاهتمام به ، ترغيبا للعصاة في التوبة ، وطرادا للقنوط من نفوسهم ، وإن عظمت ذنوبهم ، فلايحسبوا تحديد التوبة بحد إذا تجاوزته الذنوب بالكثرة والعظم لم تقبل منه توبة"[٩] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٢١) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٢١) .

(٣) سورة المجادلة : آية (٢) .

(٤) سورة النمل : آية (٧٧) .

(٥) سورة القصص : آية (١٨) .

(٦) سورة البقرة : آية (١٢) ، وينظر : التحرير والتنوير (٦٤٦/١) .

(٧) ينظر : حروف المعاني (ص٥٤) ، رصف المباني (ص٢٣٩) ، مغني اللبيب (٢٢٩/١) .

(٨) سورة الأعراف : آية (١٥٣) .

(٩) التحرير والتنوير (١٢١/٩) .

وهكذا يرى ابن عاشور أن مجئ المؤكدات الأربعة في هذه الآية ، ومنها لام الابتداء التي دخلت على خبر "إن" ، إنما هي لمعنى التأكيد الذي يفيد في هذا السياق أن باب التوبة مفتوح للتائبين ، مهما كانت تلك الذنوب والمعاصي ، التي قد تصل بأصحابها إلى درجة اليأس .

فاللام تضافرت مع بقية المؤكدات في تأكيد هذا المعنى ، وتحقيقه ، بترغيب الذين اجترحوا السيئات إلى المبادرة بالتوبة ، والرجوع إلى الله ، والإنابة إليه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو رب الأرباب ، الذي يغفر ذنوب عباده ، وخطاياهم ، ويرحمهم.

وسيظهر وجه التأكيد في هذه الآية الكريمة إذا ذكر السياق ، فقد وردت بعد آية فيها وعيد شديد من الله وغضب على متخذي العجل من بني إسرائيل ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٥٢-١٥٣) .

نونا التوكيد :

قد ذكرهما ابن عاشور فيما يقرب من عشرين موضعا .

وأفاد أن اقتران فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين الجزاء والشرط.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وأكد فعل الشرط بنون التوكيد لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ، ومضمون الشرط في الوجود"[2] .

فابن عاشور يرى أن دخول نون التوكيد على فعل الشرط ، إنما هو لتحقيق الربط بين مضمون الجواب ، ومضمون الشرط .

وربما يظهر لأول وهلة أن التوكيد في مثل هذا التركيب ينصب على الفعل الداخلة عليه هذاالنون ، وهو في الآية الكريمة "يبلغن" فمعنى التوكيد هو تحقيق بلوغ أحد الأبوين أو كليهما الكبر .

وبإجالة طرف الفكر يتضح أن التوكيد يتجاوز هذا المعنى القريب المفاد منه إلى ماأشار إليه ابن عاشور من تحقيق الربط بين الجواب ، والشرط .

فمعنى قولك : إن تكرمني أكرمك ، أي : إذا وقع إكرام لي ، وقع إكرام لك ، ومعنى قولك : إما تكرمني ـ بنون التوكيد ـ أكرمك ، أي : إذا تحقق وقوع إكرام لي ، تحقق وقوع إكرام لك ؛ لأن الشرط من جهة البناء كالجملة الواحدة ، فتوكيد فعله ينسحب على تحقق ربطه .

وأفاد أيضا أن اقتران نون التوكيد بفعل الشرط ، إنما هو لغرض تأكيد قوي لاجتلابها "ما" الزائدة معها في التركيب فيحصل مؤكدان .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِمَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء : آية (٢٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٦٩) .

(٣) سورة الرعد : آية (٤٠) .

يقول ابن عاشور : "وتأكيد الشرط بنون التوكيد ، و"ما" المزيدة بعد "إن" الشرطية مراد منه تأكيد الربط بين هذا الشرط وجوابه ، وهو ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ، على أن نون التوكيد لايقترن بها فعل الشرط ، إلا إذا زيدت "ما" بعد "إن" الشرطية ، فتكون إرادة التأكيد مقتضية لاجتلاب مؤكدين ، فلايكون ذلك إلا لغرض تأكيد قوي"[١] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/١٦٩) .

القسم:

ذكر الطاهر أن التاء تختص من بين قسيميها حرفي القسم الباء والواو، بدخولها على ماكان جواب قسمه غريبا.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِي﴾[١].

قال ابن عاشور: "والقسم بالتاء من شأنه أن يقع فيما جواب قسمه غريب كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قالوا تالله لقد علمتم﴾ في سورة يوسف، وقوله: ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾، في سورة الأنبياء.

ومحل الغرابة هو خلاصه من شبكة قرينه، واختلاف حال عاقبتيهما، مع ماكانا عليه من شدة الملازمة، والصحبة، وماحفه من نعمة الهداية، وماتورط قرينه في أوحال الغواية"[٢].

وهذا المعنى نبه عليه الزمخشري في كشافه عند قوله تعالى في سورة الأنبياء حكاية على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[٣].

قال الزمخشري: "فإن قلت: ماالفرق بين الباء والتاء؟ قلت: إن الباء هي الأصل، والتاء بدل من الواو المبدلة منها، وأن التاء فيها زيادة معنى وهو التعجب"[٤].

والتعجب عند الزمخشري، والغرابة عند الطاهر هنا معناهما واحد، ولامشاحة في الاصطلاح.

وقد حاول الباحث تتبع مواطن التاء في القرآن الكريم، والوقوف على سياق الآي الشريف؛ فوجدها قد وردت تسع مرات، منها أربع مرات في سورة يوسف ومرتان في سورة النحل، ومرة في سورة الأنبياء، وأخرى في الشعراء، وأخرى في

---

(١) سورة الصافات: آية (٥٦).
(٢) التحرير والتنوير (١١٧/٢٣) ومابعدها.
(٣) سورة الأنبياء: آية (٥٧).
(٤) الكشاف (٥٧٦/٢).

الصافات ، وكان مدخول التاء في كل تلك الآيات جواب قسمه غريب ، ولاأود بسط القول في جميع تلك الأجوبة ، لتقرير العلماء لها في مواضعها ، ولطول بحثها بخروجي عما أمكن تقريره لااستقصاؤه ، ولإيفاء الإشارة في عضد المسألة ، وإغنائها عن إطالة العبارة ، وإليك تلك الآي :

(١) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾(١) .

(٢) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾(٢)

(٣) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(٣) .

(٤) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾(٤) .

(٥) ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾(٥) .

(٦) ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٦) .

(٧) ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾(٧) .

(٨) ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(٨) .

(٩) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾(٩) .

وهناك صيغ في التحرير والتنوير ، ألحقت بالقسم ، وعدت منه .

منها ماأورد في تفسير قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١٠) .

---

(١) سورة يوسف : آية (٧٣) .

(٢) سورة يوسف : آية (٨٥) .

(٣) سورة يوسف : آية (٩١) .

(٤) سورة يوسف : آية (٩٥) .

(٥) سورة النحل : آية (٥٦) .

(٦) سورة النحل : آية (٦٣) .

(٧) سورة الأنبياء : آية (٥٧) .

(٨) سورة الشعراء : آية (٩٧) .

(٩) سورة الصافات : آية (٥٦) .

(١٠) سورة فصلت : آية (٥٣) .

قال ابـن عاشـور : "والمعنـى : تكفيـك شـهادة ربـك بصدقـك ، فلاتلتفـت لتكذيبهم ، وهذا علـى حـد قولـه ﴿لكـن الله يشـهد بمـا أنـزل إليـك أنزلـه بعلمـه والملائكة يشهدون وكفـى بـالله شـهيدا﴾ ، وقولـه : ﴿وأرسـلناك للنـاس رسـولا ، وكفى بالله شهيدا﴾ . فهذا وجه في موقع هذه الآية .

وهنالك وجه آخر أن يكون مساقها مساق تلقين النبي ﷺ أن يستشهد بـالله على أن القرآن من عند الله ، فيكون موقعها موقع القسم بإشـهاد الله ، وهـو قسـم غليظ ، فيه معنى نسبة المقسم عليـه إلى أنـه مما يشـهد الله بـه ؛ فيكـون الاسـتفهام إنكاريا ، إنكارا لعدم الاكتفاء بالقسم بالله ، وهو كنايـة عـن القسـم ، وعـن عـدم تصديقهم بالقسم ، فيكون معنى الآية قريبا من معنى قوله تعالى : ﴿قل كفـى بـالله شهيدا بيني وبينكم﴾ ، وقوله تعالى : ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾"[1] .

الوجه الأول في معنى هذه الآية الشريفة لايدخـل في هـذا المبحـث ، والـذي أشار إليه ابن عاشور بقوله : "تكفيك شهادة ربك بصدقك فلاتلتفت لتكذيبهـم" . فالشهادة على أصلها .

أما الوجه الثاني الذي خرجت فيـه معنـى الشـهادة إلى لازمهـا ، فإنـه منـاط الشاهد ، وموضع الدلالة .

وهي صيغة من صيغ القسم التي لاتظهر فيها صراحة القسم ، وإنمـا يسـتظهر معنى القسم من خلال معاني أبنية هذه الصيغة ، فالاستفهام خرج إلى معنى الإنكار الذي ينكر عليهم عدم تصديقهم بشهادة الله التي هي من أغلظ أنواع القسـم ؛ لأن استشهاد الله على أمر ما ، إنما هو قسم على صحة ذلك الأمر ، وأنه ممـا يشـهد الله به .

ومنها أيضا صيغة ﴿ربنا يعلم﴾ عند تفسير قوله تعالى : ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّـا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[2] .

قال ابن عاشور : "و﴿ربنـا يعلـم﴾ قسـم لأنـه استشـهاد بـالله علـى صـدق مقالتهم ، وهو يمين قديمة ، انتقلها العرب ، في الجاهلية ، فقال الحارث بن عباد :

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥/٢٠،٢١) .

(٢) سورة يس : آية (١٦) .

لم أكن من جناتها علم اللـــــه وإني لحرها اليوم صالي

ويظهر أنه كان مغلظا عندهم لقلة وروده في كلامهم ، ولايكـاد يقـع إلا في مقـام مهـم . وهـو عنـد علمـاء المسـلمين يمـين كسـائر الأيمـان فيهـا كفـارة عنـد الحنث "[١].

وهذه الصيغة في هذه الآية أوضح من سابقتها في إفادتها معنى القسـم ، لأن نسبة المقسم عليه إلى أنه مما يعلمه الله إنما هـو قسـم مغلـظ لايقـع إلا في مقـام مهـم كما ذكر ابن عاشور ، ولذلك قل في كلامهم .

وهاتان الصيغتان قد تتعدد أوجه بنائهما مـن فعـل مـاض ، أو مضـارع ، أو اسم فاعل ، ولايلزم حصرها في تركيب معين .

وقد أشار الزمخشري في كشافه إلى هاتين الصيغتين في جريانها مجرى القسـم فقال : "وقوله ﴿ربنا يعلم﴾ جار مجرى القسم في التوكيد ، وكذلك قولهم شهد الله وعلم الله"[٢] .

ومن تلك الصيغ الجارية مجرى القسم في كلامهم القسم بطريقة الدعاء علـى أنفسهم ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَـالُوا اللَّهُـمَّ إِنْ كَـانَ هَـذَا هُـوَ الْحَـقَّ مِـنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وكلامهم هذا جار مجرى القسم ، وذلك أنهـم يقسـمون بطريقة الدعاء على أنفسهم ، إذا كان ماحصل في الوجود على خلاف مايحكونه أو يعتقدونه ، وهم يحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة ، وهـذه طريقـة شـهيرة في كلامهم"[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٦١/٢٢،٣٦٢) .

(٢) الكشاف (٣١٨/٣) .

(٣) سورة الأنفال : آية (٣٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٣١/٩) ومابعدها .

ثم ساق الطاهر[١] شواهد شعرية تدليلا على أن هذا الأسلوب جار في كلامهم ، وأن الدعاء على أنفسهم يقوم مقام القسم ، فدونكها .

قال النابغة :

ماإن أتيت بشئ أنت تكرهه   إذن فلارفعت سوطي إلي يدي[٢]

وقال معدان بن جواس الكندي[٣] أو حجية بن المضرب السكوني[٤] :

إن كان مابلغت عني فلامني   صديقي وشلت من يدي الأنامل
وكفنت وحدي منذرا بردائه   وصادف حوطا من أعادي قاتل[٥]

وقال الأشتر النخعي[٦] :

بقيت وفري وانحرفت عن العلا   ولقيت أضيافي بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة   لم تخل يوما من نهاب نفوس[٧]

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣١/٩) ومابعدها .

(٢) هكذا في ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح المرزوقي (١٥١/١) ، ديوان النابغة (ص٢٠) .

(٣) ومعدان بن جواس الكندي من الشعراء المخضرمين ، كان نصرانيا فأسلم أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
ينظر : معجم الشعراء للمرزباني (ص٤٠٧) ، الإصابة (٣٠٤/٦) .

(٤) هكذا في المؤتلف للآمدي (ص٨٥) .
وحجية بن المضرب السكوني شاعر جاهلي أدرك الإسلام .
ينظر : المؤتلف للآمدي (ص١٨٣) ، الأغاني (٣٣٠/٢٠) ومابعدها .

(٥) "منذر" هو أخو الشاعر ، و"حوط" ابنه ، فالشاعر يدعو على نفسه بشلل يده ، وأن يصاب أيضا في أخيه وأن يقتل ولده إن كان من أخباره مايوجب لومه من أصدقائه .
ينظر : شرح التبريزي للحماسة (٧٧/١) ومابعدها .

(٦) هو مالك بن الحارث النخعي الكوفي ، شاعر مخضرم ، شهد موقعة الجمل واليرموك ولقب بالأشتر لضربة في معركة اليرموك أصابته في رأسه ، فنزلت على عينه فشترتها . توفي سنة ٣٨هـ .
ينظر : معجم المرزباني (ص٣٦٢) ، الإصابة (٢٦٨/٦) .

(٧) الوفر :المال الكثير ، والمعنى أنه يدعو على نفسه بأن يبقى ماله ولاينفقه ليكسب حمدا ، كما يفعل البخلاء ، وأن يبتعد عن المعالي والمفاخر كفعل الأدنياء ، وأن يلقى أضيافه بوجه عبوس إن لم يشن على ابن حرب غارة ...الخ .
ينظر : شرح الحماسة للمرزوقي (١٤٩/١) ومابعدها .

الأحرف الزائدة :

الأولى تسميتها بأحرف الصلة ، أو الأحرف المؤكدة ، تأدبا مع القرآن ، واستقلالا بالفن البلاغي عن الاصطلاح النحوي الذي شاع لدى الدارسين .

وإطلاق الأحرف عليها من باب التغليب ، إذ هي الأكثر ، وإلا فإن هناك أسماء ، وأفعالا زائدة ، أو بالأصح صلة ، فأحرف الصلة هي : من .. ما .. الباء .. لا .. اللام .. أن .. الفاء .

والأسماء هي : ذا .. إذ .

والأفعال هي : أكاد .. كان .. كنتم .. كانوا .. لم تك .. لم يك .

ودونكها بالإيضاح .

الأفعال :

أشار ابن عاشور إلى اختلاف العلماء في تفسير قوله تعالى : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[(١)] .

ثم رجح ثلاثة أوجه في تفسيرها هي أمثلها عنده ، أحدها زيادة "أكاد" فقال : "وقيل : وقعت "أكاد" زائدة هنا بمنزلة زيادة "كان" في بعض المواضع ، تأكيدا للإخفاء ، والمقصود : أنا أخفيها فلاتأتي إلا بغتة"[(٢)] .

ونص الخضري في حاشيته[(٣)] على الألفية امتناع زيادة "أكاد" وأشار الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي في تفسير هذه الآية إلى زيادة "أكاد" ولم يرتضها ـ بصيغة التمريض حين قال : "وقيل "أكاد" هنا زائدة"[(٤)] .

واستحسان ابن عاشور زيادتها ، وأمثليتها في نظره مدعاة غرابة .

والأظهر في "أكاد" في هذا الموضع من أقوال العلماء ، هو كون "أكاد" غير

---

(١) سورة طه : آية (١٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٠٢/١٦) .

(٣) ينظر حاشية الخضري على الألفية (١٢٣/١) .

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (١٩٤/٦) .

صله ، ويكون المعنى على تقدير محذوف أي : أكاد أخفيها من نفسي ، وهذا ماروي عن ابن عباس وجعفر الصادق ، ويؤيد هذا الوجه ثبوت "من نفسي" في مصحف أبي[١] ، وهذا التقدير له قرينة خارجية ثبوته في بعض المصاحف ، وأنه أيضا من أساليب الاستعمال العربي ، وهو أولى من ادعاء زيادة "أكاد" التي لم يرتض النحاة زيادتها .

والفعل الآخر هو "كان" وقد أجاز النحاة زيادتها .

قال ابن مالك في ألفيته :

وقد تزاد كان في حشو كما كان أصح علم من تقدما[٢]

وزيادتها قياسية بشروط مبسوطة في علم النحو[٣] .

وقد ذكر ابن عاشور زيادتها فيما يقارب خمسة عشر موضعا ، بصيغها المختلفة المشار إليها سابقا .

وأكثر ماتكون زيادتها بصيغة الماضي ، وأشار إلى ذلك ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وزيادة فعل الكون في ﴿من كان في المهد﴾ ، للدلالة على تمكن المظروفية في المهد من هذا الذي أحيلوا على مكالمته ، وذلك مبالغة منهم في الإنكار ، وتعجب من استخفافها بهم ، ففعل "كان" زائد للتوكيد ، ولذلك جاء بصيغة المضي ؛ لأن كان الزائدة تكون بصيغة الماضي غالبا"[٥] .

وقد تكون بصيغة المضارع ، كما أشار إلى ذلك ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[٧] .

---

(١) ينظر : روح المعاني (١٦/١٧٢) ومابعدها .

(٢) ينظر : متن الألفية ضمن حاشية الخضري (١/١١٦) .

(٣) ينظر : الكافية الشافية لابن مالك (١/٤١١) ومابعدها ، الصبان على الأشموني (١/٢٥١) ومابعدها .

(٤) سورة مريم : آية (٢٩) .

(٥) التحرير والتنوير (١٦/٩٧) .

(٦) سورة غافر : آية (٥٠) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٤/١٦٦) .

(٧) سورة غافر : آية (٨٥) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٤/٢٢٢) .

ففعل الكون "لم تك" و"فلم يك" ، كلاهما صلة ، أفادا التوكيد .

وهناك حالة تأخذ فيها "كان" العاملة حكم "كان" الزائدة ، كما أوردها ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "و"كان" هنا في حكم الزائدة ؛ لأنها زائدة معنى ، وإن كانت عاملة ، والمراد : وماهم بمهتدين ، فزيادة "كان" هنا لتحقيق النفي مثل موقعها مع لام الجحود ، وليس المراد أنهم ماكانوا مهتدين قبل أن يقتلوا أولادهم ، ويحرموا مارزقهم الله ؛ لأن هذا لايتعلق به غرض بليغ"[2] .

وقد ألمح إلى مثل هذا في قوله تعالى : ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[3] .

---

(١) سورة الأنعام : آية (١٤٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٨/١٦) .

(٣) سورة الإسراء :آية (٣١) . وينظر : التحرير والتنوير (١٥/٨٩) .

الأسماء :

أشار الطاهر إلى زيادة إذ ... وذا من الأسماء ؛ فالأولى في موضع واحد ، والأخرى في خمسة مواضع .

إذ :

ظرف موضوع لزمان نسبة ماضية ، وقع فيه نسبة أخرى مثلها[(١)] .

وقد استحسن زيادتها ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "فالذي ينساق إليه ، أسلوب النظم فيه أن يكون العطف على جملة ﴿خلق لكم مافي الأرض جميعا﴾ أي : خلق لكم مافي الأرض ، وقال للملائكة إني خالق أصل الإنسان ، لما قدمناه ، من أن ذكر خلق مافي الأرض ، وكونه لأجلنا يهيئ السامع لترقب ذكر شأننا بعد ذكر شأن ماخلق لأجلنا من سماء وأرض ، وتكون إذ على هذا مزيدة للتأكيد ، قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى وأنشد قول الأسود بن يعفر :

فإذ وذلك لامهاه لذكره   والدهر يعقب صالحا بفساد"[(٣)]

ولم يجز جمهور النحاة زيادة إذ ، عدا أبي عبيدة وابن قتيبة[(٤)] ، واستقبح أبو حيان[(٥)] ذلك منهما ، ورماهما بالضعف في النحو .

وقال أبو إسحاق الزجاج : "هذا إقدام من أبي عبيدة"[(٦)] .

ومنع زيادتها ابن عطية[(٧)] ، والرازي[(٨)] ، والشهاب الخفاجي[(٩)] ، وأهملها

---

(١) ينظر : تفسير أبي السعود (٧٩/١) .
(٢) سورة البقرة : آية (٣٠) .
(٣) التحرير والتنوير (٣٩٦/١) .
(٤) ينظر : مجاز القرآن (٣٦/١) ومابعدها ، تأويل مشكل القرآن (ص٢٥٢) ، مغني اللبيب (٨٣/١) .
(٥) ينظر : البحر المحيط (٢٨٤/١) ومابعدها .
(٦) معاني القرآن وإعرابه (١٠٨/١) .
(٧) ينظر المحرر الوجيز (١١٦/١) .
(٨) ينظر : مفاتيح الغيب (١٤٧/٢) .
(٩) ينظر : حاشية الشهاب على البيضاوي (١١٨/٢) ومابعدها .

الزمخشري[١] ، والنسفي[٢] ، والجلالان[٣] ، والجمل في فتوحاته[٤] .

وأشار إليها العكبري في إملائه[٥] بصيغة التمريض ، وكذا أبو السعود في تفسيره[٦] .

وحاول ابن عاشور - بعد ارتضائه زيادتها - التعليل ؛ فقال : "ولايشكل عليه أن شأن الزيادة أن تكون في الحروف ، لأن إذ وإذا ، ونحوهما عوملت معاملة الحروف"[٧] .

وهذه مدعاة غرابة أخرى عند ابن عاشور .

(١) ينظر : الكشاف (٢٧١/١) .
(٢) ينظر : تفسير النسفي (٤٠/١) .
(٣) ينظر : تفسير الجلالين (٣٧/١) .
(٤) ينظر : الفتوحات الإلهية (٣٧/١) .
(٥) ينظر : إملاء مامن به الرحمن (٢٧/١) .
(٦) ينظر : تفسير أبي السعود (٧٩/١) .
(٧) التحرير والتنوير (٣٩٧/١) .

ذا :

اسم إشارة ، يشار به للمفرد المذكر القريب[١] .

ذكر ابن عاشور أنه إذا ركب مع "ما" أو "من" ، الاستفهاميتين ؛ فإنه يصبح صلة مفيدا للتوكيد في مواضع ، منها ماأورده في تفسير قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وعن الفراء : "ذا" صلة ، أي : زائدة لمجرد التأكيد ،مثل ماقال كثير من النحاة : إن "ذا" في "ماذا" ، ملغاة ، قال الفراء : رأيتها في مصحف عبد الله "منذا الذي" والنون موصولة بالذال"[٣] . أ.هـ

ورأى إفادتها التوكيد وزيادتها في قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ﴾[٥] .

أما ماأورده مع "ما" الاستفهامية ، فعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا﴾[٦] .

قال ابن عاشور : "وأصل "ماذا" كلمة مركبة من "ما" الاستفهامية ، و"ذا" اسم الإشارة ؛ ولذلك كان أصلها ، أن يسأل بها عن شئ مشار إليه ؛ كقول القائل : ماذا ، مشيرا إلى شئ حاضر بمنزلة قوله : ماهذا .

غير أن العرب توسعوا فيه ، فاستعملوه اسم استفهام مركبا من كلمتين ، وذلك حيث يكون المشار إليه معبرا عنه بلفظ آخر غير الإشارة ، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر لمجرد التأكيد ، نحو ماذا التواني ، أو حيث

---

(١) ينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (١/١٣٤) ، حاشية الخضري على الألفية (١/٦٧) .

(٢) سورة الحديد : آية (١١) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/٣٧٧) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٤٥) ، ينظر : التحرير والتنوير (٢/٤٨١،٤٨٢) .

(٥) سورة البقرة : آية (٢٥٥) ، ينظر : التحرير والتنوير (٣/٢١) .

(٦) سورة البقرة : آية (٢٦) .

لايكون للإشارة موقع نحو : ﴿وماذا عليهم لو آمنوا بالله﴾ ولذلك يقول النحاة : إن "ذا" ملغاة في مثل هذا التركيب"[١] .

لايتوانى ابن عاشور في تفسير التراكيب ، والصيغ العربية ، وإرجاعها إلى أصولها ، وأطوار استعمالها ، ببيان ناصع ، وأسلوب واضح ، فيه إحاطة وشمول .

ونظرة ابن عاشور لتلك الصيغ ماهي إلا نظرة الباحث المدقق الذي يحاول أن يقف على كل شئ بنفسه ، وإن سبقته نظرات متعددة حول ماهو بصدده .

ولعل وجود هذه الروح العلمية التي تتضافر فيها تواثب التقرير والتحرير لاستقصاء أطراف الدقائق في مسألة النصوص ، هي التي تضفي على البحث والتحصيل العلمي روح الجدة ، ولايجري في ذهن قارئ بصير أن معالجة ابن عاشور لأصل "ماذا" إنما هو كلام مكرور معاد سبقه به الآخرون .

وليكن في الاعتبار أن جمع حقائق المسألة بهذه الصورة ماهي إلا نظرة ابن عاشور الواضحة عليها التي تخدم بحثه ، وتفي بمقام غرضه ، وتجمع أشتاتا من المسائل في موضع واحد ، وتبين عن آرائه ، وموافقاته واختياراته وترجيحاته ، وتنبئ من خلال ذلك كله عن أبعاد وأعماق العقلية المتناولة للمسألة ، ومايهمني من كلام ابن عاشور هو الشق الأخير الذي يشير فيه إلى إلغاء "ذا" فهو يوافق النحاة فيما قرروه ، ويرى أنها تفيد التوكيد .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٦٤/١) .

الأحرف :

ذكر ابن عاشور سبعة أحرف تزاد في تركيب الجملة لإفادة التوكيد ، وقد أورد أمثلتها ، وحاول أن يستجلي نكتها وأسرارها ، وهذه الأحرف هي : من .. ما .. الباء لا .. اللام .. أن .. الفاء .

(١) من :

ذكرها فيما يقارب ثلاثين موضعا ، وأشار إلى أنها تزاد في الإثبات كما تزاد في النفي ، مؤيدا رأي الأخفش والكوفيين ، وأبي علي الفارسي ، وابن جني ، وهي مفيدة لتوكيد مضمون الجملة .

فعند تفسير قوله تعالى : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وقوله ﴿من كل زوج﴾ يظهر أن حرف "من" فيه مزيد للتوكيد ؛ وزيادة "من" في غير النفي نادرة ، أي : أقل من زيادتها في النفي ، ولكن زيادتها في الإثبات واردة في الكلام الفصيح ، فأجاز القياس عليه نحاة الكوفة ، والأخفش ، وأبو علي الفارسي ، وابن جني ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ إن المعنى : ينزل من السماء جبالا فيها برد . وقد تقدم ذلك في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا﴾(٢) ، في سورة الأنعام"(٣) .

وتنص "من" في النفي على عمومه ، وتؤكده ، شريطة وقوعها بعد نفي ، أو نهي ، أو استفهام مخصوص بـ"هل" .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾(٤) .

قال ابن عاشور : "وحرف "من" زائد لتوكيد العموم الذي في النكرة ، ليفيد تطلبهم كل سبيل للخروج ، وشأن زيادة "من" أن تكون في النفي ، ومافي معناه دون الإثبات .

---

(١) سورة ق : آية (٧) .

(٢) سورة الأنعام : آية (٩٩) ، إشارته في سورة الأنعام عابرة لاتكاد تذكر ، وينظر : التحرير والتنوير (٤٠٠/٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٩/٢٦) .

(٤) سورة غافر : آية (١١) .

وقد عد الاستفهام بـ"هل" خاصة من مواقع زيادة "من" لتوكيد العموم ، كقوله تعالى : ﴿وتقول هل من مزيد﴾ . وتقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ في سورة الأعراف ، وأن وجه اختصاص "هل" بوقوع "من" الزائدة في المستفهم عنه بها ، أنه كثر استعمال الاستفهام بها في معنى النفي ، وزيادة "من" حينئذ لتأكيد النفي وتنصيص عموم النفي ، فخف وقوعها بعد "هل" على ألسن أهل الاستعمال"[١] .

ومإخال كلام ابن عاشور هذا إلا عضدا لما أسلفت[٢] به من سابق بيان في شأن معالجة الطاهر المسائل العلمية بروح الباحث المدقق ، الذي يتباصر بمثل هذه التدقيقات العلمية ، والمناقشات الواعية البناءة ، حتى ولو كان فيما ينضوي تحت ظل المسلمات ـ بتشديد اللام وفتحها ـ .

وابن عاشور في هذا المقام يعالج وقوع "من" حرف الجر الصلة عقب "هل" الاستفهامية واختصاصها به .

وقد حاول الباحث استقراء آيات الكتاب الشريف في مواضع "هل" ووقوع "من" بعدها ، فوجد هل قد وردت في كتاب الله ثلاثا وثمانين موضعا ، لا ثلاثا وتسعين[٣] ، منها ثمانية عشر موضعا وردت فيها "من" عقب "هل" ، مفيدة في الغالب النفي ، واختصاصها بها بما يتفق مع ماقرره ابن عاشور ، وإليك تلك الآيات :

(١) ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٤] .

(٢) ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[٥] .

(٣) ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[٦] .

---

(١) التحرير والتنوير (٩٩/٢٤) .

(٢) ينظر (ص٧٨) .

(٣) ينظر : معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم (ص٦٤٨) .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٥٤) .

(٥) سورة الأنعام : آية (١٤٨) .

(٦) سورة الأعراف : آية (٥٣) .

(٤) ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا﴾[١] .
(٥) ﴿فهل أنت مغنون عنا من عذاب الله من شئ﴾[٢] .
(٦) ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾[٣] .
(٧) ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[٤] .
(٨) ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[٥] .
(٩) ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾[٦] .
(١٠) ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٧] .
(١١) ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾[٨] .
(١٢) ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾[٩] .
(١٣) ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[١٠] .
(١٤) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[١١] .
(١٥) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[١٢] .
(١٦) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[١٣] .

---

(١) سورة التوبة : آية (١٢٧) .
(٢) سورة الرعد : آية (٣١) .
(٣) سورة مريم : آية (٩٨) .
(٤) سورة الروم : آية (٢٨) .
(٥) سورة الروم : آية (٤٠) .
(٦) سورة فاطر : آية (٣) .
(٧) سورة غافر : آية (١١) .
(٨) سورة الشورى : آية (٤٤) .
(٩) سورة ق : آية (٣٠) .
(١٠) سورة ق : آية (٣٦) .
(١١) سورة القمر : آية (١٥) .
(١٢) سورة القمر : آية (١٧) .
(١٣) سورة القمر : آية (٥١) .

(١٧) ﴿هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾[١] .
(١٨) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[٢] .

وقد تزاد من للمشاكلة اللفظية كما يرى ابن عاشور ، في قوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾[٣] ، فوقوع "من" الزائدة في قوله "من برد" لقصد مشاكلة قوله "منَ جبال" وقد سبق تحريره في دواعي التوكيد[٤] .

---

(١) سورة الملك : آية (٣) .
(٢) سورة الحاقة : آية (٨) .
(٣) سورة النور : آية (٤٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٨/٢٦٢) .
(٤) ينظر (ص٤٧) .

(٢) **ما :**

ذكرها ابن عاشور فيما يقارب عشرين موضعا ، فأفاد أنها حرف زائد يدخل على النكرة ، فيؤكد معناها من تنويع ، أو تعظيم ، أو تحقير ، بل يجعلها نصا في ذلك .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنْ الأَحْزَابِ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "و"ما" حرف زائد يؤكد معنى ماقبله ، فهي توكيد لما دل عليه "جند" بمعناه ، وتنكيره للتعظيم ، أي : جند عظيم ؛ لأن التنوين وإن دل على التعظيم ، فليس نصا ، فصار بالتوكيد نصا"(٢) .

وهذا مايراه الطاهر خلافا لمن يزعم أن "ما" في هذه المواضع نكرة مبهمة .

وشاعت زيادة "ما" على أسماء وأفعال وحروف ، لقصد إفادة التوكيد ، نحو قليل ، كثير ، قَلَّ ، طال ، الباء ، من ، عن ، رب ، الكاف(٣) .

وتدخل على "إن" لقصد إفادة الحصر ، والحصر إنما هو توكيد على توكيد .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(٤) .

قال ابن عاشور : "وليس اتصال "إن" بـ"ما" الزائدة الكافة بمغير موقعها بدون "ما" ، لأن اتصالها بها زادها معنى الحصر"(٥) .

ودخول "ما" على مدخولها من أدوات الشرط يفيد زيادة تحقيق ربط الجزاء بالشرط ، نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾(٦) .

وقد سبقت الإشارة لنحوه في دواعي التوكيد(٧) .

---

(١) سورة ص : آية (١١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١٩/٢٣) .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (١٧/٦) ، (٣٤٩/٢٦) .

(٤) سورة محمد : آية (٣٦) .

(٥) التحرير والتنوير (١٣٢/٢٦) ومابعدها .

(٦) سورة المؤمنون : آية (٩٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٨٨/١٨) .

(٧) ينظر (ص٣٦) .

ودخول "ما" على مدخولها من الأسماء الموصولة ، يكسبها عموما ، فيحولها شبيهة بالشرط . مثل قوله تعالى : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾[1] وقد سبقت[2] الإشارة إليه في دواعي التوكيد .

---

(١) سورة القصص : آية (٢٨) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٠/١١٠) .

(٢) ينظر (ص٣٥) .

(٣) **الباء:**

ذكرها فيما يقارب ثلاثين موضعا في تحريره وتنويره ، وحاول أن يفرق بين تركيبي جملة واحدة ، يتعدى فعلها إلى مفعوله تارة بنفسه ، وتارة بالباء ، نحو : كذبت به ، كذبته ، فأفاد أن المعدى بحرف التوكيد يدل على التكذيب القوي ، وهو تكذيب الحجة والبرهان مما يعد سبب تصديق ، وعليه قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾(١) ، بينما التركيب الآخر ، الذي يعدى بدون حرف التوكيد يكون أقل من سابقه ، فلايقال ، كذبت بفلان ، بل يقال :كذبت فلانا(٢) .

ودخول الباء على فاعل كفى تؤكد جدارة الفاعل ، واتصافه بالمميز بعده ، نحو : ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾(٣) .

قال ابن عاشور عند تفسير هذه الآية : "وفعل "كفى" في قوله ﴿وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ ، مستعمل في تقوية اتصاف فاعله بوصف يدل عليه التمييز المذكور بعده ، أي أن فاعل "كفى" أجدر من يتصف بذلك الوصف ، ولأجل الدلالة على هذا غلب في الكلام إدخال الباء على فاعل فعل "كفى" ، وهي باء زائدة لتوكيد الكفاية ، بحيث يحصل إبهام يشوق السامع إلى معرفة تفصيله ، فيأتون باسم يميز نوع تلك النسبة ليتمكن المعنى في ذهن السامع"(٤) .

فالباء الزائدة ، أو بالأصح الصلة الواقعة في فاعل كفى تكون مؤكدة ؛ لأحقية الفاعل باتصافه بالمميز بعده ، وهذا وجه مجيئها في فاعل كفى .

إضافة على هذا أن بناء مثل هذا التركيب فيه تشويق للسامع ؛ لأجل أن يتمكن الخبر في ذهنه ، عن طريق البيان بعد الإبهام ، في مجئ التمييز ، الذي يفسر وجه تأكيد الكفاية الواقعة في النسبة بين الفعل والفاعل ، وهذا التركيب فيه هاتان النكتتان البلاغيتان ، وربما ورد هذا التركيب بغير الباء الزائدة فزالت إحداهما ، وبقيت الأخرى ، وقد استطرد ابن عاشور في الآية نفسها ، وأشار إلى ذلك ، فقال

---

(١) سورة القمر : آية (٢٣) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٦٦/٧) .

(٣) سورة النساء : آية (٤٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٧٣/٥) .

"وقد يجئ فاعل كفى غير مجرور بالباء ، كقول عبد بني الحسحاس :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وجعل الزجاج الباء هنا[١] غير زائدة ، وقال : ضمن فعل كفى معنى اكتف واستحسنه ابن هشام"[٢] .

وبهذا ترى أن زيادة الباء في فاعل "كفى" زيادة غالبة ، وليست زيادة لازمة وقد أشار ابن هشام إلى ذلك في مغنيه[٣] .

وربما دخلت هذه الباء الزائدة على المفعول في كلام من يحتج بكلامه ، وقد أشار ابن عاشور لذلك فقال : "وشذت زيادة الباء في المفعول ، كقول كعب بن مالك أو حسان بن ثابت :

فكفى بنا فضلا على من غيرنا   حب النبي محمد إيانا

وجزم الواحدي في شرح قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل   لولا مخاطبتي إياك لم ترني

بأنه شذوذ .

ولاتزاد الباء في فاعل "كفى" بمعنى أجزأ ، ولاالتي بمعنى وقى ، فرقا بين استعمال كفى المجازي ، واستعمالها الحقيقي ، الذي هو معنى الاكتفاء بذات الشئ نحو :

كفاني ولم أطلب قليل من المال"[٤]

وربما أراد الشيخ بكلمة شذوذ التي وصف بها دخول الباء على مفعول كفى أي : من جهة القياس لا الاستعمال ، فهو فصيح استعمالا ، شاذ قياسا ؛ لأن وروده في كلام العرب الخلص المحتج بكلامهم دليل على أنه من الفصيح استعمالا ،

---

(١) المراد بـ"هنا" أي في الآية الكريمة : ﴿كفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا﴾ . سورة النساء : آية (٤٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٥/٧٣) .

(٣) ينظر : مغني اللبيب (١/١٠٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٥/٧٣) .

إذ أن ألسنتهم لايمكن أن تنطق بخلاف ماهو فصيح ، ويعضد هذه الوجهة الحديث الصحيح وهو قول النبي ﷺ : "كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل مايسمع"[(١)] .

إذ أن الباء الصلة قد دخلت على المفعول الذي هو لفظه "المرء" ، ولم تدخل على الفاعل الذي هو المصدر المنسبك من أن المصدرية وفعلها ، وهو "التحديث" ، وعلى هذا فالمراد بالشذوذ أي : قياسا .

وقد نبه الشيخ في كلامه إلى أمر آخر هو أن خروج كفى عن معناها الحقيقي ، وهو الاكتفاء إلى المعاني المجازية كالإجزاء ، والوقاية لايزاد في فاعلهما الباء ، وإن وردا بلفظة "كفى" فليعرف مثل هذا الفرق .

وبعد هذا الإيفاء والبسط والبيان في "الباء" الصلة الواقعة بعد "كفى" سواء في الفاعل أو المفعول ، ينتقل الكلام إلى الباء "الصلة" الواقعة في مفعول غير كفى ، وهي باء أيضا تفيد التوكيد كما في قوله تعالى : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور عند تفسير هذه الآية : "والباء للتأكيد ، مثل ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ ، وقول النابغة ـ يرثي النعمان بن المنذر ـ

لك الخير إن وارت بك الأرض واحدا
وأصبح جد الناس يظلع عاثرا

أراد إن وارتك الأرض موارة الدفن .

والمعنى : فامسحوا وجوهكم ، وأيديكم ، وقد ذكرت هذه الباء مع الممسوح في الوضوء ، ومع التيمم للدلالة على تمكن المسح لئلا تزيد رخصة على رخصة"[(٣)] .

فالباء الواقعة في مفعول الفعل "امسحوا" صلة ؛ لأن الفعل يتعدى بدونها ؛ ولأن المعنى يتم بحذفها ، ولكن مجيئها هنا لإفادة تحقق مسح الوجوه والأيدي ، في التيمم ؛ لأنه ـ أي التيمم ـ رخصة عن الوضوء ، أي : الماء ، والمسح رخصة عن الغسل ـ بفتح الغين ـ فأتت الباء لتفيد تمكن المسح ، لئلا تتزايد الرخص .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في باب النهي عن الحديث بكل ماسمع (١/١٠) .

(٢) سورة المائدة : آية (٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٥/٧٠) .

(٤) **لا :**

أشار إليها ابن عاشور فيما يزيد على سبعة مواضع ، ورجح زيادتها في أوائل القسم نحو ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[١] ، وماشاكله من الآي الشريف ، خلافا لمن رأى أنها نافية وأن منفيها كلام سابق ؛ لأن القرآن كالسورة الواحدة ، وأن الفعل بعدها على الإثبات ، بينما نقل ابن هشام[٢] ــ خلافا لما في الكشاف ــ أن الزمخشري يرى أنها نافية للفعل الذي بعدها ، وهو "أقسم" ، وبهذا يكون الكلام إخبارا ، لا إنشاء .

والذي في الكشاف[٣] وحواشيه أنها زائدة مؤكدة ، وبذلك ينقل عنه ابن عاشور[٤] ويوافقه ، وإن كان لايشير إليه كما نبه في مقدمة كتابه .

ويرى ابن عاشور أن أصل "لا" ، ـ هذه المزيدة للتوكيد ـ النفي ويفسر معنى الآية الشريفة : ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٥] ، على ذلك ؛ فيقول : "و"لاأقسم" بمعنى : أقسم ، و"لا" مزيدة للتوكيد ، وأصلها نافية تدل على أن القائل لايقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب في القسم ، وبمعنى أنه غير محتاج إلى القسم ؛ لأن الأمر واضح الثبوت ، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مرادا تأكيد الخبر ، فساوى القسم بدليل قوله عقبه : ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ ، وهذا الوجه الثاني هو الأنسب بما وقع من مثله في القرآن ، وعلى الوجهين فهو إدماج للتنويه بشأن مالو كان مقسما لأقسم به ، وعلى الوجه الثاني يكون قوله : "إنه لقسم" ، بمعنى : وإن المذكور لشئ عظيم ، يقسم به المقسم ، فإطلاق قسم عليه من إطلاق المصدر وإرادة المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق"[٦] .

---

(١) سورة البلد : آية (١) .

(٢) ينظر : مغني اللبيب (٢٤٩/١) .

(٣) ينظر : الكشاف ، الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٥٨/٤) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٠/٢٧) .

(٥) سورة الواقعة : آية (٧٥،٧٦) .

(٦) التحرير والتنوير (٣٣٠/٢٧) .

هذه من اللفتات العالية ، والنظرات الواعية ، التي تتجلى فيها صدق قدم ابن عاشور في العلم ، وطول باعه في المعالجة ، وروعة حسه البلاغي اليقظ في تناول أسرار الأساليب ، وهو ينمي ، ويبسط ، ويضيف في هذا الموضوع على ماأشار إليه صاحب روح المعاني في مجئ "لا" قبل الفعل "أقسم" من قوله : "وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه ، والمعنى لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ، أي : لايحتاج إلى قسم فضلا عن هذا القسم العظيم"[1] .

وقد ساق صاحب روح المعاني هذا الكلام عقب آراء كثيرة ، ومتعددة - متناثرة في كتب القوم ، ومقامنا لايحتاج إلى ذكرها - في معالجة موضع "لا" وأصلها في مثل هذا المقام .

ولكن ابن عاشور يختار هذا الرأي الأخير ، ويوجهه توجيها تطمئن له النفس ويقره سليم الذوق ، إذ يتفق معهم في الوجه الأول : وهو أن "لا" نافية ، والفعل بعدها منفي ؛ لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم .

ثم يضيف وجها آخر : وهو أن كثرة استعمال هذا التركيب جعلت القصد منه تأكيد الخبر ، فأصبح مساويا للقسم ، وعلى هذا فلا إشكال في قوله تعالى عقبه ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[2] ؛ لأن هذا التركيب كما أسلفت ، أصبح مساويا للقسم ، فجاز ذكره على أنه قسم ، وأيضا لايشكل عليه لفظة "قسم" ؛ لأن المراد بها اسم المفعول ، وهذا جار على سنن اللسان العربي ، نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾[3] ، أي معلومه .

ورأى زيادتها وإفادتها التوكيد في سورة آل عمران ، في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾[4] ، وفي سورة الحديد في قوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾[5] ، وفي آيات أخر تجري على هذا السياق[6] .

---

(١) روح المعاني (١٥٢/٢٧) .
(٢) سورة الواقعة : آية (٧٦) .
(٣) سورة البقرة : آية (٢٥٥) .
(٤) سورة آل عمران : آية (٨٠) . وينظر : التحرير والتنوير (٢٩٦/٣) .
(٥) سورة الحديد : آية (٢٩) . وينظر : التحرير والتنوير (٤٣٠/٢٧) .
(٦) ينظر : التحرير والتنوير (٤٣٠/٢٧، ٤٣١) .

(٥) اللام :

لقد أفاد ابن عاشور أن هناك لامات تفيد التوكيد ، منها الصلة ، ومنها غير الصلة ـ عدا لام الابتداء السابق ذكرها ـ ويمكن إدراج تلك اللامات في هذا الموضع لقلة إشارته إليها ، وقلة مادتها العلمية ، وعدم إيفائها بتغطية مساحة مبحث مستقل .

زد على ذلك أن الترجمة عند أهل العلم قد تزيد على المترجم ، وقد تنقص عنه ، فالأولى يعدونها لها ، والأخرى عليها .

من تلك اللامات التي تفيد التوكيد لام الجر ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وإعادة اللام في قوله : "ولرسوله" مع أن حرف العطف مغن عنها لتأكيد عزة الرسول ﷺ ، وأنها بسبب عزة الله ، ووعده إياه ، وإعادة اللام أيضا في قوله "وللمؤمنين" ، للتأكيد أيضا ، إذ قد تخفى عزتهم ، وأكثرهم في حال قلة وحاجة"[٢] .

ومنها أيضا اللام الواقعة في جواب لو ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وحذفت اللام التي شأنها أن تدخل على جواب "لو" الماضي المثبت ؛ لأنها لام زائدة ، لاتفيد إلا التوكيد فكان حذفها إيجازا في الكلام"[٤] .

وهناك اللام التي تسمى لام التبيين أو لام التبليغ ، وهي لام تدخل على المفعول به ، لقصد توكيد معنى المفعولية ، وهي لام زائدة ، نحو قوله تعالى : ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾[٥] .

---

(١) سورة المنافقون : آية (٨) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٥٠/٢٨) .
(٣) سورة الواقعة : آية (٧٠) .
(٤) التحرير والتنوير (٣٢٤/٢٧) .
(٥) سورة الشورى : آية (٤٧) .

قال ابن عاشور : "واللام في "لربكم" ، لتأكيد تعدية الفعل إلى المفعول ، مثل : حمدت له ، وشكرت له ، وتسمى لام التبليغ ، ولام التبيين"[١] .

وقد عد ابن عاشور أيضا لام التعليل لام تبيين ، وجرى على ماذهب إليه صاحب الكشاف[٢] . خلافا لنحاة البصرة ، والكوفة .

نحو قوله تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣١/٢٥) .

(٢) ينظر : الكشاف (٥٢١/١) .

(٣) سورة النساء : آية (٢٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٩/٥) .

(٤) سورة المائدة : آية (٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٣١/٦) .

(٥) سورة الصف : آية (٨) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٩٠/٢٨) .

(٦) **أن :**

ويكثر وقوعها بعد "لما" التوقيتية ، كما في سورة يوسف في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾(١) .

وفائدة التوكيد في هذه الآية تحقيق الكرامة ؛ لكونها أمرا خارقا للعادة ، وكما في سورة العنكبوت ، في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾(٢) .

وفائدة التوكيد هو تحقيق الربط بين الجملتين ، بمجئ الرسل ، ومساءة لوط بهم ، وسرعة الاقتران والتوقيت بينهما ؛ إذ مساءته بمجئهم ، أي : قبل علمه بكونهم ملائكة .

قال ابن عاشور : "و"أن" حرف مزيد للتوكيد ، وأكثر مايزاد بعد "لما" ، وهو يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد "لما" ، فهي هنا لتحقيق الربط بين مجئ الرسل ومساءة لوط بهم"(٣) .

ثم شرح ابن عاشور المراد بتحقيق الربط بين مضمون الجملتين فقال : "ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران ، والتوقيت بين الشرط ، والجزاء ، تنبيها على أن الإساءة عقبت مجيئهم ، وفاجأته من غير ريث ، وذلك لما يعلم من عادة معاملة قومه مع الوافدين على قريتهم ، فلم يكن لوط عالما بأنهم ملائكة ؛ لأنهم جاءوا في صورة رجال ؛ فأريد هنا التنبيه على أن ماحدث به من المساءة وضيق الذرع كان قبل أن يعلم بأنهم ملائكة جاءوا لإهلاك أهل القرية ، وقبل أن يقولوا ﴿لاتخف ولاتحزن﴾"(٤) .

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عاشور هو مأشار إليه صاحب الكشاف ، إذ قال : "(أن) صلة أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر ، في وقتين ، متجاورين ، لافاصل بينهما ، كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : كما أحس بمجيئهم ؛ فأجاته المساءة من غير ريث خيفة عليهم من قومه"(٥) .

---

(١) سورة يوسف : آية (٩٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٥٣/١٣) .

(٢) سورة العنكبوت : آية (٣٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٤٤/٢٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٤٤/٢٠) .

(٤) ن.م.س .

(٥) الكشاف (٢٠٥/٣) .

وقد عد ابن عاشور أيضا "أن" المصدرية مؤكدة زائدة ، موافقا رأي الأخفش .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وعن الأخفش أن "أن" زائدة ، فيكون بمنزلة قوله : ﴿ومالكم لاتؤمنون بالله﴾ .

وليس نصبها الفعل الذي بعدها بمانع من اعتبارها زائدة ؛ لأن الحرف الزائد قد يعمل مثل حرف الجر الزائد"[٢] .

وقد رد ابن هشام في مغنيه[٣] ، على الأخفش ، بأن "أن" الزائدة لاتعمل ؛ لعدم اختصاصها بالأفعال .

---

(١) سورة الحديد : آية (١٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٧٣/٢٧) .

(٣) ينظر : مغني اللبيب (٣٤/١) .

(٧) **الفاء :**

اختلف النحاة[(١)] في زيادتها ، فسيبويه ، وجماعة من النحاة منعوا ، وأجاز الأخفش ، وجماعة معه زيادتها ، على اختلاف بينهم في مواضع الزيادة ، وشروطها.

وقد جرى ابن عاشور على مذهب الأخفش ، وابن هشام النحوي ، والمجيزين لزيادتها .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وقرن "فيقول الضعفاء" ، بالفاء ، لإفادة كون هذا القول ناشئا عن تحاجهم في النار ، مع كون ذلك دالا على أنه في معنى متعلق "إذ" وهذا استعمال من استعمالات الفاء التي يسميها النحاة زائدة ، وأثبت زيادتها جماعة منهم الأخفش ، والفراء ، والأعلم ، وابن برهان ، وحكاه عن أصحابه البصريين"[(٣)] .

وقد أشار إلى زيادتها في قوله تعالى : ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٤)] وقوله تعالى : ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾[(٥)] .

---

(١) ينظر : رصف المباني (ص٣٨٦) ومابعدها ، الجنى الداني (ص٧٠) ومابعدها ، مغني اللبيب (١/١٦٥) ومابعدها .

(٢) سورة غافر : آية (٤٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/١٦٠) .

(٤) سورة الزخرف : آية (٥٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٥/٢٣٤) ومابعدها .

(٥) سورة الحشر : آية (٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٨/٧٧) .

ضمير الفصل :

وسمي بضمير الفصل ؛ لأنه يفصل[١] بين كون احتمال الاسم الذي بعده خبرا ، أو تابعا ، وبجعله ـ أي الاسم الذي بعده ـ خبرا بمجرد وجود ضمير الفصل قبله ، نحو : زيد هو القائم .

ويفيد تحقيق مضمون الجملة ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "ضمير "أنا" وضمير "هو" ضميرا فصل يفيدان التوكيد"[٣] .

وقد يفيد ضمير الفصل القصر أي : الاختصاص ، وقد عد من طرق القصر الستة المشهورة .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وفي ضمير الفصل إفادة أنه المختص بوصف الغني دون الأصنام ، وبأنه المختص بالمحمودية ، فإن العرب لم يكونوا يوجهون الحمد لغير الله تعالى . وأكد الحصر بحرف التوكيد وبلام الابتداء تحقيقا لنسبة القصر إلى المقصور ، كقول معديكرب (إني أنا الموت)"[٥] .

وقد يفيد ضمير الفصل التقوية ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[٦] .

---

(١) ينظر : مغني اللبيب (٢/٤٩٦) ، حاشية الخضري على الألفية (١/١٣٥) .
(٢) سورة الحجر : آية (٤٩،٥٠) .
(٣) التحرير والتنوير (١٤/٥٧) .
(٤) سورة الحج : آية (٦٤) .
(٥) التحرير والتنوير (١٧/٣٢٠) .
(٦) سورة يوسف : آية (١٠٠) .

قال ابن عاشور : "وجملة "إنه هو العليم الحكيم" مستأنفة أيضا ، أو تعليل لجملة "إن ربي لطيف لما يشاء" ، وحرف التوكيد للاهتمام ، وتوسيط ضمير الفصل للتقوية"[١] .

وإنما يكون للتقوية إذا لم يصلح المقام للقصر ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٥٨) .

(٢) سورة طه : آية (١٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٦/٢٠٠) .

قد :

من عناصر التوكيد المختصة بالأفعال ، وتفيد في الجملة الفعلية مفاد "إن واللام" في الجملة الاسمية ، أي تفيد تأكيدا قويا[١] .

ومعنى التحقيق ملازم لها ، حتى ولو كان الفعل مضارعا ، خلافا لما شاع عند الدارسين من إفادتها التقليل مع الفعل المضارع ، وقد حرر هذه المسألة ابن عاشور ، فقال : "ومعنى التحقيق ملازم له ، والأصح أنه كذلك ، سواء كان مدخولها ماضيا ، أو مضارعا ، ولايختلف معنى "قد" بالنسبة للفعلين"[٢] .

وهكذا يبين ابن عاشور هذه القاعدة الكلية في "قد" فهي تلازم معنى التحقيق فيما تدخل عليه من أفعال ، وهذا خلاف ماشهر بين الدارسين من إفادتها التحقيق مع الفعل الماضي ، نحو : قد نجح المجتهدون ، وإفادتها التقليل مع المضارع نحو : قد يصدق الكذوب ، وقد حاول ابن عاشور بيان مصدر هذا الفهم الخاطئ ، فقال : "وقد شاع عند كثير من النحويين أن "قد" ، إذا دخل على الفعل المضارع ، أفاد تقليل حصول الفعل ؛ وقال بعضهم : إنه مأخوذ من كلام سيبويه ، ومن ظاهر كلام الكشاف في هذه الآية[٣] .

والتحقيق أن كلام سيبويه لايدل إلا على أن "قد" يستعمل في الدلالة على التقليل لكن بالقرينة ، وليست بدلالة أصلية ، وهذا هو الذي استخلصته من كلامهم ، وهو المعول عليه عندي"[٤] .

وربما يقصد ابن عاشور بقوله : "قال بعضهم" صاحب البحر المحيط الذي ساق كلام سيبويه والزمخشري واستظهر منه ذلك في تحقيق مطول[٥] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٨/١٨) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩٦/٧) .

(٣) أي : في قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ . سورة الأنعام : آية (٣٣) . وينظر : الكشاف (١٤/٢) ، والانتصاف لابن المنير أيضا (١٤/٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١٩٦/٧) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (١١٤/٤،١١٥) .

ومما لايمكن إغفاله ملاحظة كثرة اقتران "قد" بـ"لام القسم" في القرآن ، ويمكن تفسير تلك الظاهرة البيانية بما استحسنه ابن عاشور من تفسير الزمخشري[١] لها ، حيث قال : "لأن القسم يهيئ نفس السامع لتوقع خبر مهم ، فيؤتى بـ"قد" ؛ لأنها تدل على تحقيق أمر متوقع ، كما أثبته الخليل ، والزمخشري ، والتوقع يكون توقعا للمخبر به ، وقد يكون توقعا للخبر"[٢] .

---

(١) ينظر : الكشاف (٨٤/٢) ، وينظر : مغني اللبيب (١٧٣/١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٨/٨) .

السين والتاء :

ذكرها ابن عاشور فيما يقرب من عشرين موضعا ، مفيدا أنها تأتي للتـأكيد إذا كانت لاتدل على الطلب ولم تصح له .

ولم أر له في تلك المواضع الزيادة عن الإشارة إلى مجيئها للتأكيد .

منها ماأورده في تفسير قوله تعالى : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وقوله "أتستبدلون" ، السين والتـاء فيـه لتـأكيد الحـدث ، وليس للطلب ، فهو كقوله "واستغنى الله" ، وقولهم : استجاب بمعنى أجـاب ، واستكبر ، بمعنى تكبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وكان شره مستطيرا﴾ في سورة الإنسان"[(٢)] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٦١) .

(٢) التحرير والتنوير (٥٢٣/١) .

السين :

هو حرف يدخل على الفعل المضارع ويخلصه للاستقبال ، فإذا خلصه للاستقبال أفاد تجدد وقوعه في ذلك الزمن ، ومن هنا نشأ التوكيد وتحقق الوقوع ، أفاده ابن عاشور[(١)] .

والسين تفيد التوكيد مع المستقبل على نحو ماتفيده "قد" مع الماضي ، وهي تدخل على فعل يدل على الوعد ، نحو قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "والسين في قوله تعالى : ﴿سأتلو عليكم﴾ ، لتحقيق الوعد ، كما في قوله تعالى : ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ في سورة يوسف"[(٣)] .

وتدخل على فعل يدل على وعيد ، نحو قوله تعالى : ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[(٤)] .

قال ابن عاشور : "والسين في "ستكتب" لتأكيد الوعيد"[(٥)] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٣٠/٢٨) .
(٢) سورة الكهف : آية (٨٣) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٣/١٦) .
(٤) سورة الزخرف : آية (١٩) .
(٥) التحرير والتنوير (١٨٤/٢٥) .

سوف :

وهو حرف يدخل على الفعل المضارع ويخلصه للاستقبال ، على اختلاف بين نحاة الكوفة ، والبصرة ، بأنها مرادفة للسين في المدة ، أو أوسع منها[(١)] .

وقد أوردها ابن عاشور في خمسة مواضع لم يزد فيها عن القول بأنها لتأكيد حصول الفعل في المستقبل ، وتحقق وقوعه ، سوى ماذكره ، في آيات سورة يوسف والليل والضحى ، من ملازمة تحقق وقوع الفعل في الحال أو الاستقبال واستمراره ، وعدم انقطاعه .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : "وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لاينقطع ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿قال سوف أستغفر لكم ربي﴾ ، في سورة يوسف ، وقوله : ﴿ولسوف يرضى﴾ ، في سورة الليل"[(٣)] .

---

(١) ينظر : الجنى الداني (ص٥٩) ومابعدها ، مغني اللبيب (١/١٣٩) .

(٢) سورة الضحى : آية (٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٣٩٨) .

حروف التنبيه :

وقد ذكر منها ابن عاشور "ألا" و "ها" ، وقد ذكر أن افتتاح الكلام بـ"ألا" إيماء إلى أهمية شأنه ، والاهتمام به ، وتحققه نحو قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] .

قال ابن عاشور عند تفسير هذه الآية : "وافتتاح الكلام بأداة التنبيه إيماء إلى أهمية شأنه"[٢] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[٣] .

ثم ذكر أن "ها" أداة التنبيه تفيد أيضا التأكيد ، ففي قوله تعالى : ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "و"هاأنتم هؤلاء" ، مركب من كلمة "ها" تنبيه في ابتداء الجملة ومن ضمير الخطاب ، ثم من "ها" التنبيه الداخلة على اسم الإشارة المفيدة تأكيد مدلول الضمير"[٥] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٦] .

ثم بين أن "ها" أداة التنبيه الواقعة قبل الضمير ، نحو "هاأنا" يرى كثير من النحويين أن مثل هذا الأسلوب لحن ، إذا لم يقع بعدها اسم إشارة ، وقد وردت في التنزيل بإيلاء اسم الإشارة بعدها ، كما في الآيتين السابقتين ، وقد خالف ابن عاشور[٧] النحاة في هذه المسألة وأجاز مثل هذا الأسلوب .

---

(١) سورة يونس : آية (٦٢) ،.

(٢) التحرير والتنوير (٢١٦/١١) .

(٣) سورة يونس : آية (٦٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٢٤/١١) .

(٤) سورة محمد : آية (٣٨) .

(٥) التحرير والتنوير (١٣٧/٢٦) .

(٦) سورة النساء : آية (١٠٩) .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (١٣٧/٢٦) ومابعدها .

الجملة الاسمية :

تعتبر من المؤكدات بكونها اسمية ، لابصيرورتها[١] اسمية ؛ لأنه لايشترط في التأكيد بها كونها معدولة عن الفعلية كما توهم ذلك من توهم[٢] .

إذ أن الجملة الاسمية لها اعتباران ؛ اعتبار إفادة أصل الحكم ، واعتبار إفادة تأكيد الحكم ؛ فبالاعتبار الأول تلقي لخالي الذهن ، بصرف النظر عن الاعتبار الثاني وبالاعتبار الثاني يؤكد بها[٣] .

وقد أشار إليها ابن عاشور مقترنة بمؤكدات أخرى ، نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وفي هذه الجملة تأكيد بإن ، وبالجملة الاسمية ، وبطريق القصر"[٥] .

---

(١) ينظر : حاشية عبد الحكيم السيلكوتي (ص١٢٣) .

(٢) ينظر : حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (٢٠٦/١) .

(٣) ينظر : تقرير الانبابي (٤٥٢/١) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٨) .

(٥) التحرير والتنوير (١٧١/٣) .

التكرير :

وصفه صاحب الطراز بأنه قلادة في الجيد ، وقاعدة في التجويد ، ورب كلام كان التكرير فيه أبلغ من الإيجاز ، وصار بالإعادة والبسط كالعلم والطراز[١] .

وفائدة التكرير ، والإعادة ، هي تحقق الخبر وتمكنه وتقريره عدا نكات المقام فقد يكون التكرير بإعادة الجملة نفسها ، كما في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وفائدة التكرير توكيد التقرير بما لله تعالى من نعم على المخاطبين ، وتعريض بتوبيخهم على إشراكهم بالله أصناما ، لانعمة لها على أحد ، وكلها دلائل على تفرد الإلهية ، وعن ابن قتيبة : أن الله عدد في هذه السورة نعماءه وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع كل خلة وصفها ، ونعمة وضعها بهذه ، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ، لينبههم على النعم ، ويقررهم بها" . أ.هـ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طرد للغفلة وتأكيد للحجة"[٣] .

وقد يكون التكرير بإعادة بعض أجزاء الجملة ؛ ليبني عليها حكم آخر ، نحو قوله تعالى : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وإنما أعيد لفظ "إلها" ولم يقتصر على وصف واحد ؛ لزيادة الإيضاح ؛ لأن المقام مقام إطناب ، ففي الإعادة تنويه بالمعاد ، وتوكيد لما قبله ، وهذا أسلوب من الفصاحة ؛ إذ يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ، ويحصل مع ذلك توكيد اللفظ السابق تبعا ، وليس المقصود من ذلك مجرد التوكيد"[٥] .

---

(١) ينظر : الطراز (ص٢٨٧) ومابعدها .
(٢) سورة الرحمن : آية (١٦) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٤٦/٢٧) .
(٤) سورة البقرة : آية (١٣٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٧٣٤/١) .

ففي هذا الأسلوب الذي يعاد فيه اللفظ ليبنى عليه وصف ، أو متعلق نكتتان بلاغيتان .

فأولى النكتتين : كما أوضحها ابن عاشور رحمه الله تعالى ، هي نكتة مقصودة من مجئ الكلام على هذه الصورة ، وهي أن يعاد اللفظ ليبنى عليه وصف أو متعلق ؛ ففي الآية الكريمة بني على اللفظ وصف "إلها واحدا" .

والمراد كون هذه النكتة مقصودة أي : قصدا أوليا بخلاف الأخرى التي تأتي تبعا في التركيب ، وليست مقصودة وحدها .

وثانية النكتتين : هي التوكيد الذي يفيده اللفظ المكرر أو المعاد ؛ ففي الآية الكريمة أعيد لفظ "إلها"من قوله تعالى : ﴿إلها واحدا﴾ ، فأفاد تأكيدا لقوله تعالى : ﴿نعبد إلهك وإله آبائك﴾ الآية ، أي : نعبد معبودك ومعبود آبائك إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق معبودا واحدا .

قال صاحب المصباح المنير : "أله يأله من باب تعب إلاهة بمعنى عبد عبادة ، وتأله تعبد ، والإله المعبود هو الله سبحانه وتعالى"[(١)] .

فاسم المفعول يعمل عمل فعله فيؤكد النسبة ، ومن أمثلة هذا الأسلوب مأشار إليه ابن عاشور بقوله : "ومنه قوله تعالى : ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ وقوله تعالى ، ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ ، وقوله : ﴿واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين﴾ . إذ أعاد فعل أمدكم ، وقول الأحوص الأنصاري :

فإذا تزول تزول عن متخمط   تخشى بوادره على الأقران ..." [(٢)]

وقد يكون تكرير التوكيد للتوكيد نفسه ، فيزداد توكيدا على توكيد ، نحو قوله تعالى على لسان امرأة عمران : ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾[(٣)] .

قال ابن عاشور : "وتكرر التأكيد في "وإني سميتها" ، "وإني أعيذها بك" ، للتأكيد"[(٤)] .

---

(١) المصباح المنير ، مادة (أله) (ص٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٧٣٤/١) .

(٣) سورة آل عمران : آية (٣٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٣٤/٣) .

وقد يكون التكرير للعامل في البدل ؛ لأجل التوكيد ، نحو قوله تعالى : ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "واللام في قوله "لبيوتهم" مثل اللام في قوله "لمن يكفر بالرحمن" ، أي : لجعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن ، فيكون قوله "لبيوتهم" بدل اشتمال ممن يكفر بالرحمن ، وإنما صرح بتكرير العامل للتوكيد ..."[٢] .

وقد يكون التكرير للنفي طلبا للتوكيد ، وهو كثير في القرآن ، كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وكرر حرف النفي مع المعطوف في قوله ، "ولا أولادهم" لتأكيد عدم غناء أولادهم عنهم ؛ لدفع توهم ماهو متعارف من أن الأولاد لايقعدون عن الذب عن آبائهم"[٤] ، ونحوه قوله تعالى : ﴿زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾[٥] .

---

(١) سورة الزخرف : آية (٣٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/٢٠٥) .

(٣) سورة آل عمران : آية (١١٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٤/٦٠) .

(٥) سورة النور : آية (٣٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٨/٢٤٠) ومابعدها .

التقديم:

والمراد به تقديم الفاعل في المعنى ، أو تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، لامطلق التقديم ؛ لأن التقديم سيكون له ـ إن شاء الله ـ باب مستقل في هذه الرسالة .

أما التقديم من هذا الجانب ، وهو تقديم الفاعل المعنوي ، فإنه مما نص عليه علماء[١] البلاغة في وسائل التوكيد ، وعدوه منها .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "فالتوكيد بان للاهتمام بالخبر ، وكذلك التأكيد ببناء الجملة بالمسند الفعلي ، دون أن يقال : إن الله عليم ، ولا : قد يعلم الله ..."[٣] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[٤] .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٢٠٤/١) .
(٢) سورة النحل : آية (٩١) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٦٣/١٤) .
(٤) سورة سبأ : آية (٣٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٢٠/٢٢) .

"أما" الشرطية :

مفتوحة الهمزة ، ومشددة الميم ، وهي حرف شرط ، وتفصيل ، وتوكيد .

وقد شرح الزمخشري توكيد "أما" ، بقوله : "تقول : زيد ذاهب فإذا قصدت توكيد ذلك ، وأنه لامحالة ذاهب ، وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه عزيمة ، قلت : أما زيد فذاهب ..." [(١)] .

وقد بين ابن عاشور أن مضمون الكلام بأما محقق وواقع ، وأن مجيئها في الكلام يفيد تقويته ، لما فسر قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [(٢)] .

وأفاد ابن عاشور أنه وجه تحقيق الكلام بها من جهة تفصيلها لما أجمل بعدها وقد وصفها بقوله : "وأما : حرف موضوع ؛ لتفصيل مجمل ملفوظ أو مقدر" [(٣)] .

---

(١) الكشاف (٢٦٦/١) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٦٣/١) .

ضمير الشأن :

أو ضمير القصة ، ويسميه الكوفيون[١] ضمير المجهول ، ووجه التأكيد به ، ذكر الإيضاح بعد الإبهام ، أو بعبارة أخرى تتناسب مع عبارة الكوفيين هو تفصيل ماأجمله ضمير المجهول ، فيتمكن الخبر بعده من النفس ، ويقع موقعه .

نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وموقع ضمير الشأن معها ـ أي : مع إن ـ أفاد الاهتمام بهذا الخبر اهتمام تحقيق ؛ لتقع الجملة الواقعة تفسيرا له في نفس السامع موقع الرسوخ"[٣] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٦] .

---

(١) ينظر : مغني اللبيب (٢/٤٩٠) .
(٢) سورة الأنعام : آية (٢١) .
(٣) التحرير والتنوير (٧/١٧٢) .
(٤) سورة الأنعام : آية (٣٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧/١٩٨) .
(٥) سورة الأنبياء : آية (٩٧) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٧/١٥١) .
(٦) سورة الإخلاص : آية (١) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٠/٦١٢) .

لن :

حرف نصب ونفي واستقبال ، وقد عدها ابن عاشور من المؤكدات ، وذكرها فيما يقرب من عشرة مواضع ، خلافا لابن هشام النحوي الذي رد على الزمخشري كونها لتأكيد النفي ، أو لتأبيده ، زاعما أنها دعوى لادليل عليها[١] .

وقد أيد ابن عاشور كلام الزمخشري ، واستدل له ، بثلاثة أدلة :

أولها : استقراؤه لمواقع لن في القرآن الكريم ، وكلام العرب فلم يجدها تأتي إلا لذينك المعنيين ؛ النفي المؤكد أو المؤبد .

وثانيها : استدلاله بكلام الخليل في أصل وضعها ، إذ أنها مختزلة من "لا" النافية ، و"أن" الاستقبالية .

وثالثها : دليل عقلي ، وهو كون "لن" لنفي المستقبل مطلقا ، دون اختصاصها بزمن من أزمنة المستقبل دون زمن ، وهو نفي مؤبد .

وبعد هذه الأدلة ، عرض ابن عاشور بابن هشام إذ قال : "فمن قال من النحاة أنها لاتفيد تأكيدا ولاتأبيدا فقد كابر"[٢] .

وإخال أن رد ابن هشام على الزمخشري ، وتفنيد ماقاله إنما هو رد على استدلال الزمخشري على معتقده الفاسد في استحالة رؤية الله عز وجل في الآخرة ، بقوله تعالى لموسى : ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[٣] ، وقد فطن ابن عاشور لذلك ، فخرج الآية باستحالة الرؤية في الدنيا لافي الآخرة ، وأثبت لـ"لن" معانيها التأكيدية[٤] .

---

(١) ينظر : مغني اللبيب (١/٢٨٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٣٤٢) .

(٣) سورة الأعراف : آية (١٤٣) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٩/٩٢) .

الاشتغال :

وهو من وسائل التوكيد ، وقد أشار إليه ابن عاشور في ثلاثة مواضع .

ووجه التوكيد به هو تعلق المعمول بعامله مرتين ، مرة بنفسه ، ومرة بضميره فالاشتغال في قوة تكرر الجملة ، أفاده ابن عاشور[١] نحو قوله تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وأكدت جملة "والجان خلقناه" بصيغة الاشتغال التي هي تقوية للفعل ، بتقدير نظيره المحذوف ، ولما فيها من الاهتمام بالإجمال ثم التفصيل ؛ لمثل الغرض الذي أكدت به جملة "ولقد خلقنا الإنسان" ...الخ"[٣] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾[٤] .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير (١٦/٢٧) .
(٢) سورة الحجر : آية (٢٧) .
(٣) التحرير والتنوير (٤٢/١٤) .
(٤) سورة الذاريات : آية (٤٧) .

البدل :

ووجه التأكيد به مافيه من أسلوب التفصيل بعد الإجمال ، وتكرر لفظ البدل والمبدل منه ، وإعادة لفظ العامل .

وقد نظمها الزمخشري بعباراته المعهودة الموجزة الرصينة ؛ فقال : "فائدته ـ أي البدل ـ التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ..."(١) .

ومراده بالتثنية ذكر لفظ البدل ، والمبدل منه ، ومراده بالتكرير تكرير العامل.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(٢) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وإنما جاء نظم الآية بأسلوب الإبدال أو البيان دون أن يقال : اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم المستقيم ، لفائدتين :

الأولى : أن المقصود من الطلب ابتداء هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة ، وأما كونها سبيل الذين أنعم عليهم فأمر زائد لبيان فضله .

الفائدة الثانية : مافي أسلوب الإبدال من الإجمال المعقب بالتفصيل ؛ ليتمكن معنى الصراط المطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لقنوا هذا الدعاء ، فيكون له من الفائدة مثل ماللتوكيد المعنوي ، وأيضا لما في هذا الأسلوب من تقرير حقيقة هذا الصراط وتحقيق مفهومه في نفوسهم ، فيحصل مفهومه مرتين ، فيحصل له من الفائدة مايحصل بالتوكيد اللفظي"(٣) .

وقد أطال ابن عاشور شرح وتوضيح هاتين الفائدتين اللتين يفيدهما مثل هذا الأسلوب البهيج ، بهذا الصوغ البديع .

ومايعنينا في هذا المقام هو ماأشار إليه في الفائدة الثانية من وجه التأكيد الذي يفيده الإبدال من خلال الإجمال المعقب بالتفصيل ، ليتمكن هذا المعنى فضل تمكن في نفوس متلقيه .

---

(١) الكشاف (١/٦٨) .

(٢) الفاتحة : آية (٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١/١٩٢) .

التفصيل بعد الإجمال :

استشراف النفس لما أجمل وتطلعها إليه ، وترصدها لتفصيله وإيضاحه وترقبها له ، يقع منها ما لم يكن مالو ألقى إليها الخبر جملة واحدة ، بدون تشوف ولاتطلع وذلك من أسرار اللسان العربي .

وقد أشار ابن عاشور إلى هذا العنصر في سورة الحجر ، وذكر أن الجملة القرآنية أكدت لما فيها من أسلوب الإجمال ثم التفصيل في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[(١)] ، عند تفسيره قوله تعالى : ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ﴾[(٢)] .

فقال ابن عاشور في هذه الآية ومشيرا إلى تلك : "وأكدت جملة "والجان خلقناه" ، بصيغة الاشتغال التي هي تقوية للفعل ، بتقدير نظيره المحذوف ـ ولما فيها من الاهتمام بالإجمال ثم التفصيل لمثل الغرض الذي أكدت به جملة "ولقد خلقنا الإنسان" ...الخ"[(٣)] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة الحجر : آية (٢٦) .

(٢) سورة الحجر : آية (٢٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٢/١٤) .

(٤) الفاتحة : آية (٧) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٩٢/١) .

صيغة الشرط:

وفي هذه الصيغة يتجلى التوكيد بارتباط جواب الشرط ووقوعه بفعل الشرط ووقوعه ، إذ أن الثاني مترتب على الأول ، نحو من جد وجد .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وأكد ذلك الوعد بصيغة الشرط"[٢] .

---

(١) سورة سبأ : آية (٣٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/٢٢٠) .

كي :

حرف نصب وتعليل وجر ، واختصاص بالفعل المضارع ، وإفادتها التوكيد شريطة سبق لام التعليل قبلها ؛ إذ تفيد في هذا المقام أن تكون بمنزلة "أن" ، معنى وعملا ، نحو قوله تعالى : ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "والجمع بين اللام وكي توكيد للتعليل ، كأنه يقول : ليست العلة غير ذلك"[٢] .

---

(١) سورة الأحزاب : آية (٣٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٩/٢٢) .

صيغة المفاعلة :

صيغة صرفية تدل على حصول الفعل من جانبين اثنين ، نحو : تحاكم زيد وعمرو ، فإذا جردت عن هذا المعنى - وهو حصول الفعل من جانبين — وجيء بها على صيغة المفاعلة ، قصد بها التوكيد والمبالغة ، نحو قوله تعالى : ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "صيغة المفاعلة غير مقصود بها حصول الفعل من جانبين ، بل هي لتأكيد الاحتجاج ، أي : ليحتجوا عليكم به : أي بما فتح الله عليكم"[2] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٧٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٥٧٠) .

الإضافة :

تعد الإضافة من وسائل التوكيد إذا أفادت ذلك المعنى وأشارت إليه ،كما يظهر ذلك جليا في إضافة الوراء إلى الظهر ؛ لأنها تفيد تأكيد بعد المتروك ، نحو قوله تعالى : ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وقوله : "وراء ظهورهم" ، تمثيل للإعراض ؛ لأن من أعرض عن شئ تجاوزه ، فخلفه وراء ظهره ، وإضافة الوراء إلى الظهر ، لتأكيد بعد المتروك ، بحيث لايلقاه بعد ذلك ، فجعل للظهر وراء ، وإن كان هو هنا بمعنى الوراء"[(٢)] .

ومن إضافة المترادفين التي تفيد معنى التوكيد ، أو بالأصح شبه المترادفين ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾[(٣)] .

فقد فسروه بمعنى : إن هذا يقين اليقين ، وصواب الصواب[(٤)] .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٠١) .

(٢) التحرير والتنوير (٦٢٦/١) .

(٣) سورة الواقعة : آية (٩٥) .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (٣٥٠/٢٧) .

نفي الصفة اللازمة للموصوف :

لأن نفي الصفة اللازمة غير المنفكة عن الموصوف ، إنما هو نفي مؤكد للموصوف ذاته ، وقد وصفها ابن عاشور بأنها : "نفي للموصوف بضرب من الكناية التلميحية ، وذلك يفيد مفاد التوكيد"[١] .

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير (١١٥/٢٤) .

(٢) سورة غافر : آية (١٨) .

الوصف بالمصدر :

ويكون الوصف بالمصدر من وسائل التوكيد وعناصره ، إذ يفيد تحقيقا جليا وتوكيدا بينا للكلام ، نحو قولك : جاء زيد العدل ، أبلغ وآكد من قولك : جاء زيد العادل ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[(١)] ، فهنا أضيفت الصفة إلى الموصوف "عزم الأمور" ، وكانت الصفة هي المصدر "عزم" ، ووصف "الأمور" بـ"العزم" فيه تأكيد لتحقق المعنى ، إذ المصدر هنا بمعنى اسم الفاعل ، والتقدير : الأمور العازمة أو العازم أصحابها .

قال ابن عاشور : "وقد اشتمل هذا الخبر على أربع مؤكدات هي : اللام ، وإن ، ولام الابتداء ، والوصف بالمصدر في قوله : "عزم الأمور" ، تنويها بمضمونه"[(٢)] .

---

(١) سورة الشورى : آية (٤٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢٢/٢٥) .

صيغة الماضي :

يعبر بصيغة الماضي عن المستقبل والحال ، لتحقق وتأكد الوقوع ، كما يعبر في الجانب المقابل بالمضارع عن الماضي ، لاستحضار الصورة في الغالب ، عدا نكات المقام الأخرى .

ومن أوضح الصور وأجلاها مفتتح سورة النحل ﴿أتى أمر الله﴾ ، وهو لما يأت بعد ، بدليل قوله تعالى : ﴿فلا تستعجلوه﴾ ، وإنما يدخل في هذا الضرب الذي بينا ، وهو التعبير عن المستقبل المحقق الوقوع بصيغة الماضي .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وقد حقق هذا الخبر بمؤكدات ، وهي حرف التوكيد ، وإخراج الكلام في صيغة الماضي على خلاف مقتضى الظاهر من زمن الحال ، لإفادة تحقق الفعل حتى كأنه مضى ووقع"[2] .

---

(١) سورة السجدة : آية (١٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١/٢٢٦) .

القصر :

ذكر السكاكي في مفتاحه : أن القصر ماهو إلا تأكيد للحكم على تأكيد ، فهو بمنزلة تأكيدين[١] .

وقد شرح السكاكي ذلك قائلا : "ألا تراك : متى قلت لمخاطب يردد المجيء الواقع بين زيد وعمرو ـ : زيد جاء لاعمرو ، كيف يكون قولك : زيد جاء إثباتا للمجيء لزيد صريحا ، وقولك : لاعمرو إثباتا ثانيا للمجيء لزيد ضمنا ..."[٢] .

وقد أشار ابن عاشور في مواضع كثيرة من تحريره وتنويره لذلك المعنى ووضحه وبينه وقرره .

منها ماأورده في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾[٣] .

وذكر أن في هذه الآية خمسة مؤكدات ، وهي إن ، والقصر بطريقيه ، تعريف الجزأين ، وضمير الفصل ؛ إذ أن القصر بمنزلة مؤكدين ؛ فأصبح المجموع خمسة مؤكدات .

قال ابن عاشور عند تفسيره هذه الآية : "فقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات هي : حرف إن ، والقصر ؛ إذ القصر تأكيد على تأكيد كما في المفتاح فهو في قوة مؤكدين ، مع تأكيد القصر بضمير الفصل ، وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات ؛ لأن القصر بمنزلة تأكيدين ، وقد انضم إليهما تأكيد القصر بضمير الفصل ، وتأكيد الجملة بحرف (إن)"[٤] .

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم (ص١٤٠) .

(٢) ن.م.س .

(٣) سورة البقرة : آية (١٢٠) .

(٤) التحرير والتنوير (١/٦٩٤) .

أداة التعقيب :

المراد بها الفاء ؛ إذ هي المشهورة والموسومة عند النحـاة بإفادتها التعقيب ، وقد سبقت الإشارة للفاء الزائدة[1] المفيدة للتوكيد في الأحرف الزائدة ، وأما التي معنا في هذا المقام ، فهي خلاف السابقة بل أصلية مفيدة للتعقيب ، نحو قوله تعالى ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾[2] .

قال ابن عاشور : "والفاء في "فلنولينك" ، فاء التعقيب ، لتأكيد الوعد بالصراحة ، بعد التمهيد لها بالكناية ، في قوله : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾"[3] .

---

(١) ينظر (ص٩٤) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢/٢٧) .

الفذلكة :

صيغة من صيغ النحت ، مثل بسمل وهلل ، وهي منحوتة من حروف "فذلك" ، ويغلب إطلاقها على خلاصة جمع الأعداد تقول : ثلاث وأربع ، فذلك سبع . ووجه إفادتها التوكيد ، هو تكرارها مرة أخرى للحكم السابق ؛ لقصد تحقيقه وتقريره .

وقد ذكر ابن عاشور إفادة الفذلكة التوكيد في تفسير قوله تعالى : ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وعن المبرد أنه تأكيد ؛ لدفع توهم أن يكون بقي شئ مما يجب صومه"[(٢)] .

وقد أشار العلامة الألوسي أن فائدة الفذلكة في الآية لئلا يتوهم أن الواو في قوله تعالى ﴿وسبعة إذا رجعتم﴾ معنى "أو" التخييرية . أي : مجيئها عنده لإزالة اللبس لا للتأكيد ، حين قال : "وفائدة الفذلكة أن لايتوهم أن "الواو" بمعنى "أو" التخييرية وقد نص السيرافي في شرح الكتاب على مجيئها لذلك"[(٣)] .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٩٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٢/٢٢٨) .

(٣) روح المعاني (٢/٨٣) .

التعليق :

والمراد بالتعليق هنا ، هو ارتباط جواب الشرط ووقوعه بفعل الشرط ووقوعه وامتناعه لامتناعه .

وكذا يدخل القسم إذا اقترن بالشرط في تركيب واحد ، نحو قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا أَتَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾[(١)] .

فقد عد ابن عاشور التعليق من وسائل التوكيد فقال : "أكدت الجملة الدالة على نفي اتباعهم بالقسم ، واللام الموطئة ، وبالتعليق على أقصى مايمكن عادة"[(٢)] .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٤٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٢/٣٥) .

توكيد الشئ بنفي ضده :

عدها ابن عاشور من وسائل التوكيد ، وعزا معرفته إياها إلى نفسه ، فقال : "وتأكيد الشئ بنفي ضده ، طريقة عربية ، قد اهتديت إليها ، ونبهت عليها..."[١].

ووجه التوكيد بها هو تكرار الخبر مرتين ، مرة بنفسه ، ومرة بنفي ضده ، إذ مآل النفي تقرير له .

وذلك كما في قول الله سبحانه وتعالى في سورة طه : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾[٢] ، وقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦٣/٧) .
(٢) سورة طه : آية (٧٩) .
(٣) سورة الأنعام : آية (٥٦) .

توكيد المدح بما يشبه الذم:

وهذا اسم تعارف عليه أرباب هذا الفن ، وجعلوه في علم البديع ، وجعلوا له مقابلا ، وهو توكيد الذم بما يشبه المدح .

ووجه التوكيد فيه من جانبين[١] :

أولا : أنه كالإدعاء للشئ ببينة .

ثانيا : رسوخه في النفس بعد الاستثناء الموهم خلاف السابق ، وقد عمم ابن عاشور تسميته لتشمل القسمين المتقابلين ، فسماه ، تأكيد الشئ بما يشبه ضده ، وذكر أن له مرتبتين :

الأولى : تأكيد محض ، وهو ماكان المستثنى منقطعا كلية عن المستثنى منه ، كقول النابغة :

ولاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب[٢]

والأخرى : تأكيد في الجملة : وهو ماكان المستثنى قريبا من المستثنى منه وليس من جنسه ، كما في قوله تعالى : ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٣] .

---

(١) ينظر : الإيضاح (ص٥٢٤) .

(٢) ديوان النابغة (ص١١) .

(٣) سورة الشورى : آية (٢٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٥٨/١٩) .

المصدر المؤكد :

المصدر المؤكد يؤكد حكم الجملة ؛ لأنه يعمل عمل فعله ، نحو قوله علت كلمته : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[1] .

قال ابن عاشور : "والتوكيد بالمصدر يرجع إلى تأكيد النسبة وتحقيقها مثل : "قد" و "إن" ، ولايقصد به رفع احتمال المجاز ، ولذلك أكدت العرب بالمصدر أفعالا لم تستعمل إلا مجازا ، كقوله تعالى : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ ، فإنه أراد أنه يطهركم الطهارة المعنوية ، أي : الكمال النفسي ، فلم يفد التأكيد رفع المجاز"[2] .

وفي هذا تصريح واضح من ابن عاشور بإفادة توكيد النسبة من المصدر ؛ لأنه يعمل عمل فعله ، ويقوم بتأكيد النسبة ، وقد نظره بحرف "قد" وحرف "إن" ؛ لأنهما يفيدان تأكيد الخبر الداخلين عليه وتحقيقه ، ومايجب التنبيه عليه هو أن المصدر يؤكد الفعل على ماهو عليه من الحقيقة والمجاز قبل التأكيد ، ولايقصد من وراء التأكيد به رفع احتمال المجاز .

قال ابن عاشور ـ مستطردا أو مستشهدا بالشعر ، ومؤكدا هذا المعنى ـ : "وقالت هند بنت النعمان بن بشير تذم زوجها روح بن زنباع :

بكى الخز من روح وأنكره جلده   وعجت عجيجا من جذام المطارف

وليس العجيج إلا مجازا ، فالمصدر يؤكد : أي يحقق حصول الفعل المؤكد على ماهو عليه من المعنى قبل التأكيد"[3] .

---

(١) سورة النساء : آية (١٦٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٦/٣٨) .

(٣) ن.م.س .

الإظهار في مقام الإضمار :

قد عده ابن عاشور من وسائل التوكيد وعناصره ، خلافا لمقابله الذي هو الإضمار في مقام الإظهار .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وقد دلت الآية على شدة الترغيب في هذا الصلح بمؤكدات ثلاثة : وهي المصدر المؤكد في قوله : "صلحا" ، والإظهار في مقام الإضمار في قوله : "والصلح خير" ، والإخبار عنه بالمصدر ، أو بالصفة المشبهة ؛ فإنها تدل على فعل سجية"[2] .

وفي كلام ابن عاشور إشارة واضحة بما ذكره من الآية الكريمة أن الإظهار الذي يفيد توكيدا في مقام الإضمار هو ماتكونت منه جملة نحو : "والصلح خير" ، لا ما لم تتكون منه ، ودل على مفرد نحو : صليت العشاء وجئت إليكم من بعد العشاء ، ويستخلص من كلام ابن عاشور أيضا عنصرا آخر من عناصر التوكيد ووسائله ، وهو العنصر الآتي :

الصفة المشبهة :

لايخفى أن الصفة المشبهة من المشتقات اللاتي يعملن عمل الفعل .

ففي لفظة "خير" ضمير مستتر تقديره "هو" ، أي : خير هو ، فهي ليست مفردة ، بل هي عاملة عمل فعلها ، وتفيد تأكيد النسبة ، والظاهر في لفظة "خير" هنا أنها أفعل تفضيل ، وليست صفة مشبهة كما ذكر ابن عاشور .

والتقدير "خير" ، وحذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، كما هو المشهور عند النحاة .

وقد أشار صاحب البحر المحيط إلى أنها أفعل تفضيل ، فقال : "﴿والصلح خير﴾ ، ظاهره أن خيرا أفعل التفضيل ، وأن المفضل عليه هو من النشوز والإعراض فحذف لدلالة ماقبله عليه ، وقيل من الفرقة ، وقيل من الخصومة ..."[3] .

---

(١) سورة النساء : آية (١٢٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١٧/٥) .

(٣) البحر المحيط (٣٧٩/٣) .

إذن :

وهي حرف نصب وجزاء .

والمراد بكونها حرف نصب أي : إذا اتصلت بالفعل المضارع وتصدرت ، وكان الفعل معها مستقبلا ، ولم ينفصل عنها إلا بالقسم أو بـ"لا" النافية[(١)] .

فإن لم تكن كذلك فهي حرف جواب وجزاء ، ولاعمل لها ، وهذه الجوابية هي ماعدها ابن عاشور من المؤكدات .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "واللام في لئن أكله موطئة للقسم ، أرادوا تأكيد الجواب باللام ، وإن ولام الابتداء ، وإذن الجوابية تحقيقا لحصول خسرانهم على تقدير حصول الشرط"[(٣)] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[(٤)] .

---

(١) ينظر : شرح الأشموني على الألفية (٢١٦/٣) ، معجم الأدوات النحوية ، د. محمد التنوخي (ص١٦) .

(٢) سورة يوسف :آية (١٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٣٢/١٢) .

(٤) سورة الكهف : آية (٥٧) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٥٦/١٥) .

الحال المؤكدة :

وهي الحال المشتقة ، وليست الجامدة ؛ لأن المشتقة تعمل عمل الفعل وتفيد تأكيد النسبة ، بينما الجامدة لاتفيد تأكيد النسبة ، ولاتفيد أكثر من بيان حال صاحبها ، ففي سورة النمل في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام ، وتبسمه من النملة قال تعالى : ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾[1] .

فالحال هنا "ضاحكا" وهي مشتقة ؛ لأنها اسم فاعل من ضحك ، وهي حال من الفعل "تبسم" ، والتبسم من الضحك ، فالحال مؤكدة له .

قال ابن عاشور : "والتبسم أضعف حالات الضحك ، فقوله : "ضاحكا" ، حال مؤكدة لـ"تبسم""[2] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[3] .

---

(١) سورة النمل : آية (١٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩/٢٤٣) .

(٣) سورة الزخرف : آية (٥٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٥/٢٣٣) .

التنوين :

والمراد به تنوين التمكين ، من بين سائر أقسام التنوين العشرة ، المذكورة في علم النحو[(١)] ، والمجموعة في قول الناظم :

أقسام تنوينهم عشر عليك بها ... فإن تقسيمها من خير ماحرزا
مكن وعوض وقابل والمنكر زد ... رنم أواحك اضطرر غال وماهمزا

كما يقسم علماء البلاغة تنوين التمكين إلى أقسام : تنوين التكثير ، والتقليل والتحقير ، والتعظيم .

والمراد بالتنوين الذي يفيد توكيدا هو تنوين التعظيم من بقية أقسام تنوين التمكين .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي : إن ، وكان ، وصيغة المبالغة في الثواب ، وتنوين التعظيم فيه"[(٣)] .

وفي كلام ابن عاشور مدخل إلى العنصر الذي سأذكره في المبحث الآتي ، وهو صيغة المبالغة .

---

(١) ينظر : حاشية الخضري (٢١/١) .
(٢) سورة النصر : آية (٣) .
(٣) التحرير والتنوير (٥٩٦/٣٠) .

صيغة المبالغة :

صيغة المبالغة أو بالأصح صيغ المبالغة الخمسة المشهورة تعمل عمل اسم الفاعل سواء بسواء .

وصيغة "توابا" في سورة النصر ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[1] على زنة "فعال" ، وهي صيغة مبالغة من الناحية اللفظية ، وأما من ناحية المعنى فالمراد أنه جل شأنه كثير قبول التوبة لعباده ، وليس في ذلك مبالغة البتة ، بل ذلك جار على حقيقته من كريم فضله ، فله الحمد والمنة في الأولى والآخرة .

وقد عدها ابن عاشور في هذا المقام للتأكيد ؛ لأنها أفادت تأكيد النسبة ، وعملت عمل الفعل ، وقدر لها محذوفا عاما ، تقديره : على التائبين[2] .

---

(١) سورة النصر : آية (٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/٥٩٦) .

إن ولو :

وقد أفردتهما بهذا المبحث ، و لم أجعلهما في صيغة الشرط ؛ لأن لهما معنى خاصا ينفردان به عن سائر أدوات الشرط ، وهو معنى الوصل والربط في مقام التأكيد .

نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وحرف "لو" للشرط ، وحذف جوابه لدلالة ماقبله عليه ومثل هذا الاستعمال شائع في كلام العرب ، ولكثرته قال كثير من النحاة : إن "لو" و"إن" الشرطيتين في مثله مجردتان عن معنى الشرط ، لايقصد بهما إلا المبالغة ولقبوهما بالوصليتين : أي : أنهما لمجرد الوصل والربط في مقام التأكيد"[٢] .

وقد اختلف النحاة في الواو التي قبل "لو" على ثلاثة أقوال : حالية ، استئنافية عاطفة ، وترتبت على ذلك مسائل نحوية معينة أشار إليها ابن عاشور في موضعها[٣] .

ووجه التوكيد في مثل هذا التركيب الذي ينبئ عن شرط مفروض بعد "لو" و"إن" ، تحقق انتفاء حكم ماقبلهما في سائر أحواله .

ونحوه قول رؤبة :

قالت بنات العم ياسلمى وإن ... كان فقيرا معدما قالت : وإن[٤]

---

(١) سورة آل عمران : آية (٩١) .

(٢) التحرير والتنوير (٣/٣٠٦،٣٠٧) .

(٣) ينظر ن.م.س .

(٤) ديوان رؤبة (ص١٨٦) .

صيغة الجحود :

ومرجع التسمية إلى تلك اللام ، الداخلة في اللفظ على الفعل ، والمسبوقة بـ"ماكان" أو "لم يكن" ناقصين مسندين لما أسند إليه الفعل المقرون بـ"اللام" المسماة "لام الجحود" .

وسبب تسميتها بـ"لام الجحود" لملازمتها للجحد وهو النفي[١] .

ووجه التوكيد بها تحقيق النفي بهذه الصياغة المركبة من حرفي نفي وإقحام فعل الكون للمبالغة في تأكيد النفي ، نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾[٢] .

ومثله قوله جلت كلمته : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾[٣] .

قال ابن عاشور ـ في تفسير هذه الآية ـ : "ودلت جملة "ماكان لكم" على الحظر المؤكد ؛ لأن "ماكان لكم" نفي للاستحقاق الذي دلت عليه اللام ، وإقحام فعل "كان" لتأكيد انتفاء الإذن ، وهذه الصيغة من صيغ شدة التحريم"[٤] .

---

(١) ينظر مغني اللبيب (٢١١/١) .
(٢) سورة الأنفال : آية (٣٣) .
(٣) سورة الأحزاب : آية (٥٣) .
(٤) التحرير والتنوير (٩٢/٢٢) .

أن :

وقد أرجأتها إلى أن تكون في آخر عناصر التوكيد ووسائله ؛ لأن كثيرا من أئمة هذا الفن لم يعدوها من أدوات التوكيد ؛ بسبب أن مابعدها في حكم المفرد .

و لم أر من عدها من المؤكدات قبل الطاهر ابن عاشور إلا جمال الدين ابن هشام الأنصاري[١] ـ صاحب مغني اللبيب ـ وقد أشار إلى ذلك الدسوقي في حاشيته ، عند كلامه على المؤكدات فقال : "و لم يعدوا أن المفتوحة ؛ لأن مابعدها في حكم المفرد ، لكن عدها ابن هشام من مؤكدات النسبة ، فينظر مع ذلك"[٢] .

وهاأنا ذا أضيف لابن هشام ابن عاشور ، كما استخلص من كلام الدسوقي الآنف احتمال استحسانه لذلك ؛ لإيراده رأي ابن هشام ، ولقوله : "فينظر مع ذلك" .

وقد أغرب ابن عاشور في دعوى اتفاق علماء العربية على إفادة "أن" التوكيد ، إذ قال : "وقد اتفق علماء العربية على كون "أن" المفتوحة الهمزة المشددة النون أختا لحرف "إن" المكسورة الهمزة ، وأنها تفيد التأكيد مثل أختها"[٣] .

وفيما أوردته من كلام الدسوقي السابق ماينقض تلك الدعوى ، ويخل بذلك الاتفاق .

ولابد من محاولة تحرير هذه المسألة التي اختلف فيها علماء العربية ، ومارأاه هو أن لـ"أن" مفتوحة الهمزة ومشددة النون اعتبارين : اعتبار حال ، واعتبال مآل .

فالأول ـ اعتبار الحال ـ نحو : يعجبني أنك منطلق يفيد التوكيد في النسبة بين اسمها وخبرها .

والآخر ـ اعتبار المآل ـ وهو أن جملة "أن" من اسمها وخبرها تؤول بالمصدر ، فيكون التقدير : يعجبني انطلاقك ، وهذا الاعتبار هو الذي جعل المانعين يقولون : بعدم إفادتها التوكيد .

---

(١) ينظر : مغني اللبيب (٣٩/١) .

(٢) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (٢٠٤/١) .

(٣) التحرير والتنوير (١٧٧/٦) .

ولاجرم أن هذا الاعتبار ـ اعتبار المآل ـ ليس فيه حجة ؛ بدليل أن التـأويل لم يستطع أن يسلب من "أن" عملها اللفظي ، وهو نصب الاسم ورفع الخبر ، فكذلك لم يستطع أن يسلبها عملها المعنوي ، وهو تأكيد النسبة .

الباب الثاني

التقديم

التوطئة

التقديم

لغة :

هو مصدر مقيس للفعل الثلاثي المضعف "قدَّم" ، والمعنى : جعله سابقا وأولا[(١)] .

واصطلاحا :

فهو كسابقه لم أجد له تعريفا علميا جامعا ومانعا ، وإنما أوردوا أحواله ومزاياه ، وتقسيماته ، وأنواعه .

وأغفلوا تعريفه ، لغفلتهم عنه ، أو لوضوحه لهم ، وعلى كل لم يعرفوه .

وماأود تلخيصه وقوله هو أن التقديم من أدق الأبواب البلاغية ، ويعنى بالبحث في أغراض ونكات تقدم المسند إليه والمسند ومتعلقات العامل وبعض الجمل على بعض ، وبعض الفقر على بعض ، واستجلاء تلك الأسرار الأسلوبية ، والمعايير الجمالية في صياغة تراكيب الجمل العربية .

لذا أثنى عليه الإمام عبد القاهر الجرجاني ، وقال عنه : "هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، لايزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولاتزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ، ولطف عندك ، أن قدم فيه شئ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[(٢)].

والآن سأشرع ـ إن شاء الله ـ في المقصود ، بالترتيب المبين سابقا ، محاولا بحث أسراره ودقائقه ، وسبر أغواره وحقائقه .

---

(١) ينظر : لسان العرب ، مادة (قدم) (٤٦٥/١٢) ، المصباح المنير (ص١٨٨) ، المعجم الوسيط (٧١٩/٢) .

(٢) دلائل الإعجاز (ص١٠٦) .

الفصل الأول

تقديم عناصر الجملة

تقديم المسند إليه :

قبل البدء في هذا المبحث هناك سؤال يطرح نفسه من خلال هذا العنوان ، ويحتاج إلى إجابة أهل العلم عنه ، بإجابة تشفي الغليل ، وتروي العليل ، وترتكز على أسس ثابتة ، تقف بنا على أرض صلبة ، تدلف بنا إلى ثنايا البحث ، في مساءلة واستجواب علمي ؛ والسؤال هو : هل يجدر بنا البحث في أغراض تقديم المسند إليه؟ والمسند إليه لم يقدم أصلا عن مكانه؟ ليبحث عن أسرار تقديمه؟

إذ أن عرف العلماء هو السؤال عما لم يجئ على أصل وضعه ، وأما ماجاء على الأصل ، فلايسأل عن علته(١) .

فكيف بهم في تقديم المسند إليه قد خالفوا هذه القاعدة ، وسلكوا غير تلك الجادة ، وماهي إجابتهم على هذا التساؤل؟

وخلاصة ماأجابوا به في هذا الشأن ، ووقفوا عليه من راسخ البنيان ، أن قاعدة العلماء وعرفهم السالف الذكر جار في النحو لافي البلاغة ؛ لأن البلاغة تختلف عن النحو ، فهي تسأل وتبحث عن موقع الكلمة في النص ، سواء جاءت على الأصل أو على خلافه(٢) .

وبعد هذه الإجابة التي تطمئن لها نفس الباحث الباحثة عن الحق ، ويقتنع بها عقل العالم الذي لايستهويه من عويصات المسائل إلا الأدق ، يمكن مناقشة مسائل هذا الباب مع عرضها ، وإجالة الفكر فيها والوقوف عليها .

ومسائل هذا الباب أحسب أن لها شقين اثنين ، يرتبطان بها ، ويصبان في نهرها ، شقا بلاغيا وآخر نحويا .

فالجانب النحوي قد اهتم به النحاة ، واستقصوا أولاه وأخراه ، بدءا من سيبويه في الكتاب ، وإشارته إلى غرض التقديم العام ، وإفادة الجرجاني منه ، ونقله عنه ، في عبارته المشهورة في التقديم : "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"(٣) .

---

(١) ينظر : حاشية الخضري (٣٣/١) .

(٢) ينظر : البلاغة القرآنية (ص٢٢٦) .

(٣) الكتاب (٣٤/١) ، وينظر : دلائل الإعجاز (ص١٠٧) .

ومرورا بطائفة جليلة من النحاة الذين شرحوا كتاب سيبويه ،ووضحوا معاني عباراته ومقاصده ومراميه ، ولم أر من توسع في بحث التقديم من النحاة ، وبسط القول فيه وأبان عن دقائقه وخوافيه ، مثل ابن جني في الخصائص(١) في فصل خصصه للتقديم والتأخير ، بل تجاوز ذلك إلى إشارات بلاغية في تقديم المفعول في كتابه المحتسب(٢) .

وهذا الجانب ـ أي الجانب النحوي ـ هو منتهى وقفة النحويين ، ومبتدأ منطلق البلاغيين .

ويمكن تقسيم عناصر الجانب البلاغي في تقديم المسند إليه إلى ثلاثة مطالب : تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في حالة الإثبات ، وتقديمه في حالة النفي ، والثالث : وهو تقديم المسند إليه على المشتق .

---

(١) ينظر : الخصائص (٢/٣٨٢) ومابعدها .

(٢) ينظر : المحتسب (١/٦٥،٦٦) ، وقد اشار د. عبد القادر حسين في كتابه "فن البلاغة" إلى ذلك (ص١٠١) ومابعدها .

تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في حالة الإثبات :

والمراد بالإثبات هنا هو ألا يتقدم على المسند إليه حرف نفي نحو : أنا قمت.

وإن تقدم على المسند ، نحو : أنا ماقمت فإنه يدخل أيضا في الإثبات ؛ لأنك أثبت للمسند اليه عدم القيام ، كما أثبت له في المثال الأول القيام .

وقد عد الإمام عبد القاهر(١) صورة المسند المنفي في الإثبات .

وقد تابع ابن عاشور الإمام عبد القاهر في أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في الإثبات يحتمل أن يكون للتخصيص ، ويرى ذلك في قوله تعالى : ﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "وقدم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص ، أي : الله ينجيكم لاغيره ، ولأجل ذلك صرح بالفعل المستفهم عنه ، ولولا هذا لاقتصر على : ﴿قل الله﴾"(٣) .

فالتصريح بذكر المسند الفعلي وهو "ينجيكم" لغرض إفادة التخصيص ، بقرينة أنه لو لم يرد هذا المعنى لاقتصر على التركيب بذكر المسند إليه فقط ، وبقرينة أن المعنى يطلب مثل هذه الخصوصية التي تقصر هذا الإنجاء على الله لاعلى غيره .

وليكن في هذا إلماحة إلى أن ماذكر من الألفاظ مع إمكان الاستغناء عنه إنما هو لداع بلاغي ، يمكن أن يكون ذكره قرينة على مايستدل به من نكتة في ذلك السياق وهذا أمر يدفع البليغ إلى تقرير الكلام الذي هو بصدد الوقوف على أسراره وبيان دقائقه ، فيما يمكن أن يتباصر به من أن هناك مايلزم ذكره ، ومن أن هناك مايمكن أن يستغنى عنه ، ثم يوجه بصر فكره إلى ماكان من الضرب الثاني ليستظهر مرجحات تثري المقام بلاغيا ، وتنبئ عن فوائد تماثل ماذكره ابن عاشور في هذا النطاق .

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٣٨) .

(٢) سورة الأنعام : آية (٦٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٧/٢٨٢) .

وقد يحتمل هذا الضرب أيضا أن يكون للتقوية فقط ، ويرى ذلك في قوله تعالى : ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وقوله : ﴿وأنا اخترتك﴾ أخبر عن اختيار الله تعالى موسى بطريق المسند الفعلي المفيد تقوية الحكم ؛ لأن المقام ليس مقام إفادة التخصيص ، أي الحصر : نحو : أنا سعيت في حاجتك ، وهو يعطي الجزيل .

وموجب التقوى هو غرابة الخبر ومفاجأته به دفعا لتطرق الشك في نفسه"[٢] .

وهذه الآية التي ذكرها ابن عاشور آية سورة طه ، هي مما كان فيه المسند خبرا فعليا ، ليقرر ابن عاشور أن مقام الكلام له اليد الطولى في الحكم على إفادة التركيب لغرض الاختصاص .

فالجملة القرآنية ﴿أنا اخترتك﴾ في أصل تركيبها تحتمل الاختصاص إضافة إلى التقوية التي لاتنفك عنها ، ولكن الذي يورد مثل هذا الغرض أو ينفيه عنها إنما هو المقام الذي يمكن أن يتطلب مثل هذا الغرض فضلا عن أن يحتمله ، أو ينفيه وينبو عنه فضلا عن ألا يحتمله .

وجملة "أنا اخترتك" لاتفيد القصر ، لأن القصر ينبو عنه المقام ؛ إذ إثباته يثبت ورود احتمالات لم يقل بها أحد ، ودعاوى لم يدعها مدع ، مما لايمكن أن يصح حمل معنى الآية عليه ، أو القول به في تفسيرها ، بأي حال من الأحوال .

فكان مجئ هذا التركيب بهذه الصورة لإفادة غرض التقوية الذي ظهرت الحاجة إليه نتيجة مفاجأة الخبر وغرابته في مقام تجلى الخالق جل وعلا بالكلام لعبده موسى عليه الصلاة والسلام .

ويحتمل تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي إرادة كلا الأمرين من تخصيص وتقوية وإفادة المقام لهما ، وتطلبه إياهما ، وقد صرح ابن عاشور رحمه الله بذلك في تفسيره قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[٣] .

---

(١) سورة طه : آية (١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٦/١٩٨) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٥) .

قال ابن عاشور : "فتقديم المسند إليه على الخبر هنا لإفادة تقوى الحكم لامحالة ، ثم يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه"[١] .

فالآية الكريمة رد على المنافقين الذين يستهزئون بالمؤمنين ويخادعونهم ، وقد جاءت بأبلغ رد عليهم بهذا التركيب ، الذي يتقدم فيه المسند إليه ويجئ المسند فيه خبرا فعليا ، فتكون بذلك قد جمعت في بنائها بين الجملة الاسمية التي تبتدئ باسم وتفيد الثبوت والاستمرار ، وبين الجملة الفعلية التي تتكون من فعل وفاعل وتفيد التجدد والحدوث .

وقد أطال النفس ، وناقش الأقوال ، وحاول تحريرها العلامة الخفاجي في حاشيته على البيضاوي في المفاد من مثل هذا التركيب الذي جمع بين الثبوت والاستمرار والتجدد والحدوث بما ذكره عن شراح الكشاف والمفتاح وأرباب الحواشي ، خلاصته أن التجدد الثبوتي متأت من هذا التركيب غير مفاد منه[٢] .

وعلى كل فالذي يهمنا أن صاحب التحرير والتنوير يرى أن هذا التركيب يفاد منه في هذه الآية الكريمة تقوي الحكم والاختصاص بأن قصر الاستهزاء عليهم من قبل الله جل وعلا .

وهذا مايتفق مع مايذهب إليه الإمام الجرجاني[٣] مما قرره في مثل هذا التركيب .

بينما يقرر السيد الشريف أن مثل هذا التركيب عند الزمخشري يفيد الاختصاص مطلقا ، إذ قال في حاشيته على الكشاف : "فإن بناء الفعل على المبتدأ مطلقا يدل عنده على الاختصاص كما صرح به في مواضع من هذا الكتاب"[٤] .

فقوله "مطلقا" يفيد شمول المسند إليه الوارد في سياق الإثبات أو النفي ، وقد ورد عن العلامة التفتازاني في شرحه للكشاف ماينقض هذه القاعدة ، إذ قال في

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩٣/١) .
(٢) ينظر : حاشية الخفاجي (٣٤٩/١) ومابعدها .
(٣) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٣٨) .
(٤) حاشية السيد على الكشاف (١٨٧/١) .

تعقيبه على كلام الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[١] مانصه : "قوله "ولاينصرهم أحد" إشارة إلى أن التقديم في "ولاهم ينصرون" ليس للحصر ، بل للتقوى ورعية الفاصلة"[٢] .

وفي هذا تناقض وتضارب بين كلا الشارحين في تعميم هذه القاعدة أو تخصيصها عند الزمخشري ، مما يوقع الباحث في حيرة تتطلب منه دقة نظر وحسن تأمل وبعد إدراك .

ولايقال إنه لاثمة حيرة ، لأنه يمكن أن يوفق بين ماقاله الشارحان ، من أن كلام السيد الشريف في المسند إليه المثبت ، وكلام السعد التفتازاني في المسند إليه المنفي ، ويراد بكلمة "مطلقا" أي : في هذا الضرب على وجه الخصوص .

ولئن سلم هذا الكلام على مافيه من تعسف في مفهوم كلمة "مطلقا" ، فإن هناك من نصوص الزمخشري ماينقض هذا التقعيد في المسند إليه الوارد في سياق الإثبات .

منها ماأشار إليه أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى في كتابه البلاغة القرآنية[٣] من تفسير الزمخشري قوله تعالى : ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾ إذ قال الزمخشري : "وبناؤه على المبتدأ مما زاده أيضا فضل تأكيد ، ولو قيل : ويتربص المطلقات لم يكن بتلك الوكادة"[٤] .

اللهم إلا أن يحمل كلام السيد الشريف على الغالب في مجئ الاختصاص من المسند إليه ذي الخبر الفعلي عند الزمخشري وبه يصح تحقيق مايورده ابن عاشور من كلام للزمخشري .

ثم يشير ابن عاشور بعد هذا الكلام إلى القاعدة الكلية في هذا الباب التي انتهجها الإمام عبد القاهر ، وسار عليها البلغاء بعده ومنهم صاحب الكشاف ،

---

(١) سورة البقرة : آية (٤٨) .

(٢) شرح التفتازاني على الكشاف لوحة رقم (٨٢) مخطوطة رقم (٥٧٦) بمكتبة الحرم المكي الشريف .

(٣) ينظر : البلاغة القرآنية (ص٣٣٣) .

(٤) الكشاف (١/٣٦٥) .

ويؤكدها ابن عاشور فيقول : "فإنه لما كان تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في سياق الإيجاب يأتي لتقوى الحكم ، ويأتي للقصر على رأي الشيخ عبد القاهر ، وصاحب الكشاف ، كما صرح به في قوله تعالى ﴿والله يقدر الليل والنهار﴾ في سورة المزمل ، كان الجمع بين قصد التقوى وقصد التخصيص جائزا ، في مقاصد الكلام البليغ ، وقد جوزه في الكشاف عند قوله تعالى ﴿فلا يخاف بخسا ولارهقا﴾ في سورة الجن ، لأن مايراعيه البليغ من الخصوصيات لايترك حمل الكلام البليغ عليه فكيف بأبلغ كلام ، ولذلك يقال : النكت لاتتزاحم"(١) .

ولئن أردنا أن نستقرئ تلك المواطن التي تكثر فيها أرجحية قصد أحدهما دون الآخر في التراكيب القرآنية فنحن محكومون في ذلك كله بالسياق ، فهو الفيصل في تحديد الاختصاص أو التقوية أو كليهما في معاني العبارة ، لكن المرء يجب أن يتباصر فيما يتباصر به من أسرار اللسان العربي في دقة مقاصد تراكيبه ، فيسعى جهده في استبانة ماهو خاف عن العامة بل الخاصة أيضا إلا خواصهم فإنهم يعون فيما يعونه أن تقديم هذه اللفظة وتأخير تلك يفرق في المعنى ، ويبين في التعبير عن أسرار تتجلى لمن يستفرغ طاقته ، ويستحث خطا معرفته في التمرس بدقائق العربية ، وهناك تتجدد رؤى المعرفة في إمكانية استنباط معاقد الصلات بين قرائن الأحوال ودقائق المعارف حتى يخيل مقاربة وضع الضوابط والقوانين في أمور ذوقية لشدة تأصل المعايشة لها ، والمعرفة بأحوالها .

وقد حاول ابن عاشور أن يشير في إشارات العلماء إلى أكثرية مواقع التقوية دون التخصيص لاستحثاث ركائب عزائم أولي الصبر من أهل العلم في اقتفاء آثار فكره المتواثب إلى ضبط مايستحيل انضباطه إلا بالذوق ، فقال في تفسير قوله تعالى ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾(٢) .

"وليس التقديم هنا مفيدا للتخصيص ، لأن التخصيص لاأثر له في الصلة ، ولأن الأكثر في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي إذا لم يقع المسند إليه

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩٣/١) .

(٢) سورة الأنفال : آية (٥٥) .

عقب حرف النفي ، أن لايفيد تقديمه إلا التقوى ، دون التخصيص ، وذلك هو الأكثر في القرآن كقوله تعالى : ﴿وماتنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون﴾ إذ لايراد وأنتم دون غيركم لاتظلمون"[١] .

فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي في قوله "فهم لايؤمنون" يفيد تقوى الحكم لاالتخصيص لأن التخصيص لاأثر له في معنى الصلة التي هي قوله : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[٢] .

ولأن الغالب في هذا التركيب أن يفيد التقوى دون التخصيص ، وإن كان محتملا في أصل صياغته لكليهما ، ولكن أساليب الاستعمال تؤذن بغالبية إرادة الأول دون الثاني .

وألمح ابن عاشور في تحريره وتنويره أن الجملة إذا كانت صالحة لاحتمالية إفادة أحد الأمرين ، التخصيص أو التقوية في حصول المعنى المراد منها ، بسبب تقدم المسند إليه على الخبر الفعلي ، فإنه لابد من إجالة النظر في تركيبها لإمكانية وقوع أحدهما بتركيب آخر غير هذا ، وهنا يترجح فيما يمكن أن يترجح به أن تكون طريقة تقدم المسند إليه مختصة بالمعنى الذي لايفاد إلا منها .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للدلالة على الاختصاص دون التقوى ، لأن تقوى الجملة حصل بحرف التأكيد"[٤] .

فالمسند هنا خبر فعلي غير منفي وهو قوله "يقذف بالحق" تقدم عليه المسند إليه وهو قوله : "إن ربي" فكان مثل هذا التركيب محتملا لإفادة التخصيص والتقوى ، فورد التقوى في هذه الجملة القرآنية عن طريق حرف التوكيد "إن" ، فغلب أن يكون التقديم مفيدا للتخصيص . فتأمل .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٧/١٠) .
(٢) سورة الأنفال : آية (٥٥) .
(٣) سورة سبأ : آية (٤٨) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٣٧/٢٢) .

تقديم المسند إليه على المسند في حالة النفي :

يتفرد ابن عاشور رحمه الله في مجمل هذا الباب برؤية خاصة ، تارة يوافق فيها الإمام عبد القاهر ، وتارة يخالفه ، فهو يستصوب مايمليه عليه عقله وذوقه ويسنده فيه الحجة والبرهان قدر الجهد ومبلغ الطاقة ، ولايحاول أن يسلم قياد فكره وزمام عقله لمجرد التلقي دون تمحيص أو تدقيق .

وذلك يظهر جليا من عنوان تفسيره التحرير والتنوير ، وهذا هو دأب المجتهدين من الأئمة الذين تحرروا بعقولهم عن ربقة التقليد ، وارتفعوا للمنافسة في رتبة العلماء المعدودين ، حتى رأيته وأنا أمعن النظر في تفسيره يطرح مارسخ من قواعد النحاة في الواو المسماة بواو الثمانية[١] .

ولاأود مجاوزة ماعقدت عليه هذا المطلب ، إلى مايجري به قلم البيان ويرغب مما لست مطالبا به أو مسئولا عنه .

ويمكن أن تكون هذه التقدمة مدخلا لما ستقف عليه بإذن الله من آراء ابن عاشور التي خالف فيها الإمام عبد القاهر .

إذ يرى ابن عاشور أن تقديم المسند إليه المنفي على الخبر الفعلي ليس نصا على التخصيص ، خلافا لمذهب[٢] الإمام عبد القاهر في نحو : ماأنا قلت هذا ، ومثله بيت دلائل الإعجاز في هذا الشأن ، وهو قول المتنبي :

وماأنا أسقمت جسمي به ولاأنا أضرمت في القلب نارا[٣]

فإنه نص على التخصيص ، سواء كان المسند إليه الذي بعد النفي ، ضميرا ، أو اسما ظاهرا ، أو نكرة .

وقد فسر ابن عاشور قوله تعالى : ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[٤] .

بأنه لمجرد التقوى ولاتخصيص فيه ، إذ قال : "وجاء المسند إليه مخبرا عنه بالجملة الفعلية ، لأن الإخبار بالجملة الفعلية عن الاسم يفيد تقوى الحكم ، فأريد

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٣٦٢/٢٨) ومابعدها .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٢٤) ومابعدها .

(٣) ديوان المتنبي (١١٨/٢) .

(٤) سورة النحل : آية (٨٥) .

تقوى حكم النفي ، أي : أن عدم تخفيف العذاب عنهم محقق الوقوع لاطماعية في إخلافه ، فحصل تأكيد هذه الجملة كما حصل تأكيد الجملة التي قبلها بالفاء ، أي فهم يلقون بسرعة في العذاب"(١) .

ونفيد من هذا النص أن ابن عاشور لايعتد بالنفي المقدم على المسند إليه في إفادة التخصيص ، على خلاف ماذهب إليه الإمام عبد القاهر(٢) من الاعتداد بذلك كما لايوافق السكاكي في هذا الباب إذ ينكر عليه مجئ التخصيص من الخبر المشتق كما سيذكر في موضعه ، فهو إذن يتفرد بمذهب خاص به في باب التقديم لايحتكم فيه إلى التراكيب ذاتها مجردة عن السياق ، بل يرى أن التركيب يفيد التخصيص في هذا الموضع ولايفيد التركيب نفسه أكثر من التقوية في موضع آخر ، وذلك بحكم السياق .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٤) .

قال ابن عاشور : "وجئ في قوله : ﴿ولاأنتم تحزنون﴾ بالمسند إليه مخبرا عنه بالمسند الفعلي لإفادة التقوى في نفي الحزن عنهم ، فالتقوى أفاد تقوى النفي ، لانفي قوة الحزن الصادق بحزن غير قوي"(٥) .

وابن عاشور يبين أن هذا المثال إنما يراد به انتفاء الحزن عن المخاطبين وهم المؤمنون ، بتأكيد وتقوية ، فالحزن منتف عنهم ، مثل التقوية في قولهم : "هو يعطي" وليس المراد نفيه عن المؤمنين ، وثبوته لغيرهم ، فهو ليس من باب التخصيص .

كما أنه لايراد به نفي قوة الحزن الصادق بحزن غير قوي ، بمعنى أن التقوية أنصبت على نفي الحزن عن المؤمنين و لم تنصب على نفي قوة الحزن ، وهذه دقة في فهم التركيب وإيضاح معناه .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤٦/١٤) .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٢٤) ومابعدها .

(٣) ينظر : مطلب تقديم المسند إليه على المسند المشتق

(٤) سورة الزخرف : آية (٦٨) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٥٤/٢٥) .

ويرى التركيب القرآني الذي في الآيـة الكريمـة السـابقة في آيـة أخـرى يفيـد التخصيص ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي في قولـه : "ولاهـم يحزنون" لتخصيص المسند إليه بالخبر نحو : ماأنا قلت هـذا ، أي : أن الحـزن منتـف عنهم لاعن غيرهم"[٢] .

---

(١) سورة الأحقاف : آية (١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٢٦) .

تقديم المسند إليه على المسند المشتق :

يرى ابن عاشور أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق لايفيد الاختصاص مطلقا ، سواء في النفي أو في الإثبات ، وماتوهم فيه الاختصاص من ذلك فإنما بالقرائن الخارجية وليس بذاته .

ومن ثم انتقد ابن عاشور صاحب المفتاح الذي يرى أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق يفيد الاختصاص ، واعتبر مايراه دعوى لادليل عليها ، فقال : "وادعى صاحب المفتاح أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق قد يفيد الاختصاص كقوله تعالى : ﴿وماأنت علينا بعزيز﴾ ، ﴿وماأنا بطارد الذين آمنوا﴾ ، ﴿وماأنت عليهم بوكيل﴾ ، فالوجه أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق لايفيد بذاته التخصيص ، وقد يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن ..." [(١)] .

وقد جرى في تفسيره على هذه الوجهة عند تحليله تراكيب الآي الشريف الذي شأنه هذا الشأن ، ولم يثبت لأي منها اختصاصا كما سيظهر في هذا المبحث.

وهي وجهة لم أر من يتفق معه فيها من أئمة المعاني إلا الخطيب القزويني[(٢)] .

وقد أغرب ابن عاشور في نسبة هذه الوجهة للجمهور ، وذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ﴾[(٣)] .

فقال : "وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة ، إلا أنه الأصل في التعبير بالجملة الاسمية في مثل هذا ؛ إذ لايتأتى بسوى هذا التقديم ، فليس في التقديم دلالة على الاختصاص لما علمت ؛ ولأن التقديم على المسند المشتق لايفيد الاختصاص عند جمهور أئمة المعاني ، بل الاختصاص مفروض في تقديمه على المسند الفعلي خاصة..."[(٤)] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/١٠٠) .
(٢) ينظر : الإيضاح (ص١٤٦) .
(٣) سورة البقرة : آية (١٦٧) .
(٤) التحرير والتنوير (٢/١٠٠) .

ومانسبه ابن عاشور إلى جمهور أئمة المعاني منقوض بما ورد عنهم في مؤلفاتهم ، من أمثال صاحب الكشاف[١] ، والمفتاح[٢] ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل[٣] ، والكشف[٤] ، والأطول[٥] ، وعروس الأفراح[٦] ، والمطول[٧] ، وحاشية السيد[٨] ، وعناية القاضي وكفاية الراضي[٩] ، وحاشية الدسوقي[١٠] ، وروح المعاني[١١] .

و لم أذكر الإمام عبد القاهر مع هؤلاء الأئمة لالموافقته ابن عاشور ، بل لعدم عثوري على رأي له في هذه المسألة ، لأن الشواهد التي ذكرها في هذا الباب كان الخبر فيها فعليا .

وقد بث الإمام القول على أن تقديم المسند إليه المسبوق بالنفي على الخبر الفعلي يفيد الاختصاص قطعا .

أما تقديمه على الخبر المشتق فلم يمثل له ولو بمثال واحد ، ومن ثم لم يعلم البلاغيون وجهة نظر الإمام البلاغية فيما كان شأنه هذا الشأن .

وماأوردته من أسماء يكفي في نقض تلك النسبة .

بل يرى ابن عاشور أن تقديم المسند إليه على الخبر المشتق لايفيد تخصيصا ولاتقويا .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[١٢] .

---

(١) ينظر : الكشاف (٢/٢٨٩) .
(٢) ينظر : المفتاح (ص١١١) .
(٣) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٥/١٣٠) .
(٤) ينظر : الكشف للطيبي
(٥) ينظر : الأطول للعصام (ص١٣٠) ومابعدها .
(٦) ينظر : عروس الأفراح لابن السبكي ضمن شروح التلخيص (١/٤٢٣) .
(٧) ينظر : المطول للسعد (ص١٠٨) .
(٨) ينظر : حاشية السيد الشريف على المطول (ص١٠٨) .
(٩) ينظر : حاشية الشهاب (٥/١٣٠) .
(١٠) ينظر : حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (١/٣٩٥) .
(١١) ينظر : روح المعاني للآلوسي (١٢/١٢٤) .
(١٢) سورة هود : آية (٩١) .

قال ابن عاشور : "وليس تقديم المسند إليه على المسند في قوله : ﴿وماأنت علينا بعزيز﴾ بمفيد تخصيصا ولاتقويا"[(١)] .

والزمخشري يرى في هذه الآية ـ خلاف مايرى ابن عاشور ـ أنها تفيد الاختصاص ، إذ قال : "وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لافي الفعل ، كأنه قيل : وماأنت علينا بعزيز بل رهطك هم الأعزة علينا ، ولذلك قال في جوابهم ﴿أرهطي أعز عليكم من الله﴾ ، ولو قيل : وماعززت علينا لم يصح هذا الجواب"[(٢)] .

والعلامة البيضاوي يوافق الزمخشري في إفادة الآية الكريمة الاختصاص فقد قال في تفسيرها : "وفي إيلاء ضميره حرف النفي تنبيه على أن الكلام فيه لافي ثبوت العزة ..." [(٣)] .

وقد عقب الشهاب الخفاجي على كلام العلامة البيضاوي فقال : "قوله : "وفي إيلاء ضميره حرف النفي الخ" إشارة إلى أن التقديم يفيد التخصيص"[(٤)] .

وقد وضح العلامة الطيبي هذه المسألة في حاشيته على الكشاف ، رادا على الخطيب القزويني في منعه إفادة التخصيص من المشتق ، واعتراضه على السكاكي ، إذ قال : "بأن مافيه الخبر وصفا كما يقارب مافيه الخبر فعلا في إفادة التقوى على ماسلمه المعترض يقاربه في إفادة الحصر لذلك الدليل بعينه ، وأن قولهم : "ولولا رهطك لرجمناك" كفى به دليلا ، أن حق الكلام أن يفاد التخصيص لاأصل العزة ، ففهمه من ذلك لاينافي كونه جوابا لهذا الكلام ، بل يؤكده ..." [(٥)] .

وقد انتصر العلامة الألوسي للسكاكي في تفسير هذه الآية ، وأطال ، وساق كلام العلامة التفتازاني ، والسيد الشريف ، والطيبي ، مستشهدا به ، ومفندا اعتراض الخطيب القزويني في هذه المسألة[(٦)] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٥٠) .
(٢) الكشاف (٢/٢٨٩) .
(٣) تفسير البيضاوي (٥/١٣٠) .
(٤) حاشية الشهاب (٥/١٣٠) .
(٥) وينظر روح المعاني (١٢/١٢٤) .
(٦) ينظر : روح المعاني (١٢/١٢٤) .

وبعد الإشارة إلى كلام أئمة المعاني الذين يخبرون ويدركون الفروق الأسلوبية الدقيقة في أسرار تراكيب الجملة العربية ، أقف أمام نص ابن عاشور السابق ، وأجد فيه ثلاثة أمور ، أمرين يفهمان من منطوق الكلام ، والثالث من مفهومه ، وأرى لابد لي من الوقوف عندها .

فأما أول الأولين فهو نفيه التخصيص في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[١] ، وتمسكه بأن مثل هذا التركيب لايفيد تخصيصا بذاته .

وهذا القول مفند بردود أئمة المعاني على الخطيب القزويني في نفس هذه الآية فيما أوردته آنفا ، وبانعدام مايرتكز عليه أو يستند إليه فيما يقوي جانبه ، بل الحجة تدحضه ، إذ أن التقديم إنما اقتضى الحصر ؛ لأن المخاطب أصاب في الحكم وأخطأ في قيد من قيوده ، فقدم ذلك القيد ، لأهميته عند المتكلم وليرد به خطأ المخاطب ، وهذا قدر مشترك بين الأفعال المشتقات[٢] .

ولايفهم من إفادة مثل هذا التركيب التخصيص بذاته أنه يلزم في كل موضع إذ مراد السكاكي أنه يفيد التخصيص[٣] ، فهو يحتمل التخصيص أو التقوية ، مثل قولك "أنا عرفت" والسياق له حكمه .

أما ثانيهما : فنفيه للتقوية بعد نفيه التخصيص ، والتقوية لازمة في مثل هذه الصياغة ، وهي التي قربت المشتق من الفعل ، اللهم إلا أن يريد أنها غير مقصودة .

وأما ثالثهم فالذي يستفاد من مفهوم كلامه لامنطوقه ، فهو أن التقديم في مثل هذا هو الأصل ولايتأتى التعبير بسواه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[٤] .

ويمكن أن يتأتى التعبير في غير القرآن في تركيب مماثل تركيب آية هود بتقديم ماهو الأصل ؛ بجعل الوصف مبتدأ معتمدا على نفي ، والضمير سد مسد الخبر ، والجملة كما هي اسمية .

---

(١) سورة هود : آية (٩١) .

(٢) ينظر : تقرير الشمس الانبابي (١٩٨/٢) .

(٣) ينظر : مفتاح العلوم (ص١١١) .

(٤) سورة الأعراف : آية (١٩٦) .

فاصطفاء التعبير القرآني في هذه الآية تقديم المسند إليه بتلك الصورة دون غيرها ، يدفعنا لاطراح مفهوم كلام ابن عاشور ، كما يدفعنا إلى تأكيد صحة ماذهب إليه أئمة المعاني من المفسرين والبلاغيين في اسرار التقديم في هذه الآية وأمثالها .

ويرى ابن عاشور أن من أسرار تقديم المسند إليه على الخبر المشتق اتصافه بالخبر لانفس الإخبار عنه ، نحو قوله تعالى : ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وقدم فيها المسند إليه مع أن مقتضى الظاهر أن يقدم المسند وهو "كاهن" أو "مجنون" لأن المقام يقتضي الاهتمام بالمسند ، ولكن الاهتمام بالضمير المسند إليه كان أرجح هنا لما فيه من استحضار معاده المشعر بأنه شئ عظيم وأفاد مع ذلك أن المقصود أنه متصف بالخبر لانفس الإخبار عنه بالخبر كقولنا الرسول يأكل الطعام ويتزوج النساء"[(٢)] .

فمجئ الآية الكريمة بهذا الأسلوب الذي جاء فيه المسند إليه عقب حرف النفي وتأخر فيه المسند المشتق المؤكد بالباء الداخلة عليه ، على حد قوله تعالى في سورة هود ﴿فما أنت علينا بعزيز﴾ . ففي هذا الأسلوب ست فوائد تمس صميم المعنى ، وتثري وفرة الدلالات بمعان دقيقة تفاد من التركيب في هذا المقام :

الفائدة الأولى : بناء النظم الجليل على الجملة الاسمية يفيد ثبوت النفي على جهة الدوام والاستمرار .

الفائدة الثانية : مجئ الخبر مشتقا يفيد اتصافه بالخبر لاالإخبار عنه ، لأن المشتق يتضمن دلالة على الذات والحدث ، بينما الفعل يتضمن دلالة على الزمن والحدث ، والأول أولى ، في هذا السياق من الآخر الذي لايكون فيه للزمن أي قيمة دلالية أو بلاغية في هذا النطاق .

---

(١) سورة الطور : آية (٢٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٥٩/٢٧) .

الفائدة الثالثة : أن تقدم المسند إليه على المسند في هذه الجملة التي كان مقتضى ظاهرها تقدم المسند ، يدفع للبحث بأن هناك سرا بلاغيا في هذا النظم المعجز يدركه من أوتي بصيرة علمية متميزة ، وحسا يقظا ، ودربة وخبرة بأساليب اللغة واستعمالاتها فيلمح مالمحه علامة تونس من أن تقديم المسند إليه يفيد استحضارا لمعاد المسند إليه الذي يشعر بأنه شئ عظيم .

الفائدة الرابعة : إفادة الاختصاص ، وقد أشار إليها ابن عاشور بقوله : "وأفاد أيضا قصرا إضافيا ، بقرينة المقام لقلب مايقولونه أو يعتقدونه من قولهم هو كاهن أو مجنون ، على طريقة قوله تعالى : ﴿ومأأنت علينا بعزيز﴾"(١) .

الفائدة الخامسة : حصلت تقويتان في هذا التركيب من جهة إسناد المسند إليه "أنت" إلى المسند "بكاهن" ومن جهة رفع المسند المشتق لضمير المسند إليه .

الفائدة السادسة : تحقيق هذا الخبر وتأكيده بدخول حرف الجر الصلة وهو "الباء" على خبر "ليس" .

ويرى ابن عاشور في قوله تعالى : ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾(٢) أن تقديم المسند إليه يفيد تمكين الخبر في ذهن المتلقين ، لأن الابتداء بالثواب مما تستشرف إليه النفوس .

قال رحمه الله في تفسير هذه الآية : "وتقديم المسند إليه في قوله ﴿ثواب الله خير﴾ ليتمكن الخبر في ذهن السامعين ، لأن الابتداء بما يدل على الثواب المضاف إلى أوسع الكرماء كرما مما تستشرف إليه النفس"(٣) .

وهذا جانب آخر يكون فيه المسند إليه مثبتا ، لم يدخل عليه نفي كالجمل القرآنية السابقة وخبره أفعل تفضيل ، هو "خير" ، وحذفت منه الهمزة لكثرة الاستعمال .

ولم يشر ابن عاشور في تفسيره إلى أن هذا الضرب يفيد تخصيصا ولاتقوية .
وإن كان هو في حقيقة ذاته يفيد تقوية ، لتكرر الإسناد .

---

(١) التحرير والتنوير (٥٩/٢٧) .
(٢) سورة القصص : آية (٨٠) .
(٣) التحرير والتنوير (١٨٤/٢٠) .

وأما الاختصاص فالإمام عبد القاهر[١] لم ينص على إفادته الاختصاص مطلقا ، بينما يرى العلامة السكاكي احتمال إفادته الاختصاص ، وقد نص على ذلك في باب القصر[٢] .

وفي لفتة أسلوبية عالية يرى ابن عاشور أن السر البلاغي في التركيب قد يرجح بعض وجوه الإعراب المرجوحة على الراجحة .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ من اللهِ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وفي تقديم "مانعتهم" وهو وصف على "حصونهم" وهو اسم ، والاسم بحسب الظاهر أولى بأن يجعل في مرتبة المبتدأ ، ويجعل الوصف خبرا عنه ، فعدل عن ذلك ، إشارة إلى أهمية منعة الحصون عند ظنهم ، فهي بمحل التقديم في استحضار ظنهم ، ولاعبرة بجواز جعل حصونهم فاعلا باسم الفاعل وهو مانعتهم ، بناء على أنه معتمد على مسند إليه ، لأن محامل الكلام البليغ تجري على وجوه التصرف في دقائق المعاني ، فيصير الجائز مرجوحا"[٤] .

وفي هذا النظر دقة تنبئ عن حس يقظ ، وذوق سليم سام ، إذ أن قواعد النحو التي يقررها النحاة في بيان أصل المعنى لايمكن أن تكون هي صاحبة القول الفصل ، أو الكلمة الوحيدة التي تجري عليها نظرة البلاغيين في إدراك أسرار اللسان وأساليب الاستعمال .

لأن إدراك أسرار المعاني التي تعد مرحلة أعلى من إدراك المعاني نفسها هي التي تكون أحرى بتلك المنزلة وبذلك المقام .

والبلاغة في حقيقة ذاتها إنما تعني أنها تجل للآبد والخافي لتتجاوز أصل المعنى الذي يكون قريب التناول إلى معنى لايدرك دلالاته إلا الخاصة ، يستوجب نظرا أدق ، وفكرا أعمق ، وتنقيرا وبحثا وطول تأمل ربما بني عليه معنى أبعد من المنظور.

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٢٨) ومابعدها .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم (ص١٤٠) ومابعدها .

(٣) سورة الحشر : آية (٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨/٧٠) .

وهذا مافعله ابن عاشور في تحقيق هذا المعنى ، وتقرير هذه الحقيقة عندما جعل الجائز مرجوحا من كون الوصف المقدم خبرا مقدما لامبتدأ ، والاسم المتأخر مبتدأ مؤخرا لا فاعلا للوصف ، لأن محامل الكلام البليغ تجري على وجوه التصرف في دقائق المعاني كما قال .

وقد حاول أن يستأنس بكلام بعض الأئمة فيما ذهب إليه من هذه النظرة البلاغية ، فقال : "قال المرزوقي في شرح (باب النسب) قول الشاعر ، وهو منسوب إلى ذي الرمة في غير ديوان الحماسة :

فإن لم يكن إلا معرج ساعة قليلا فإني نافع لي قليلها

يجوز أن يكون (قليلها) مبتدأ ، و(نافع) خبر مقدم عليه أي : لقصد الاهتمام والجملة في موضع خبر (إن) ، والتقدير : إن قليلها نافع لي"[١] .

إذن تقدم الوصف الذي هو اسم الفاعل "نافع" على الاسم الذي هو "قليلها" ، وهذا يشابه تماما الجملة القرآنية "أنهم مانعتهم حصونهم" ، فالوصف الذي هو اسم الفاعل "مانعتهم" قدم على الاسم الذي هو "حصونهم" .

والأولى بحسب ماتقرره القواعد أن يكون المقدم ـ في مثل هذا البناء ـ الاسم لأنه مسند إليه أو محكوم عليه ، ويكون المؤخر أي الخبر هو الوصف لأنه مسند أو محكوم به .

ولكن بناء الآية الكريمة عدل عن ذلك إلى الصورة التي هو عليها ، لمرجح بلاغي وسر بياني ، كشف نقابه ، وأظهر أسبابه علامة تونس ، من جهة أنهم كانوا يظنون أن المانعة لهم من الله الحصون ، فقدموا ماهو أهم بمحل التقديم في استحضار ظنهم من أهمية المنعة على أهمية جهتها في أي صورة كانت .

---

(١) التحرير والتنوير (٧٠/٢٨) .

تقديم المسند على المسند إليه في حالة الإثبات :

أظهر ابن عاشور في تفسيره أن إدراك النكات البلاغية في تقديم المسند على المسند إليه في الإثبات إنما يعود إلى جانبين رئيسيين ، يؤول إليهما مجموع ، مناط المتعلقات فيما يمكن معرفته من الأسرار الأسلوبية في التقديم ، نتيجة محاورة النص ، وإعادة التركيب إلى الأصل ، واستظهار نكاته من خلال ملاحظة التباين بين أبنية تراكيبه .

وذانك الجانبان اللذان جعل كلا منهما قسيم الآخر ، هما الاختصاص ، والاهتمام .

فالاختصاص مقابل للاهتمام ، فليس من مهماته ، ولاداخلا فيه ، ولامنضويا تحت مقتضياته .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وتقديم الظرف للاختصاص ، أي : أن الأرض لله تعالى فقط لالهم ، فليس لهم حق في منع شئ منها عن عباد الله المخلصين"[٢] .

لأن الآية الشريفة تشير إلى تسلية المؤمنين في خروجهم من مكة ، وانفراد كفار قريش بمجاورة الكعبة الشريفة .

ونحو الآية السابقة قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٤] ، وقوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٥] .

وقد أشار ابن عاشور إلى نكات أخرى منضوية في مجموعها تحت القسم الآخر وهو الاهتمام .

---

(١) سورة البقرة : آية (١١٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٦٨٣/١) .

(٣) سورة الزمر : آية (٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٣٦/٢٣) .

(٤) سورة الفتح : آية (٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٢٦) .

(٥) سورة الكافرون : آية (٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٥٨٤/٣٠) .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة ق : ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وتقديم المجرور على المبتدأ للاهتمام بالخبر ؛ لما في الخبر من رفع الاستحالة ، وإظهار التقريب ، وفيه تشويق لتلقي المسند إليه"[٢] .

وكذا أيضا في سورة ص في قوله تعالى : ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وتقديم الظرف للاهتمام ، لأنه مناط الإنكار ، وهو كقوله تعالى : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾"[٤] .

فابن عاشور يشير إلى نكات المقام ، وهذه طريقته كما هي واضحة في الآيتين السابقتين بعد إشارته للغرض الرئيسي وهو الاهتمام .

وقد ذكر ابن عاشور نكات أفردها بالاستقلالية عن الجانبين المذكورين ، لأنه يرى أنها لايمكن أن تكون منتمية لأي منهما .

وذلك مثل نكتة التنبيه على أن المسند خبر لانعت ولأجل ذلك قدم على المسند إليه .

وقد أشار إليها في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "وتقديم المجرور للتنبيه على أنه خبر لانعت"[٦] .

ومثلها أيضا نكتة التشويق في استقلاليتها بذاتها ، وعدم انضوائها تحت أي من القسمين السابقين .

وقد سبق إيرادها آنفا في تفسير آية ق ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٧] .

---

(١) سورة ق : آية (١١) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٦/٢٩٥) .
(٣) سورة ص : آية (٩) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/٢١٦) .
(٥) سورة التوبة : آية (١٠١) .
(٦) التحرير والتنوير (١١/١٩) .
(٧) سورة ق : آية (١١) .

وقد أشار ابن عاشور أيضا إلى نكتة أردفها بنكتة نحوية وهي صحة الابتداء بالنكرة ، فيتقدم المسند على المسند إليه لأجل هذه النكتة .

عند تفسيره قول الله تعالى في سورة الحج : ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وتقديم "لكم" على المبتدأ ليتأتى كون المبتدأ نكرة ؛ ليفيد تنوينه التعظيم"[٢] .

وذكر هذه النكتة البلاغية في قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾[٣] ، وفي قوله تعالى : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾[٤] .

وابن عاشور إنما يشير إلى أن التنكير في المبتدأ المتأخر وتنوين ذلك المبتدأ يفيد تنوينه التعظيم ، وهي نكتة دقيقة عن سمو ذوق ابن عاشور البلاغي في هذه اللفتة الدقيقة .

---

(١) سورة الحج : آية (٣٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٢٦٣) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٤٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٨/١٤٠) .

(٤) سورة النحل : آية (١٠٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٤/٢٩٤) .

تقديم المسند على المسند إليه في حالة النفي :

هذا المبحث من المباحث التي تدق خفاياها ، وتتطلب مزيد نظر ، وفضل تأمل ، لأن النفي فيه يحدث إشكالا قد تزل فيه ثوابت الأقدام .

ومصدر الإشكال هو توجه النفي إذا دخل على كلام إلى قيده ، والقيد في الجملة المثبتة المقصورة هو القصر ، فكيف تفيد الجملة المنفية القصر أو الاختصاص ، وهو منفي عنها بالنفي ، وهذا وجه الإشكال .

والإجابة عن هذا الإشكال أن القصر الموجود في الجملة إنما هو كيفية عارضة فيها ، وليس قيدا لفظيا حتى يتوجه إليه النفي ، ولذا يستصحب مع النفي ولايتعارض معه .

زد على ذلك أن استظهار مفاد القصر في سياق النفي لايظهر بتلك الصورة التي نجدها في سياق الإثبات .

فإذا أردت تحقيق مفاده فلابد من اعتبارين في أداة النفي ؛ إما أن تجعلها جزءا من المسند إليه ، أو تجعلها جزءا من المسند ، ليظهر لك معنى القصر[(١)] .

ونكات هذا المبحث البلاغية من خلال تفسير الطاهر ، إما القصر ، وإما مجرد الاهتمام .

فالقصر أشار إليه في الآية المشهورة عند البلاغيين في سورة الصافات في صفة خمر الجنة ، وهي قوله تعالى : ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وتقديم الظرف المسند على المسند إليه لإفادة التخصيص أي : هو منتف عن خمر الجنة فقط دون مايعرف من خمر الدنيا ، فهو قصر قلب"[(٣)] .

والاهتمام أشار إليه في تفسير قوله تعالى : ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[(٤)] .

---

(١) ينظر : تقرير الانبابي (٤٣٧/٢) ، التحرير والتنوير (٧٠/٣) ، (٢٥٠/٧) .

(٢) سورة الصافات : آية (٤٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١١٣/٢٣) .

(٤) سورة الزمر : آية (٣٦) .

قال ابن عاشور : "وتقديم "له" على "هاد" للاهتمام بضميرهم في مقام نفي الهادي لهم ..." [١] .

وقد يتأتى مجيئهما في آية واحدة ، نحو قوله تعالى : ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[٢] .

وترجيح أحدهما على الآخر في اجتماعهما ، إنما يعود بنا إلى اعتبار الأفضلية الذاتية المحضة لأحدهما دون الآخر ، إذ أن خصوصيات معاني التخصيص تفوق الاهتمام وعمومه .

لهذا أجرى علامة[٣] خوارزم التخصيص في معنى الآية السابقة في سورة الأنعام دون الاهتمام ، على أنه لايمنع من قبول معناهما في الآية مانع .

وقد اشار ابن عاشور إلى ذلك ، بعد إشارته للغرض من تقديم المسندين في الآية الكريمة لأجل الاهتمام والتخصيص ، فقال : "والغرض يحتمل مجرد الاهتمام ، ويحتمل الاختصاص ، وحيث تأتي معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام ، ولذلك جرى عليه كلام الكشاف"[٤] .

ثم تابع ابن عاشور كلامه في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام وتفرد برؤية بلاغية جديرة بالتسجيل ، يرى فيها قلة وقوع القصر بواسطة تقديم المسند على المسند إليه في سياق النفي في القرآن ، وهي رؤية اتفق معه فيها ، ومما ذكروه من أمثلة للتخصيص آية سورة الصافات ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[٥] ابن عاشور وآية سورة الأنعام ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[٦] ، وجوز فيها الاختصاص والاهتمام .

---

(١) التحرير والتنوير (١٤/٢٤) .
(٢) سورة الأنعام : آية (٥٢) .
(٣) ينظر : الكشاف (٢٢/٢) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٥٠/٧) .
(٥) سورة الصافات : آية (٤٧) .
(٦) سورة الأنعام : آية (٥٢) .

وأشار ابن عاشور لذلك فقال : "فمعنى الكلام قصر نفي حسابهم على النبي ﷺ ليفيد أن حسابهم على غيره وهو الله تعالى .

وذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع في سياق النفي ، وهو مفاد خفي على كثير ، لقلة وقوع القصر بواسطة التقديم في سياق النفي ، ومثاله المشهور قوله تعالى : ﴿لافيها غول﴾ فإنهم فسروه بأن عدم الغول مقصور على الإتصاف بفي خمور الجنة ، فالقصر قصر قلب"[1] .

---

(١) التحرير والتنوير (٧/٢٥٠) .

تقديم متعلقات العامل :

يشتمل هذا المبحث على تقديم معمولات العامل عليه من حال وتمييز وظرف ومجرور ومفاعيل إلا الفاعل فإنه يكون بالتقديم عاملا لامعمولا .

وتقدم هذه المعمولات على عاملها جار على خلاف الأصل في تأخرها عنه مما يدفع للبحث عن أسرار تلك المخالفة .

ومن أهم أسرار تقدم تلك المعمولات على عاملها إفادة الاختصاص[١] الذي هو لازم للتقديم غالبا[٢] ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾[٣] . فالمراد أقول الحق لاغيره .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وتقديم المفعول في ﴿الحق أقول﴾ للاختصاص ، أي : ولاأقول إلا الحق"[٤] .

ومثله في إفادة الاختصاص قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾[٧] ومن بعض أفراده التي اختلف[٨] فيها قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُود فَهَدَيْنَاهُمْ﴾[٩] بنصب ثمود وهي قراءة شاذة[١٠] .

---

(١) أنكر ابن الحاجب إفادة الاختصاص من تقدم معمولات العامل عليه باستدلالات ضعيفة لاتثبت للمناقشة . ينظر : شرح المفصل (٤٧/١) .

(٢) ينظر : شروح التلخيص (١٥٠/٢) .

(٣) سورة ص : آية (٨٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٣٠٧/٢٣) .

(٥) سورة الفاتحة : آية (٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٨٣/١) .

(٦) سورة الأنفال : آية (٢٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣١٦/٩) .

(٧) سورة هود : آية (١٢٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٩٤/١٢) .

(٨) ينظر : شروح التلخيص (١٤٩/٢) .

(٩) سورة فصلت : آية (١٧) .

(١٠) قرأ بها الحسن ، ينظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للشيخ أحمد الدمياطي (ص٣٨١) .

ومما خالف فيه ابن عاشور أئمة البلاغة قوله تعالى : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] .

فهو يرى أن تقديم "بالآخرة" إنما هو لمجرد الاهتمام ورعاية الفاصلة لا للاختصاص ، إذ قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وهو تقديم لمجرد الاهتمام ورعاية الفاصلة"[2] ، بينما يرى صاحب الكشاف وشارحوه[3] إفادة هذا التقديم الحصر .

بل شاركهم هذه الوجهة صاحب[4] المفتاح ، وصاحب[5] الإيضاح ، وصاحب[6] أنوار التنزيل ، وأسرار التأويل ، وحاشية[7] شيخ زاده على البيضاوي ، وحاشية[8] الشهاب الخفاجي على البيضاوي أيضا .

ورأوا أن معنى الاختصاص في الآية الشريفة هو قصر إيقانهم على ماهو حقيقة الآخرة لايتعداها إلى ماهو خلاف حقيقتها ، من اعتقادات أهل الكتاب الفاسدة من نحو : أنه لايدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، وأن النار لاتمسهم إلا أياما معدودات ، وأن أهل الجنة لايتلذذون فيها إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ، مما هو خلاف حقيقة الآخرة .

فمعنى القصر إذن أنهم لايوقنون إلا بالآخرة لابغيرها كما هو حال اعتقاد أهل الكتاب .

وهذا المعنى في نظر ابن عاشور تكلف يخرج عن حقيقة الحصر التي هي تعلق بذات المحصور لا بأحواله ، ولايرى للتقديم في هذه الجملة القرآنية وجها يفيد الحصر ، قال ابن عاشور : "وأرى أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا

---

(١) سورة البقرة : آية (٤) .
(٢) التحرير والتنوير (١/٢٤٠) .
(٣) ينظر : الكشاف ومعه حاشية السيد (١/١٣٧) .
(٤) ينظر : المفتاح (ص١١٢) .
(٥) ينظر : الإيضاح (ص٢٠٦) .
(٦) ينظر : تفسير البيضاوي (١/٢٣٨) .
(٧) ينظر : حاشية محيي الدين شيخ زادة على البيضاوي (١/٩٩) .
(٨) ينظر : حاشية الخفاجي (١/٢٣٨) .

بأهم مايوقن به المؤمن ، فليس التقديم بمفيد حصرا ؛ إذ لايستقيم معنى الحصر هنا ؛ بأن يكون المعنى انهم يوقنون بالآخرة دون غيرها ، وقد تكلف صاحب الكشاف وشارحوه لإفادة الحصر من هذا التقديم ، ويخرج الحصر عن تعلقه بذات المحصور فيه إلى تعلقه بأحواله ، وهذا غير معهود في الحصر"[١] .

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عاشور له حظ من النظر ، ويقره الفهم والذوق السليم ، وإن خالف فيه هؤلاء الأئمة ، وهو رأي لم يتفرد به ، بل سبقت إليه إشارة بهاء الدين السبكي في شرحه على تلخيص المفتاح ، المسمى بعروس الأفراح إذ قال : "فلو قال ﴿بالآخرة هم يوقنون﴾ : أفاد بمنطوقه إيقانهم بها ، ومفهومه عند من يزعم أنهم لايوقنون بغيرها ، وليس ذلك مقصودا بالذات ، والمقصود بالذات قوة إيقانهم بالآخرة حتى صار غيرها عندهم كالمدحوض فهو حصر مجازي وهو دون قولنا : يوقنون بالآخرة لابغيرها ، فاضبط هذا وإياك أن تجعل تقديره : لايوقنون إلا بالآخرة"[٢] .

وقد أطال النفس في إيضاح التقديم في هذه الآية ، بما يغني عن إيراده ماأوردته عن ابن عاشور .

وقد حاول ابن عاشور جاهدا أن يضع مايعين تغليب الاختصاص على التقوى عند تقدم المفعول به على عامله ، لأنه بالتقديم يحتمل كليهما ، فإذا مااقترن عامله بضميره ، وأصبحت الصيغة صيغة اشتغال ، نحو قوله تعالى : ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[٣] - باتصال الفعل بضمير المفعول ، والكسرة في النون مشيرة إلى ذلك في اصطلاح الرسم العثماني - كان احتمال الاختصاص أوكد من احتمال التقوى ، لحصول الثاني من جهة إسناد العامل إلى ضميره ، فتعين تغليب حصول الأول من جهة التقديم .

---

(١) التحرير والتنوير (١/٢٤٠) .

(٢) عروس الأفراح (٢/١٥٧) ومابعدها .

(٣) سورة البقرة : آية (٤٠) ، وينظر : التحرير والتنوير (١/٤٥٤) .

وهذا مافهمه ابن عاشور من كلام الزمخشري ، وقد صرح بذلك حين قال : "وتقديم المفعول مع اشتغال فعله بضميره آكد في إفادة التقديم الحصر من تقديم المفعول على الفعل غير المشتغل بضميره ، فاياي فارهبون آكد من نحو إياي ارهبوا كما أشار إليه صاحب الكشاف ، إذ قال : "وهو من قولك : زيدا رهبته وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إياك نعبد"(١) .

ولايلزم من ذلك أن الاشتغال متعين للتخصيص بل قد يأتي بلاتخصيص ، نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ﴾(٣) .

وبهذا يعلم أن مجئ التقديم مع صيغة الاشتغال يفيد التخصيص غالبا لامطلقا.

وهذا خلاف ماعليه السكاكي في مثل هذا الشأن من صيغ الاشتغال في تعيين الاختصاص أو التقوى من خلال موقع الفعل المحذوف ، فإن قدر مقدما على المفعول أفاد التقوى ، وإن قدر مؤخرا عنه أفاد الاختصاص .

قال السكاكي : "... وأما زيدا عرفته فأنت بالخيار إن شئت قدرت المفسر قبل المنصوص على نحو : عرفت زيدا عرفته وحملته على باب التأكيد .

وإن شئت قدرته بعده على نحو زيدا عرفته عرفته وحملته على باب التخصيص .."(٤) .

وقد رد عليه ابن عاشور ردا أبطل فيه مذهبه ، فحواه أن الاعتداد بموقع الفعل المقدر حوالة على غير مشاهد ، وأن تقدير الفعل المحذوف بنية المتكلم ، ولاقبل للسامع بمعرفة نيته .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٥٤/١) ، وينظر الكشاف (٢٧٦/١) .
(٢) سورة القمر : آية (٤٩) .
(٣) سورة القمر : آية (٢٤) .
(٤) مفتاح العلوم (ص١٠٧) .

قال ابن عاشور : "ولاالتفات إلى ماوجه به صاحب المفتاح أن احتمال المفعول في الاشتغال التخصيص والتقوى باق على حاله ، ولكنك إن قدرت المحذوف متقدما على المفعول كان التقديم للتقوى ، وإن قدرته بعد المفعول كان التقديم للتخصيص ، فإنه بناه على حالة موقع الفعل المقدر ، مع أن تقدير الفعل اعتبارا لايلاحظه البلغاء ، لأنهم لاينصبون على موقعه قرينة ، فتعين أن السامع إنما يعتد بالتقديم المحسوس وبتكرير التعلق ، وأما الاعتداد بموقع الفعل المقدر فحوالة على غير مشاهد ، لأن التقدير إن كان بنية المتكلم فلاقبل للسامع بمعرفة نيته ، ولايصح أن يكون الخيار في التقدير للسامع"(١) .

وفي مجئ الاختصاص عن طريق هذا الأسلوب الذي هو تقدم المفعول به على عامله ، من خلال استقراء دلالات التراكيب في كلام البلغاء ، هناك مراتب أربع يراها الطاهر فيقول : "مجرد التقديم للمفعول نحو : ﴿إياك نعبد﴾ ، وتقديمه على فعله العامل في ضميره نحو : زيدا رهبته ، وتقديمه على فعله مع اقتران الفعل بالفاء نحو : ﴿وربك فكبر﴾ ، وتقديمه على فعله العامل في ضميره مع اقتران الفعل بالفاء نحو : ﴿وإياي فارهبون﴾"(٢) .

ولاريب في أن أوكد المراتب في إفادة الاختصاص هي المرتبة الرابعة ، وقد أشار إليها الزمخشري(٣) في كشافه ووصفها بذلك ، ونقل ذلك الطاهر(٤) عنه ووصفها أيضا بأنها من مبتكرات أسلوب القرآن .

ووجه أفضلية هذه المرتبة هو شمولها على جميع عناصر التركيب في سابقاتها وزيادتها عنهن ، هذا على جهة الإيجاز .

أما على جهة التفصيل ، فإن مجرد تقديم المفعول أفاد الاختصاص ، وتأكد الاختصاص باشتغال الفعل بضمير المفعول المتقدم ، وازدادت الصيغة تأكدا على

---

(١) التحرير والتنوير (١/٤٥٥) .
(٢) التحرير والتنوير (١/٤٥٧) .
(٣) ينظر : الكشاف (١/٢٧٦) .
(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١/٢٥٤) .

تأكد بوجود الفاء المؤذنة بصيغة شرط عام يستلزم تحقق وقوع الجواب على أبلغ وجه وآكده .

ولايخفى أن صيغة الحصر ماهي إلا تأكيد على تأكيد[(١)] ، فحصل من هذا التركيب ، مابهر راجحات العقول ، وأعجز أساطين الفحول .

وقد يكون تقديم الظروف والمجرورات على عاملها مغنيا عن أدوات العطف وأدوات الشرط في صلاحية اتصال الكلام ، نحو قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾[(٢)] ، فالجار والمجرور (كذلك) أغنى عن حرف العطف الواو .

قال العلامة ابن عاشور : "وتقديم الجار والمجرور على متعلقه وهو "قال" إما لمجرد الاهتمام ببيان المماثلة ، وإما ليغني عن حرف العطف في الانتقال من كلام إلى كلام إيجازا بديعا ؛ لأن مفاد حرف العطف التشريك ومفاد كاف التشبيه التشريك إذ التشبيه تشريك في الصفة"[(٣)] .

ومثله قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[(٤)] .

فاستغنىً عن حرف العطف بتقديم "يوم" ، الذي هو معمول لـ"تود" حتى قرر ابن عاشور هذا الغرض فقال : "ومنه مايجئ في القرآن غيرمرة ، ويكثر مثل هذا في الجمل المفصول بعضها عن بعض بدون عطف ، لأن الظرف والمجرور يشبهان الروابط"[(٥)] .

وقد يأتي التقديم أيضا للاهتمام بإفادة معنى التعليل ، نحو ماورد في تفسير قوله تعالى : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[(٦)] .

فقد قدم الجار والمجرور ، وهو قوله "بما" على عامله "لأقعدن" لإفادة معنى التعليل الذي قربه من معنى الشرط فاستحق التقديم ، قال العلامة الطاهر : "وقدم المجرور على عامله لإفادة معنى التعليل ، وهو قريب من الشرط ، فلذلك استحق التقديم"[(٧)] .

---

(١) ينظر : مفتاح العلوم (ص١٤٠) .

(٢) سورة البقرة : آية (١١٣) .

(٣) التحرير والتنوير (٦٧٨/١) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٣٠) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٣/٣) .

(٦) سورة الأعراف : آية (١٦) .

(٧) التحرير والتنوير (٤٧/٨) .

ثم أخذ يوضح ذلك الغرض محاولا بيانه ، فقال : "فـإن المجـرور إذا قـدم قـد يفيد معنى قريبا من الشرطية ، كما في قول النبي ﷺ : "كما تكونوا يولى عليكـم" في رواية جزم تكونوا ، مع عدم معاملة عامله معاملة جواب الشرط بعلامة الجـزم ؛ فلم يرد "يولى" إلا بالألف في آخـره علـى عـدم اعتبـار الجـزم ، وذلـك يحصـل مـن الاهتمام بالمتعلق ، إذا كان هو السبب في حصول المتعلق به"[١] .

ومن نكات تقديم المعمول على عامله أن يكون لإفادة معنى التوقيت الزمـني في حصول الفعل ، فيقدم الظرف على عامله نحو قولـه تعـالى : ﴿فَانطَلَقَـا حَتَّـى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾[٢] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وبنى نظم الكلام على تقديم الظـرف على عامله ؛ للدلالة على أن الخرق وقع بمجرد الركوب في السفينة ؛ لأن في تقديـم الظرف اهتماما به ، فيدل على أن وقت الركوب مقصود لإيقاع الفعل فيه"[٣] .

ومنها أن يكون التقديم للاهتمام والتقوى ورعاية الفاصلة القرآنية ، نحو قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وتقديـم "إليـه" علـى "ترجعـون" للاهتمـام ، والتقـوى ، وللرعاية على الفاصلة"[٥] .

والأظهر في غرض التقديم في الآية الكريمة أنه لأجل الحصر ، وقـد أشـار إلى ذلك العلامة الألوسي إذ قال : "وتقديم "إليه" للفاصلـة وللدلالـة علـى الحصـر ؛ إذ المعنى إليه تعالى ، لاإلى أحد غيره سبحانه لااستقلالا ولااشتراكا ترجعون"[٦] .

وربما الذي دفـع ابـن عاشـور لعـدم الإشـارة للحصـر مـافهم سـابقا في بـدء تركيب الآية القرآنية من معنـى الحصـر في قولـه "لله الشـفاعة جميعـا" فاستغني عـن إعادة معناه مرة أخرى لكون سياق الآية واحدا ، ومعناها متصلا .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٧/٨) .

(٢) سورة الكهف : آية (٧١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٧٥/١٥) .

(٤) سورة الزمر : آية (٤٤) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٨/٢٤) .

(٦) روح المعاني (١٠/٢٤) .

أو بما علله في موضع آخر وهو أوجه من أن تقديم "إليه" على "ترجعون" ليس للقصر "لأنهم لايؤمنون بالبعث أصلا بله أن يزعموا أنهم يحضرون إلى الله وإلى غيره"[(١)] .

وربما يورد عليه في تعليل التقديم في هذه الآية الكريمة أن نكتة رعاية الفاصلة من المحسنات البديعية .

ولايمكن إيرادها في تعليل التقديم ، لأن الأصل في عدم توافق الفواصل الجواز ، فكيف يوردها الطاهر في هذا المقام؟

فيمكن الإجابة عنه بأنها مشفوعة بنكات أخر للتقديم كالاهتمام والتقوى .

فيورد عليه أن الاهتمام من نكات التقديم العامة التي لايكفي التعليل بها ، وقد نبه[(٢)] على ذلك إمام هذا الفن فيجاب عنه بأن نكتة التقوى يصح أن تكون تعليلا للتقديم .

فيورد عليه أيضا بأنه لو سلم له ذلك ، فكيف يجاب عن إفراد الطاهر لنكتة رعاية الفاصلة وهي من المحسنات البديعية تعليلا للتقديم في قوله تعالى : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[(٣)] .

قال ابن عاشور : "والتقديم في "إليه ترجعون" للاهتمام ورعاية الفاصلة وليس للقصر"[(٤)] .

فيجاب عنه بأن رعاية الفاصلة وإن كانت من المحسنات البديعية قد تكون مما يتطلبها المقام ، فيعد تركها خروجا على مراعاة مقتضى الحال .

وقد يقدم المعمول مبهما ، لتتطلع له نفس السامع ، فيأتي بيانه بعد ذلك ، فيرسخ موقعه في النفس ، كما يرى ابن عاشور ذلك في قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[(٥)] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٦٣) .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٠٨) .

(٣) سورة هود : آية (٣٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٢/٦٣) .

(٥) سورة هود : آية (١٢٠) .

قال العلامة الطاهر : "وانتصب "كلا" على المفعولية لفعل "نقص" وتقديمه على فعله للاهتمام ولما فيه من الإبهام ليأتي بيانه بعده ، فيكون أرسخ في ذهن السامع"[(١)] .

وربما يكون التقديم لتعجيل المساءة ورعاية الفاصلة ، نحو قوله تعالى : ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[(٢)] .

قال العلامة الطاهر : "وتقديم "في النار" على "خالدون" للرعاية على الفاصلة ، ويحصل منه تعجيل المساءة للكفار إذا سمعوه"[(٣)] .

وقد ذكر العلامة الألوسي أن التقديم للاهتمام ورعاية الفاصلة فقال : "والظرف متعلق بالخبر قدم عليه للاهتمام به ومراعاة للفاصلة"[(٤)] .

ومن النكات أيضا التشويق ، وقد أشار إليه ابن عاشور ، مع إفادته توضيح أسلوب من مبتكرات أساليب القرآن الكريم ، يحتاج إلى بيان ماتوهم فيه من إشكال ، نحو قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[(٥)] .

فتقديم الجار والمجرور "كذلك" للاهتمام بالمشار إليه ، ولأجل التشويق بلفت الأنظار إليه[(٦)] .

قال العلامة الطاهر : "وتقديم المجرور من قوله : "كذلك" على "يوحى إليك" للاهتمام بالمشار إليه والتشويق بتنبيه الأذهان إليه"[(٦)] .

ووجه الإشكال فيه أين المشار إليه؟ أو أين المشبه؟

وقد ورد مثل هذا الأسلوب كثيرا في التنزيل ، نحو قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[(٧)] ، ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾[(٨)] ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٩١) .
(٢) سورة التوبة : آية (١٧) .
(٣) التحرير والتنوير (١٠/١٤١) .
(٤) روح المعاني (١٠/٦٥) .
(٥) سورة الشورى : آية (٣) .
(٦) التحرير والتنوير (٢٥/٢٧) .
(٧) سورة البقرة : آية (١٤٣) .
(٨) سورة الأنعام : آية (٧٥) .

نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ﴾[١] .

و لم يتقدم عليه مايمكن أن يكون مشارا إليه ، فيقدر في مثله مصدر مأخوذ من الفعل الذي بعد اسم الإشارة ، والتقدير في آية سورة الشورى : أي : كذلك الإيحاء يوحي إليك الله .

قال العلامة ابن عاشور في المشار إليه في آية الشورى : "وإذ لم يتقدم في الكلام مايحتمل أن يكون مشارا إليه بـ"كذلك" علم أن المشار إليه مقدر معلوم من الفعل الذي بعد اسم الإشارة ، وهو المصدر المأخوذ من الفعل ، أي : كذلك الإيحاء يوحي إليك الله .

وهذا استعمال متبع في نظائر هذا التركيب .. وأحسب أنه من مبتكرات القرآن إذ لم أقف على مثله في كلام العرب قبل القرآن"[٢] .

---

(١) سورة الأنعام : آية (١١٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٢٥) .

تقديم بعض المعمولات على بعض :

لمعمولات الفعل في اللسان العربي نسق تجري وفقه يسميه العلماء الأصل ، ولايمكن أن تخالفه إلا لأسرار بيانية ، ونكات بلاغية ، إذ أنها نظام محكم متقن ، ولابد من معرفة دقائقه ، والوقوف على خفايا أسراره .

لذا يفترض ويشترط في البلاغي أن يكون نحويا ضليعا ، إضافة إلى ذوق سام وحس مرهف ، ليمكنه مساءلة اللغة ، واستنطاق دلالاتها ، في تباين أسلوبها ، واختلاف أو تعدد تركيبها أو بنائها في موافقتها للأصل أو مخالفتها .

وقد أجبت في بداية هذا الفصل عن سؤال علماء البلاغة ـ خصوصا من بين سائر العلماء ـ عما جاء من اللغة على أصل وضعه ، وذكرت أن البلاغة تبحث عن مناسبة الكلمة في النص ماجاء على الأصل أو على خلافه .

وأضيف جوابا آخر هو أن بحث العلماء عما جاء على أصله ، إنما هو بحث عن قصد المتكلم في الإتيان بالكلام على أصله ، مع إمكان الإتيان به بصور أخرى.

ومن ثم فلايقع في الخاطر ، أو يجري في الوهم أن مايقوم به علماء البلاغة من بحث أسرار ماجاء على الأصل إنما هو تكلف لاطائل تحته ، إذ أن المتكلم بإمكانه أن يأتي بكلامه بصور مختلفة وأساليب متعددة ، فلما اختار الإتيان به على صورة الأصل دون سائر الصور ، لاقتضاء المقام لها ، كان بها من الأسرار مايدفع للبحث عنها .

فضم ماهنا إلى ماهنالك ، فذان جوابان .

وعليه فإن مقتضيات التقديم متعددة بتعدد المقامات والدواعي لها .

وهذا مايتجلى في الآي المتشابه من تقديم وتأخير يناسب المقام ويلائمه .

قال تعالى في سورة الحجر : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1] .

وقال تعالى في سورة النمل : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2] .

---

(١) سورة الحجر : آية (١) .

(٢) سورة النمل : آية (١) .

قال ابن عاشور : "فأما تقديم الكتاب على القرآن في الذكر ، فلأن سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنهم سيجئ وقت يتمنون فيه أن لو كانوا مؤمنين .

فلما كان الكلام موجها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزل على محمد ﷺ بعنوانه الأعم وهو كونه كتابا ؛ لأنهم حين جادلوا ماجادلوا إلا في كتاب فقالوا "لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم" ولأنهم يعرفون ماعند الأمم الآخرين بعنوان "كتاب" ويعرفونهم بعنوان "أهل كتاب" ..." [١] .

فتقديم الكتاب على القرآن لأن المقام مقام تحسير للكافرين وتوبيخ لهم ، وهم أهل كتاب ، فناسب تقديمه على القرآن .

بينما قدم في سورة النمل لفظ "القرآن" على لفظ "كتاب" ، لأن المخاطبين بالآية هم المؤمنون ،والمقام مقام تنويه بهم وبما أنزل عليهم .

قال ابن عاشور : "فأما عنوان "القرآن" فهو مناسب لكون الكتاب مقروءا مدروسا ، وإنما يقرأه ويدرسه المؤمنون به ، ولذلك قدم عنوان القرآن في سورة النمل" [٢] .

وقد سبقت من العلماء الإشارة إلى الفرق بين أسلوب الآيتين ، كالزمخشري [٣] ، والغرناطي [٤] ، والخفاجي [٥] ، والألوسي [٦] .

ومثله أيضا قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (٩/١٤) ومابعدها .

(٢) ن.م.س (١٠/٤) .

(٣) ينظر : الكشاف (١٣٥/٣) .

(٤) ينظر : ملاك التأويل (٥٥٥/٢) ومابعدها .

(٥) تنظر : حاشية الشهاب (٢٨١/٥) .

(٦) ينظر : روح المعاني (٢/١٤) ومابعدها .

(٧) سورة النحل : آية (١٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (١١٩/١٤) .

وقوله تعالى في سورة فاطر : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[١] .

فآية سورة النحل مسوقة في مقام الامتنان بتسخير البحر ، إذ بداية الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾[٢] ، ومما امتن الله به على عباده حملهم في البحر والبر ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٣] .

أما آية سورة فاطر فهي مسوقة في مقام الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى ومن دقيق صنع الله أن ترى الفلك في البحر لافي غيره مواخر فمكمن الدقة هو ماتسير عليه لارؤيتها ، فقدم مايدل على ذلك وهو الظرفية "فيه" .

وهذه المعاني هي مابسط القول فيها العلامة الإسكافي[٤] ، وغيره[٥] .

ولك أن تتأمل أيضا سياق الآيتين الكريمتين المشهورتين عند البلغاء في هذا الشأن ، في سورة المؤمنون وهي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾[٦] .

وفي سورة النمل ، وهي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾[٧] .

لترى السر في موقع اسم الإشارة "هذا" في كلا الآيتين ، ففي سورة المؤمنون سياق الآية يتحدث عن المبعوث ، فجرى التقديم على ماهو الأصل ولامقتضى للعدول عنه ، لأن المقام يقتضي هذا التركيب "لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل" .

---

(١) سورة فاطر : آية (١٢) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٨٠/٢٢) .
(٢) سورة النحل : آية (١٤) .
(٣) سورة الإسراء : آية (٧٠) .
(٤) ينظر : درة التنزيل وغرة التأويل (ص١٤٤) ومابعدها .
(٥) ينظر : البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني (ص١١٠) ومابعدها .
(٦) سورة المؤمنون : آية (٨٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٥/٢٠) .
(٧) سورة النمل : آية (٦٨) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٥/٢٠) .

وإليك سياق الآيات : ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[١] .

وفي سورة النمل سياق الآية يتحدث عن البعث نفسه ، وإنكارهم ذلك ، فقدم المفعول به "هذا" على "نحن وآباؤنا" لأنه الغرض المعتمد بالذكر ، فسيق الكلام على هذه الصورة : "لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل" .

وإليك سياق الآيات : ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[٢] .

وهذه الفروق في التقديم هي من شواهد البلاغيين[٣] .

وتأمل أيضا أسرار التعبير القرآني في تقديم بعض المتعلقات على بعض في آيتي سورة القصص وهي قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[٤] .

وسورة يس وهي قوله تعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾[٥] .

وقد أشار ابن عاشور إلى سر التقديم في الآيتين ، فقال : "وأما قوله تعالى في سورة القصص ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾ فجاء النظم على الترتيب الأصلي ؛ إذ لاداعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحا و لم يكن داعيا للإيمان"[٦] .

---

(١) سورة المؤمنون : آية (٧٩-٨٣) .

(٢) سورة النمل : آية (٦٥-٦٨) .

(٣) ينظر : عروس الأفراح (١٦١/٢) .

(٤) سورة القصص : آية (٢٠) .

(٥) سورة يس : آية (٢٠) .

(٦) التحرير والتنوير (٣٦٦/٢٢) .

وأما في سورة يس فبعد أن فسر معنى قوله تعالى ﴿من أقصى المدينة﴾ أي : من أطرافها ، قال : "وبهذا يظهر وجه تقديم "من أقصى المدينة" على "رجل" للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة ، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف مالايوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء ، لأنهم لايصدهم عن الحق مافيه أهل السيادة من ترف وعظمة ، إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة"(١) .

فجاء النظم في سورة القصص على الترتيب الأصلي ، الذي يلاءم المقام بمجئ رجل من أقصى المدينة يسعى لينصح ويحذر موسى عليه الصلاة والسلام من إئتمار الملأ به لقتله .

بينما جاء النظم في سورة "يس" بتقديم الجار والمجرور "من أقصى المدينة" لأنه الغرض الذي يقتضيه المقام ؛ إذ أن في أهل هذه المدينة المكذبة للرسل من أهل الأطراف من يؤمن بالله ويصدق برسله ويخالف ماعليه أهل المدينة كبراؤها وحكامها الذين يقطنون قلبها ووسطها .

وفي تقديم "من أقصى المدينة" ثناء على أهل الأطراف بوجود الخير فيهم .

وهذه الفروق في التقديم من شواهد البلاغيين(٢) .

ويتطرق صاحب ملاك التأويل في هاتين الآيتين الكريمتين إلى توجيه استحسنه لأن له مايعضده من السياق والسباق ، إذ أنه يرى أن في تقديم الصلة "من أقصى" على الفاعل في آية سورة "يس" تسلية للنبي ﷺ بذكر قصة من أرسل قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى أهل قريتهم فلم يؤمنوا بهم ، وإنما آمن بهم من يقطن الأطراف ، وهذا مشابه لحال النبي ﷺ من تكذيب أهل مكة له وهم أهله وذووه وإيمان أهل المدينة به وهم أنصاره وحواريوه(٣) ، ولك إجالة طرف التأمل في مبتدأ سورة يس الذي جرى فيها التقديم .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/٣٦٥) ومابعدها .

(٢) ينظر : عروس الأفراح (٢/١٦١) .

(٣) ينظر : ملاك التأويل (٢/٧٥٦) .

وربما يكون التقديم لدفع اللبس ، لأن في التأخير إخلالا بالمعنى ، كما في آية سورة غافر : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[١] . وقد نبه على ذلك البلغاء[٢] ، وتمثلوا بالآية الشريفة ، وإن حاول دفعها بهاء الدين السبكي[٣] ، بأن التأخير في الآية لايحدث لبسا لأن فعل "يكتم" يتعدى بنفسه ، ولايتعدى بـ"من" فرد عليه الدسوقي[٤] بما نقض أدلته .

ولئن حاول السبكي دفع تمثيل البلغاء بآية سورة غافر ، فإني أدفع تمثيل الطاهر على دفع اللبس بقوله تعالى : ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾[٥] .

إذ قال الطاهر في تفسير هذه الآية : "ولو أوقع "منه" عقب "رحمة" لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة ، أي : عن أن يقال : وآتاني رحمته ، كقوله "ولنجعله آية للناس ورحمة منا" أي : ورحمتنا لهم ، أي : لنعظهم ونرحمهم"[٦] .

و لم أجد في كتب التفسير المعنية بأسرار التركيب مايوافق الطاهر ، أو يشير إلى أن تقدم "منه" إنما هو لدفع اللبس .

وأي لبس يقع في المعنى ويخل به إذا أخرت "منه" عقب المفعول الثاني؟ وأصبح التركيب بهذه الصورة : وآتاني رحمة منه ، وأعربت صفة للرحمة؟

ويظهر إلا إخلال بالمعنى ، وربما يكون وجه التقديم لدفع شكهم ، وأنه إنما أوتي هذه الرحمة من الله ، وهذا غرض معنوي تعضده آيات خطابهم له . وأما الغرض الذي ذكره ابن عاشور لايتأتى التسليم له به ، بقدر مانسلم له بما أشار إليه من نكتتين أخريين في سر التقديم في الآية نفسها ، من أن نظم مقالة صالح غاير بها نظم مقالة نوح عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾[٧] ، وإن اتفق معه في مبتدأ الآية ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾[٨] ، لأجل

---

(١) سورة غافر : آية (٢٨) .
(٢) ينظر : شروح التلخيص (٢/١٦٣) ، تقرير الانبابي (٣/٣٥) .
(٣) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (٢/١٦٠) .
(٤) ينظر : حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (٢/١٦٣) .
(٥) سورة هود : آية (٦٣) .
(٦) التحرير والتنوير (١٢/١١١) .
(٧) سورة هود : آية (٢٨) .
(٨) سورة هود : آية (٢٨) .

التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل ، ولأجل تقييد الإيتاء بأنه إيتاء خاص من الله عز وجل .

فأشار إلى النكتة الأولى بقوله : "لأن ذلك مع مافيه من التفنن بعدم التزام طريقة واحدة في إعادة الكلام المتماثل هو أيضا أسعد بالبيان في وضوح الدلالة ودفع اللبس"[(١)] .

وأشار إلى النكتة الأخرى بقوله : "ولما كان المجرور هنا ضمير الجلالة كان الأحسن أن يقع عقب فعل "آتاني" ليكون تقييد الإيتاء بأنه من الله مشيرا إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى ، إذ لولا ذلك لكان كونه من الله تحصيلا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه ، فتعين أن يكون المراد إيتاء خاصا"[(٢)] .

ولئن كانت النكتة الأولى وهي التفنن لفظية ولم يكتف ابن عاشور بالتعليل بها في مقاصد كلام الله عز وجل ، ونحن معه في ذلك ، فقد أردفها بأخرى معنوية وهي خصوصية الإيتاء من الله جل شأنه على وجه معين معتنى به .

وقد استقى الأولى من فحوى كلام صاحب درة التنزيل وغرة التأويل الإسكافي لا الرازي الذي نسب الطاهر الكتاب إليه خطأ في مقدمة تحريره وتنويره[(٣)] .

حين حاول الإسكافي أن يعلل اختلاف مقالة نوح عليه الصلاة والسلام وهي قوله : ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾[(٤)] .

ومقالة صالح عليه الصلاة والسلام وهي قوله : ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾[(٥)] .

فقال : والجواب أن يقال : إن المعنيين واحد في الموضعين ، وقولاهما سواء للأمتين"[(٦)] .

فربما يفهم من فحوى هذا الكلام أنه لأجل التفنن .

---

(١) التحرير والتنوير (١١١/١٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١١١/١٢) ومابعدها .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٧/١) .

(٤) سورة هود : آية (٢٨) .

(٥) سورة هود : آية (٦٣) .

(٦) درة التنزيل وغرة التأويل (ص١٢١) .

وأما النكتة الأخرى أفادها من صريح كلام صاحب ملاك التأويل الغرناطي إذ قال في سر تقديم الجار والمجرور "منه" على المفعول في الآية الشريفة : "وهو خصوص لايحصل مع تأخيره ، فتقديم هذا الضمير المجرور ، كتقديمه في قوله سبحانه : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ ..."[١] .

وقد يكون التقديم قصدا للإيجاز عن طريق الإضمار ، مع تجنب عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، نحو قوله تعالى : ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وقدم المجرور على المفعول الأصلي ليتأتى الإيجاز بالإضمار حيث أريد وصف هود بأنه من أخوة عاد ومن صميمهم ، من غير احتياج إلى إعادة لفظ عاد ، ومع تجنب عود الضمير على متأخر لفظا ورتبة ، فقيل وإلى عاد أخاهم هودا"[٣] .

فهذان ملمحان أفادهما التقديم في آن واحد ، أحدهما يتطلبه مقام البلاغة ويمكن أن يوصف بأنه وجودي والآخر يتجنبه مقام البلاغة ويمكن أن يوصف بأنه عدمي ، وبالإمكان استلهام نور المعرفة بإشحاذ البصيرة في استظهار نكات التقديم من أمثاله مما رغب عنه وفيه .

ولربما كانت الأفضلية الذاتية للمقدم داعية للتقديم ، نحو قوله تعالى : ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر ، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم ، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل ، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى إفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع ، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه ، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة"[٥] .

---

(١) ينظر : ملاك التأويل (٥١٥/٢) .
(٢) سورة الأعراف : آية (٦٥) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٠٠/٨) .
(٤) سورة البقرة : آية (٧) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٥٨/١) .

وقد ذكر غرض هذا التقديم الزركشي في البرهان ، وجعله مقدما لأجل شرفه فقال : "ومنها : شرف الإدراك كتقديم السمع على البصر ، والسميع على البصير لأن السمع أشرف على أرجح القولين عند جماعة ، وقدم القلب عليهما في قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلىأبصارهم غشاوة﴾"[(١)] .

ومثله أيضا تقديم الأفئدة على الأبصار ، إذ المراد بالأفئدة العقول كقوله تعالى : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾[(٢)] .

ومن نكات التقديم أن يقدم السبب على المسبب ، لأنه يقع بعده ، ويترتب عليه كترتب الطمأنينة على الأمن ، إذ لاطمأنينة بدون أمن ، قال تعالى : ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾[(٣)] .

قال العلامة الطاهر : "وقدم الأمن على الطمأنينة إذ لاتحصل الطمأنينة بدونه كما أن الخوف يسبب الانزعاج والقلق"[(٤)] .

وقد أشار العلامة الألوسي إلى هذا المعنى فقال : "وقيل : يفهم من كلام بعضهم أن الاطمئنان أثر الأمن ولازمه من حيث أن الخوف يوجب الانزعاج وينافي الاطمئنان"[(٥)] .

ومنها أيضا أن يقدم ماوقعه أعظم ، ونفعه أعم ، وفائدته أجل ، كتقديم العلم على القوة في قوله تعالى : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[(٦)] .

قال ابن عاشور : "وقدم النبي في كلامه العلم على القوة ، لأن وقعه أعظم ، قال أبو الطيب :

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني"[(٧)]

---

(١) البرهان (٣/٢٩٦) .
(٢) سورة الأنعام : آية (١١٠) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧/٤٤٣) .
(٣) سورة النحل : آية (١١٢) .
(٤) التحرير والتنوير (١٤/٣٠٥) .
(٥) روح المعاني (١٤/٢٤٢) .
(٦) سورة البقرة : آية (٢٤٧) .
(٧) التحرير والتنوير (٢/٤٩١) .

وقد سبقت الإشارة من العلامة البقاعي حين قال : "وفي تقديمه ـ أي العلم ـ أن الفضائل النفسانية أشرف من الجسمانية وغيرها"[١] .

وقد يكون التقديم لكمال الامتنان ، نحوقوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾[٢] .

قال الطاهر : "وتقديم "لكم" على مفعول "ينزل" وهو "رزقا" لكمال الامتنان ؛ بأن جعل تنزيل الرزق لأجل الناس ، ولو أخر المجرور لصار صفة لـ"رزقا" فلايفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين ، بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين ، وبين المعنيين بون بعيد ، فكان تقديم المجرور في الترتيب على مفعول الفعل على خلاف مقتضى الظاهر ، لأن حق المفعول أن يتقدم على غيره من متعلقات الفعل ، وإنما خولف الظاهر لهذه النكتة"[٣] .

وهاهنا ملمح دقيق للتقديم في الآية القرآنية الكريمة ، لأن الجار والمجرور "لكم" حين تقدم على المفعول به وهو قوله "رزقا" أفاد أن إنزال الرزق لأجل المخاطبين ، بينما لو وقع الجار والمجرور "لكم" بعد المفعول "رزقا" لتغير المعنى البلاغي في الآية ، فيكون المعنى إنزال رزق صالح للمخاطبين ، لا لأجلهم ، وشتان بين المعنيين .

وقد ذكر البقاعي أن الرزق خاص بالمخاطبين ، حين قال : "﴿وينزل لكم﴾ أي : خاصا بنفعكم أو ضركم"[٤] .

فربما يرى أن اللام في قوله "لكم" تفيد معنى الاختصاص الذي هو معنى من معانيها .

وقد يكون التقديم لدفع مايطرأ من توهمات في قلة الاعتناء بشأن ماقدم ، ولأجل التنصيص على إفادة العموم ، كتقديم الصغير على الكبير ، في قوله تعالى :

---

(١) نظم الدرر (٤٧٣/١) .
(٢) سورة غافر : آية (١٣) .
(٣) التحرير والتنوير (١٠٣/٢٤) .
(٤) نظم الدرر (٤٩٢/٦) .

﴿وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾[1] .

قال العلامة الطاهر : "وتقديم الصغير على الكبير هنا ، مع أن مقتضى الظاهر العكس ، كتقديم السنة على النوم في قوله تعالى : ﴿لاتأخذه سنة ولانوم﴾ لأنه قصد هنا إلى التنصيص على العموم لدفع مايطرأ من التوهمات في قلة الاعتناء بالصغير ..."[2] .

وقد ذكر العلامة الألوسي أن غرض التقديم للاهتمام وللانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، إذ قال : "وقدم الصغير على الكبير اهتماما به ، وانتقالا من الأدنى إلى الأعلى"[3] .

وقد يقدم ماهو موضع العبرة من الخبر ، للاهتمام به ، كتقديم الجار والمجرور "من بين فرث ودم" على المفعول "لبنا" ، في قوله تعالى : ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا﴾[4] .

قال العلامة الطاهر : "وموقع "من بين فرث ودم" موقع الصفة لـ"لبنا" ، قدمت عليه للاهتمام بها ، لأنها موضع العبرة ، فكان لها مزيد اهتمام ، وقد صارت بالتقديم حالا"[5] .

وقد سبقت إشارة الزمخشري إلى هذا المعنى حين قال : "وإنما قدم لأنه موضع العبرة ، فهو قمن بالتقديم"[6] .

وقد تتقدم الاعتبارات الطارئة على الاعتبارات الأصلية ، لاقتضاء الحال لها ، ولكونها في هذا المقام أعز منالا من الاعتبارات الأصلية المقررة في النفوس ، كتقديم الناس على القرآن ، في مقام تحديهم وإظهار عجزهم وإقامة الحجة عليهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾[7] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٨٢) .
(٢) التحرير والتنوير (١١٤/٣) .
(٣) روح المعاني (٦٠/٣) .
(٤) سورة النحل : آية (٦٦) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٠١/١٤) .
(٦) الكشاف (٤١٦/٢) .
(٧) سورة الإسراء : آية (٨٩) .

قال العلامة الطاهر : "ووجه تقديم أحد المتعلقين بفعل "صرفنا" على الآخر أن ذكر الناس أهم في هذا المقام لأجل كون الكلام مسوقا لتحديهم والحجة عليهم وإن كان ذكر القرآن أهم بالأصالة إلا أن الاعتبارات الطارئة تقدم في الكلام البليغ على الاعتبارات الأصلية ، لأن الاعتبارات الأصلية لتقررها في النفوس تصير متعارفة فتكون الاعتبارات الطارئة أعز منالا ، ومن هذا باب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر"[١] .

وقد ذكر البقاعي غرضا عاما للتقديم ، فقال : "اقتضى المقام لمزيد الاهتمام تقديم قوله تعالى ﴿للناس﴾"[٢] .

وقد يكون داعي التقديم اقتضاء نسج الكلام ، لترتب بعضه على بعض ، في اتصال المعاني ، وعود الضمائر ، وذكر الأحكام التابعة له .

إذ أنه لو فصل بينهما ، لاختل المعنى ، وتفكك النظم ، نحو تقديم الأنعام على الأناسي في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[٣] ، ثم عقبه بقوله : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾[٤] .

قال العلامة ابن عاشور : "وتقديم ذكر الأنعام على الأناسي اقتضاه نسج الكلام على طريقة الإحكام في تعقيبه بقوله : ﴿ولقد صرفنا بينهم ليذكروا﴾ ولو قدم ذكر "أناسي" لتفكك النظم"[٥] .

وقد ذكر البقاعي أن غرض التقديم لأجل ترتب مابعده عليه ، حين قال : "وقدم النبات لأن به حياة الأنعام ، والأنعام لأن بها كمال حياة الإنسان"[٦] .

وهذه أبرز الأغراض التي ذكرها الطاهر في هذا الشأن ، وأن ما لم أثبته من كلام الطاهر من الأغراض البلاغية المرجحة للتقديم يدخل فيما أثبته .

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢٠٤) ومابعدها .

(٢) نظم الدرر (٤/٤٢٥) .

(٣) سورة الفرقان : آية (٤٩) .

(٤) سورة الفرقان : آية (٥٠) .

(٥) التحرير والتنوير (١٩/٤٩) .

(٦) نظم الدرر (٥/٣٢٦) .

الفصل الثاني

تقديم الجملة

هذا ترق في باب التقديم ، يتجاوز المفردات إلى الجمل والفقر ، ليبحث أسرار تقديمها ، وتغير مواقعها وترتيبها ، تبعا لمقتضيات المقام وبلاغة الكلام ، والبيان .

ولئن نبه علماء البلاغة على أسرار تقديم الكلمة المفردة فإنهم لم يبسطوا القول في تقديم الجملة على الجمل والفقرة على الفقر .

وهذا ماستحث العزيمة في طلب ماأوجز القول حوله ، وضرب عنه الصفح إلا في النادر ، لإيراد ماتكمل به صورة التقديم ، وتترى فيه صور بلاغية أخرى .

ومإخال عدم بسطهم القول في شأن الجملة إلا لأن قضاياها في التقديم أوضح من قضايا المفرد فيه من جهة اللغة كتركيب وسماع بمعنى أن تقديم المفرد يخضع في قوانين اللغة وقواعدها لأصول دقيقة كإفادة التخصيص إذا ولى المسند إليه حرف النفي وكان الخبر فعليا ... أو إفادته التقوية أو التخصيص إذا كان حرف النفي واقعا بعد المسند إليه ، وكان الخبر فعليا ... أو إفادته الواحد أو الجنس إذا كان المسند إليه نكرة والخبر فعليا .

واختلاف المقعدين لهذا الفن من الأئمة في هذه الدقائق البيانية على ماهو ظاهر بين الإمام عبد القاهر الجرجاني والعلامة السكاكي ... هذا أولا .

وثانيا : لايخفى أن المقيس في تقعيداتهم معمول به لديهم ، وقد تنضوي تحته وإن لم يشيروا إليها .

بمعنى أنهم ذكروا أغراض التقديم في المسند إليه والمسند ومعمولات الفعل ليقاس عليه التقديم في غيره .

وهذا من نهجهم وطريقتهم ولايخرج عنها ، بقرينة أنهم ذكروا أحوال الإسناد الخبري و لم يذكروا أحوال الإسناد الإنشائي ، لأنه عرف بالقياس لا لأنه لاتجري فيه تلك المباحث والأغراض والنكات .

وأيضا ذكروا أحوال المسند إليه والمسند وأحوال متعلقات الفعل ، والقصر في الخبر و لم يذكروها في الإنشاء ، قياسا لا اطراحا .

قال صاحب الإيضاح منبها على ذلك القياس : "ماذكرناه في الأبواب الخمسة السابقة ليس كله مختصا بالخبر ، بل كثير منه حكم الإنشاء فيه حكم الخبر

يظهر ذلك بأدنى تأمل ، فليعتبره الناظر"[١] .

والمقصود بالأبواب الخمسة هي :

(١) أحوال الإسناد الخبري

(٢) أحوال المسند إليه

(٣) أحوال المسند

(٤) أحوال متعلقات الفعل

(٥) القصر

وهذه خمسة أبواب من ثمانية أبواب تمثل علم المعاني ؛ إذن فأكثر من نصف أبواب هذا العلم تنضوي تحت القياس مما يدل على أن هذا نهجهم ، وبالتالي فيمكن أن تكون أغراض تقديم الجملة مما يدخل تحت هذا النمط .

وتعليلا ثالثا لعدم بسطهم القول في تقديم الجملة يرجع إلى أنه ربما يكون من سنن العلم أن يترك السابق للاحق مايمكن للأخير أن يسهم به إذا أنعم النظر ، وأعمل الفكر ، واستحث ركائب العزم في صادق البحث ، وجاد الدراسة ، ومهما تكن من أسباب وتعليلات فقد بخس تقديم الجملة حقه من النظر ، ولم يوف نصيبه من الدراسة ، واكتفي فيه بالقول من ذكر أغراض تقديم المفرد ، وأغراض تقديم بعض معمولات العامل عليه وأغراض تقدم بعضها على بعض ... ولايخفى أن تقديم الجملة عن موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه أو تقديمها مطلقا له في بليغ الكلام مقاصد وأغراض ، ذات دلالات بلاغية ، ونكات بيانية ، في حسن التأليف ودقيق التركيب ، وروائع الصياغة ، تفهم مايليق بالمقام من تشويق أو تعجيل مسرة أو مساءة ، أو إيحاء بمدلولات أكثر ، ومعاني أوفر ، إلى مالانهاية له من أغراض الكلام المتجددة بتجدد النصوص .

ولك أن تتأمل مواقع التقديم في آي الكتاب العزيز الذي تتجلى فيه وجوها من البلاغة وثرائها سواء في إفهام المعاني أو حتى وفرتها .

وكلام العلامة ابن عاشور في هذا الجانب يتمحور حول أمرين اثنين في التقديم :

---

(١) الإيضاح (ص٢٤٥) .

(١) تقديم جاء على الأصل .

(٢) تقديم عن تأخير .

وقد أشار إلى كلا الأمرين وإن كانت إشارته إلى الأمر الثاني أكثر من سابقه كما سيتضح في هذا المبحث .

أولا : تقديم جاء على الأصل :

والتقديم الذي جاء على الأصل وردت فيه من صاحب التحرير والتنوير لفتات بلاغية عالية اتصلت أحيانا إلى أن يكون التقديم فيها مصدرا من مصادر الدلالة وهي إضافة جيدة تستحق التسجيل والتميز ؛ وتوضيح هذه الفكرة بعبارة أخرى ، هي أن الجملة إذا تقدمت أثرت الجمل التي بعدها بإفهام أكثر من معنى لم يكن مفادا من تلك الجمل لولا تقدم تلك الجملة .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة القصص : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١] .

إذ أن تقديم جملة "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" جعل الجملة التي بعدها وهي قوله "قل ربي أعلم من جاء بالهدى" تحتمل معنيين اثنين .

وهذان المعنيان مترتبان على تفسير معنى كلمة "معاد" ، لأنه ربما يكون المراد به يوم القيامة ، لأنه معاد يعود الناس ويرجعون إليه فهو يوم المعاد .

أو يكون مرادا به الرجوع إلى مكة والعودة إليها بعد أن أخرج منها عليه الصلاة والسلام وقد روي هذان المعنيان عن ابن عباس رضي الله عنهما[٢] .

ويترتب على تفسير "المعاد" بيوم القيامة أن تكون جملة "قل ربي أعلم من جاء بالهدى" بمنزلة التفريع ، أي : إن الذي فرض عليك القرآن لمرجعك إلى يوم القيامة ، لإظهار المهتدي من الضال .

---

(١) سورة القصص : آية (٨٥) .

(٢) ينظر : تفسير الطبري (١٠/١١٦) ومابعدها ، تفسير القرطبي (١٣/٢١٢) .

قال ابن عاشور : "ثم تكون جملة "قل ربي أعلم من جاء بالهدى" بالنسبة إلى الوجه الأول ـ أي : تفسير المعاد بيوم القيامة ـ بمنزلة التفريع على جملة "لرادك إلى معاد" أي : رادك إلى يوم المعاد فمظهر المهتدي والضالين ؛ فيكون علم الله بالمهتدي والضال مكنى به عن اتضاح الأمر بلاريب ، لأن علم الله تعالى لايعتريه تلبيس ، وتكون هذه الكناية تعريضا بالمشركين أنهم الضالون ، وأن النبي ﷺ هو المهتدي"[١] .

ويترتب على التفسير الثاني "للمعاد" بأنه العود إلى مكة أن تكون جملة "قل ربي أعلم من جاء بالهدى" بمنزلة المتاركة وقطع المجادلة مع الكفار بإحالة بيان الحق إلى مايكون من نصر الله لرسوله ﷺ في يوم رجوعه إلى مكة وخذلان الكفار وهزيمتهم .

قال ابن عاشور : "وبالنسبة إلى الوجه الثاني ـ أي : تفسير المعاد بالعود إلى مكة ـ تكون بمنزلة الموادعة والمتاركة وقطع المجادلة .

فالمعنى : عد عن إثبات هداك وضلالهم وكلهم إلى يوم ردك إلى معادك يوم يتبين أن الله نصرك وخذلهم"[٢] .

وهكذا تثري المعاني في إفهام مرادات لم تكن لتفهم لولا التقديم الذي ربما يكون بذلك مصدرا من مصادر الدلالة .

وقد أشار العلامة الطاهر بنظرة كلية إلى ذين المعنيين في هذه الجملة القرآنية منبها على سر التقديم ولافتا النظر إليه ، فقال : "وفي تقديم جملة "إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" على جملة "قل ربي أعلم من جاء بالهدى" إعداد لصلاحية الجملة الثانية للمعنيين المذكورين .

فهذا من الدلالة على معاني الكلام بمواقعه وترتيب نظامه وتقديم الجمل عن مواضع تأخيرها لتوفير المعاني"[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٩٣/٢٠) .
(٢) ن.م.س .
(٣) ن.م.س (١٩٤/٢٠) .

والمشار إليه بـ"هذا" هو الحكم المستخلص من تقديم جملة تكون مهيأة الجملة التي بعدها لأكثر من معنى .

وليس المراد بالمشار إليه هذه الجملة القرآنية على وجه الخصوص بقرينة قوله "وتقديم الجمل عن مواضع تأخيرها" ، لأن المقدم جملة لاجمل ، ولأن التقديم جاء على الأصل لاعن تأخير .

فالإشارة إلى هذا الحكم لا إلى هذه الجملة القرآنية التي تبين وجه التقديم بها.

ومن هذا الجانب أيضا تقديم النهي عن أكل الأموال على النهي عن قتل الأنفس مع أن الثاني أعظم وأخطر .

فعند تفسير قول الله تعالى في سورة النساء : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[١] .

وقد أشار ابن عاشور لذلك فقال : "وتقديم النهي عن أكل الأموال على النهي عن قتل الأنفس مع أن الثاني أخطر ، إما لأن مناسبة ماقبله أفضت إلى النهي عن أكل الأموال فاستحق التقديم لذلك ، وإما لأن المخاطبين كانوا قريبي عهد بالجاهلية ، وكان أكل الأموال أسهل عليهم ، وهم أشد استخفافا به منهم بقتل الأنفس ؛ لأنه كان يقع في مواقع الضعف حيث لايدفع صاحبه عن نفسه كاليتيم والمرأة والزوجة ، فآكل أموال هؤلاء في مأمن من التبعات بخلاف قتل النفس ، فإن تبعاته لايسلم منها أحد ، وإن بلغ الشجاعة والعزة في قومه كل مبلغ ، ولاأمنع من كليب وائل ؛ لأن القبائل ماكانت تهدر دماء قتلاها"[٢] .

فهذه نكات بلاغية في وجه تقدم جملة النهي عن أكل الأموال ، وهي قوله : "ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم" ، على جملة النهي عن قتل الأنفس وهي قوله : "ولاتقتلوا أنفسكم" .

---

(١) سورة النساء : آية (٢٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٥/٢٤) ومابعدها .

لأن قانون التقديم يومئ إلى أن المقدم هو الأولى بالعناية والاهتمام في مقامه فكان التفاضل الذاتي بين الجملتين يميل إلى كفة النهي عن قتل الأنفس لأنها أعظم خطرا ، وأولى اهتماما بالتقديم في ظاهر الأمر .

فكان لابد من بيان أسرار تقديم المهم على الأهم في أصل ذاتيته ، لافي أصل مقامه ، والقرآن الكريم إنما عمد لتقديم ماهو أولى بالتقديم في هذا المقام ، فحاول ابن عاشور ذكر هذه النكات البلاغية لبيان وجه العناية وسر التقديم .

فذكر أنه ربما يتعلق بالسياق نفسه من جهة أن الحديث السابق عليه كان متعلقا بالأموال ، فكان النظم الحكيم والنسق القرآني يستدعي اتصاله بتقديم مايختص بالأموال على غيره .

لأن الله عز وجل ذكر قبل هذه الآية آية إيتاء اليتامى أموالهم ، وآية إيتاء النساء أجورهن ، وآية المواريث في تقسيم التركات لورثتها ، وآية إعطاء المطلقات حقوقهن المالية .

وهذه الآيات كلها تختص بالحقوق المالية وإعطاء كل ذي حق حقه ، فناسب السياق تقديم جملة النهي عن أكل الأموال على جملة النهي عن قتل الأنفس.

فهذا وجه لهذا التقديم في الجملة القرآنية الكريمة .

وهناك وجه بلاغي آخر لهذا التقديم في الآية الكريمة يتعلق بطبيعة حصوله على أرض الواقع ، فاستمرئ حدوثه ، لكونه أسهل وأيسر ، من جهتين ، من جهة أمن آكل الأموال من التبعات ، ومن جهة ضعف دفع من يقع عليه من يتيم وزوجة وامرأة ، ولذا كانوا أشد استخفافا به وأكثر تجرؤا عليه .

فكان أولى بالتقديم وأليق بالاهتمام ، وأحرى بالتحذيرمن الوقوع فيه .

وقد أشار إلى هذا الوجه البلاغي في تقدم جملة النهي عن أكل الأموال على جملة النهي عن قتل الأنفس العلامة الألوسي ، حين قال : "وقدم النهي الأول لكثرة التعرض لما نهى عنه فيه"(١) .

---

(١) روح المعاني (١٦/٥) .

والمراد بالنهي الأول هو النهي عن أكل الأموال ، والمراد بكثرة التعرض هو اقترافهم له لسهولته ولاستخفافهم به .

ومن هذا الجانب أيضا تقديم جملة ورد فيها ذكر الأعين على جملة ورد فيها ذكر الآذان ، مع أن الثاني أكثر نفعا وإفادة وأنسب بما جرى عليه النظم في مواضع متعددة منها :

(١) ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾[١] .

(٢) ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾[٢] .

(٣) ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾[٣] .

(٤) ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾[٤] .

(٥) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾[٥] .[٦]

فقد قدم النظم القرآني السمع على البصر في هذه الآيات القرآنية لعظم منفعته ، وكبير فائدته للإنسان .

ولكن في سورة الأعراف ورد تقديم البصر على السمع في قوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[٧] .

وقد أشار إلى ذلك العلامة الطاهر قال : "وليس في تقديم الأعين على الآذان مخالفة لما جرى عليه اصطلاح القرآن من تقديم السمع على البصر ... لأن الترتيب في آية سورة الأعراف هذه سلك طريق الترقي من القلوب التي هي مقر المدركات إلى الآت الإدراك الأعين ثم الآذان ؛ فللآذان المرتبة الأولى في الارتقاء"[٨] .

---

(١) سورة يونس : آية (٣١) .

(٢) سورة هود : آية (٢٠) .

(٣) سورة النحل : آية (٧٨) ، السجدة : آية (٩) ، الملك : آية (٢٣) .

(٤) سورة الإسراء : آية (٣٦) .

(٥) سورة المؤمنون : آية (٧٨) .

(٦) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، مادة (س-م-ع) (ص٣٥٩) ومابعدها .

(٧) سورة الأعراف : آية (١٧٩) .

(٨) التحرير والتنوير (١٨٤/٩) .

فقد جعل الترقي في آلات الإدراك التي هـي الأعـين والآذان فبـدأ بالنـافع إلى الأنفع فتكون الآذان على هذا الأسلوب البياني لها المرتبة الأولى ثـم تليهـا في المرتبـة الثانية الأعين ولم يجعل الترقي في جميـع الحـواس الثلاثـة الـتي هـي القلـوب والأعـين والآذان لانتفاء تحققه ؛ بوقوع الإشكال من جانب القلوب التي هي أعظم فائدة من الأعين والآذان ، فكيف بها تقع في مبتدأ الترقي؟ دلالة على أنها الأقل نفعا .

وعبارتـه وإن كـانت موهمـة إلا أنهـا تحمـل علـى أن الـترقي واقـع في آلات الإدراك لانفي مقره .

وقد عد الإمام الزركشي الترقي من أسرار التقديم واستشهد له بقولـه تعـالى في سورة الأعراف : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[١] .

فقال : "فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقي ، لأن منفعة الرابـع أهـم من منفعة الثالث ؛ فهو أشرف منه ، ومنفعة الثالث أعم من منفعة الثـاني ، ومنفعـة الثاني أعم من منفعة الأول ، فهو أشرف منه"[٢] .

فالترقي في آلات الإدراك بين الأعين والآذان في الآية السابقة التي أشار إليهـا ابن عاشور هو نفسه الوارد في هذه الآية بين الأعـين والآذان ، بـل أن العلامـة ابـن عاشور أشار إلى الترقي بين البصر والسمع في هذه الآية نفسـها فقـال : "وإنمـا قـدم ذكر الأعين هنا على خلاف معتاد القرآن في تقديم السمع على البصر - كمـا سـبق في أول سورة البقرة - لأن الترتيب هنا كان بطريق الترقي"[٣] .

إذن أسلوب الترقي ضرب من التقديم يكون فيه المقدم هو الأدنـى أو بعبـارة أخرى يكون فيه المقدم مهيأ لذكر الأهم وترقيا لما هو أعلى منه منزلة ، وربما قدمت فقرة على فقر لاجملة على جملة فحسب ، وذلك فيما ضربه الله من مثلين في الحـث على الجهاد والأمر بالقتال .

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٩٥) .

(٢) البرهان (٣/٣١٣) .

(٣) التحرير والتنوير (٩/٢٢٣) .

فقد قدم قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[٤] .

على قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[٢] .

قال العلامة الطاهر : "ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم ، فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم ، وهذه الحالة أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة ؛ لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لامحالة"[٣] .

فالسر في تقدم الفقرة الأولى هي أنها تهيئ نفوس المخاطبين بها إلى قبول الأمر بالقتال والحث على الجهاد عن طريق ماذكرته من حال أولئك المتخاذلين في الدفاع عن ديارهم والفارين من أرضهم حذر الموت في تشنيع حالهم وتحذير غيرهم من سلوك مسلكهم .

وأما وجه تأخير الفقرة الثانية فقد أشار إليه العلامة ابن عاشور بقوله : "ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم "ومالنا ألا نقاتل" الخ ؛ فسألوه دون أن يفرض عليهم فلما عين لهم القتال نكصوا على أعقابهم ، وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم ، بعد الشروع في القتال ، أو بعد كتبه عليهم ، فلله بلاغة هذا الكلام ، وبراعة هذا الأسلوب تقديما وتأخيرا"[٤] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٤٣) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٤٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٨٤/٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٨٤/٢) .

ثانيا : تقديم عن تأخير :

هذا الضرب من التقديم يكون فيه المقدم أكثر جلاء ، لأنه قدم عن موضعه الذي كان ينبغي أن يكون فيه .

فيلحظ الدارس ويلتفت الباحث إلى أن أسلوب الكلام قد تغير بتقديم ماكان في الأصل متأخرا .

وهو لايستدعي من التأمل مايستدعيه سابقه في أصل الانتباه إليه ، وإن كان يستدعي من النظر والتأمل في أسرار بلاغة تقديمه مايستدعيه سابقه .

لأن النكت البلاغية تتطلب من الباحث عنها والدارس لها ، طول التأمل وإنعام النظر ، مع الحس اليقظ والذوق المرهف .

والتقديم وإن كان بابا من أبواب العناية بالمقدم والاهتمام به فإن ذلك لايقضي حق البلاغة من التعليل والتحليل .

لأن النكت العامة لاتستقل في نظري ببيان المرجح البلاغي ، ولاتستغني عن نكت المقام الخاصة التي تكشف جوانب البلاغة في الأسلوب ذاته ، وفي النص الأدبي عينه .

واستبطان النصوص هو ماتسعى إليه البلاغة الرائدة التي تمثل جلية في مداد أقلام أئمة المعاني ومن سار على نهجهم .

وأجزم أن ابن عاشور من خلال معايشتي تفسيره طول هذه السنوات يتفرد بعلم لاينسب إلا إليه ، وهذا مايتجلى في هذا البحث لافي موضع منه .

كيف لايكون ذلك؟ وهو قد كتب هذا التفسير في أربعين سنة إلا ستة أشهر أجال فيها طرف الفكر والنظر بين رياض أساطين أئمة المفسرين والبلاغيين والفقهاء ليكشف لنا جوانب دقيقة في دلالات تراكيب آي الكتاب الخالد المعجز ، وخصائص معانيه .

ولعلي ألجم عنان قلمي عن أن يشط إلى مهيع آخر ليس سيري فيه ، ولكنه ورد ورود مايستحق الرصد والتسجيل ، فاقتضى تسجيله .

ومن تلك الآيات التي قدمت عن تأخير ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف من خبر نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾[(١)] .

فقد قدم خبر الإنجاء على خبر الإغراق مع أن الثاني هو الذي تحقق وقوعه أولا ، ومع أن التكذيب يلائمه في الترتب عليه الإغراق لا الإنجاء .

قال العلامة الطاهر : "فإن الإغراق وقع قبل الإنجاء ؛ إذ لايظهر تحقق إنجاء نوح ومن معه إلا بعد حصول العذاب لمن لم يؤمنوا به ، فالمعقب به التكذيب ابتداء هو الإغراق ، والإنجاء واقع بعده"[(٢)] .

فما هو السر البلاغي في تقديم جملة الإنجاء على جملة الإغراق؟ مع أن مايقتضيه مقام العبرة هو تقديم الإخبار بإغراق الكافرين .

ويجيب على هذا الطرح العلامة ابن عاشور فيقول : "فقدم الإنجاء للاهتمام بإنجاء المؤمنين ، وتعجيلا لمسرة السامعين من المؤمنين بأن عادة الله إذا أهلك المشركين أن ينجي الرسول والمؤمنين ، فذلك التقديم يفيد التعريض بالنذارة"[(٣)] .

إذن فالسر البلاغي هو تعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين ، لأنه غرض فيه ضرب من التثبيت لهم ، وفيه بشارة لهم بأن العاقبة والنصر لهم .

وفي هذا التقديم من جانب آخر تعريض للسامعين من المكذبين بأن الخزي والسوء على من يحادد الله ورسوله عليه الصلاة والسلام ، إذ أن حزب الله هم الناجون والمفلحون .

وقد ذكر العلامة الألوسي مايعم ماذكره ابن عاشور من غرض في سر التقديم في الآية ، إذ قال صاحب روح المعاني : "وتقديم الإنجاء على الإغراق للمسارعة إلى الإخبار به ، والإيذان بسبق الرحمة على الغضب"[(٤)] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٦٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩٧/٨) ومابعدها .

(٣) ن.م.س .

(٤) روح المعاني (١٥٤/٨) .

والغرض الأول يقصد منه تعجيل المسرة للمؤمنين ، إذ هي المسارعة بالإخبار بالأنباء السارة .

والغرض الآخر وهو الإيذان بسبق الرحمة على الغضب لايفهم في هذا المقام إلا برمز من الإشارة المتكلفة ، لأن الإغراق وقع قبل الإنجاء في الواقع ، وإن كان معنى هذا الغرض وردت به نصوص قطعية متكاثرة ليس هذا مقام إيرادها .

وربما رأى ابن عاشور أن استظهار هذا الغرض البلاغي الأخير من التقديم في هذه الجملة القرآنية غير وارد فاطرحه .

ومن هذا القبيل ماورد من تقديم في قوله تعالى : ﴿فَـإِذَا مَـسَّ الإِنْسَانَ ضُـرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْـثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[١] .

قال العلامة ابن عاشور : "وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الجمل أن تكون جملة "فأصابهم سيئات ماكسبوا" مقدمة على جملة "فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون" ، لأن الإغناء إنما يترقب عند حلول الضير بهم ، فإذا تقرر عدم الإغناء يذكر بعده حلول المصيبة ، فعكس الترتيب على خلاف مقتضى الظاهر لقصد التعجيل بإبطال مقالة قائلهم : إنما أوتيته على علم ، أي : لو كان لعلمهم أثر في جلب النعمة لهم لكان له أثر في دفع الضر عنهم"[٢] .

والآية الكريمة إنما تخبر عن حال جنس الإنسان بما يفعله غالب أفراده من عدم رجوعهم لله وسؤالهم إياه إلا في حال الضر ، حتى إذا تغيرت حاله بما أوتي من نعم الله ، ادعى أنها بمحض علمه ، بل كل ذلك إنما هو ابتلاء واختبار ، ولكن أكثرهم لايعلمون ، وقدقال هذه المقالة من سبقهم من أفراد بني الإنسان كقارون وغيره[٣] .

---

(١) سورة الزمر : آية (٤٩-٥١) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٧/٢٤) .

(٣) ينظر : تفسير أبي السعود (٢٥٨/٧) ومابعدها ، روح المعاني (٢٦٧/٢٤) ومابعدها .

وكان مقتضى الظاهر بعد هذا الترتيب أن ترد جملة "فأصابهم سيئات ماكسبوا" نتيجة ماقالوه وكسبوه من ذنب ، ثم ترد بعدها جملة "فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون" .

ولكن النظم الكريم خالف هذا الترتيب في هاتين الجملتين لأجل أن يعجل إبطال مقالتهم لا أن يبين عقوبة مقالتهم ، لأن عدم غناء ماكسبوه من مال ومن نعمة لم يكن قادرا في دفع المضرة عنهم ، وذلك يبطل أنهم أوتوه على علم ، إذ لو كان كذلك لكان له أثر في دفع الضر عنهم ، كما كان له أثر في جلب النعمة لهم فبطلت مقالتهم المدعاة . ثم بعد أن أبطلت مقالتهم بدامغ الحجة وساطع البرهان ذكرت عقوبتهم وماحل بهم مما أصابهم نتيجة ماكتسبوه من سيئات .

ومن هذا القبيل أيضا ماورد في تفسير قول الله تعالى في سورة الجاثية : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾[1] .

قال العلامة الطاهر : "وإنما قدم "نموت" في الذكر على "ونحيا" في البيان ، مع أن المبين قولهم : "ماهي إلا حياتنا الدنيا" فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبين فيقال : نحيا ونموت ، فقيل : قدم "نموت" لتتأتى الفاصلة بلفظ "نحيا" مع لفظ "الدنيا" .

وعندي أن تقديم فعل "نموت" على "نحيا" للاهتمام بالموت في هذا المقام ، لأنهم بصدد تقرير أن الموت لاحياة بعده ، ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ، ثم بين نموت ونحيا ، وحصلت الفاصلة تبعا ، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز"[2] .

فلم يرتض أن نكتة التقديم في هذا المقام لفظية ، لذا أوردها بصيغة التمريض لأن النكت اللفظية لايمكن أن تكون كافية في تعليل مقاصد بليغ الكلام ، فضلا عن تعليل مقاصد كتاب الله المعجز .

---

(١) سورة الجاثية : آية (٢٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٦٢/٢٥) .

وقد عمد ابن عاشور إلى نكتة بلاغية معنوية تفصح عن وجه التقديم في الآية القرآنية الكريمة ثم أتبعها بنكت لفظية ترد تباعا في التركيب ، لأنه يرى أن المقام يستدعي اهتماما بذكر الموت إذ يعتقدون أنه لاحياة بعد الموت ، فقدم مايؤمنون به ويعتقدونه تواءما مع معتقدهم ، فلزم عليه تقديم الموت في قوله "نموت" ، فقدمت هذه الجملة لاستدعاء المقام لها وتطلبه إياها ، من اهتمامهم بمضمونها .

فكان هذا الغرض المعنوي مستدعيا ورود التركيب بهذه الصورة "نموت ونحيا" لأجل إفهام هذا المعنى .

ويتبع ذلك حصول الفاصلة التي ذكرت في التعليل السابق ، وهي فاصلة داخلية ليست في أواخر الآي ، حاصلة في لفظتي "الدنيا" و"نحيا" .

وأيضا يتبع ذلك تأتي طباقين بين "حياتنا الدنيا" و"نموت" وبين "نموت" و"نحيا" ، فوقوع جملة "نموت" مقدمة هيء ذلك الاشتراك في الطباقين ، والذي علل التقديم بالنكتة اللفظية فقط هو العلامة الآلوسي ، إذ لم يضف شيئا آخر ، حين قال : "وتأخير "نحيا" في النظم الجليل للفاصلة"[1] .

ومن هذا الجانب أيضا ماورد في قوله تعالى : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] .

قال العلامة الطاهر : "وجملتا "فامنن أو أمسك" معترضتان بين قوله "عطاؤنا" وقوله "بغير حساب" ، وهو تفريع مقدم من تأخير .

والتقديم لتعجيل المسرة بالنعمة ..."[3] .

فجملتا الاعتراض وهما قوله : "فامنن أو أمسك" مقدمتان عن تأخير ، إذ المعنى هذا عطاؤنا بغير حساب فامنن أو أمسك .

ولكن السر البلاغي في تقدم هاتين الجملتين المعترضتين هو تعجيل المسرة بالنعمة .

---

(١) روح المعاني (١٥٣/٢٥) .

(٢) سورة ص : آية (٣٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦٧/٢٣) .

ومما يفيد غرض تعجيل المسرة ويجري على شاكلته مايرد في النظم الجليل من تقديم الوعد على الوعيد ، والبشارة على النذارة ، وإن لم يكن التقديم فيه عن تأخير ، نحو قوله تعالى : ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١] .

ونحو هذا الغرض وهو تعجيل المسرة ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف من خبر نبي الله لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه : ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنْ الْغَابِرِينَ﴾[٢] .

قال العلامة ابن عاشور : "و"أنجيناه" مقدم من تأخير ، والتقدير : فأمطرنا عليهم مطرا ، وأنجيناه وأهله ، فقدم الخبر بإنجاء لوط عليه السلام على الخبر بإمطارهم مطر العذاب ، لقصد إظهار الاهتمام بأمر إنجاء لوط عليه السلام ، ولتعجيل المسرة للسامعين من المؤمنين ؛ فتطمئن قلوبهم لحسن عواقب أسلافهم من مؤمني الأمم الماضية ، فيعلموا أن تلك سنة الله في عباده"[٣] .

ولايمكن التسليم لابن عاشور بما ذكره من تقدم خبر الإنجاء على الإهلاك ؛ لأن في صريح الآي الشريف مايشير إلى أن الإنجاء وقع في الليل ، والإهلاك وقع في الصبح ، فلا ثمة حينئذ تقديم جملة على جملة أو خبر على خبر ، قال تعالى في سورة هود : ﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٣٥-٣٦) .
(٢) سورة الأعراف : آية (٨٣) .
(٣) التحرير والتنوير (٨/٢٣٦) .
(٤) سورة هود : آية (٨١-٨٢) .

والآية صريحة في أن الإنجاء وقع في الليل والإهلاك وقع في الصبح ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات : "يقول تعالى "فلما جاء أمرنا" وكان ذلك عند طلوع الشمس ، "جعلنا عاليها" وهي سدوم "سافلها" كقوله "فغشاها ماغشى" أي : أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين ، قاله ابن عباس وغيره"(١) .

ومما تتجلى فيه صورة التقديم ماورد في سورة الأنبياء من تقديم آية هي قوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾(٢) .

إذ قدمت هذه الآية المتضمنة الوعد للمؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة ، قبل أن تفصل قوارع الوعيد المقدم له بقوله تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾(٣) .

والمفرع له تفريعا بديعا بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(٤) .

وإنما جاءت آية الوعد في هذا الموضع ، وقدمت قبل استكمال تفصيل قوارع الوعيد ، تعجيلا لإدخال المسرة على نفوس المؤمنين ، وتطمينا لقلوبهم بموعود الله لهم .

وستتضح صورة هذا التقديم بإيراد سياق الآيات ، ليظهر موقع التقديم وغرضه وأثره .

قال تعالى : ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤٧١) .

(٢) سورة الأنبياء : آية (٩٤) .

(٣) سورة الأنبياء : آية (٩٣) .

(٤) سورة الأنبياء : آية (٩٧) .

وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾(١) .

قال العلامة الطاهر في تقديم هذه الآية : "وقدم وعد المؤمنين بجزاء أعمالهم الصالحة اهتماما به ، لوقوعه عقب الوعيد تعجيلا لمسرة المؤمنين قبل أن يسمعوا قوارع تفصيل الوعيد ، فليس هو مقصودا من التفريع ، ولكنه يشبه الاستطراد تنويها بالمؤمنين ، كما سيعتنى بهم عقب تفصيل وعيد الكافرين بقوله تعالى : ﴿إن الذين سبقت لهم من الحسنى أولئك عنها مبعدون﴾ إلى آخر السورة"(٢) .

ومن هذا القبيل مايرى ابن عاشور أن الغرض البلاغي فيه شبيه بتعجيل المسرة ، نحو ماورد في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾(٣) .

فجملة "فيكشف" قدمت على جملة "وتنسون ماتشركون" ، إذ أن ترتيبها من جهة النحو : بل إياه تدعون وتنسون ماتشركون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء.

والغرض البلاغي من تقديم جملة "فيكشف" هو شبيه بتعجيل المسرة ، ولم يعده تعجيل مسرة لكون المعنى حكاية حال ، ولكون الكشف متعلقا بالمشيئة لامطلقا .

قال ابن عاشور موضحا هذا الغرض البلاغي بأسلوبه الرائع وعبارته الوضاءة "وقوله "فيكشف" عطف على "تدعون" ، وهذا إطماع في رحمة الله لعلهم يتذكرون ، ولأجل التعجيل فيه قدم على(٤) "وتنسون ماتشركون" ، وكان حقه التأخير ، فهو شبيه بتعجيل المسرة"(٥) .

---

(١) سورة الأنبياء : آية (٩٣-١٠٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٤٣/١٧) ومابعدها .

(٣) سورة الأنعام : آية (٤١) .

(٤) أضفت كلمة "على" لأن المعنى لايتم إلا بها ، وربما سقطت مطبعيا .

(٥) التحرير والتنوير (٢٢٥/٧) .

وهكذا دأب ابن عاشور ، فهو يحاول إعادة التركيب إلى ترتيبه النحوي ، ثم يقف متسائلا ومعللا أغراض تغيير تركيبه من تقديم أو حذف أو تعريف أو تنكير ... لأنه لابد أن يكون هناك سر بلاغي ، لأجله غير هذا التركيب عن أصله ، لاسيما في أبلغ كلام وأفصحه .

وهذا السعي الدؤوب وراء كشف النكت البلاغية إنما هو سعي لتأصيل بلاغة تطبيقية عالية ، تمس الحاجة إليها ، ويتباصر بها الأفذاذ من البلاغيين .

ومايهمنا في هذا المقام هو الإشارة إلى دقة ابن عاشور في التعبير عما استخلصه من غرض بلاغي للتقديم في الجملة القرآنية الكريمة من كونه شبيها بتعجيل المسرة ، ولم يقل : لتعجيل المسرة ، للسببين المذكورين آنفا .

ومن هذا التقديم مايرد من تقديم الجمل ذوات الاعتبار الطارئ على الجمل ذوات الاعتبار الأصلي ، لاحتياج المقام لها ، وتطلبه إياها ، كتقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله ، في قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وإنما قدم "تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" على قوله "وتؤمنون بالله" لأنهما الأهم في هذا المقام المسوق للتنويه بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الحاصلة من قوله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ ، والاهتمام الذي هو سبب التقديم يختلف باختلاف مقامات الكلام ، ولاينظر فيه إلى مافي نفس الأمر ، لأن إيمانهم ثابت محقق من قبل"[٢] .

وجملة "يؤمنون بالله" هي الأكثر اهتماما في نفس الأمر ، لأنه لايصح أن تكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس بمجرد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل لابد أن تكون قبل ذلك كله مؤمنة بالله ، لأن الإيمان بالله هو الأساس الذي تبنى عليه شعائر الدين .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١١٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/٥٠) .

وفي هـذا المقـام قـدم الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر ؛ لكونـه الأسـعد بالتقديم والأنسب بالمقام ، والأولى بالاهتمام .

لأن جهة خيرية هذه الأمة يكون من أول بواعثه ومقدماته أمرهـا بـالمعروف ونهيها عن المنكر .

والتقديم في هذه الآية هو الذي لفت النظر واستجلب الانتباه إلى أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حين قدم على الإيمان بالله .

فكان الغرض البلاغي من التقديم هو التنويه بفضيلة الأمر بـالمعروف والنهـي عن المنكر .

وهذا يدفع إلى مزيد من التأمل الجاد في اسـتظهار أسـرار الشـريعة وحكمهـا عن طريق تراكيب اللغة وأغراضها البلاغية .

إذ أن هناك فرقا كبيرا ، وبونا بعيدا بين ماتفهمه الجملـة مـن معنـى الشـريعة وأحكامها ، وبين مايفهمه التركيب من أسرار الشريعة وحكمها .

فمثلا معنى الجملة القرآنية التي نحن بصدد الحديث عنها يفهم أن هـذه الأمـة هي خير أمة أخرجت للناس لأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها بالله .

بينما يؤذن التقديم في خصائص بناء هذه الجملة أن وجه الأفضلية يرجـع إلى المقدم وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتنويـه بهـاتين الصفتـين الإيمـانيتين ، ولايرجع وجه الأفضلية أو الخيرية إلى الإيمـان بـالله وإن كـان عظيمـا في ذاتـه ، لأن أهل الإيمان من الأمم السابقة يشتركون في هـذا المعتقـد العظيـم ، قـال الله سـبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّـاغُوتَ فَمِنْهُـمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾[1] .

وهكذا يمكن أن يكون باب الفهم لاستظهار أغراض البلاغـة في فهـم حكـم الشريعة ولاأقول أحكامها من خلال تراكيب هذا الكتاب الخالد المعجز .

بينما أرى ابن عاشور قد أغرب حين تفرد في تقديم الجملـة القرآنيـة بحملهـا على وجه إعرابي ضعيف ، من تقدم المعطوف على المعطوف عليه ، لغرض تعجيـل

---

(١) سورة النحل : آية (٣٦) .

الطمأنينة في نفوس المؤمنين في قوله تعالى : ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾(١) .

إذ أعرب "ويأتوكم من فورهم" معطوف على "يمددكم ربكم" المتأخر . ولم أر في كتب إعراب القرآن ولافي تفسيره من حمل الآية الكريمة على هذا الوجه الإعرابي .

والمسطر عند جمهور المفسرين(٢) أن ضميري "ويأتوكم من فورهم" يرجعان إلى طائفة من المشركين كانوا كالمدد لجيش المشركين ، ولايعود الضميران إلى الملائكة كما أرجعهما بعض المفسرين(٣) ومنهم ابن عاشور مما اضطره إلى هذا الوجه الإعرابي فيكون المعنى عند جمهور المفسرين : بلى إن تصبروا وتتقوا أيها المؤمنون المجاهدون ، ويأتوكم من فورهم ، أي : يأتيكم المشركون من فورهم هذا يمددكم أيها المؤمنون ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .

بينما يكون المعنى عند ابن عاشور : بلى إن تصبروا وتتقوا أيها المؤمنون المجاهدون يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ويأتوكم من فورهم هذا ؛ أي : يأتيكم الملائكة من فورهم هذا .

فيكون النظم الجليل عند ابن عاشور فيه تقديم المعطوف وهو قوله : "ويأتوكم من فورهم هذا" على المعطوف عليه وهو قوله : "يمددكم ربكم" .

قال ابن عاشور : "فالضميران : المرفوع والمجرور في قوله : "ويأتوكم من فورهم" عائدان إلى الملائكة الذين جرى الكلام عليهم ، كما هو الظاهر ، وعلى هذا حمله جمع من المفسرين .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٢٥) .

(٢) ينظر : تفسير الطبري (٤٢٢/٣) ومابعدها ، تفسير القرطبي (١٢٥/٤) ، الكشاف (٤٦٢/١) المحرر الوجيز (٥٠٢/١) ومابعدها ، البحر المحيط (٥٢/٣) ومابعدها .

(٣) وأولئك الجمع من المفسرين ذكرهم ابن عاشور من مثل مجاهد وعكرمة والضحاك والزهري . ينظر : التحرير والتنوير (٧٥/٤) ومابعدها .

وعليه فموقع قوله : "ويأتوكم" موقع وعد فهو في المعنى معطوف على "يمددكم ربكم" ، وكان حقه أن يرد بعده ، ولكنه قدم على المعطوف عليه ، تعجيلا للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين"(١) .

وقد استند ابن عاشور على تجويز ابن جني والمرزوقي لهذا الوجه الإعرابي من تقدم المعطوف على المعطوف عليه حين قال العلامة الطاهر : "وإذا جاز ذلك التقديم ـ أي تقديم المعطوف على المعطوف عليه ـ في عطف المفردات كما في قول صنان بن عباد اليشكري :

ثم اشتكيت لأشكاني وساكنه قبر بسنجار أو قبر على قهد

قال ابن جني في شرح أبيات الحماسة : قدم المعطوف على المعطوف عليه ، وحسنه شدة الاتصال بين الفعل ومرفوعه ..."(٢) .

فالمعطوف في البيت الشعري هو قوله "وساكنه" وقد تقدم على المعطوف الذي هو "قبر" ولكن هذا العطف للضرورة الشعرية ، ثم هو بين المفردات ، والعطف الذي في الآية القرآنية بين الجمل وهو ليس للضرورة ، فالقياس أو التنظير غير مسوغ ، وقد رد ابن عاشور على ذين الاعتراضين بعد أن ساق كلام ابن جني وذكر أن المرزوقي وافقه على ذلك ، فقال : "ووافقه المرزوقي ، وليس في كلامهما أن تقديم المعطوف في مثل ماحسن تقديمه فيه خاص بالضرورة في الشعر ، فلذلك خرجنا عليه هذا الوجه في الآية ، وهو من عطف الجمل ، على أن عطف الجمل أوسع من عطف المفردات ؛ لأنه عطف صوري"(٣) .

وقد حاولت أن أقف على مايمكن أن يستند عليه من كلام النحاة في جواز تقدم المعطوف على المعطوف عليه ولكني لم أظفر بشئ ، بل لم أجد من النحاة من يقول بتجويز هذا الوجه في اختيار الكلام ولا في نظمه .

---

(١) التحرير والتنوير (٧٤/٤) .
(٢) ن.م.س .
(٣) ن.م.س (٧٥/٤) .

قال صاحب النحو الوافي : "لايتقدم المعطوف على المعطوف عليه إلا شذوذا فيقتصر فيه على المسموع ، وقيل يجوز في الضرورة الشعرية ، والأولى إهمال هذا الرأي ، ومنه قول القائل :

أيا نخلة من ذات عرق   عليك - ورحمة الله - السلام

يريد : عليك السلام ورحمة الله"[1] .

---

(١) النحو الوافي (٣/٦٥٧) ومابعدها .

الباب الثالث

الحذف

الفصل الأول : صور الحذف ومواقعه .

الفصل الثاني : أغراض الحذف ودواعيه .

الفصل الثالث : أغراض حذف المفعول .

التوطئة

الحذف

لغة[١] :

الحذف مصدر جار على القياس للفعل "حذف" ومضارعه "يحذف" بكسر العين من باب ضرب ، والمراد بالحذف هنا الإسقاط ، لاالرمي ولاالقطع ؛ لأن الرمي للموجود ، والقطع للموصول .

اصطلاحا :

عرفه الرماني بأنه : "إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال ، أو فحوى الكلام"[٢] .

كما عرفه الزركشي : بأنه "إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل"[٣] .

وعلى كل فهو يعنى بأغراض الحذف وأسراره في جزء الكلمة ، والكلمة ، وجزء الجملة والجملة ، والجمل ، وإنما أضفت جزء[٤] الكلمة ليدخل الترخيم في النداء ، والمحذوف في أواخر الفواصل القرآنية[٥] ، وماحذف من الكلمة في الأبيات الشعرية ، أو حتى في الكلمات النثرية[٦] ، لملامح بلاغية ، لا لعلة صرفية أو نحوية .

---

(١) انظر : الصحاح ،مادة (حذف) (١٣٤١/٤) ، تاج العروس (٦٦/٦) ، المصباح المنير ، مادة (حذف) (ص٤٩) .

(٢) النكت في إعجاز القرآن (ص٧٦) .

(٣) البرهان (١١٥/٣) .

(٤) ينظر : الطراز (ص٢٥٥) ومابعدها ، عروس الأفراح (٢٠١/٣) ، البرهان في علوم القرآن (١٢١/٣) ومابعدها ، خصائص التراكيب (ص١١٢) ومابعدها .

(٥) خلافا لابن الأثير الذي أنكر ورود هذا النوع في القرآن ، ينظر : المثل السائر (٢٥٩/٢) ومابعدها .

(٦) كقول النبي ﷺ : "كفى بالسيف شا" ، أي : شاهدا .
انظر : سنن أبي داود (٤٤١٧) ، سنن ابن ماجه (٢٦٠٦) ، مجمع الزوائد (٥٦٤/٦) .

اتساع أفق الطاهر في النظر إلى مفهوم الحذف :

تحفل لغة القرآن بظواهر تحتاج من الدارسين تجليتها بالبحث المؤصل ، والدراسة الواعية .

وتعد ظاهرة اطراح مايمكن فهمه لدليل من أسرار هذه اللغة التي شاعت في أساليب استعمالها ، وارتقت بها إلى إثبات تألق مناحي أصول بيانها ؛ لأن للغات حظا من الأفضلية والاصطفاء كما للبشر ، وماكون اللغة العربية لغة القرآن إلا ضرب من الاصطفاء المتميز المفتخر به على سائر اللغات ، المفاد منه الأفضلية الذاتية لها ، المبني على قاعدة الاختيار بالعلم والحكمة المطلقين .

ولاغرو أن نجد أفذاذ العلماء في الأجيال المتعاقبة ينهلون من ينابيع لغة القرآن الثرة مايمكن أن يروي عطشهم ، ويسد رمقهم ، ويشبع نهمهم ، وهي مازالت ملأى ، تفيض متجددة لمن يأتيها يسترويها من فكر .

وللعلامة ابن عاشور إضافة نفيسة ورائعة في هذا الباب تضطرني إضطرارا إلى أن أعرج على كلام سابقيه ، وإضافتهم في الحذف ، بصورة موجزة ، لتتجلى وجه إضافته ، وتبين فكرته ورؤيته ، وتسجل دقته ، وترصد قراءته .

فممن تنبه لهذه الظاهرة صاحب الكتاب الذي حاول كشف نقابها ، والإشارة إلى بعض مواطنها وأسبابها ، فيما أشر إليه في الكتاب ، نحو : الحذف لكثرة الاستعمال(١) ، والحذف لسعة الكلام والاختصار(٢) ، وحذف المضاف وإقامة المضاف مقامه(٣) ، وحذف الموصوف ، وإقامة الصفة مقامه(٤) ، كما عرض لهذه الظاهرة من جاء بعده من علماء القرن الثالث ، من أمثال : الفراء(٥) ،

---

(١) ينظر : الكتاب (٢/١٣٠) .
(٢) ن.م.س (١/٢٢٢) .
(٣) ن.م.س (٣/٢٦٩) .
(٤) ن.م.س (٢/٧٥،١١٥،٣٤٥) .
(٥) ينظر : معاني القرآن (١/٦١) ومابعدها .

وابن قتيبة[١] ، والمبرد[٢] ، وثعلب[٣] ، وأتوقف عند الجاحظ الذي أراه يعقد بابا لايجاز الحذف ، وسمه "باب من الكلام المحذوف" ، وساق أمثلة كثيرة منها : "كلم رجل من قيس عمر بن عبد العزيز في حاجة ، وجعل يمت بقرابة ، فقال عمر : فإن ذاك ؛ ثم ذكر حاجته ، فقال : لعل ذاك ، لم يزده على أن قال : فإن ذاك ، ولعل ذاك ؛ أي : إن ذلك كما قلت ، ولعل حاجتك تقضى"[٤] .

فهو يرى من خلال هذا الباب أن الحذف قد شاع في كلام العرب ، وهو من البلاغة ، وقد أشار[٥] إلى تعريف ابن المقفع للبلاغة بأنها الإيجاز مستحسنا .

لكن الجاحظ في كتابه "الحيوان" يحاول أن يبين الإيجاز ، فيقول : "ولو أن قائلا قال لبعضنا ماالإيجاز ، لظننت أنه يقول الاختصار ، والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار[٦] ، فقد أوجز . وكذلك الإطالة ، وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر مالايكون سببا لإغلاقه ، ولايردد ، وهو يكتفي من الإفهام بشطره ، فما فضل عن الإفهام فهو خطل"[٧] .

وهذا الذي ذكره يبين عن فهم واع للإيجاز ليس موضع شرحه ، وطرحه هذه العجالة ، وإنما حسنت الإشارة إليه ؛ لبناء صورة الحذف عليه ، ثم تناول العلماء الذين جاءوا بعد الجاحظ هذه الظاهرة مثل قدامة بن جعفر[٨] ، والآمدي[٩]

---

(١) ينظر : تأويل مشكل القرآن (ص٢١٤) ومابعدها .

(٢) ينظر : الكامل (ص١٦٨) ، المقتضب (٣٣٣/٢) ومابعدها .

(٣) ينظر : مجالس ثعلب (٧٦/١،٧٧/٢٠٣) .

(٤) البيان والتبيين (٢٧٨/٢) .

(٥) ينظر : البيان والتبيين (١١٥/١) ومابعدها ، تاريخ البلاغة العربية (ص٦٥) .

(٦) المراد بالطومار : الصحيفة الكبيرة . ينظر المعجم الوسيط (ص٥٦٥) .

(٧) الحيوان (٩١/١) ، وينظر : البلاغة تطور وتاريخ (ص٤٨) .

(٨) ينظر : نقد الشعر (ص٢١٦) ومابعدها .

(٩) ينظر الموازنة (٤٠٤/١) ومابعدها .

والخطابي[١] ، ويتوسع ابن جني[٢] في خصائصه في دراسته للحذف في باب وسمه بشجاعة العربية" .

و لم أر أحدا من أولاء العلماء يفيد من نظرة الجاحظ ، ويبني عليها أو يستثمرها في صياغة جديدة تطورها ، وترتقي بها ، بل كانت دراستهم في مجملها تتجه الوجهة النحوية .

ويستوقفني الرماني[٣] الذي اتجه بالحذف اتجاها بلاغيا ، فعده مع إيجاز القصر أحد أقسام البلاغة العشرة ، ونقل عنه ذلك الباقلاني[٤] مؤيدا في فصل وسمه (في وصف وجوه من البلاغة) ، بل جميع محتوى هذا الفصل لفظا ومعنى من رسالة "النكت في إعجاز القرآن"[٥] .

وتقسيم الرماني للإيجاز هو الذي جرى عليه البلاغيون بعد الرماني ، وتشير عبارة ابن سنان إلى أن الرماني صاحب هذه التسمية ، يقول : "وكان أبو الحسن بن عيسى يسمي هذا الجنس وهو إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليه بالحذف ويسمي بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف بالقصر ، ويجعل الإيجاز على ضربين القصر والحذف"[٦] .

ثم نرى إمام هذا الفن يتناول هذه الظاهرة في دلائله ، ويكثر من الأمثلة والشواهد ، بتحليل أدبي شائق ، وبحث دقيق فائق ، مباينا منحى النحاة ومتجاوزا عنه ، إلى طريقة تجلي أسرار الحذف ودقائقه ، وتبين مواطنه ، وحقائقه ، حتى إنه ليراه أو يصفه من شدة أثره وتأثيره في الأسلوب بأنه شبيه بالسحر فيقول :

---

(١) ينظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٥١) ومابعدها.

(٢) ينظر : الخصائص (٣٦٠/٢) ومابعدها .

(٣) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٧٦) ، وينظر : بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار (ص١٦٩) .

(٤) ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني (ص٢٦٢) .

(٥) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٧٦) ومابعدها .

(٦) الإعجاز البلاغي (ص٩١) ، سر الفصاحة (ص١٩٩) .

"هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق ، وأتم ماتكون بيانا إذا لم تبن"[١] .

ولاأود أن يطول هذا المبحث بمزيد من البحث في كتب من تلا الإمام عبد القاهر من المعتنين بهذا الفن خلا الزمخشري الذي له نظرة في الحذف القرآني تستحق التسجيل في هذا المقام لأدلف بعده إلى نظرة علامة تونس وإضافاته . فالزمخشري[٢] قد جلى بناحية تطبيقية مواضع الحذف في القرآن الكريم ، ودرس تلك المواطن بحس مرهف جادت به بصيرته العلمية النافذة ، حتى نراه يقرر في سورة المدثر حكما يستخلصه من خلال دراسته لأساليب آي القرآن الكريم في ظاهرة الحذف ، هو أن الحذف والاختصار نهج التنزيل[٣] .

أما ابن عاشور فيرى أن الإيجاز بشقيه هو عمود بلاغة العرب الذي ينبئ عن ذكائهم وفطنة أفهامهم ، فيقول : "إن العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح ، وفطنة الأفهام ، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم ، وبخاصة كلام بلغائهم ، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين كما يقال : لمحة دالة"[٤] .

ثم هو يوافق علامة خوارزم فيما ذهب إليه من كثرته في التنزيل ، ويخص مانحن بصدده من إيجاز الحذف فيقول : "إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفا ، ولكنك لاتعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق"[٥].

ويتجه بالحذف اتجاها آخر ، ليجلي لنا وجها يبين عن دقة هذه اللغة وسعتها ووفرة معانيها التي تؤدي بالمفهوم كما تؤدي بالمنطوق ، وتعتمد إلى تفنن إبراز المعاني بالعبارة التي يتضح منها المراد ، كما تعمد إلى إبراز معنى آخر من العبارة

---

(١) دلائل الإعجاز (ص١٤٦) .

(٢) ينظر : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية (ص٤٠٣) ومابعدها.

(٣) ينظر : الكشاف (١٨٧/٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٩٣/١) .

(٥) التحرير والتنوير (١٢٢/١) .

نفسها عن طريق اللمحة الدالة بموجب القرينة القائمة . وقد كثر هذا الوجه من الحذف في كلام الله عز وجل وسنعرض له إن شاء الله في موضعه[١] .

كما يقل هذا الحذف في كلام فصحاء العرب وبلغائهم ، وهذا مما تميزت به الجملة القرآنية التي يقول عنها ابن عاشور : "ولها دلالتها المطوية ؛ وهي دلالة مايذكر على مايقدر اعتمادا على القرينة ، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء ، وكثرت في القرآن مثل : تقدير القول ، وتقدير الموصوف ، وتقدير الصفة"[٢] .

بل ينظر ابن عاشور إلى أبعد من ذلك ، ليشير إلى أن مواقع الجمل العربية لها نصيبها المتفردة به في إيضاح مايمكن إيضاحه من دلالات لغوية ، يتفطن لها ويدركها ذو الحس المرهف ، فيعي أن هذه الجملة في موقع جواب عن سؤال محذوف يمكن تقديره عن طريق القرائن ؛ فيقول : "ولها دلالة مواقع جمله بحسب ماقبلها ومابعدها ، ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها ، أو في موقع الاستدراك أو في موقع جواب سؤال ، أو في موقع تعريض أو نحوه ، وهذه الدلالة لاتتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم بخلاف القرآن ، فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة ، وبتلك الإطالة تأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض"[٣] .

---

(١) انظر (ص٣٠٢) .
(٢) التحرير والتنوير (١/١١٠) .
(٣) التحرير والتنوير (١/١١٠) .

دليل الحذف . أنواعه . حسنه

يشترط البلاغيون[١] في الحذف أن يدل عليه دليل ، وإلا كانت معرفته ضربا من تكليف علم الغيب[٢] .

والدليل الذي يدل على المحذوف ، إما أن يكون حاليا ، أو يكون مقاليا ، فالأول دلالته حالية معنوية ، تفهم من السياق ، نحو قوله تعالى : ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٣] أي : كل سفينة صالحة أو صحيحة ، والثاني دلالته مقالية لفظية تفهم من التركيب نحو قوله تعالى : ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[٤] أي : أنا .

قال صاحب المثل السائر : "والأصل في المحذوفات على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام مايدل على المحذوف ، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث ، لايجوز بوجه ولاسبب"[٥] .

ونفيد من هذا أن البلاغيين يشترطون في النص ـ أي نص ـ أن المحذوف لابد أن يدل عليه دليل ، بخلاف النحاة[٦] الذين يقسمون الحذف إلى حذف اختصار وحذف اقتصار ، والأول بدليل ، والثاني بلا دليل .

ولكن مايجدر تأمله ، أن الدليل الذي يدل على المحذوف قد يكون واضحا وقد يكون غامضا يحتاج إلى روية واستبصار وفضل تأمل .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٣/٢٠٢،٢٠٣) ، تقرير الانبابي وحاشيته التجريد (٣/٣٧٢،٣٧٣) بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي (٢/١٣٢) .

(٢) ينظر : الخصائص (٢/٣٦٠) .

(٣) سورة الكهف : آية (٧٩) .

(٤) سورة الذاريات : آية (٢٩) .

(٥) المثل السائر (٢/٢٢٠) .

(٦) ينظر : مغني اللبيب (٢/٦١١) ومابعدها ، عروس الأفراح (٣/٢٠٣) .

فهل يتساوى مثل ذلك عند البلاغيين؟ ويرون أنهما يكونـان بمنزلـة واحـدة؟ ثم هل وجد مثل ذلك في الجملة القرآنية؟

والإجابة على ماهو مطروح من التساؤل نجدها عند صاحب كتاب "نقد الشعر" .

وقبل تسجيل إجابته ، أشير إلى أن درجات الغموض في تحديد الحذف متفاوتة ، وكما يرفض أعلاها يرفض أدناها ، وستتضح من خلال ماأقدمه من أمثلة في كلام قدامة بن جعفر .

فقدامة بن جعفر يرى ذلك من العيوب التي يفسد بها الشعر ويسميه "الإخلال" ويمثل له بأربعة أمثلة ، أذكر منها مثالين ، الأول لاتكاد تتبين فيه الحذف والآخر أقل غموضا من سابقه .

قال عروة بن الورد[1] :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا[2]

فالمحذوف جار ومجرور تقديره "في السلم" متعلق بالفعل "يقتلون" .

والآخر الذي يكون أقل غموضا من سابقه قول الشاعر[3] :

لايرمضون إذا حرت مغافرهم ولاترى منهم في الطعن ميالا[4]

ويفشلون إذا نادى ربيئهم ألا اركبن فقد آنست أبطالا[5]

فالشاعر يمدح ، وأراد أن يقول : "لايفشلون" فحذف "لا" فعاد المعنى إلى الضد[6] .

---

(١) عروة بن الورد بن زيد العبسي ، من الشعراء الجاهليين الفرسان ، ومن الصعاليك . ينظر : الشعر والشعراء (٦٧٥/٢) ومابعدها ، الأغاني (٧٣/٣) ومابعدها ، مقدمة ديوانه .

(٢) الديوان (ص٨٢) ، وفيه "يخنقون نفوسهم" بدل "يقتلون نفوسهم" .

(٣) لم أعثر على قائله ، ونسبه محقق كتاب نقد الشعر الأستاذ كمال مصطفى إلى أبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي . وهو أبو الشاعر المشهور أمية بن أبي الصلت . ينظر نقد الشعر (ص٢١٧).

(٤) الرمض : شدة الحر ، والمغافر : جمع مغفر وهو مايوضع على الرأس وقاية من ضرب الأعداء كالخوذة .

(٥) الربى : الطليعة الذي يتقدم الجيش .

(٦) ينظر : نقد الشعر (ص٢١٧) ومابعدها .

وبهذا يتقرر أنه وجد في الشعر العربي محذوفـات يغمـض العثـور عليهـا وإن كان نحو هذا قليلا ولكنه موجود .

ونقل الزركشي عن صاحب منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، قوله : إنما يحسن الحذف ما لم يشكل به المعنى لقوة الدلالة عليه ، أو يقصد به تعديد أشياء ، فيكـون في تعدادها طول وسآمة ، فيحذف ويكتفي بدلالة الحال عليه ، وتترك النفس تجـول في الأشياء المكتفى بالحال عن ذكرها على الحال[1] .

ويتضح من خلال هذا الاشتراط أنه لابد في الحذف من أن يكون الدليل دالا على المحذوف بدون لبس في المعنى أو خفاء في الدلالة ، إضافة إلى إشارته إلى دلالـة الحال أو السياق التي اعتنى بها الطاهر كثيرا .

أما الجملة القرآنية الكريمـة الـتي هـي كـلام الله جـل وعـلا ، فـإن المستقرئ لأسلوب الحذف فيها يجده حذفا يدل عليه الدليل بإشراقة وضاءة تبهر ألباب متأمليه وتستولى على إعجاب مدركيه بلاإخلال ولاغموض .

قال ابن عاشور : "إنك تجد في كثير مـن تراكيـب القـرآن حذفـا ، ولكنـك لاتعثر على حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق"[2] .

ونفيد من هذا ، أن الحذف أسلوب قرآني زاخر به النظم الكريـم ، لاقتضـاء المقامات البيانية له على اختلاف ضروبها لأجل تعدد أغراض الحذف الذي وقف به مقعدو البلاغة عند ذلك الحد من الأنماط التمثيلية في مؤلفاتهم .

لذا سأخص أغراضه بمزيد من البسط في موضعها من هذا البحث إن شاء الله تعالى .

وتظهر إشارة العلامة ابن عاشـور الصريحة إلى قسـمي دليـل الحـذف الحـالي والمقالي ، في قوله : "من لفظ أو سياق" .

بل رأيت الدكتور تمام حسان يجتهد في إيضاح أدلة الحذف في الجملة القرآنية في كتابـه "البيـان في روائـع القـرآن" فيقـول : "فـالحذف لايكـون إلا بدليـل مـن

(١) ينظر : البرهان (١٢٧/٣) ، ملحق كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء (ص٣٩١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢٢/١) .

بينة معهودة أو نمط معروف أو قرينة قائمة أو معنى في السياق لايستقيم إلا مع تقدير الحذف"[١] .

وهو بهذا القول إنما يتناول الحذف النحوي والصرفي والبلاغي ، وهذا يدفعنا إلى الوقوف والتملي للتفريق بين الحذف البلاغي من جهة وقسيمه النحوي من جهة أخرى . أما الصرفي فأمره أوضح من أن يبين ، لأنه يختص ببنية الكلمة .

فبادئ ذي بدء أرى أن المستبصر بلغة العرب ، خصائصها ، أسرارها ، دلالات تراكيبها ، يجد من غير اليسير التصنيف الاعتباري لتقسيم أفراد النوع في فصل كلي بين علم النحو وعلم المعاني في أمثال هذا الباب .

إذ أن مايعمد إليه من الإشارة اللامحة إلى إدراك تلك الصلة ، وذلك التفريق قولهم : إن مهمة البلاغي تبدأ من حيث ينتهي النحوي .

ولربما يعزى ذلك إلى الأرضية المشتركة التي يبحثان فيها ، وإلى أصل المتناول مع اختلاف الوجهة أو الجانب المنظور منه .

ووجه التغاير بين الحذفين ، والتفريق بينهما يكمن في إيضاح الحذف أو بيان الغرض منه .

فالنحوي يجتهد في إيضاح الحذف ويبين المحذوف ليستقيم له المعنى ، ويتضح له المراد .

والبلاغي يجتهد في إيضاح الغرض من الحذف ، والسبب الداعي أو المرجح للحذف دون الذكر .

وبعد هذا التفريق الذي اتضح من خلاله أن الحذف الصرفي يختص ببنية الكلمة وهو جلي ولايحتاج إلى أن يدلل عليه .

أما الحذف النحوي فإنه يسعى لبيان إيضاح المحذوف وتقديره ولايعدو عن ذلك .

أما الحذف البلاغي فإنه يتناول البحث في أسباب الحذف والغرض الداعي لها الذي رجح الحذف على الذكر .

---

(١) البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني (ص١٥٧) .

بعد هذا كله يمكن بيان حسن الحذف بكون الكلام في حالة الحذف أبلغ شأنا ، وأرقى بيانا ، وأرفع مكانا منه في حالة ذكر المحذوف .

قال الإمام عبد القاهر الجرجاني - بعد تحليله لكثير من الأمثلة الشعرية - مقررا قاعدة في الحذف وحسنه : "مامن اسم أو فعل تجده قد حذف ، ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال "التي"[(١)] ينبغي أن يحذف فيها ، إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"[(٢)] .

وهذه القاعدة التي قررها الإمام عبد القاهر تتجلى بصورة أكثر بيانا في الحذف القرآني .

قال صاحب الطراز : "أقول : لو ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته ولصار إلى شئ مسترك مسترذل ولكان مبطلا لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة"[(٣)] .

---

(١) لفظة "التي" غير موجودة في النسخة التي قرأها وعلق عليها الأستاذ محمود شاكر .

(٢) دلائل الإعجاز (ص١٥٢) ومابعدها .

(٣) الطراز (ص٢٤٦) ومابعدها .

الفصل الأول

صور الحذف ومواقعه

الاقتطاع :

وقد عرفه الزركشي : بأنه ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي[(١)] .

وهذا التعريف ليس بسديد ، بل الصواب كما قال السيوطي : وهو حذف بعض حروف الكلمة[(٢)] .

وقد قرئ[(٣)] في سورة الزخرف : ﴿وَنَادَوْا يَامَالِ﴾[(٤)] ـ بحذف الكاف ـ وهو ترخيم "مالك" ـ وبكسر اللام ـ على لغة من ينتظر المحذوف .

وفي سورة الفجر أيضا حذفت ياء الفعل "يسري" في قوله تعالى : ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[(٥)] .

أما الحروف المقطعة الواردة في أوائل السور الكريمة فقد ذكرها الزركشي[(٦)] والسيوطي[(٧)] من قبيل هذا الحذف .

ولم يعدها العلامة الطاهر من الاقتطاع ، وإن أشار إلى حذف الاقتطاع عند تفسيره لهذه الحروف ، بأن هذا الحذف أسلوب عربي ، وطريقة عربية ، وأكثر من أمثلته وتوسع في شواهده ، حتى فطن لذلك ، وقال : "وقد أكثرت من شواهده توسعة في مواقع هذا الاستعمال الغريب ، ولست أرى بذلك تصحيح حمل حروف فواتح السور على ذلك ، لأنه لايحسن تخريج القرآن عليه"[(٨)] .

ووجه استبعاده حمل حروف فواتح السور على هذا الأسلوب العربي الذي نعته بالغرابة ، هو أنه لايمكن ضبطه بقاعدة على هذه الحروف القرآنية الكريمة ، إذ

---

(١) البرهان (٣/١٣٢) .

(٢) الإتقان (٢/١٦٨) .

(٣) قرأ بها عبد الله بن مسعود . ينظر : القرطبي (١٦/٧٧) ، الكشاف (٣/٤٩٦) ، المحرر الوجيز (٥/٦٤) .

(٤) سورة الزخرف : آية (٧٧) .

(٥) سورة الفجر : آية (٤) .

(٦) ينظر : البرهان (٣/١٣٣) .

(٧) ينظر : الإتقان (٢/١٦٨) .

(٨) التحرير والتنوير (١/٢١٠) .

لايتلاءم تطبيقه عليها ، قال ابن عاشور : "أنها ـ أي : الحروف المقطعة ـ رموز ، كل حرف رمز إلى كلمة ، فنحو "آلم" أنا الله أعلم ، و"آلمر" أنا الله أرى ، و"المص" أنا الله أعلم وأفصل ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس ، ويوهنه أنه لاضابط له ، لأنه أخذ مرة بمقابلة الحرف بحرف أول الكلمة ، ومرة بمقابلته بحرف وسط الكلمة أو آخرها ، ونظروه بأن العرب قد تتكلم بالحروف المقطعة بدلا من كلمات تتألف من تلك الحروف نظما ونثرا"(١) .

وذكر في تفسير هذه الحروف واحدا وعشرين قولا على وجه الاستقصاء ، واختار من هذه الأقوال ثلاثة ؛ أولها : أن هذه الحروف ذكرت لتبكيت المعاندين وتسجيل عجزهم .

وثانيها أنها أسماء للسور التي وردت بها .

وثالثها : أنها أقسام أقسم الله بها .

ورجح أول قول من هذه الأقوال الثلاثة ، على أن القول الثاني من اختياراته يمكن أن يقال فيه : إن هناك من السور ماتطابقت في افتتاحياتها هذه الحروف المقطعة تمام المطابقة كالبقرة وآل عمران في افتتاحهما بـ"آلم" وغيرهما مما ماثلهما ، مما يكون مظنة وقوع اللبس وعدم التحديد إلا بقرائن أخرى .

وعلى كل فليس هذا الموضع موضع مناقشة اختيارات الطاهر وإنما هوموضع إيراد تفسير الطاهر لهذه الحروف ، وأنها ليست من حذف الاقتطاع .

وأرى أن هذه الحروف المقطعة هي من متشابه المتشابه(٢) الذي لاأتبين فيها قولا فصلا ، ولادليلا قاطعا ، وأرجع علمها إلى الله سبحانه وتعالى(٣) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠٩/١) .

(٢) ينظر فتح القدير (٣٨/١) .

(٣) هذه الحروف الواردة في أوائل السور القرآنية الكريمة إنما أرى أنها من متشابه المتشابه ، إذ ليس فيها من دليل مسند إلى الرسول ﷺ في تفسيرها أو مرفوع إليه ، وماورد عن بعض السلف من الصحابة والتابعين فهو تفسير لبعضها وليس تفسيرا لها كلها . هذا إذا صحت الرواية عنهم.

=

....

وهب أن الرواية صحت عنهم فكل يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب ذاك القبر ﷺ .
لأن هذه الحروف مما لامجال للاجتهاد فيها بدون دليل ، ولأن ماورد من روايات عن الصحابة فيه تناقض ، فمثلا عن ابن مسعود رضي الله عنه أن "آلم" هي اسم الله الأعظم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنا الله أعلم وأرى .
فلاغرو إذن أن تتكاثر الأقوال في تفسيرها على اختلاف مناحي المفسرين واتجاهاتهم ، فالقائلون بالتفسير بالمأثور يذكرون ماورد عن الصحابة والسلف رضوان الله عليهم من تفسير لهذه الحروف ـ على مافيه مما أشرت إليه ـ ويرجحونها على ماسواها ، كتفسير الطبري (١/١١٨) ، وتفسير البغوي (١/٣٤) ومابعدها ، وتفسير ابن كثير (١/٣٨) ومابعدها ، وتفسير السيوطي (١/٥٣) ومابعدها .
والقائلون بالتفسير بالرأي وهو مايقابل التفسير بالمأثور ، يذكرون ماورد عن الصحابة في هذه الحروف ، ويفسرونها بما يذكرونه ويجتهدون في إثباته مما جرت عليه أساليب اللغة العربية ، كتفسير الزمخشري (١/١٧٦) ومابعدها ، وتفسير الرازي (٢/٣) ومابعدها ، وتفسير البيضاوي (١/١٥٣) ومابعدها ، وتفسير النسفي (١/٩) ومابعدها ، وتفسير الخازن (١/٣٥) ومابعدها ، وتفسير أبي حيان الأندلسي (١/١٥٦) ومابعدها ، وتفسير النيسابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/١٢٩) ومابعدها ، وتفسير ابن عاشور (١/٢٠٦) ومابعدها .
وهكذا تجد في هذه التفاسير لتلك الحروف المقطعة تفسيرات كثيرة متعددة لاتستوعبها هذه العجالة ، وتكفي فيها الإحالة ، لأن القصد بيان ترجيحات المفسرين بدون واضح برهان ، أو دامغ حجة لما يرونه من تفسيرات لهذه الحروف واطراح ماسواها .
والأولى إرجاع علمها إلى الله سبحانه وتعالى مع الاعتراف بأن له حكمة لم تدركها عقولنا ولم تصل إليها أفهامنا ، والوقوف عندهذا الحد ، كوقوفنا عن طلب المتشابه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة . قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ . سورة آل عمران : آية (٧) . وينظر فتح القدير (١/٣٨) .
قال ابن كثير : "ولم يجمع العلماء فيها على شئ معين ، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقوف حتى يتبين هذا المقام" . تفسير ابن كثير (١/٤٠) .

وهذا النوع من الحذف أيضا ورد في أحاديث الرسول ﷺ ، كقوله عليه الصلاة والسلام : "كفى بالسيف شا"[١] أي : شاهدا .

كما ورد أيضا في أشعار العرب كقول علقمة بن عبدة :

كأن أبريقهم ظبي على شرف   مفدم بسبا الكتان ملثوم[٢]

يريد : سبائب الكتان .

ونحوه قول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبانا   وتقادمت بالحبس فالسوبان[٣]

يريد : المنازل .

ونحوه قول الأخطل :

أمست مناها بأرض مايبلغها   بصاحب الهم إلا الجسرة الأجد[٤]

يريد منازلها في قوله : "مناها" .

وهناك أبيات[٥] أخرى جاءت على هذا النمط ، وفيما أوردته مايدفع كلام صاحب المثل السائر الذي يرى أن أمثال هذا الحذف من الحذف القبيح ، الذي لايحسن استعماله ، ولاالنسج على منواله ، قال ـ بعد أن ساق أمثلته ـ : "فهذا وأمثاله مما يقبح ولايحسن ، وإن كانت العرب قد استعملته فإنه لايجوز لنا أن نستعمله"[٦] ، وهو بهذا يتابع قدامة بن جعفر[٧] ـ وإن لم يشر إليه ـ في هذه النظرة النقدية ،ويوسعها ، إذ عدها قدامة من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن ،وسماها "التثليم" : "وهو أن يأتي الشاعر بأسماء يقصر عنها العروض ، فيضطر إلى ثلمها والنقص منها ، مثال ذلك قول أمية بن أبي الصلت :

---

(١) ينظر : سنن أبي داود (٤٤١٧) ، سنن ابن ماجه (٢٦٠٦) ، مجمع الزوائد (٥٦٤/٦) .
(٢) الديوان (ص٢٥) .
(٣) الديوان (ص٢٦٦) .
(٤) الديوان (ص٤٣٥) ، والجسرة : الناقة الجسور ، والأجد : الموثقة الخلق .
(٥) ينظر :الخصائص (٨٠/١) ومابعدها ، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (ص١١٧) ومابعدها ، التحرير والتنوير (٢٠٩/١) ومابعدها .
(٦) المثل السائر (٢٥٩/٢) ومابعدها .
(٧) ينظر : نقد الشعر (ص٢١٩) ومابعدها .

لأرى من يعينني في حياتي غير نفسي إلا بني إسرال

وقال في هذه القصيدة :

أيما شاطن عصاه عكاه ثم يلقى في السجن والأكبال

وقال علقمة بن عبدة :

كأن إبريقهم ظبي على شرف مفدم بسبا الكتان ملثوم

أراد بسبائب الكتان فحذف للعروض ..." [(١)] .

وكلام قدامة إنما هو في الشعر لافي غيره ، وهي وجهة نظر نقدية فردية غير مسلم بها ، بينما كلام ابن الأثير عممه على النثر والشعر ، بل رفض أن يكون في القرآن . وقد نص على ذلك صريحا في نسخة غير النسخة المحققة للمثل السائر ، نقل عنها صاحب كتاب ـ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ـ إذ قال ابن الأثير عن هذا الحذف : ولايجوز استعماله في القرآن العظيم[(٢)] .

وعلى أية حال ففيما قدمته مايدفع كلام قدامة بن جعفر وابن الأثير ، لكثرة ورود مثل هذا الحذف في بليغ الكلام وفصيحه وهذه حجة نقلية تساعد في حسم المسألة إن لم تحسمها ، أضف إليها حجة عقلية في أنها توافق ماانبنت عليه الأساليب العربية التي تتفق مع ذكاء عقلية العربي مما يسمى باللمحة الدالة .

قال ابن القيم : "ومثل هذا في أشعار العرب وكلامهم كثير ، وإذا كثر استعماله كان من الكلام الفصيح معدودا ، وحسن في التركيب ، وكلما بعد غور الكلمة واستعجم معناها ، كان فهمه بأول وهلة دليلا على صحة الأفهام وجودة الغرائز ، وسلامة الطباع ، وحسن موقع اللفظ به"[(٣)] .

وبعد هذا التقرير لنقف ونتبين نكتة الحذف في قوله تعالى في سورة الزخرف ﴿وَنَادَوْا يَامَالِ﴾[(٤)] فإنهم لشدة ماهم فيه عجزوا عن إتمام الكلمة[(٥)] .

---

(١) نقد الشعر (ص٢١٩) .

(٢) ينظر : الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (ص١١٦) .

(٣) ن.م.س (ص١١٨) .

(٤) سورة الزخرف : آية (٧٧) .

(٥) ينظر : الكشاف (٣/٤٩٦) ، البرهان (٣/١٣٣) ، الإتقان (٢/١٦٨) .

"وهذه علة بلاغية لأنها تشير إلى ماوراء هذا الحذف من ضيق الصدر وغلبة اليأس ، ومعاناة الهول معاناة شغلتهم عن إتمام الكلمة"[١] .

أما نكتة الحذف في حديث النبي ﷺ : "كفى بالسيف شا"[٢] أي : شاهدا فقالوا فيها قطع الكلمة وأمسك عن إتمامها لئلا تصير حكما شرعيا[٣] .

أما نكتة الحذف في قول لبيد :

درس المنا بمتالع فأبانا

أراد : المنازل .

فإنه لما لم يبق من منازل المحبوبة إلا الأطلال والآثار ، لم يبق من الكلمة إلا مابقي ، فكأن الحذف فيه دلالة على صلة الترابط بين ذين المعنيين[٤] .

وعلى هذا المنوال يمكن بالتأمل في المعنى استخلاص نكات ، واستظهار دقائق فيما يجري على هذه الشاكلة .

---

(١) خصائص التراكيب (ص١١٢) .

(٢) سبق تخريجه (ص٢١٣) .

(٣) ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة ، للدكتورة إنعام فوال عكاوي (ص٢٠٤) .

(٤) ينظر : خصائص التراكيب (ص١١٣) ومابعدها .

الاكتفاء:

"هو أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط ، فيكتفى بأحدهما عن الآخر ، لنكتة"(١) .

وعرفه السيوطي في عقود الجمان بقوله : "هو حذف بعض الكلمات أو بعض الحروف لدلالة الباقي عليه"(٢) .

وقد أكثر من الأمثلة الشعرية لبيان حسن مواقعه(٣) .

وقد استقرأه في الأحاديث النبوية فقال : "فوجدت منه قوله ﷺ : "الطيرة شرك ومامنا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل" هكذا رواه البخاري في الأدب والترمذي وغيرهما ، بحذف الاستثناء بعد إلا اكتفاء"(٤) .

وغالبا مايختص هذا الارتباط بالارتباط العطفي(٥) . كما سيتضح من الأمثلة كقوله تعالى في سورة النحل : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾(٦) أي : والبرد . هكذا قدروه(٧) .

وفي الكشاف أنه لم يذكر البرد ، لأن الحر هو الأهم ، أو لأن مايقي من الحر يقي من البرد(٨) .

وقد رد عليه ابن المنير أن الذي يقي من الحر ليس كالذي يقي من البرد ، لأن لكل لبوسه ، ولو لبس المرء لباس الحر للبرد ، أو لباس البرد للحر لعد من الثقلاء(٩) .

---

(١) الإتقان (١٦٨/٢) .

(٢) شرح عقود الجمان (ص١٣٦) .

(٣) ينظر : ن.م.س .

(٤) ن.م.س .

(٥) ينظر : البرهان (١٣٣/٣) .

(٦) سورة النحل : آية (٨١) .

(٧) ينظر : البرهان (١٣٤/٣) ، الإتقان (١٦٨/٢) ، البيضاوي وحاشيته للشهاب (٣٦٠/٥) ، روح المعاني (٢٠٥/١٤) ، التحرير والتنوير (٢١٤/٣) .

(٨) ينظر : الكشاف (٤٢٣/٣) .

(٩) ينظر : الإنصاف ضمن الكشاف (٤٢٣/٣) .

وفي المحرر الوجيز عند تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ﴾[١] .

يرى ابن عطية أن الآية الكريمة حذف منها مايدل عليه ماذكر ، إذ قدر : (ولاالظلمات) والنور ، (ولاالنور) والظلمات[٢] .

وقدوافقه الزركشي في تقدير هذاالحذف وعده من هذا الباب[٣] .

و لم يشر إليه صاحب الكشاف ، أو يذكره الطاهر .

بل رد هذا التقدير الذي ذكره ابن عطية صاحب روح المعاني ، ورآه دعوى أو زعما لافائدة فيه ، فقال : "وزعم ابن عطية أن دخول "لا" على نية التكرار ، كأنه قيل : ولاالظلمات والنور ، ولاالنور والظلمات . وهكذا فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني ، ودل مذكور الكلام على متروكه ، والقول بأنها مزيدة لتأكيد النفي يغني عن اعتبار هذا الحذف الذي لافائدة فيه"[٤] .

وقد حاولت إيضاح حقيقة الاكتفاء بكلام هؤلاء الأئمة ، لأنه ليس من مباحث البلاغيين المتداولة في كتبهم .

ومنه مارآه الطاهر في قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[٥] .

فحذف من الآية الكريمة قسم من أنفق من بعد الفتح وقاتل ، لأن فعل الاستواء يقتضي اثنين .

قال ابن عاشور : "وحذف قسم من أنفق من قبل[٦] الفتح إيجازا لدلالة فعل

---

(١) سورة فاطر : آية (١٩-٢٠-٢١) .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز (٤/٤٣٥) .
وفي النسخة المحققة للمحرر الوجيز "ولاالظلمات" بزيادة "لا" والصواب اطراحها ليتم المراد .

(٣) ينظر : البرهان (٣/١٣٨) .

(٤) روح المعاني (٢٢/١٨٧) .

(٥) سورة الحديد : آية (١٠) .

(٦) هكذا في التحرير والتنوير ، والصواب هو : "من بعد الفتح" وليس من قبله كما هو مطبوع .

التسوية عليه لامحالة ، والتقدير : لايستوي من أنفق من قبل الفتح ومن أنفق بعده"[١] .

وابن عاشور في هذا التقدير إنما يوافق الأئمة قبله الذين قدروا هذا الحذف مثل الزمخشري إذ يقدر المحذوف فيقول : "ومن أنفق من بعد الفتح فحذف لوضوح الدلالة"[٢] .

ومثل ابن عطية إذ يقول : "وأكثر المفسرين على أن قوله "يستوي" مسند إلى "من" وترك ذكر المعادل الذي لايستوي معه ، لأن قوله تعالى : ﴿من الذين أنفقوا من بعد﴾ قد فسره وبينه"[٣] .

ومثل البيضاوي إذ يقول : "وقسيم من أنفق محذوف لوضوحه ودلالة مابعده عليه"[٤] .

وقد عقب الخفاجي على كلام البيضاوي فقال : "وقوله "دلالة مابعده" يعني قوله : من الذين أنفقوا من بعد ، والتقدير : وغيره ، فهو اكتفاء ، لأن الاستواء يقتضيه"[٥] .

ونحوه قوله تعالى : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾[٦] أي : والأمر كله ، إذ مصادر الأمور كلها بيده سبحانه وتعالى ، والاقتصار على الخير من باب الاكتفاء[٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٧٥/٢٧) .
(٢) الكشاف (٦٢/٤) .
(٣) المحرر الوجيز (٢٥٩/٥) .
(٤) البيضاوي (١٥٥/٨) .
(٥) حاشية الخفاجي (١٥٥/٨) .
(٦) سورة آل عمران : آية (٢٦) .
(٧) ينظر : البرهان (١٣٥/٣) ، الإتقان (١٦٩/٢) ، التحرير والتنوير (٢١٣/٣) ومابعدها .

الاحتباك :

وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كل واحد منهما مقابله ، لدلالة الآخر عليه[(١)] .

وسماه الزركشي بالحذف المقابلي[(٢)] .

واحتفى به السيوطي ووصفه : بأنه من ألطف الأنواع وأبدعها[(٣)] ، وذكر أنه لم يره إلا في شرح بديعية الأعمى[(٤)] "ابن جابر" لرفيقه الأندلسي[(٥)] ، وقد أفرده بالتصنيف برهان الدين البقاعي[(٦)] .

وأشار[(٧)] إلى قلة تنبه أهل البلاغة لهذا الفن أو التنبيه عليه .

---

(١) البرهان (١٤٤/٣) ، وفي المطبوع سقطت كلمة "كل" من "كل واحد" .

(٢) ينظر : ن.م.س .

(٣) ينظر : شرح عقود الجمان (ص١٣٣) ومابعدها .

(٤) هو محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي ، الضرير ، وكنيته أبو عبد الله ، من العلماء والأدباء ، من آثاره شرح ألفية ابن مالك وألفية ابن معطي ، وبديعية أسماها الحلة السيرا في مدح خير الورى ، توفي ٦٩٨هـ .
شذرات الذهب (٢٦٨/٦) ، الأعلام (٣٢٨/٥) ، معجم المؤلفين (٢٩٤/٨) .

(٥) هو أحمد بن يوسف بن مالك الرعيني الأندلسي ، أديب ونحوي ، له طراز الحلة وشفاء الغلة على بديعية ابن جابر الضرير وغيرها من المصنفات ، توفي سنة ٧٧٩هـ .
ينظر : الدرر الكامنة (٣٦١/١) ، بغية الوعاة (٤٠٣/١) ، شذرات الذهب (٢٦٠/٦) ومابعدها .

(٦) هو إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي ، عالم في التفسير والحديث ، وأديب ومؤرخ ، توفي سنة ٨٠٩هـ ، من آثاره : نظم الدرر في تناسب الآي والسور ، والأصل الأصيل في تحريم النقل من التوراة والإنجيل ، وله ديوان شعر .
ينظر : الضوء اللامع (١٠١/١) ومابعدها ، شذرات الذهب (٣٣٩/٧) ومابعدها ، معجم المؤلفين (٧١/١) .

(٧) ينظر : شرح عقود الجمان (ص١٣٣) ، الإتقان (١٦٩/٢) .

بل لم ير الباحث فيما اطلع عليه من كتب المتأخرين أي : من بعد السيوطي إلى عصرنا هذا ، ممن[1] أفرد البديع بالتأليف ، من ذكره أو بسط القول فيه سوى مايسمى بالمعجم[2] المفصل في علوم البلاغة من كلام منقول ، وإشارات غير مقنعة.

ويستثنى من ذلك كتب التفاسير التي زخرت بتحليل وتفسير كلام الله الذي لاتنتهي أسراره وعجائبه ، ولادقائقه وروائعه ، وقد طافت على أفانين تلك المسائل ومنها الاحتباك كما سيوضح بالأمثلة .

ولعل ذلك يدفع إلى القول بأن ثمة ضرورة إلى الوقوف على المسائل البلاغية التي أشار إليها المفسرون في ثنايا تفاسيرهم للجمل القرآنية التي بلغت الغاية من البلاغة المعجزة ؛ لأن هذه التفاسير بها من القضايا البلاغية المحررة مالم تقيده كتب البلاغة نفسها ، ناهيك عن تحريرها .

ولعل مانحن بصدده من هذا المبحث مايكون قرينة توضح غوامض مايستبهم أو يستشكل مما يمكن أن يكون دافعا إلى المناداة لإعادة النظر في تحرير قضايا بلاغية من خلال هذا الفن .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[3] .

والتقدير : ويعذب المنافقين إن شاء فلايتوب عليهم ، أو يتوب عليهم فلايعذبهم ، فحذف من الأول "فلايتوب عليهم" لدلالة الثاني "أو يتوب عليهم" ، وحذف من الثاني "فلايعذبهم" لدلالة الأول "ويعذب المنافقين" .

قال صاحب المحرر الوجيز : "وتعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على النفاق إلى موتهم ، والتوبة موازية لتلك الإدامة ، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب ؛ فهما درجتان إقامة على نفاق أو توبة منه ، وعنهما ثمرتان تعذيب ورحمة ، فذكر

---

(١) مثل كتاب "البديع في ضوء أساليب القرآن" للدكتور عبد الفتاح لاشين ، وكتاب "البديع من المعاني والألفاظ" للدكتور عبد العظيم المطعني ، ونحوهما .

(٢) ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة للدكتورة إنعام فوال عكاوي (ص٣٣) ومابعدها ، ولم يذكره الدكتور بدوي طبانة في معجم البلاغة العربية .

(٣) سورة الأحزاب : آية (٢٤) .

تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاتين ، وواحدة من هاتين ، ودل ماذكر على ماترك ذكره ، ويدلك على أن معنى قوله "ليعذب" ليديم على النفاق قوله "إن شاء" ومعادلته بالتوبة وبحرف "أو" ، ولايجوز أحد أن "إن شاء" يصح في تعذيب منافق على نفاقه بل قد حتم الله على نفسه بتعذيبه"[١] .

وعقب الآلوسي على كلام ابن عطية ناقلا كلام أبي حيان الأندلسي بأن هذا الحذف من كلا المتقابلين لدلالة الآخر عليه إنما هو من قبيل الاحتباك فقال : "وكأن ماذكره يؤول إلى أن التقدير : ليقيموا على النفاق فيموتوا عليه إن شاء فيعذبهم أو يتوب عليهم فيرحمهم ، فحذف سبب التعذيب وأثبت المسبب وهو التعذيب ، وأثبت سبب الرحمة والغفران وحذف المسبب وهو الرحمة والغفران وذلك من قبيل الاحتباك"[٢] .

وقد ترك ابن عاشور[٣] الإشارة إلى الاحتباك في هذه الآية الكريمة دون أن يلفت النظر إلى دقائق تركيبها أو معاقد صلات معارفها ، ففاته ماسجله ابن عطية بينما ذكر الاحتباك في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٤] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وفي الآية محسن الاحتباك ، إذا حذف مقابل "من يلقى في النار" وهو : من يدخل الجنة ، وحذف مقابل من "يأتي آمنا" وهو : من يأتي خائفا ، وهم أهل النار"[٥] .

وهذه صورة واضحة جدا لمفهوم الاحتباك عند علامة تونس ، لأنه حذف من كلا المتقابلين مايقابله في الآخر ، وربما يتغير هذا المفهوم لماهية الاحتباك في التحرير والتنوير ، كما ورد ذلك في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[٦] .

---

(١) المحرر الوجيز (٣٧٨/٤) .
(٢) روح المعاني (١٧٣/٢١) ، وينظر : البحر المحيط (٢١٧/٧) .
(٣) ينظر التحرير والتنوير (٣٠٨/٢١) ومابعدها .
(٤) سورة فصلت : آية (٤٠) .
(٥) التحرير والتنوير (٣٠٤/٢٤) ومابعدها .
(٦) سورة البقرة : آية (٢٧٦) .

قال ابن عاشور : "ولما جعل المحق بالربا ، وجعل الإرباء بالصدقات كانت المقابلة مؤذنة بحذف مقابلين آخرين ، والمعنى : يمحق الله الربا ويعاقب عليه ، ويربي الصدقات ويبارك لصاحبها ، على طريقة الاحتباك"[١] .

فالاحتباك عند ابن عاشور من خلال هذا النص له مفهوم آخر جديد يباين ماذكر في التعريف : من أنه حذف من كلا المتقابلين لدلالة الآخر عليه .

لأن التقدير الذي قدره في الآية الكريمة لايدل عليه ماهو في مقابله ، بل أفاد التقدير في كلا الحذفين من معنى الآية الشريفة ، فقدر ذلك ، فعند تقديره للحذف في الأول "ويعاقب عليه" ليس في الثاني من الألفاظ مايدل على هذا المعنى ، وعند تقديره في الثاني "يبارك لصاحبها" ليس في الأول من الألفاظ مايدل على هذا المعنى.

إذن الاحتباك عند ابن عاشور هنا هو الحذف من المتقابلين مطلقا لا لدلالة الآخر عليه .

فتقديره "يعاقب عليه" مفاد من الجملة نفسها "يمحق الله الربا" ، وليس مفادا من مقابله "يربي الصدقات" .

وتقديره "يبارك لصاحبها" مفاد من الجملة نفسها "يربي الصدقات" ، وليس مفادا من مقابله "يمحق الله الربا" .

و لم أر من المفسرين من شارك ابن عاشور هذه الوجهة .

ولربما يكون لتأخر ضبط قواعد هذا الفن وتحرير مسائله ، وتأخر إضافته وقلة التنبه له من البلاغيين أثر في اختلاف وجهات مفاهيم الدارسين له ، ففي تفسير قوله تعالى في سورة براءة : ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[٢] .

التقدير : خلطوا عملا صالحا بسئ وآخر سيئا بصالح ، لأن الخلط يستدعي مخلوطا ومخلوطا به[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣/٩١) .

(٢) سورة التوبة : آية (١٠٢) .

(٣) ينظر : البرهان (١/١٤٧) ، الإتقان (٢/١٧٠) ، شرح عقود الجمان (ص٧٠) .

فيرى صاحب روح المعاني أن مثل هذا التقدير في الآية الشريفة خلاف الظاهر ، وأن كلمة الخلط ـ والعطف بالواو بين المخلوطين وليس بالباء ـ يستلزم أن كلا من المتعاطفين يصح أن يكون مخلوطا ومخلوطا به ، فلاحاجة إلى تقدير الاحتباك وقد أطال النفس في تحرير المسألة(١) .

ورد على أصحاب تقدير الاحتباك قائلا : "وادعى بعضهم أن مافي الآية نوع من البديع يسمى الاحتباك ، والأصل خلطوا عملا صالحا بآخر سئ ، وخلطوا آخر سيئا بعمل صالح ، هو خلاف الظاهر"(٢) .

وفي شرح عقود الجمان(٣) والإتقان(٤) أيضا أن قوله تعالى : ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾(٥) من ألطف الاحتباك .

والتقدير : فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت .

وقد ألحق بالاحتباك ماحذف من أحد المتقابلين لدلالة الآخر عليه ، نحو قوله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(٦) أي : يثبت مايشاء ، فقد قدره طائفة من المفسرين(٧) .

وهو حذف من الثاني لدلالة الأول عليه .

---

(١) ينظر : روح المعاني (١٢/١١) ومابعدها .

(٢) روح المعاني (١٣/١١) .

(٣) ينظر : شرح عقود الجمان (ص١٣٣) .

(٤) ينظر : الإتقان (١٧٠/٢) .

(٥) سورة آل عمران : آية (١٣) .

(٦) سورة الرعد : آية (٣٩) .

(٧) ينظر : تفسير النسفي (٢٥٣/٢) ، غرائب القرآن ، ورغائب الفرقان (١٦٥/٤) ومابعدها ، البحر المحيط (٣٨٧/٥) ومابعدها ، الدر المصون (٢٤٧/٤) ، رد الأذهان إلى معاني القرآن (٣٢٨/١) ، التحرير والتنوير (١٦٥/١٣) .

ومنه قول بشر بن أبي خازم الأسدي[١] :

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة مابقينا في شقاق[٢]

"بغاة" خبر عن "أنا" ، وخبر "أنتم" محذوف لدلالة خبر "أنا" عليها[٣] .

وعكس هذا الضرب ، أن يحذف من الأول لدلالة الثاني عليه وهو أقل من سابقه[٤] ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[٥] أي : إن الله يصلي وملائكته يصلون[٦] . على قراءة من رفع[٧] "ملائكته" .

ومن هذا القسم شعرا قول قيس بن الخطيم[٨] :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف[٩]

---

(١) هو بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي ، شاعر جاهلي وفارس من الفرسان ، توفي في الجاهلية في غزوة أغار بها على بني صعصعة .
ينظر : خزانة الأدب (٤٠٢/٤) ومابعدها ، الأعلام (٥٤/٢) ، مقدمة ديوانه .

(٢) ديوانه (ص١٦٥) .

(٣) ينظر : خزانة الأدب (٣٢٢/١٠) ومابعدها .

(٤) ن.م.س (٣٣٦/١٠) .

(٥) سورة الأحزاب : آية (٥٦) .

(٦) ينظر : الكشاف (٢٧٢/٣) ، البحر المحيط (٢٣٩/٧) ، روح المعاني (٧٧/٢٢) .

(٧) ينظر : البرهان (١٤٩/٣) .

(٨) هو قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي ، يكنى بأبي يزيد ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، شاعر وفارس ، توفي نحو سنة ٢ ق.هـ .
ينظر : جمهرة أشعار العرب (ص٢٤٧) ، معاهد التنصيص (١٩١/١) ، الأعلام (٢٠٥/٥) .

(٩) ملحق الديوان (ص١٧٣) .

والتقدير : نحن بما عندنا راضون ، دل عليه ماذكر في قوله : وأنت بما عندك راض[١] .

وهذان الضربان يعدان ملحقين[٢] بالاحتباك ؛ لأن الحذف بهما من مقابل واحد وليس من كلا المتقابلين .

ولايخفى لطافة هذا الحذف الذي وصفه صاحب البحر المحيط : بالإيجاز الحسن[٣] .

---

(١) ينظر : الخزانة (٣١٨/١٠) .

(٢) ينظر : الإتقان (١٤٩/٣) ومابعدها .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٢١٧/٧) .

الاختزال :

هو نوع من أنواع الحذف يتناول جميع المحذوفات التي تباين ماسبق[١] .

والاختزال أقسام ، لأن المحذوف إما كلمة : اسم أو فعل أو حرف ، أو أكثر[٢] .

وقد حاول صاحب[٣] الإتقان أن يبين صوره التي تنضوي وتندرج تحته باقتضاب لم يخرجه عن دائرة من نقل عنه وهو صاحب[٤] البرهان الذي تفرد بإضافة القول فيه بما لم يتفرد به غيره ، وأكثر من ذكر الآيات القرآنية الكريمة على ماأراد إيضاحه وبيانه .

ويتضح على جهة الإيجاز أن الاختزال يؤول إلى حذفين اثنين ، حذف المفرد وحذف الجملة .

ومافعله السيوطي إنما هو اجتزاء بعض الأمثلة مع ذكر ماذكره الزركشي .

ومايهمني في هذا الصدد أن ألوح إلى أن الاختزال مباين لتلك الأنواع السابقة ، بيد أنه يتناول :

(١) **الاسم** :

نحو قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[٥] والتقدير : هم وقد حذف المسند إليه .

قال ابن عاشور : "وحذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب ، إذا ذكروا موصوفا بأوصاف وأخبار جعلوه كأنه قد عرف للسامع ، فيقولون : فلان أو فتى أو رجل أو نحو ذلك على تقدير : هو فلان ، ومنه قوله تعالى : ﴿جزاء من ربك عطاء حسابا . رب السموات والأرض ومابينهما﴾

---

(١) ينظر : الإتقان (٢/١٧١) .

(٢) ينظر : المعجم المفصل في علوم البلاغة (ص٤١) .

(٣) ينظر : الإتقان (٢/١٧١) ومابعدها .

(٤) ينظر : البرهان (٣/١٥) ومابعدها .

(٥) سورة البقرة : آية (١٨) .

التقدير : هو رب السموات ، عدل عن جعل رب بدلا من ربك ، وقول الحماسي:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولامظهر الشكوى إذا النعل زلت

وسمى السكاكي هذا الحذف : الحذف الذي اتبع فيه الاستعمال الوارد على تركه"[١] .

ومن حذف الاسم أيضا قوله تعالى : ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[٢] والتقدير : هو[٣] .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[٤] أي : فهو يئوس[٥] .

(٢) حذف الفعل ومايلحقه :

نحو قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[٦] والتقدير : نقول لهم : أخرجوا أنفسكم .

قال ابن عاشور : "وجملة "أخرجوا أنفسكم" مقول لقول محذوف ؛ وحذف القول في مثله شائع . والقول على هذا من جانب الله تعالى ، والتقدير : نقول لهم أخرجوا أنفسكم"[٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٣/١) .
(٢) سورة غافر : آية (٢٤) .
(٣) ينظر : تفسير الجلالين (١١/٤) ، حاشية الجمل (١١/٤) .
(٤) سورة فصلت : آية (٤٩) .
(٥) ينظر : روح المعاني (٢٥/٤) ، حاشية الجمل (٤٨/٤) .
(٦) سورة الأنعام : آية (٩٣) .
(٧) التحرير والتنوير (٣٧٩/٧) .

ونحو هذا الحذف قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ﴾[١] والتقدير : فيقال لهم : أكفرتم[٢] .

ومنه أيضا : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾[٣] والتقدير إن استجارك أحد من المشركين[٤] .

(٣) حذف الحرف :

نحو قوله تعالى : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[٥] والتقدير : بغياً على أن ينزل الله .

قال ابن عاشور : "وقوله : "أن ينزل الله" متعلق بقوله "بغيا" بحذف حرف الجر ، وهو حرف الاستعلاء ، لتأويل بغيا بمعنى حسدا"[٦] .

وقد ذكر ابن جني[٧] شرطا لحذف الحرف مع تعليل لطيف ، نقله عنه الزركشي[٨] والسيوطي[٩] فحواه أن الحرف إنما دخل على الكلام للاختصار ، وحذف الحرف اختصار للمختصر ، ويرى ذلك إجحافا ، ومن ثم فلايجوز حذفه إلا لقوة الدلالة عليه .

وكونه يرى أن اختصار المختصر إجحاف فيه نظر ، لايسلم له به ، إذ أنه يمكن أن ينظر إلى مثل هذا الحذف أنه ضرب من البلاغة التي من شأنها الإيجاز الذي هو من أرفع أبواب البلاغة ، ويتفاضل فيه أرباب الكلام ويتنافسون ، دون قصور أو إبهام .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٠٦) .

(٢) ينظر : تفسير الجلالين (١/٣٠٢) ، حاشية الجمل (١/٣٠٢) .

(٣) سورة التوبة : آية (٦) .

(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٨/٥٠) ، تفسير الجلالين (٢/٢٦٦) .

(٥) سورة البقرة : آية (٩٠) .

(٦) التحرير والتنوير (١/٦٠٥) .

(٧) ينظر : المحتسب (١/٥١) ومابعدها .

(٨) ينظر : البرهان (٣/٢٤٧) .

(٩) ينظر : الإتقان (٢/١٧٤) .

وحذف الحرف ماهو إلا إيجاز مفهم الدلالة ، واضح البيان ، وقد ورد في محكم الفرقان ، قال تعالى : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾[١] والتقدير : يايوسف[٢] ، ونحو قوله تعالى : ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ﴾[٣] والتقدير : لاتفتأ[٤] .

أما حذف الجملة فهو يشمل أمرين حذف جملة أو حذف أكثر من جملة .

فمن الأول قوله تعالى : ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[٥] والتقدير : فضرب فانفجرت .

قال ابن عاشور : "والفاء في قوله "فانفجرت" قالوا : هي فاء الفصيحة ، ومعنى فاء الفصيحة ، أنها الفاء العاطفة إذا لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفا على المذكور قبلها ، فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون مابعد الفاء معطوفا عليه ، وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثلى"[٦] .

ثم بين أن هناك أقوالا أخرى في هذه الفاء ، فأشار إليها بقوله : "وقيل إنها التي تدل على محذوف قبلها فإن كان شرطا فالفاء فاء الجواب ، وإن كان مفردا فالفاء عاطفة ويشملها اسم فاء الفصيحة ، وهذه طريقة الجمهور على الوجهين ، فتسميتها بالفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف ، والتقدير في مثل هذا فضرب فانفجرت ، وفي مثل قول عباس بن الأحنف :

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ... ثم القفول فقد جئنا خراسانا

أي : إن كان القفول بعد الوصول إلى خراسان فقد جئنا خراسان ، أي : فلنقفل فقد جئنا"[٧] .

---

(١) سورة يوسف : آية (٢٩) .
(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٩/١١٥) ، تفسير النسفي (٢/٢١٩) .
(٣) سورة يوسف : آية (٨٥) .
(٤) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٩/١٦٣) ومابعدها ، تفسير النسفي (٢/٢٣٤) .
(٥) سورة البقرة : آية (٦٠) .
(٦) التحرير والتنوير (١/٥١٨) ومابعدها .
(٧) التحرير والتنوير (١/٥١٨) ومابعدها .

ومما عدوه أيضا من حذف الجملة قوله تعالى : ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾[١] والتقدير : فعل مافعل ليحق الحق ويبطل الباطل[٢] .

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٣] .

فقد حذفت جمل كثيرة .

قال ابن عاشور : "وقوله "ومن يبدل نعمة الله" تذييل لجملة "سل بني إسرائيل كم آتيناهم" الخ . أفاد أن المقصود أولا من هذا الوعيد هم بنو إسرائيل المتحدث عنهم بقوله : سل بني إسرائيل ، وأفاد أن بني إسرائيل قد بدلوا نعمة الله تعالى فدل ذلك على أن الآيات التي أوتيها بنو إسرائيل هي نعم عليهم ، وإلا لما كان لتذييل خبرهم بحكم من يبدل نعم الله مناسبة ، وهذا مما يقصده البلغاء ، فيغني مثله في الكلام عن ذكر جمل كثيرة إيجازا بديعا من إيجاز الحذف وإيجاز القصر معا لأنه يفيد مفاد أن يقال : كم آتيناهم من آية بينة هي نعمة عليهم فلم يقدروها حق قدرها ، فبدلوا نعمة الله بضدها بعد ظهورها واستحقوا العقاب ، لأن من يبدل نعمة الله فالله معاقبه"[٤] .

ومن حذف الجمل أيضا قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾[٥] فقد حذفت جمل كثيرة ، نحو : الرضا بالملك ومجئ التابوت ، وتجنيد الجنود[٦] .

وأظهر مايكون الحذف للجمل في سورة يوسف ، نحو قوله تعالى : ﴿فَأَرْسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[٧] فحذفت جمل كثيرة نحو ، فأرسلوه فذهب إلى يوسف ، ولما جاءه قال له : يايوسف[٨] .

---

(١) سورة الأنفال : آية (٨) .
(٢) ينظر : الكشاف (١٤٥/٢) ، تفسير أبي السعود (٧/٤) .
(٣) سورة البقرة : آية (٢١١) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٩١/٢) .
(٥) سورة البقرة : آية (٢٤٩) .
(٦) ينظر : المحرر الوجيز (٣٣٤/١) ، نظم الدرر (٤٧٦/١) .
(٧) سورة يوسف : آية (٤٥،٤٦) .
(٨) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣٣/٩) ، تفسير النسفي (٢٢٤/٢) .

مواقع الحذف

بعد تفصيل القول في تعريف الحذف وشرطه وحسنه وأنواعه يسلمنا البحث إلى الوقوف على مواقع الحذف في الجملة القرآنية الكريمة .

لأن مما قرره النحاة أن الجملة يكون بها من الكلمات مالايمكن الاستغناء عنه لأنه ركيزة من ركائز بنائها ، ودعامة من دعاماتها ، ونعتوه بنعت فيه هذه الفحوى وتلك الدلالة وهو "العمدة" .

وذلك النعت له مقابل آخر ، يضاده في المعنى ، ويقابله في التضاد ، وهي أيضا كلمات تكون في الجملة لها حظ في بنائها ، يمكن أن يستغنى عنها ، ويتخلى منها في أصل تركيب الجملة ، توسم بـ"الفضلة" .

والبلاغة تختلف مع النحو في هذه الرؤية ، فتنظر إلى عناصر الجملة نظرة أخرى وفق مايتواءم مع طبيعة مفهومها ، لأن لها ذاتيتها المتأصلة ، وكيانها الخاص بها .

فترى مايسميه النحاة فضلة عمدة في مقامات تتطلبه نحو قولك : مسرعا جئت ، في انصباب الاهتمام والعناية على حالة المجئ لاعلى المجئ نفسه ، ومن هذا السبيل الظرف "يوم" في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[2] .

إذ أن الظرف في هاتين الآيتين الكريمتين هو محل العناية والاهتمام ، ولأجل ذلك قدم ، ولايمكن الاستغناء عنه بأي حال من الأحوال باعتبار أنه فضلة .

وقد تحذف البلاغة مايسميه النحاة عمدة ، إذ لاغرض من ذكره في ذلك المقام ، بل الغرض البلاغي يتعلق بالاستغناء عنه والتخلي منه ، نحو حذف المسند

---

(١) سورة المائدة : آية (١٠٩) ، ينظر : الكشاف (٦٥٢/١) ، التحرير والتنوير (٩٨/٧) ومابعدها .

(٢) سورة آل عمران : آية (٣٠) . وينظر : الكشاف (٤٢٣/١) ، التحرير والتنوير (٢٢٣/٣) .

إليه ، أي الفاعل في قوله تعالى : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ﴾(١) فحذف فاعل "يعرضون" وأقيم المفعول نائبا عنه .

وعليه فإن مواطن الحذف البلاغية تتناول غالب أجزاء الجملة القرآنية على وجه الإجمال .

ويمكن تقسيم أسلوب الحذف مطلقا بها إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

ماتفق الطاهر والعلماء على وقوعه في الجملة القرآنية .

وقد رأيت السيوطي يحاول نظم تلك المواطن في منظومته ، مما يحسن إيرادها في هذا المقام ، فيقول :

والثان ذو الحذف فما قد حذفا ... مضاف أو موصوف أو ماوصفا

أو شرط أو جوابه خصر عني ... أو يذهب السامع كل ممكن

قلت وموصول ووصل وكذا ... جزا إضافة وثانيها خذا

وذو تعلق مع المجرور ... والعطف والمعطوف والتفسير

والحال والمبدل والمستثنى ... وجزء كلمة وحرف معنى

أو جملة مسببا أو سببا ... كقوله فانفجرت أي ضربا

أو فوقها فأرسلون يوسف

فالحذف يتناول(٢) المبتدأ نحو قوله تعالى : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾(٣) .

---

(١) سورة الشورى : آية (٤٥) . ينظر : روح المعاني (٢٥/٥١) ، التحرير والتنوير (٢٥/١٢٦) .

(٢) ينظر : عروس الأفراح (٣/٢٠٠) ومابعدها ، البرهان (٣/١٥١) ومابعدها ، الإتقان (٢/١٧١) ومابعدها ، شرح عقود الجمان (ص٦٩) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٨) . ينظر: التحرير والتنوير (١/٣١٣) .

والخبر نحو قوله تعالى : ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾[١] .
والفاعل نحو قوله تعالى : ﴿لا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[٢] أي : دعائه الخير .
والمضاف نحو قوله تعالى : ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ﴾[٣] .
والمضاف إليه نحو قوله تعالى : ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[٤] .
والمجرور بالحرف ـ وقد سبق ذكره[٥] في الاحتباك ـ كقوله تعالى : ﴿خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾[٦] .
والموصوف نحو قوله تعالى : ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾[٧] .
والصفة نحو قوله تعالى : ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾[٨] أي : صالحة .
والمعطوف ـ وقد سبق ذكره[٩] في الاكتفاء ـ نحو قوله تعالى : ﴿لايَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾[١٠] أي : ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل .
والمعطوف عليه نحو قوله تعالى : ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[١١] والتقدير : فضرب فانفجرت .

---

(١) سورة الشعراء : آية (٥٠) . ينظر : التحرير والتنوير (١٩/١٢٨) .
(٢) سورة فصلت : آية (٤٩) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٥/١٠) .
(٣) سورة يوسف : آية (٨٢) ، وقد عد هذه الآية من المجاز المرسل . ينظر : التحرير والتنوير (١٣/٤٠) ، ومن حذف المضاف قوله تعالى : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي : حب العجل . ينظر : التحرير والتنوير (١/٦١١) .
(٤) سورة الروم : آية (٤) . ينظر : التحرير والتنوير (٢١/٤٦) .
(٥) ينظر (ص٢٣٨) .
(٦) سورة التوبة : آية (١٠٢) ، ومما ذكره قوله تعالى : ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ سورة البقرة : آية (٢٧٦) ، فحذف "ويبارك لصاحبها" ، عند تقديره محسن الاحتباك : "يربي الصدقات ويبارك لصاحبها" . ينظر : التحرير والتنوير (٣/٩١) .
(٧) سورة النازعات : آية (١) . ينظر : التحرير والتنوير (٣٠/٦١) .
(٨) سورة الكهف : آية (٧٩) . ينظر : التحرير والتنوير (١٦/١٢) .
(٩) سورة الحديد : آية (١٠) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٧/٣٧٥) .
(١٠) سورة البقرة : آية (٦٠) . ينظر : التحرير والتنوير (١/٥١٨) .

والموصول نحو قوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾[١] أي : أن يريكم البرق .

والمخصوص بالمدح في باب نعم نحو قوله تعالى : ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾[٢] أي : نحن .

والحال نحو قوله تعالى : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ﴾[٣] أي : قائلين : سلام .

والضمير نحو قوله تعالى : ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا﴾[٤] أي : بعثه .

وحرف النداء ، وحذفه كثير نحو قوله تعالى : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾[٥] .

وحرف الشرط نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾[٦] والتقدير : إن اتخذتم .

وجواب الشرط نحو قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[٧] .

وجواب القسم : ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[٨] والتقدير : إنه لمعجز .

والجملة نحو قوله تعالى : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[٩] التقدير : فترصد مليا فطوعت .

---

(١) سورة الروم : آية (٢٤) . وينظر : التحرير والتنوير (٧٨/٢١) .

(٢) سورة المرسلات : آية (٢٣) . وينظر : التحرير والتنوير (٤٣٢/٢٩) .

(٣) سورة الرعد : آية (٢٣-٢٤) . وينظر : التحرير والتنوير (١٣٢/١٣) .

(٤) سورة الفرقان : آية (٤١) . وينظر : التحرير والتنوير (٣٢/١٩) .

(٥) سورة يوسف : آية (٤٦) . وينظر : التحرير والتنوير (٢٨٤/١٢) .

(٦) سورة البقرة : آية (٨٠) ، وقد أشكل الأمر على الأستاذ مصطفى عبد القادر عطا عندما أثبت في البرهان للزركشي (٢١٣/٣) ، آية سورة الحج وهي قوله تعالى : ﴿ولن يخلف الله وعده﴾ سورة الحج : آية (٤٧) ، وليس فيها حذف حرف الشرط المنقول عن الزمخشري ، وإنما الصواب هي آية سورة البقرة التي أثبتها . ينظر : الكشاف (٢٩٢/١) . وينظر : التحرير والتنوير (٥٨٠/١) .

(٧) سورة الرعد : آية (٣١) . ينظر : التحرير والتنوير (١٤٣/١٣) .

(٨) سورة ص : آية (١) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٠٣/٢٣) ومابعدها .

(٩) سورة المائدة : آية (٣٠) . ينظر : التحرير والتنوير (١٧٢/٦) .

والجمل نحو قوله تعالى : ﴿فَأَرْسِلُونِي يُوسُفُ﴾[١] وقد سبق قريبا .

القسم الثاني :

ماختلف الطاهر والعلماء على وقوعه في الجملة القرآنية .

وهذا القسم يمكن القول بأنه ينضوي تحت ثلاثة أضرب :

الأول : حذف المبدل منه وذكر البدل .

والجملة القرآنية التي ورد فيها هذا الاحتمال أو الوجه الإعرابي هي قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾[٢] على أن يكون "الكذب" بدلا ، والمبدل منه محذوفا وهو العائد لاسم الموصول "ما" في قوله "لما تصف ألسنتكم" .

وقد ذكر هذا الوجه الإعرابي صاحب إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في القرآن[٣] .

وذكره أبو حيان[٤] والسمين الحلبي[٥] ونسباه إلى أبي البقاء والحوفي ، ونقل ذلك عنهم الألوسي[٦] .

ولم يذكر الطاهر هذا الإعراب ولم يعرج عليه ، بل ذكر أن "الكذب" منصوب على أنه مفعول مطلق لـ"تصف" ، أي : وصفا كذبا ، ومقول القول هي جملة "هذا حلال وهذا حرام" ، وتكون اللام في "لما" بمعنى "عن" ويكون المعنى : لاتقولوا : هذا حلال وهذا حرام ، عن الذي تصفه ألسنتكم وصفا كذبا[٧] .

---

(١) سورة يوسف : آية (٤٥-٤٦) . ينظر : التحرير والتنوير (٢٨٤/١٢) .

(٢) سورة النحل : آية (١١٦) .

(٣) ينظر : إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في القرآن (٨٦/٢) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٥٢٦/٥) ومابعدها .

(٥) ينظر : الدر المصون (٣٦٤/٤) ومابعدها .

(٦) ينظر : روح المعاني (٢٤٦/١٤) ومابعدها .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير (٣١١/١٤) .

وبقي ثلاثة أوجه إعرابية[١] في هذه الجملة القرآنية ليس فيها هذا الإشكال .

(١) أن يكون "الكذب" منصوبا على أنه مفعول به لـ"تصف" ، و"ما" مصدرية "هذا حلال وهذا حرام" مقول للقول ، ويكون المعنى : لاتحللوا ولاتحرموا لأجل ماتنطق به ألسنتكم من غير حجة .

(٢) أن يكون "الكذب" منصوبا على أنه مفعول به لـ"تقولوا" ، ويكون قوله "هذا حلال وهذا حرام" بدلا من "الكذب" ، ويكون المعنى : لاتقولوا الكذب لوصف ألسنتكم .

(٣) أن يكون "الكذب" منصوبا بفعل محذوف تقديره : أعني ، وهذا وجه ضعيف جدا مما جعل السمين الحلبي يقول عنه : "ولاحاجة إليه ، ولامعنى عليه"[٢] .

الثاني : وصف المصدر المنسبك .

والجملة القرآنية التي ورد فيها هذا الوجه هي الجملة القرآنية السابقة آية سورة النحل : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾[٣] على قراءة من قرأ بخفض "الكذب" ، باعتبار أن يكون نعتا لـ"ماتصف ألسنتكم" ، فيكون التقدير : لاتقولوا لوصف ألسنتكم الكذب .

وقد ذكر هذا الوجه الزمخشري إذ قال : "وقرئ "الكذب" بالجر صفة لما المصدرية ، كأنه قيل : لوصفها الكذب بمعنى الكاذب ، كقوله تعالى : ﴿بدم كذب﴾ ..."[٤] .

وقد رد أبو حيان هذا الإعراب فقال : "وهذا عندي لايجوز ، وذلك أنهم نصوا على أن "أن" المصدرية لاينعت المصدر المنسبك منها ومن الفعل ، ولايوجد

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٥٢٦/٥) ، الدر المصون (٣٦٤/٤) ومابعدها ، روح المعاني (٢٤٦/١٤) .

(٢) الدر المصون (٣٦٤/٤) .

(٣) سورة النحل : آية (١١٦) .

(٤) الكشاف (٤٣٣/٢) .

في كلامهم : يعجبني أن قمت السريع ، يريد : قيامك السريع ، ولاعجبت من أن تخرج السريع ، أي : من خروجك السريع ..." [١] .

والإعراب الظاهر في هذه الجملة القرآنية على قراءة الجر ، يكون "الكذب" بدلا من الموصول المجرور "لما تصف ألسنتكم" [٢] .

الثالث : حذف الفاء الواقعة في جواب الشرط .

وقد خرج ابن عطية على حذف الفاء قوله تعالى : ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [٣] .

والتقدير : فالوصية ، بحذف الفاء وهو جواب الشرط [٤] .

بينما لم يذكر الطاهر عن هذا الحذف شيئا .

وقد ناقشه في ذلك العلامة أبو حيان الأندلسي [٥] ، ورد على ابن عطية كلامه من عدة وجوه ، ليس هذا المقام مقامها ، لأن ضعف هذا الوجه ظاهر .

القسم الثالث :

ماصح من الحذف عربية ، ولم يقع في الجملة القرآنية [٦] .

وهذا القسم في حقيقة أمره ضربان :

(١) التمييز المحذوف نحو قولك : كم سرت؟ أي ميلا .

(٢) المستثنى المحذوف ، نحو قولك : قبضت عشرة ليس إلا .

---

(١) البحر المحيط (٥/٥٢٦) ومابعدها .

(٢) ينظر : الدر المصون (٤/٣٦٤) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٨٠) .

(٤) ينظر : المحرر الوجيز (١/٢٤٧) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (٢/٢٣) ومابعدها .

(٦) ينظر : عروس الأفراح (٣/٢٠١) ، شرح عقود الجمان (ص٧٠) .

وهـذا الحـذف وإن صـح وقوعـه في اللسـان العربـي ، و لم يخـالف القواعــد النحوية إلا أنه لم يقع في الجملة القرآنية .

و لم أر في تحرير الطاهر وتنويره ، ولافي كتب التفاسير الأخـرى ولافي كتـب أعاريب القرآن ، ولافي الكتب النحوية من يذكر وقوع مثل هذا القسم في القرآن .

وبعد هذا الإيراد لمواطن الحذف آن بسط القول في أغراض الحذف ودواعيه.

الفصل الثاني

أغراض الحذف ودواعيه

أغراض الحذف ودواعيه

اعتاد بعض الباحثين في هذا الحقل أن يتابع طريقة مقعدي هذا الفن في التأليف ، على التباين البين في نهج التناول ، واختلاف الطروحات ، ونظام الموضوعات التي يطرقونها .

بمعنى أنهم عند دراستهم لظاهرة بلاغية معينة ، كالحذف مثلا ، فإنهم يؤثرون نقل معرفة من سبقهم ، والسير على خطاهم ، حتى في التبويب والترتيب ، دون أن يعنوا أنفسهم جهد البحث في إظهار خصوصية عملهم باستحداث تقسيم يجمع النظائر جنبا إلى جنب ، ويحاول تيسير ماستصعب ، وتوضيح ماستشكل .

فيذكر أولاء في الحذف ماذكره أولئك فيه ، من حذف المسند إليه ، والمسند ومتعلقات الفعل ، وإيجاز الحذف .

بل يعقد بعضهم بابا خاصا للحذف ، ولايذكر فيه إيجاز الحذف كما فعل ذلك الدكتور فضل حسن عباس في كتاب البلاغة فنونها وأفنانها[(١)] .

ولعل منهج التلخيص يكرر نفسه في كتب كثيرة ، حتى في الآيات القرآنية والشواهد الشعرية ، فلاتكاد تتبين وجه الإضافة أو فضل الكتاب ، إلا فيما يعدو من إطالة نفس في الشرح ، أو إكثار من الأمثلة .

قال الدكتور عبد العزيز عتيق واصفا كتابه علم المعاني بأنه : "يشتمل على دراسة تفصيلية لمباحث علم المعاني ، وفنونه ، مع الإكثار من الأمثلة والشواهد التي توضحها ، وتيسرها للطالبين"[(٢)] .

وعلى الشاكلة نفسها وبأكثر إسهاب ، وأزيد بسط ، ترى كتاب "من بلاغة النظم العربي"[(٣)] .

ولاأود استقصاء شواهد هذا النهج في التأليف الذي أنفذ منه إلى أن تشكيل الباحث هيكل بحثه وهيئته بما يتلاءم مع طبيعة موضوعه وإن خالف فيه الأسلاف

---

(١) ينظر البلاغة فنونها وأفنانها (ص٢٤٧) ومابعدها .

(٢) علم المعاني (ص٥) .

(٣) كتاب "من بلاغة النظم العربي" للدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، دراسة تحليلية لعلم المعاني في جزءين .

يعد تميزا وإضافة لها مشربها الخاص ومذاقها ، وتحسب له . كما تعد في الوقت نفسه ضربا من الولاء لهذا الإرث العظيم .

لذا فإني سأتناول أغراض الحذف مباينا ماذكره البلاغيون من تقسيمات ومفردا خاتمة هذاالمبحث بدراسة تتناول أغراض حذف المفعول ، لأن له من النكات البلاغية والأسرار البيانية مالايشركه فيه غيره .

أما بقية المواطن في الحذف ، فقد يكون الداعي في هذا الموطن هو الداعي في الآخر ، لأنه لايلزم تفرد كل موطن بدواع تخصه دون غيره .

والدواعي إنما هي الأسباب المرجحة للحذف على الذكر ، لأنها من اللطائف التي تكون من مزايا التفاضل بين كلام وآخر .

ولايفهم من توقف البلاغيين عند تلك الدواعي للحذف والأغراض المقيدة في مؤلفاتهم أن تلك كلها جميع دواعي الحذف ، وإنما هي إشارة إلىأهم الأغراض التي يحسن بالدارس التعرف عليها ، والنظر فيها ، والنفاذ من خلال طريقها إلى غيرها مما تساعد عليه القرائن الحالية والمقالية ، ويستشفه الذوق السليم والحس المرهف .

لأن الأغراض البلاغية تتجدد بتجدد النصوص التي تتباين مراتبها البلاغية ، وقدرة منشئيها على مرامي مقاصد الكلام البليغ في إدراكهم لها ، وتسجيلهم إياها.

إضافة إلى أن المقامات التي ترد فيها تلك الأغراض متعددة أيضا بتعدد الأحوال الداعية لها .

وحري بنا أن نستحث خطا المعرفة في إدراك طبيعة هذا الفن وماهيته التي تسمق بالعقل إلى مشاركته شفافية النفس ورهافة ذوقها في استجلاء أغراض لاتخضع للتقعيدات المنطقية المحضة ، ولاالحدود الصورية البحتة ، اللتين تنأيان بالجمال الفني الأخاذ المغروس في طبيعتها إلى فصله عنها .

ومالايمكن تغافله أو غض الطرف عنه أن ظلال الإيحاءات المنبعثة في النفس وأصدائها من خلال إدراكها لملامح الجمال الفني في النصوص ، وتفاعلها الطبيعي المكثف ليس في المقدور حصر دقائقه وخلجاته وإنما رصد جوانب حركاته .

قال الإمام عبد القاهر ـ في مقدمة حديثه عن الحذف وثنائه عليه ـــ : "وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر"[١] .

فأحال إلى الخبرة وهي أمر نفسي ذوقي ينمى عن طريق الدربة والمران ، وتختص به النفس بالدرجة الأولى في إدراكها لدقائق لم تكن تعرفها أو تقف عليها من الوهلة الأولى ، وإنما بإدامة التأمل وإنعام النظر .

ومما يعضد ماأنا بصدده مايكثر في أسلوب الإمام من إحالته إلى نفس المخاطب وذوقه ، وأظهر مايكون ذاك في كاف الخطاب الزاخر به أسلوبه نحو : "فإنك ترى به ترك الذكر ، أفصح من الذكر ، ... وتجدك أنطق ماتكون إذا لم تنطق"[٢] .

فاهتمام الإمام عبد القاهر بالذوق النفسي للمخاطب يستدعي أن إدراك أسرار البلاغة وأغراضها يمكن أن تتفاوت فيه حظوظ الأذواق باختلاف طبائعها وخبراتها في استظهار مايكمن من خفايا النصوص .

ولاغرو أن تعدد القراءات من قبل الدارسين والباحثين على النص الواحد لاستنطاق كل منهم دلالات النص وإيحاءاته ، وحقائقه وإلماحاته ، بما أوتوا من مبلغ الفهم وطاقة التدبر ، ليكشف أثر الحس الأدبي الشخصي الذي يظهر في وضوح وجوه الإضافات ، وظهور دقائق الزيادات ، وبروز مرامي التوجهات ، وتباين طرق المعالجة والتوجيهات ، مما ينسب كل دراسة لصاحبها ، ويثري قرائح الأفهام ويقدح أوار الإفهام .

وماالتفاسير البيانية المتعددة لآيات الكتاب المجيد الذي لاتنقضي عجائبه ولايشبع منه العلماء إلا قرائن عاضدة لوجهة صحيحة .

بل إذا تنزلنا إلى كلام البشر الذين يماثلوننا في التكوين نلمس في بلاغة شعرهم أو نثرهم من الأغراض مايستحق القراءات المتعددة التي تكشف في كل منها مخبآت ودقائق تشد الألباب وتشحذها .

---

(١) دلائل الإعجاز (ص١٤٦) .

(٢) دلائل الإعجاز (ص١٤٦) .

ومن تلك الأنماط شروح[١] ديوان المتنبي التي توحي بأن الأغراض البلاغية والمقاصد البيانية تتضافر على استظهارها مع العقل النفس المرهفة والحس الأدبي والدربة أو كما سماها الإمام عبد القاهر[٢] الخبرة بالبيان العربي وأساليب الاستعمال.

وبهذا يمكن القول بأن أسرار الحذف وأغراضه لايمكن حصرها بمعيارية علمية ، ولابحدود منطقية يستوي فيهما العربي وغيره دون تمايز بأدوات بيانية مكتسبة ، أو مؤهلات بلاغية وهبية .

يقول الدكتور/طالب محمد الزوبعي : "فهل من البلاغة والفن البليغ أن نحصر هذه الظاهرة اللغوية في رسوم محددة وتقعيدات نزعم فيها أن الحذف ـ هنا ـ لكذا ، والحذف ـ هنا ـ لذاك"[٣] .

وهو بهذا المفهوم يوافق الدكتور رجاء عيد فيما ذهب إليه من أنه "لايمكن ـ فنيا ـ حصر مواضع هذا الحذف ، لأنها ليست تقعيدا منطقيا مقننا ، وإنما هي مواقف فنية ندركها من الموقف كله ، فقد تكون هناك أغراض أعمق وأدق من تلك التي حصرها البلاغيون ، وعلينا أن نستشف العطاء الفني لنسق التركيب من داخل العمل نفسه ، ومن بنيته الفنية الخاصة به"[٤] .

وربما كان التوافق مع الدكتور في صدر كلامه الذي يشير فيه إلى امتناع حصر أغراض الحذف لايغفل تجوزه في قوله : "من تلك التي حصرها البلاغيون" ولاأقول تقوله على البلاغيين ، لأني ألتمس له مالم يلتمسه غيري لأولئك العلماء الذين جهدوا في البحث عن المعرفة وسع طاقتهم . فأبدعوا بتأصيل علم لهم قصب السبق إليه ، وشرف الريادة فيه ، وقدم صدق راسخة في مسائله وخوافيه ولسان حالهم يطالبون من ورد على حياضه ، ووقف على رياضه ، من مقتفين الأثر ،

---

(١) فقد تعاور على شرح ديوان المتنبي أكثر من أربعين شارحا . ينظر : كشف الظنون (٨٠٩/١) ومابعدها .

(٢) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٤٦) .

(٣) علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين (ص٢٤٥) .

(٤) فلسفة البلاغة (ص٨١) .

والعاشقين لنفائس الدرر ، أن يضيفوا ولو لبنة إلى البناء الذي بنوه ، وإلى الهرم الذي أشادوه ، دون الطعن في أشخاصهم ، أو القدح في إحساسهم ، ببيان التماس الأعذار لمن زلت قدمه ، أو هفا قلمه ، دون استخفاف وهمز ، أو تجريح ولمز ، كما هو دأب العلماء وطلبة العلم الجادين ، المستنزفين زهرة حياتهم ، وثمين أوقاتهم في البحث والطلب ، المقدرين للسابقين سبقهم ، وللمجتهدين جهدهم ، وللعلماء قدرهم ، الموضحين الصواب بأبين عبارة ، والمنبهين على الخطأ بألطف إشارة ، دون الاعتقاد بصحة جميع مايتكلمون به ، أو يرونه .

لأن إعجاب المرء برأيه ، وتضخيمه لنفسه إنما ذلك دأب من قلت بضاعته ، ونكست رايته ، وخدعته نفسه ، وحجبت عن الظهور شمسه ، فسلك ذلك السبيل بلا دليل ، فوقع في شر مما فر منه ، وقد يؤتى الحذر من مأمنه .

ولست أعرض بذات معينة ، ولكني أحذر من سلوك الميسرة وترك الميمنة ، وقد سبق القلم فيه اللسان ، وسجل ماليس موضعه هذا المقام ، للدفاع عن حرمة العلماء الذين ضمتهم المقابر ، وفقدوا الطروس والمحابر ، فأصبحوا أهدافا على مر العصور ، لمن ابتلوا برمي الآخرين بالقصور .

ولعل تطبيق منهج أولاء العلماء على عبارة الدكتور "من تلك التي حصرها البلاغيون" يدفعني للقول بأنه أراد بالحصر هنا مجرد ذكرهم لها ، لأنهم ذكروها ولم يحصروها وعباراتهم جلية في أنهم لم يريدوا الحصر ، كقولهم ـ بعد تعداد بعض أغراض الحذف ـ "أو نحو ذلك"(١) ، وأصرح من ذلك قول صاحب الإيضاح : "وإما لاعتبار آخر مناسب لايهدى إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم"(٢) .

حتى قيد من جاء بعدهم ـ ممن صنف في البلاغة ـ هذا الأمر الواضح عنهم ، فقال ـ بعد سرده للأغراض ـ : "ومرجع ذلك إلى الذوق الأدبي ، فهو الذي يوحي إليك بما في القول من بلاغة وحسن بيان"(٣) ، وقال غيره : "يحذف المسند إليه

---

(١) شروح التلخيص (١/٢٨٠) .

(٢) الإيضاح (ص١٠٩) .

(٣) جواهر البلاغة (ص١٠٢) .

لأغراض من أهمها"[١] ، "يحذف المسند لأغراض منها"[٢] .

وعليه فإن الأغراض البلاغية لم يقل أحد من البلاغيين ـ فيما أعلم ـ بحصرها لأنها ولائد للمقامات والمواقف والمقاصد والمرامي ولطائف النفس وانفعالاتها وتعبيراتها وشفافيتها وإلماحاتها وتصريحاتها وكل مايمكن قراءته من خواطر عبر لغتها.

وسأحاول ـ بإذن الله ــ أن أذكر أنماطا متعددة من الأغراض البلاغية في الحذف التي أشار إليها العلامة الطاهر ابن عاشور في تفسيره .

وقبل البدء في ذكرها وإيرادها ، والشروع في تحليلها وتعدادها ، أتباصر بمزايا تكون في تلك الأغراض جميعها ، دون المقاصد الفردية لكل غرض ، وقد أشار إليها أستاذنا الدكتور محمد أبو موسى إذ قال ــ عند حذف المسند ــ : "وحذف المسند عند قيام القرينة يفيد ثلاث مزايا هامة ـ هي التي ذكرناها في صدر الحديث عن حذف المسند إليه ــ أعني : وجازة العبارة وامتلاءها ثم ترويقها وتصفيتها ، وصيانتها من التمدد الثقيل ، ثم بناءها على إثارة الحس والفكر حين تعول على النفس والخيال في ملء جزء المعنى الذي لم يذكر لفظ دال عليه"[٣] .

والاعتبارات الثلاثة في حد ذاتها إنما هي أغراض تعم مطلق الحذف ، وقد رأيت في كتب[٤] البلاغة وحواشيها[٥] إشارة إلى المزية الأولى وهي وجازة العبارة أو اختصارها وقد جعلوها اعتبارا واردا في أغراض الحذف سواء كانت مقصودة في الكلام أو غير مقصودة .

أما المزيتان الأخريان فإن الحذف يضفي على الكلام صفاء ورونقا بإطراح مادلت عليه القرينة وأمكن الاستغناء عن ذكره لأجل أن يوقظ الذهن ويثير الحس ويحرك الفكر لمعرفة ماألقي من الكلام من خلال مابقي .

---

(١) علوم البلاغة (ص٨٣) .

(٢) ن.م.س (ص٨٥) .

(٣) خصائص التراكيب (ص٢١٣) .

(٤) ينظر : شروح التلخيص (١٤١/٢) .

(٥) ينظر : الحواشي والنكات والفوائد المحررات لوحة ١٣٩ ومابعدها ، حاشية الصبان مع تقرير الانبابي (١٩/٣) ومابعدها ، حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (١٤١/٢) .

ومن أغراض الحذف التي حفل برصدها والإشارة إليها التحرير والتنوير :
أن يكون الحذف لأجل كثرة الاستعمال ، نحو قوله تعالى : ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وتعليق الجعل بالذات هنا هو على معنى التعليق بالاسم ، فالتقدير : ولاتجعلوا اسم الله ، وحذف لكثرة الاستعمال في مثله عند قيام القرينة ، لظهور عدم صحة تعلق الفعل بالمسمى كقول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

أي :وليس بعد اسم الله للمرء مذهب للحلف"[(٢)] .

وقد كثر حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه حتى نقل البرهان[(٣)] عن الخصائص[(٤)] أنه بلغ في القرآن ألف حذف .

وتعليق الفعل الذي هو "لاتجعلوا" يقوم قرينة على أن المراد تقدير مضاف محذوف لعدم استقامة المعنى إلا به .

وقد ذكر ابن عاشور أيضا بيت النابغة الذبياني مستأنسا به على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، ولكن الحذف لم يقع بتعليق الفعل وإنما وقع بين المتضايفات الثلاثة فحذف ثانيها "اسم" ، والتقدير كما قدره ابن عاشور : وليس بعد اسم الله مذهب وهذا حذف شائع في اللسان العربي .

ومن الحذف أيضا لكثرة الاستعمال أن يحذف المتعلق ـ بصيغة اسم الفاعل ـ وهو الجار والمجرور لظهور القرينة على تقديره ، نحو قول الله سبحانه وتعالى : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٢٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٧٦/٢) .

(٣) ينظر : البرهان (١٦٥/٣) .

(٤) لم أره في الخصائص ، وماذكره أن حذف المضاف فيه ضرب من الاتساع . الخصائص (٣٦٢/٢) .

(٥) سورة المائدة : آية (٦٠) .

فصيغة "مثوبة" صيغة مصدر ميمي ، متعلق بها جار ومجرور محذوف تقديره "بها" .

قال ابن عاشور : "والمثوبة مشتقة من ثاب يثوب أي : رجع ، فهي بوزن مفعولة سمي بها الشئ الذي يثوب به المرء إلى منزله إذا نال جزاء عن عمل عمله أو سعى سعاه ، وأصلها مثوب بها ، اعتبروا فيها التأنيث على تأويلها بالعطية أو الجائزة ، ثم حذف المتعلق لكثرة الاستعمال"[١] .

والذي يلحظ في هذا أن الحذف إنما كان في الصيغة نفسها ، وليس من أجل تركيبها في الجملة .

وهذا يدل على أن اللغة العربية ذاتها تميل إلى الوجازة وإطراح مايمكن الاستغناء عنه لقيام القرينة عليه ، ولو كان في جانب آخر غير جانب التركيب .

ومن أغراض الحذف أيضا العموم الذي يقوم فيه الحذف بإفادة ماتفيده صيغ العموم في الذكر وهو سبيل من سبل دقة هذا اللسان العربي المبين وأسراره التي تتجلى بصورة أشد وضوحا في الجملة القرآنية .

ففي قول الله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢] .

فإن صيغة الأمر "أحسنوا" قد حذف منها المتعلق سواء كان مفعولا ، نحو أحسنوا الظن بالله ، أو كان مجرورا نحو : أحسنوا في أعمالكم ، لتفيد ذين المعنيين وأبعد منهما . وهو مطلق الإحسان .

قال ابن عاشور : "وفي حذف متعلق أحسنوا تنبيه على أن الإحسان مطلوب في كل حال ، ويؤيده قوله ﷺ في الحديث الصحيح : "إن الله كتب الإحسان على كل شئ" ..."[٣] .

وقد حاول صاحب روح المعاني أن يقدر المتعلق ـ ولم يلتفت إلى ماالتفت إليه ابن عاشور ـ فقدر تقديرات ثلاثة للمتعلق رجح ثالثها ، فقال : "(وأحسنوا)

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤٥/٦) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٩٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢١٦/٢) .

أي : بالعود على المحتاج ـ قاله عكرمة ـ وقيل : أحسنوا الظن بالله تعالى ، (وأحسنوا) في أعمالكم بامتثال الطاعات ، ولعله أولى"[١] .

ولايخفى أن حذف المتعلق للعموم يشمل هذه المعاني الثلاثة وغيرها وأبعد منها ، ليفيد الإحسان المطلق الذي يدعو إليه الدين ويحث عليه حتى في أمور تخال أن الإحسان ليس له فيها موضع ولاحظ ، كقوله ﷺ : "فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح"[٢] .

وعليه فإن الغرض من الحذف إفادة العموم ليشمل الإحسان الظنون والنوايا مما هو عمل قلبي ، ويشمل أيضا أعمال الجوارح وبعبارة أدق وأوضح ليراد منه مطلق الإحسان بدون تقييد .

ومن الحذف أيضا للعموم ماورد في قوله تعالى : ﴿لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا﴾[٣] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وبنى فعل "تكلف" للنائب ، ليحذف الفاعل ، فيفيد حذفه عموم الفاعلين"[٤] .

فقد حذف الفاعل في هذه الجملة القرآنية الكريمة الواردة في سياق آيات الأحكام الخاصة بين الزوجين وأحكام تنظيم شئون نسلهما وتربيته ، لأن السياق يساعد على جلاء سر حذف الفاعل ، ويبين عن دقة هذا الغرض البلاغي ، وفصلها عن سياقها إنما هو بتر لها ، وبعد عن جادة الصواب ، وعن سبيل الإبانة والوضوح ، والجمل الواردة معها في الآية هي قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا

(١) روح المعاني (٧٨/٢) .

(٢) صحيح مسلم ، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل ، وتحديد الشفرة (١٥٤٨/٣) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٣٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٣٣/٢) .

جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] .

والآية الكريمة في مجملها إنما تبين أحكام الأولاد بعد الانفصال بين الزوجين على ماهو الراجح من كلام العلماء[٢] .

وتبين أن للأولاد حق الإرضاع من الوالدات حولين كاملين ، ولهم حق النفقة والكسوة على الآباء لمرضعاتهم طول تلك المدة .

ولكن كل هذه الأحكام والحقوق تكون تحت ظل قاعدة شرعية مؤصلة بألا يكلف أحد الزوجين الآخر إلا بما يستطيعه ، ولايضر أحد منهما الآخر عن طريق مابقي من علاقة الإرضاع والأولاد ، ولذلك زادت إيضاح هذا المعنى الجليل الجملة القرآنية التي وليتها وهي قوله تعالى : ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وقد وصفها الألوسي بقوله : "﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ تفصيل لما يفهم من سابقه ، وتقريب له إلى الفهم"[٣] .

وقد أبان قبله صاحب البحر المحيط موقع هذه الجملة بالنسبة لسابقتها فقال : "وهي كالشرح للجملة قبلها ، لأن النفس إذا لم تكلف إلا طاقتها لايقع ضرر لاللوالدة ولاللمولود له ، ولذلك جاءت غير معطوفة على الجملة قبلها"[٤] .

وهاتان الجملتان موقعهما من نظم الآية الكريمة اعتراض يفسر قوله تعالى "بالمعروف" .

قال أبو حيان الأندلسي : "والجملتان قبل هذا كالتفسير لقوله "بالمعروف" اعتراض بهما بين المتعاطفين"[٥] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٣٣) .

(٢) ينظر : تفسير الطبري (٢/٥٠٣) ، تفسير النسفي (١/١١٦) ، البحر المحيط (٢/٢٢٢) ، تفسير ابن كثير (١/٢٩١) .

(٣) روح المعاني (٢/١٤٦) .

(٤) البحر المحيط (٢/٢٢٦) .

(٥) ن.م.س .

والمراد بالمتعاطفين هما جملتا "وعلى المولود" و "على الوارث" .

وهذا الاعتراض يفيد تأصيلا لقواعد شرعية خاصة السبب عامة الدلالة بعدم التكليف بما لايطاق ، وعدم الضرر والضرار .

ولابد من الإشارة إلى أن بعض المفسرين كالطبري(١) ، والسمين الحلبي(٢) ، والألوسي(٣) قدر الفاعل في هذه الجملة القرآنية على أنه لفظ الجلالة ، بينما يلحظ أن تقدير العموم ربما يكون هو الأولى ، لتلاؤمه مع دلالة السياق . والله أعلم .

وعلى كل فإنه بقي في بناء هذه الجملة القرآنية من العموم مايجدر تأمله ، والوقوف عنده لاكتمال صورة بناء هذه الجملة القرآنية ، ولإيضاح موقع وجه هذا الحذف من خلال التركيب كله .

فنائب الفاعل أيضا أفاد العموم وهوكلمة "نفس" ، لأنها نكرة وقعت في سياق النفي "لاتكلف" ، وقد قرر علماء الأصول(٤) أن مثل هذا التركيب يفيد العموم .

كما حذف المستثنى منه في قوله "إلا وسعها" ، ليفيد العموم أيضا ، قال أبوحيان الأندلسي : "فظاهر قوله "لاتكلف نفس إلا وسعها" للعموم في سائر التكاليف"(٥) .

وبهذا يظهر أن العموم وقع في الفاعل ونائبه والمستثنى منه ليفيد أصولا عظيمة وقواعد مهمة في التشريع وأحكام النظام الأسري والاجتماعي ، قال ابن عاشور : "وذلك تشريع من الله للأمة بأن ليس لأحد أن يكلف أحدا إلا بما يستطيعه ، وذلك أيضا وعد من الله بأنه لايكلف في التشريع الإسلامي إلا بما

---

(١) ينظر : تفسير الطبري (٢/٥٠٩) .

(٢) ينظر : الدر المصون (١/٥٧٠) .

(٣) ينظر : روح المعاني (٢/١٤٦) .

(٤) ينظر : علم أصول الفقه ، عبد الوهاب خلاف (ص١٨٣) ، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ، د. محمد حسين الجيزاني (ص٤٢٤) .

(٥) البحر المحيط (٢/٢٢٥) .

يستطاع في العامة والخاصة ، فقد قال في ختام هذه السورة ـ أي سورة البقرة ـ ﴿لايكلف الله نفسا إلا وسعها﴾"[١] .

ومن حذف الفاعل أيضا لدلالة العموم مارآه ابن عاشور في تفسير قوله تعالى في سورة الدخان ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وبنى فعل "ينصرون" إلى المجهول ، ليعم نفي كل ناصر مع إيجاز العبارة"[٣] .

ففي هذا الكلام فائدة أخرى مقصودة مع فائدة العموم ، من الإيجاز الذي هو وارد في كل حذف وقد صرح العلامة ابن عاشور باعتباره في هذا المقام ، بقوله "مع إيجاز العبارة" .

وتقدير الفاعل المحذوف في هذه الجملة القرآنية أي : ولاهم ينصرهم ناصر ، لأن النكرة في سياق النفي تعم .

وأيضا من مثل هذا الحذف الذي يفيد غرض العموم ، حذف الجار والمجرور أو المتعلق ـ بصيغة اسم الفاعل ـ في الجملة القرآنية الكريمة .

ولعل في حذف المتعلق من الدقة مايدفع لفرط التنبه له ، لأنه من مستتبعات الحذف الذي قل من يتباصر به .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وحذف متعلق "إني عامل" ليعم كل متعلق يصلح أن يتعلق بـ"عامل" مع الاختصار ، فإن مقابلته بقوله "اعملوا على مكانتكم" يدل على أنه أراد من "إني عامل" أنه ثابت على عمله في نصحهم ودعوتهم إلى ماينجيهم ، وأن حذف ذلك مشعر بأنه لايقتصر على مقدار مكانته وحالته بل حاله تزداد كل حين قوة وشدة لايعتريها تقصير ولايثبطها إعراضهم"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٣٣/٢) .

(٢) سورة الدخان : آية (٤١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣١٢/٢٥) .

(٤) سورة الزمر : آية (٣٩) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٠/٢٤) .

فقد حـذف متعلـق اسـم الفـاعل "عـامل" ، وتقديـره : علـى مكـانتي ، لأن المقابل له في الآية الكريمة دل عليه ، وهو قوله : "اعملوا على مكانتكم" .

والغرض من هذا الحـذف لأجـل أن يعـم كـل متعلـق يجـوز أن يتعلـق بهـذا الوصف مع اعتبار غرض الاختصار .

وهذا المعنى الذي ذكره ابن عاشور هو ماسبقت إليه إشـارة الزمخشـري ، إذ قال : "فإن قلت : حـق الكـلام فـإني عـامل على مكـانتي ، فلـم حـذف؟ قلـت : للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد ، والإيذان بأن حاله لاتقف ، وتـزداد كـل يـوم قوة وشدة ، لأن الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله"[١] .

وكلام الزمخشري هذا يفهم أن حذف المتعلق للاختصار وللمبالغة في الوعيـد وقد ذكر الأول بصريح اللفظ ، والثاني بقوله "لما فيه من زيادة الوعيد" .

وابن عاشور ربما أفاد العموم من كلام شهاب الدين الخفـاجي إذ قـال ـ في الغرض من هذا الحذف في هذه الآية ـ : "والحذف يناسب العموم"[٢] .

ومثل هذا الحذف سواء بسواء ماذكر في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿قُـلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّـي عَـامِلٌ﴾[٣] ، ونحـوه قولـه تعـالى في سـورة هـود : ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾[٤] .

ولم تسبق إشارة ابن عاشور لهما ، لاحتيـاج هـذا الحـذف شـدة مراعـاة لـه لوقوعه في مستتبعات الحذف ،واستغراق الطاهر عنه بغيره ، وكأن ابـن عاشـور ود لو أنه نبه عليه في مواضعه ، فقد قال ـ في آية سورة الزمر ـ : "وهذا من مسـتتبعات الحذف ، ولم ننبه عليه في سورة الأنعام ، وفي سورة هود"[٥] .

---

(١) الكشاف (٣٩٩/٣) .
(٢) حاشية الخفاجي (٣٤١/٧) .
(٣) سورة الأنعام : آية (١٣٥) .
(٤) سورة هود : آية (٩٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٠/٢٤) .

ومن أغراض الحذف الاجتزاء بالصفة غير المفردة عن الموصوف ، وهو أسلوب من أساليب العرب في كلامهم ، وقد ورد في الجملة القرآنية ، وله ضوابط يجري عليها ، ويجب مراعاتها والوقوف عندها .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة النساء : ﴿مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "و"من" تبعيضية ، وهي خبر لمبتدأ محذوف دلت عليه صفته ، وهي جملة "يحرفون" والتقدير : قوم يحرفون الكلم"[(٢)] .

وهذا الوجه الإعرابي الذي ذكره ابن عاشور هو الوجه الأوجه في إعراب الآية وهو مذهب سيبويه وأبي علي الفارسي[(٣)] .

وله مايعضده من كلام العرب ،كقول ذي الرمة :

فظلوا ومنهم دمعه غالب له ... وآخر يذري دمعة العين بالهمل[(٤)]

والتقدير[(٥)] : ومنهم عاشق دمعه غالب له ، فحذف الموصوف وهو "عاشق" بقرينة "وآخر" وبقيت جملة الصفة "دمعه غالب له" .

وكقول تميم بن مقبل[(٦)] :

ومالدهر إلا تارتان فمنهما أموت ... وأخرى أبتغي العيش أكدح[(٧)]

---

(١) سورة النساء : آية (٤٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٥/٧٤) .

(٣) ينظر : الكتاب (٢/٣٤٥) ومابعدها ، البحر المحيط (٣/٢٧٣) ، الدر المصون (٢/٣٧١) ومابعدها .

(٤) الديوان (ص٤٨٥) .

(٥) ينظر : البحر المحيط (٣/٢٧٣) .

(٦) تميم بن أُبيّ بن مقبل بن عامر بن صعصعة ، شاعر جاهلي ، مخضرم ، من الله عليه بالإسلام ، توفي بعد ٣٧هـ .
ينظر : الإصابة (١/٣٧٧) ومابعدها ، خزانة الأدب (١/٢٣٠) ، الأعلام (٢/٨٧) .

(٧) ينظر : الديوان (ص٢٤) .

والتقدير[١] : فمنهما تارة أموت فيها ، فحذف الموصوف وهو "تارة" بدليل العطف عليها "وأخرى" وبقيت جملة الصفة "أموت" .

وهناك ستة[٢] أوجه إعرابية غير هذا الوجه في الآية القرآنية الكريمة ، ربما حسنت الإشارة إليها ، وهي كالآتي :

(١) أن يكون "من الذين هادوا" خبرا مقدما ، والمبتدأ محذوف ويكون اسم موصول تقديره : "من الذين هادوا من يحرفون الكلم" ، والبصريون لايجيزون مثل هذا الإعراب ، لأنه يمتنع عندهم حذف الموصول ، لكونه جزء كلمة ، ويجعلون المحذوف موصوفا كالإعراب السابق .

(٢) أن يكون "من الذين هادوا" خبر مبتدأ محذوف ، وتقدير المبتدأ المحذوف : هم ، وجملة "يحرفون" حال من فاعل جملة الصلة ، وللمعنى في الأوجه الإعرابية حظه في التفاضل .

(٣) أن يكون "من الذين هادوا" حالا من فاعل "يريدون" الوارد قبلها في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾[٣] ، قاله أبو البقاء العكبري[٤] .

(٤) أن يكون "من الذين هادوا" بيانا للموصول في قوله تعالى ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا﴾ وهذا إعراب الزمخشري[٥] ، وفيه نظر ، لأنه وقع فصل بين المبين ـ بصيغة اسم المفعول ـ والمبين ـ بصيغة اسم الفاعل ـ بثلاث جمل وهي قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[٦] .

---

(١) ينظر : الدر المصون (٢/٣٧١) .

(٢) ينظر : الكشاف (١/٥٣٠) ، إملاء مامن به الرحمن (١/١٨٢) ، البحر المحيط (٣/٢٧٣) ، الدر المصون (٢/٣٧١) ومابعدها .

(٣) سورة النساء : آية (٤٤) .

(٤) ينظر : إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن (١/١٨٢) .

(٥) ينظر : الكشاف (١/٥٣٠) .

(٦) سورة النساء : آية (٤٥) .

وهذا اعتراض أبي حيان الأندلسي[١] على الزمخشري ، وقد رده تلميذه السمين الحلبي[٢] بأن هذه الجمل متعاطفة ، والعطف يصير الشيئين شيئا واحدا .

(٥) أن يكون "من الذين هادوا" بيانا لقوله "لأعدائكم" .

(٦) أن يكون "من الذين هادوا" متعلقا بقوله "نصيرا" ، وقد يشكل على هذا الإعراب أن مادة "النصر" لاتتعدى بحرف الجر "من" إلا إذا ضمنت معنى "المنع" كقوله تعالى : ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنْ الْقَوْمِ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾[٤] أو يكون حرف الجر "من" بمعنى "على" فيزول الإشكال .

وقد اتضح من هذا البيان أن الوجه الإعرابي الآنف هو الوجه الأوجه ، وقد ذكره ابن عاشور ، وأشار إلى ضوابطه فقال : "وحذف المبتدأ في مثل هذا شائع في كلام العرب ، اجتزاء بالصفة عن الموصوف ، وذلك إذا كان المبتدأ موصوفا بجملة أو ظرف ، وكان بعض اسم مجرور بحرف "من" ، وذلك الاسم مقدم على المبتدأ ، ومن كلمات العرب المأثورة قولهم "منا ظعن ومنا أقام" أي : منا فريق ظعن ، ومنا فريق أقام"[٥] .

فقد أوضح ابن عاشور ضوابط هذا الأسلوب في خمسة أمور :

أولها : أن هذا الحذف لايقع إلا للمبتدأ دون غيره .

ثانيها : أن يوصف هذا المبتدأ ؛ لتبقى صفته قرينة دالة على حذفه .

ثالثها : أن يوصف بجملة أو شبه جملة ولايوصف بالمفرد .

رابعها : أن يتقدم خبره عليه أو بالأصح على صفته .

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٣/٢٧٣) .

(٢) ينظر : الدر المصون (٢/٣٧٢) .

(٣) سورة الأنبياء : آية (٧٧) .

(٤) سورة غافر : آية (٢٩) .

(٥) التحرير والتنوير (٥/٧٤) .

خامسها : أن يخبر عنه بـ"من" التبعيضية ، وزاد الزمخشري[١] حرف الجر "في"[٢] دون غيرهما من حروف الجر .

و لم يشر ابن عاشور في تفسيره إلى غير هذا الموضع ، على أن هناك آيات تجري على نسق هذا الأسلوب أشار إليها بعض أئمة المعاني قبله من مثل علامة خوارزم ، في تفسيره قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾[٣] .

قال الزمخشري : "وقيل : "ومن الذين أشركوا" كلام مبتدأ ، أي : ومنهم ناس "يود أحدهم" ، على حذف الموصوف ، كقوله : ﴿ومامنا إلا له مقام معلوم﴾ "[٤] .

ولعل إيراده له بصيغة التمريض وهي "قيل" إشارة واضحة على أنه في هذه الجملة القرآنية الكريمة وجه إعرابي مرجوح ، بخلاف آية سورة النساء السابقة ، ولأن هذا الوجه به واو عاطفة له على المفرد الذي قبله وهو كلمة "الناس" ، الواردة في قوله تعالى : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ...﴾[٥] ووجه العطف أقوى ، كما يجوز أن يراد وأحرص من الذين أشركوا ، فحذف "أحرص" اكتفاء .

وإشارة الزمخشري وإن كانت بصيغة التمريض إلا أنها تصح أن تكون قرينة مسوغة لحمل الجملة القرآنية الكريمة على هذا الأسلوب .

---

(١) ينظر : المفصل (٦١/٣) .

(٢) ومن الشواهد الشعرية التي أخبر فيها بحرف الجر "في" عن هذا المبتدأ المحذوف قول حكيم بن معية الربعي :

لو قلت مافي قومها لم تيثم … يفضلها في حسب وميسم

والتقدير : لو قلت مافي قومها أحد يفضلها لم تأثم .

ينظر : الكتاب (٣٤٥/٢) ومابعدها ، شرح المفصل لابن يعيش (٦١/٣) ، أوضح المسالك (٣١٨/٣) ومابعدها .

(٣) سورة البقرة : آية (٩٦) .

(٤) الكشاف (٢٩٨/١) .

(٥) سورة البقرة : آية (٩٦) .

وقد تبع الزمخشري على هذا النحو العلامة البيضاوي ، فأجاز في الآية هذا الإعراب ، فقال : "وأن يكون خبر مبتدأ محذوف صفته (يود أحدهم)" [١] .

وقد عقب على كلامه الشهاب الخفاجي مرتضيا هذا الإعراب فقال : "والوجه الثالث أن يكون الجار والمجرور خبرا مقدما لمبتدأ محذوف ، وجملة "يود" صفته ، والموصوف إذا كان بعض اسم مجرور بـ"من" أو "في" مقدم عليه حذف ، نحو : منا ظعن ومنا أقام ، أي : فريق ظعن ، وفريق أقام"[٢] .

وفي هذا إشارة من الخفاجي إلى أهم شروط هذا الأسلوب العربي الذي ورد في الجملة القرآنية الكريمة .

وقد أجاز إعراب الآية الكريمة على هذا الوجه صاحب البحر المحيط فقال : "إذ المعنى : ومنهم قوم "يود أحدهم" ، و "يود أحدهم" صفة لمبتدأ محذوف ، أي : ومن الذين اشركوا قوم يود أحدهم ، وهذا من المواضع التي يجوز حذف الموصوف فيها ، كقوله تعالى : ﴿ومامنا إلا له مقام معلوم﴾ ، ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته﴾ وكقول العرب : منا ظعن ومنا أقام"[٣] .

وقد أجاز أيضا علامة بغداد محمود الألوسي هذا الإعراب في الآية فقال : "نعم يحتمل أن يكون هناك محذوف وهو مبتدأ والمذكور صفته ـ أي : ومن الذين أشركوا ـ أو المذكور خبر مبتدأ محذوف صفته "يود أحدهم" ، وحذف موصوف الجملة فيما إذا كان بعضا من سابقه بـ"من" أو "في" جائز في السعة ، وفي غيره مختص بالضرورة نحو : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا"[٤] .

وفي هذا الكلام أن مثل هذا الأسلوب الذي هو حذف الموصوف والاجتزاء عنه بالصفة يجوز في سعة الكلام ونثره[٥] ، ويمتنع في الشعر إلا إذا خرج على أنه ضرورة من الضرائر الشعرية .

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/٢١٠) .

(٢) حاشية الشهاب (٢/٢١٠) .

(٣) البحر المحيط (١/٤٨٢) .

(٤) روح المعاني (١/٣٣٠) .

(٥) ينظر : أوضح المسالك (٣/٣١٨) ومابعدها .

ولكن هناك فرق واضح بين الأسلوب الذي نحن بصدده وبين الحذف الواقع في البيت الشعري ، على أنهما يجتمعان في حذف الموصوف وبقاء جملة الصفة كقرينة قائمة على الإشعار بالمحذوف .

والاختلاف بينهما واضح جدا من كون المحذوف في البيت الشعري للمضاف إليه والتقدير "أنا ابن رجل جلا" ، وفي الآية الكريمة للمبتدأ ، والتقدير : "ومن الذين أشركوا قوم يود أحدهم" ، إضافة إلى اختلاف موقع الجملتين إعرابيا ، فجملة البيت الشعري وهي قوله "جلا" في موقع جر صفة للمضاف إليه المجرور ، وجملة الآية القرآنية الكريمة وهي قوله تعالى "يود أحدهم" في محل رفع صفة للمبتدأ المحذوف .

فلابد من التفرقة في دقائق الأساليب حتى لايقع الخلط بينهما ، وإن كان كل منهما فيه حذف الموصوف وبقاء جملة الصفة .

وقد عد العلامة الزمخشري قوله تعالى في صورة الصافات : ﴿وَمَا مِنَّا إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[1] من الضرب الأول وهو المبتدأ الذي حذف وبقيت جملة صفته دالة عليه ، وأخبر عنه بما كان بعضا منه مجرورا بـ"من" .

قال الزمخشري : "(ومامنا) أحد (إلا له مقام معلوم) فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، كقوله : أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ، بكفي كان من أرمي البشر"[2] .

ولعل وجه الاستشهاد خاف في قوله "بكفي كان" ، والتقدير : بكفي رجل كان .

فالزمخشري قدر المحذوف في الآية الكريمة "أحد" وهو مبتدأ موصوف بجملة "إلا له مقام معلوم" ، وخبره قدم عليه وهو قوله "منا" .

وهذا التقدير فيه نظر ، لأن محط الفائدة في جملة "إلا له مقام معلوم" ، فكيف تكون صفة للمبتدأ المحذوف؟

---

(١) سورة الصافات : آية (١٦٤) .

(٢) الكشاف (٣/٣٥٦) .

وقد اختار ابن عاشور غير ماذكر الزمخشري دون تعليل أو توضيح ، وقدر المحذوف "أحد" موصوفا بشبه الجملة وهو الجار والمجرور "منا" ، وجعل جملة "إلا له مقام معلوم" جملة الخبر ، فقال : "والمنفي بـ"ما" محذوف دل عليه وصفه بقوله "منا" والتقدير : وماأحد منا . كما في قول سحيم بن وثيل :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

والتقدير : ابن رجل جلا"[١] .

وهذا الوجه الذي استحسنه ابن عاشور وسجله في تحريره وتنويره إنما هو ماذكره أبو حيان الأندلسي في تفسيره ، بعد سوقه كلام صاحب الكشاف نصا ، ثم رد عليه بقوله : "وليس هذا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، لأن "أحدا" المحذوف مبتدأ و"إلا له مقام معلوم" خبره ، ولأنه لاينعقد كلام من قوله : ومامنا أحد ، فقوله : "إلا له مقام معلوم" هو محط الفائدة ، وإن تخيل أن "إلا له مقام معلوم" في موضع الصفة ؛ فقد نصوا على أن "إلا" لاتكون صفة إذا حذف موصوفها ، وأنها فارقت "غير" إذا كانت صفة في ذلك ؛ لتمكن "غير" في الوصف وقلة تمكن "إلا" فيه ، وجعل ذلك كقوله : أنا ابن جلا ، أي : ابن رجل جلا ، وبكفي كان أي : رجل كان ، وهذا عند النحويين من أقبح الضرورات"[٢] .

ولربما كان قول أبي حيان الأندلسي : "وليس هذا من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه" مجانبا سبيل الصواب ، لكون هذا الحذف منه ، إذ أن المحذوف موصوف تقديره : أحد ، وصفته شبه الجملة ـ الجار والمجرور ـ "منا" ، اللهم إلا إذا أراد بحرف التعريف "أل" الواقع في كلمة "الموصوف" العهد الذهني للضرب الأول من الحذف ، جاز حمل كلامه على وجه صحيح .

وقد علل ضعف وبعد الوجه الذي ذكره الزمخشري بأمرين اثنين :

(١) هو أن محط الفائدة في هذه الجملة الاسمية هي قوله "إلا له مقام معلوم" ، إذ لايتم معنى الجملة بتقدير : مامنا أحد .

---

(١) التحرير والتنوير (١٩١/٢٣) ومابعدها .

(٢) البحر المحيط (٣٦٣/٧) .

(٢) أن أداة الاستثناء "إلا" لايصح أن تبقى صفة إذا حذف موصوفها .

وقد وافق الألوسي[(١)] على كلام أبي حيان ، وأفاض في توضيحه وشرحه .

والأهم الذي أود الإشارة إليه أن دقائق المعاني ، ودلالات التراكيب في تباين الأساليب التي أوردتها في هذا الغرض يحسن التباصر بها والتفريق بينها .

ولاإخال بعد هذا الإيراد أن يقع في ذهن بصير أن أمثال هذا الأسلوب الذي هو من الضرب الأول على حد قوله تعالى ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ يمكن أن يطرح ويلغى من باب استعاضته عنه بغيره من التوجيهات الواردة في الجملة القرآنية ، لكونه لم يقع على التحقيق إلا في آيتين اثنتين من القرآن الكريم .

ومما يدحض أمثال هذا الخاطر الذي لايثبت للتحرير أن الاستعاضة عن الأفضل بالمفضول مما لايمكن أن يكون من فعل العقلاء فضلا عن أولي العلم ، بل لو فرض كون هذا الوجه الإعرابي من أضعف الوجوه الإعرابية المخرج عليها تلك الجملتان القرآنيتان لم يكن هناك مسوغ لاطراحه ، واستعاضته بغيره ؛ لأن ورود الأوجه الإعرابية على الجمل إنما هو إثراء لها .

زد على هذا أن ذكر العلماء له ، وارتضاءهم إياه ، بما ورد في كلامهم في هذا المبحث يرفع مايقع في نفس من تملكه التردد فيه ، لأن مثل هذا الأسلوب البديع من صور حذف الموصوف وبقاء الصفة بتلك الضوابط الدقيقة يفتح سبيلا جديدا لأسلوب قل المشيرون له .

ومن أغراض الحذف أيضا وفرة المعاني وإكثارها مع إيجاز العبارة ووضوح بيانها .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلْ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ﴾[(٢)] .

---

(١) ينظر : روح المعاني (١٤٧/٢٣) .

(٢) سورة النساء : آية (١٢٧) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "ولحذف حرف الجر بعد "ترغبون" ـ هنا ـ موقع عظيم من الإيجاز وإكثار المعنى ، أي ترغبون عن نكاح بعضهن ،وفي نكاح بعض آخر ؛ فإن فعل رغب يتعدى بحرف "عن" للشئ الذي لايحب ؛ وبحرف "في" للشئ المحبوب ، فإذا حذف حرف الجر احتمل المعنيين إن لم يكن بينهما تناف"(١) .

فالحذف في هذا الموضع جعل الجملة الواحدة وهي قوله "ترغبون" بحذف متعلقها ــ بصيغة اسم الفاعل ــ تقوم مقام جملتين اثنتين ، وهما "تحبون أن تنكحوهن" و"تكرهون أن تنكحوهن" ، فقد قامت تلك الجملة مقام الرغبة والنفرة

وهذا الفعل الذي هو "رغب" وماجرى على شاكلته ـ مما يغير حرف الجر المعنى فيه ـ يكون به شدة طلب لمتعلقاته من هذه الأحرف ، لأثرها في تغيير معنى الفعل نفسه ، ولمظنة وقوع الإلباس في فهم مدلولاتها عند حذفها في غالب أحوالها.

ولكن الصياغة القرآنية خرجت بها إلى منحى تكثير المعنى وإثرائه عن طريق الحذف .

وقد سبقت إشارة الزمخشري إلى هذا المعنى ، فقال : "(وترغبون أن تنكحوهن) يحتمل في أن تنكحوهن لجمالهن ، وعن أن تنكحوهن لدمامتهن ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا جاءه ولي اليتيمة نظر ؛ فإن كانت جميلة غنية قال : زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك ، وإن كانت دميمة ولامال لها قال : تزوجها فأنت أحق بها"(٢) .

وقد عضد علامة خوارزم تفسير هذه الآية بما روي عن عمر بن الخطاب ، من تزويج الولي يتيمته عكس رغبته نصرة لتلك اليتيمة ، وحماية لها ، ودفاعا عنها ، وتحرزا من ضياع حقوقها .

وقد اشترط ابن عاشور في إفادة هذا الحذف كلا المعنيين ، ألا يكون بينهما تناف ، وربما كان يقصد أن يتطلب المقام كلا المعنيين ويصح به إقامة معنى العبارة لأنه لايلزم من كون المعنيين غير متضادين وقوعهما في العبارة ، وصحة قصدهما .

---

(١) التحرير والتنوير (٢١٣/٥) .

(٢) الكشاف (٥٦٧/١) .

ومن أغراض الحذف أيضا التشويق مع الإيجاز ، وقد رأى ذلك ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وحذف ذكر الغرض الذي سار لأجله موسى ـ عليه السلام ـ لأنه سيذكر بعد ، وهو حذف إيجاز وتشويق ، له موقع عظيم في حكاية القصة ، لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال قضاء لحق بلاغة الإعجاز"(٢) .

وافتتاح القصة بالسفر إلى مجمع البحرين أو السير سنوات عديدة ، دون ذكر الغرض من هذا السفر للتشويق مع مافي إطراحه من الإيجاز .

والغرض المحذوف في هذا الموضع هو ماذكر بعد ذلك في أحداث القصة من قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(٣) .

والسبب الدافع لمقابلة موسى عليه الصلاة والسلام لهذا العبد الصالح الذي هو الخضر ، والتعلم منه ماورد في صحيح البخاري من توضيح للقصة يجلي لنا سر ابتداء القرآن لهذه القصة من خلال افتتاحها بهذه الجملة القرآنية في إنشاء سفر دون ذكر الغرض منه ، حتى عد ابن عاشور هذا الابتداء والإطراح إخراجا لها عن مطروق القصص إلى بديع الحكم والأمثال .

فعن أبي بن كعب عن النبي ﷺ أن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل ، فسئل : أي الناس أعلم ، فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فقال له : بلى لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال : أي ربي ومن لي به ، قال تأخذ حوتا فتجعله في مكتل حيثما فقدت الحوت فهو ثم ، وأخذ حوتا فجعله في مكتل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فرقد موسى ، واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر ، فاتخذ سبيله في البحر سربا ، فأمسك

---

(١) سورة الكهف : آية (٦٠) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٦١/١٥) .
(٣) سورة الكهف : آية (٦٥،٦٦) .

الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق ، فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما حتى إذا كان من الغد ، قال لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله ، قال له فتاه : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإني نسيت الحوت ومأأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر عجبا ، فكان للحوت سربا ولهما عجبا ، قال له موسى : ذلك ماكنا نبغي ، فارتدا على آثارهما قصصا ، رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم موسى ، فرد عليه فقال : وأنى بأرضك السلام ، قال أنا موسى ، قال : موسى بني إسرائيل ، قال : نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا ... الحديث[١] .

وبهذا الإيراد يتضح أثر سر الحذف بين الأسلوب القرآني والنبوي في حكاية القصة ، مما جعلها تخرج في القرآن عن أسلوب القصص المألوف إلى طريقة لفت الأنظار وجذب السامعين وتشويق المتلقين مع إيجاز العبارة وإعجازها ، ودقة بيانها وروعته ، حتى حدا بالعلامة ابن عاشور أن يصف ذلك الحذف بقوله : "وهو حذف إيجاز وتشويق ، له موقع عظيم في حكاية القصة" .

وإيرادي هذا الجزء أو بالأصح هذا المطلع من القصة في الحديث النبوي الشريف لبيان الوجهة البلاغية في إيضاح الغرض ودقة الحذف في الآية الكريمة من سرد القصة عنها في الحديث النبوي ، وإيفاء المقام حقه من البيان ، وإدراك الاختلاف بين افتتاح الآية وابتدائها ، وافتتاح الحديث وابتدائه ، واستظهار موقع إطراح الغرض وتميزه ، حتى إنه ليخيل للمرء بهذه الافتتاحية أن هذه القصة غير تلك ، على الرغم من علو منزلة البيان النبوي الذي بلغ الغاية في أعلى مراتب بلاغة البشر .

وغير خاف أن في البلاغة مايمكن إدراكه بالذوق والوقوف عليه والتأثر به غاية التأثر ، دون أن يتمكن المرء من إيضاحه بساطع من البرهان ، أو وصفه بناصع من البيان ؛ لأن التمرس بالأساليب العربية في عصور تميزها البياني هو الذي يربي

(١) صحيح البخاري (٢/٢٤٥) ومابعدها ، الناشر دار المعرفة ، لبنان ، بدون .

ذلك الذوق ، ويكسب تلك الملكة التي تدرك دقائق الأساليب وأسرارها ، وتباينها واختلاف ألوانها ، دون أن تكون هناك قدرة توازي الإبانة عنها وعن توصيفها بقدر إدراكها ووقعها في النفس ، وهذا يدفعني إلى صادق من القول بأن ثمة فروقا غير محسوسة بين الأذواق التي تمتلك تلك الملكة في درجات قابليتها للتفاعل فيما تسمعه أو تقرأه من النصوص البلاغية والخطابات الأدبية في إثارة نوازع الحس المرهف والنفس اليقظة المتجاوبة .

وربما استطاع المرء أن يضع يده ويصف بلسانه شيئا من تلك الجزئيات التي تختفي وراءها الأسرار البلاغية ، ويحاول ـ قدر استطاعته ـ إيضاحها بالبيان ، وتجليتها للعيان ، ولكن ثمة أمور مدركة في النفس لاالعقل ، تحثث العواطف وتثير الأحاسيس ، وتحرك كوامن المشاعر ، وتؤثر في خلجات النفس وشفافيتها ، وتستطيل في إثراء النزعات أو إخفاتها ، مما تتحكم به في حمى النفس وذمارها ، وقدرتها في صياغة قرارها ، مما يسمى بإيحاءات العبارة ، فهي أمور مدركة غير موصوفة .

وقد أشار العلامة الخطابي إلى طرف من ذلك عند حديثه عن وجوه إعجاز القرآن الكريم في رسالته الموسومة بـ"بيان إعجاز القرآن" حين قال : "قلت : في إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس فلايكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم ، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس"[١] .

ثم بدأ بشرح هذا الوجه بقوله : "إذا قرع السمع ـ أي القرآن ـ خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى مايخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقعشر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"[٢] .

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (ص٧٠) .

(٢) ن.م.س .

وكأنه بهذا الاستنباط والرؤية يستشف معاني آية سورة الزمر في هذا الوجه الذي نبه عليه ، وأشار إليه ، من توصيف الله لكلامه وأثره في نفوس عباده وفعله بها في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[١] .

وقد أشار صاحب مفتاح السعادة[٢] إلى ماذكره العلامة الخطابي من هذا الوجه الإعجازي الذي قد يخفى على كثير من الناس ، وحاول تلخيصه ، والتنبيه عليه .

وعلى كل ، فهذا مما يعضد ماحاولت الإبانة عنه وإيضاحه في دقائق مواقع الحذف وأسراره من أمور ذوقية لها تأثيرها في النفوس .

ومن أغراض الحذف أيضا الإشارة إلى انحطاط رتبة المخاطبين عن التصريح لهم بالمحذوف .

وقد رأى ابن عاشور ذلك في تفسيره قول الله تعالى في سورة الجاثية : ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وبنى فعل "قيل" للنائب حطا لهم عن رتبة أن يصرح باسم الله في حكاية الكلام الذي واجههم به ـ كما أشرنا إليه عند قوله آنفا "وإذا قيل إن وعد الله حق" بناء على أن ضمير "ننساكم" ضمير الجلالة ، وليس من قول الملائكة ، فإن كان من قول خزنة جهنم ببناء فعل "وقيل" للنائب للعلم بالفاعل"[٤].

فابن عاشور يشير إلى أن حذف الفاعل في قوله "وقيل" له احتمالان ، أحدهما ماصدرت به هذه الفقرة من حذف الفاعل لأجل انحطاط رتبة الموجه لهم

---

(١) سورة الزمر : آية (٢٣) .
(٢) ينظر : مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده (٤٨٦/٢) .
(٣) سورة الجاثية : آية (٣٤) .
(٤) التحرير والتنوير (٣٧٤/٢٥) ومابعدها .

الكلام عن التصريح باسم الله في مخاطبتهم ، هذا إذا كان الفاعل لفظ الجلالة ، والقرينة على تأييد هذا التقدير هو ضمير "ننساكم" ، فربما أنه يقوي هذا الترجيح بأن الله هو الذي ينساهم مقابل نسيانهم يومهم هذا ، والآخر هو احتمال أن يكون الفاعل في كلا الفعلين لـ"قيل" و"ننساكم" هم الملائكة الذين هم خزنة جهنم ، فيكون حذف الفاعل في "قيل" لأجل العلم به .

وقد أحال ابن عاشور إلى الآية السابقة وهي قوله : "وإذا قيل إن وعد الله حق" ، وقد رجعت إليها فلم أجد له مايروي العليل ويشفي الغليل ، وماهي إلا إشارة كومض البارق وقبسة العجلان ، لاتغني الإحالة إليها ، ولايجدي الوقوف عليها ، بل فيها إحالة على الآية التي نحن بصددها ، مع العلم أن كلامه حول حذف الفاعل ليس في الآية التي أحال إليها على وجه التحديد ، ولكن في آية سابقة لها وهي قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[1] ، فقد قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "فقوله "أفلم تكن آياتي" مقول قول محذوف ، لظهور أن ذلك خطاب صادر من متكلم من جانب الله تعالى ، فيقدر فيقال لهم على طريقة قوله بعد ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾"[2] .

أما الآية التي أحال إليها فلم يذكر في حذف فاعلها ولو كلمة واحدة ، وقد يكون هناك من الأسباب الكثيرة مايمكن أن يعتذر به لعلامة تونس ـ رحمه الله ـ في مثل هذه الإحالة .

ومن أغراض الحذف أيضا اتباع الاستعمال الوارد على تركه .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾[3] .

---

(١) سورة الجاثية : آية (٣١) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٧١/٢٥) .
(٣) سورة البقرة : آية (١٨) .

قال ابن عاشور : "وحذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب ، إذا ذكروا موصوفا بأوصاف أو أخبار جعلوه كأنه قد عرف للسامع ، فيقولون : فلان أو فتى أو رجل أو نحو ذلك ، على تقدير هو فلان"[١] .

والمراد بالمسند إليه في الآية هو المبتدأ ، والتقدير : هم . وهذا الضمير يرجع إلى المنافقين الذين سبقت أوصافهم في عشر آيات سابقة ، بدءا من قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] .

وقد تابع ابن عاشور كلامه السابق ، موضحا هذا الأسلوب ببعض من الآيات القرآنية والأبيات الشعرية ، فقال : "ومنه ـ أي من الحذف التابع للاستعمال ـ قوله تعالى : ﴿جزاء من ربك عطاء حسابا رب السموات والأرض ومابينهما﴾ التقدير : هو رب السموات ، عدل عن جعل "رب" بدلا من "ربك" ، وقول الحماسي :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي　　　أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه　　　ولامظهر الشكوى إذا النعل زلت

وسمى السكاكي هذا الحذف (الحذف لاتباع الاستعمال الوارد على تركه)"[٣] .

ونحو هذا الحذف ماأشار إليه ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "هو بالرفع خبر لمحذوف على طريقة حذف المسند إليه لاتباع الاستعمال ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿صم بكم﴾ ، وذلك من جنس مايسمونه بالنعت المقطوع"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٣/١) .
(٢) سورة البقرة : آية (٨) .
(٣) التحرير والتنوير (٣١٣/١) .
(٤) سورة البقرة : آية (١١٧) .
(٥) التحرير والتنوير (٦٨٦/١) .

وهـذا اسـتعمال آخـر في مجـئ هـذا الأسـلوب الـذي يقـع فيـه الحـذف تبعـا للاستعمال الشائع في تراكيب هذا اللسان ، لأن مايسمى عند النحاة[1] مـن النعـت المقطوع الذي يقطع فيه النعت من الناحيـة الإعرابيـة عـن المنعـوت ، إمـا بـالرفع أو بـالنصب ، لايشـترط فيـه ماشـترط في الآيـة السـابقة ﴿صـم بكـم عمـي فهـم لايرجعون﴾ من تقدم أوصاف أو أخبار على موضع الحذف ، لتهيئـة بنـاء الحـذف من خلال تلك الأوصاف - أو بعبارة أخرى - عليها .

ولابد من الإشارة في هذا المقام إلى أن النعت المقطـوع على جهـة الإطـلاق غير داخل في هذا الغرض ، لأن النعت المقطوع يكون على ضربين ، إما القطع على الرفع كما في هذه الآيات ، وإما القطع على النصب كما تقول : جاء زيـد الكريـم - بنصب الكريم - ، فما كان مـن الضـرب الأول فهـو الـذي يصـح كونـه في هـذا الاستعمال ، لأجل أن المحذوف هـو المسـند إليـه الـذي تعـين عنـد السـامع وعـرف وتقرر فصح حذفه ، أي : بمعنى أنه هو تلك الذات التي يعود المعنـى عليهـا ، بينمـا الضرب الثاني يكون المحذوف فيه فعلا تقديره : امدح أو أذم أو أخص أو أقصـد أو مايليق تقديره بالمقام ، بمعنى أنه مسند لامسند إليـه ، وهـذا الحـذف إنمـا يكـون في المسند إليه خاصة ، إضافة إلى أن تقدير الفعل تنعدم فيه حقيقة هذا الأسلوب المقـدم له بما يفيد أن المحذوف متعين ومعروف لدى السامع .

ونحو هذا الحذف ماورد في قوله تعالى : ﴿الْحَقُّ مِـنْ رَبِّـكَ فَـلا تَكُونَـنَّ مِـنْ الْمُمْتَرِينَ﴾[2] .

قال ابن عاشور رحمه الله في تفسير هذه الآيـة : "تذييـل لجملـة ﴿وإن فريقـا منهم ليكتمون الحق﴾ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هـذا الحـق ، وحـذف المسند إليه في مثل هذا مما جرى على متابعة الاستعمال في حـذف المسـند إليـه بعـد

---

(١) ينظر : أوضح المسالك (٣١٨/٣) ، التصريح على التوضيح (١١٦/٢) ، همع الهوامع (١٢٥/٣) .

(٢) سورة البقرة : آية (١٤٧) .

جريان مايدل عليه مثل قولهم بعد ذكر الديار "ربع قواء" ، وبعد ذكر الممدوح "فتى" ونحو ذلك كما بينه صاحب المفتاح"(١) .

ويصح تقدير المسند إليه المحذوف ضميرا أي : هو الحق . وهناك وجوه إعرابية أخرى في هذه الآية الكريمة منها مالايحتاج إلى تقدير محذوف ، بأن يكون "الحق" مبتدأ ، وخبره شبه الجملة بعده "من ربك"(٢) ، وقد اختار ابن عاشور مااختاره من الإعراب المشار إليه سابقا لكونه أليق من جهة المعنى في توصيف كلام الله عز وجل بالحق ، وغيره من الأوجه التي ليس فيها تقدير تفيد كون الحق من الله وبنى ابن عاشور أيضا على هذا التقدير قصر قلب من مفهوم هذه الجملة(٣) .

وعلى كل فالدربة بأساليب اللسان والخبرة بدلالات التراكيب ، والتمرس بمعايشة السامي من النصوص البيانية تكسب المرء القدرة في المفاضلة بين الأساليب كما تمنحه المعرفة الواعية الصحيحة بخفايا الدلالات التي تجعل لاختياراته الحظ الأوفر من نظر أهل العلم ، وابن عاشور هو أغنى من هذه العبارات الحقة ، وسفره الخالد هو الذي يشهد شهادة الحق للقادم من الأجيال بذلك .

ولعل هذه أصبحت تقدمة غير مقصودة لنظرة ابن عاشور في قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾(٤) .

فابن عاشور يرى أن الحذف في هذه الآية الكريمة في قوله "يتوفون" من الحذف الجاري على اتباع الاستعمال مع اعتبار غرض الإيجاز .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة : "ويتوفون مبني للمجهول ، وهو من الأفعال التي التزمت العرب فيها البناء للمجهول ، مثل : عني واضطر ، وذلك في كل فعل قد عرف فاعله ماهو ، أو لم يعرفوا له فاعلا معينا"(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/٤١) .
(٢) ينظر : روح المعاني (٢/١٣) ومابعدها .
(٣) ينظر : التحرير والتنوير (٢/٤١) .
(٤) سورة البقرة : آية (٢٣٤) .
(٥) التحرير والتنوير (٢/٤٤١) .

ففي هذا الكلام تعليل واضح في مجئ بعض الأفعال العربية مبنية للمفعول ، وذلك لأمرين : إما لكون الفاعل معلوما وهذا قد يدخل في باب الحذف لتعين المحذوف من مثل قوله تعالى : ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1] ، أي : خلق الله الإنسان ضعيفا[2] .

وإما لكون الفاعل غير معلوم وهذا يدخل في باب الحذف لاتباع الاستعمال كما يبدو في نظري .

وفي هذا تنبيه ولفت نظر من ابن عاشور لأصول الأفعال الملتزم بناؤها على صيغة المبني للمجهول ، في محاولة للتعرف الجاد على اسباب أغراض أسرارها الملزمة لورودها على هذا النحو الذي خالف القواعد المؤصلة في ذكر التلازم بين الفعل والفاعل ، فيما يجب أن تكون عليه معيارية نصوع الإبانة ووضوح الفصاحة في القائم بالفعل أو الواقع منه على سبل تجري وفق ماسن لها ، وغلب عليها إلا فيما شذ منها مما أحاول لفت النظر إليه في هذا المقام وتسجيله في هذا الموضع .

مثل : عني ، وزهي ، وأهرع ، وغم الهلال ، وطل دمه ، وبهت ، وسقط في يده ، شهر في الناس ، وغيرها[3] .

وهذه الأفعال لم يحذف فاعلها ، بل لم يذكر أصلا ، بمعنى أن العرب تكلموا بها على هذا النحو من بداية أصل وضعها .

---

(١) سورة النساء : آية (٢٨) .

(٢) حاشية ياسين العليمي على شرح التصريح على التوضيح (٢٨٦/١) .

(٣) ينظر : أدب الكاتب لابن قتيبة (ص٤٠١) ومابعدها .

ومما يجري على هذا النمط من الأفعال التي تكلم به العرب ، وجاءت على صفة الفعل الذي لم يسم فاعله : أرتج على القارئ إذا لم يقدر على القراءة ، ونخى من النخوة فهو منخو ، ونتجت الناقة ، وأولع بالأمر ، وأرعدت فرائصه ، ووضعت في البيع ووكست ، وشغلت عنك ، وشهر في الناس ، ووقص الرجل : سقط على دابته فاندقت عنقه ، وغبن في البيع ، وهزل الرجل والدابة ، وامتقع لونه ، ووقرت الأذن ، ورهصت الدابة ، وفلج الرجل ، وغشي على المريض ، وغيرها مما ذكره السيوطي في المزهر (٢٣٣/٢) ومابعدها .

وبهذا المفهوم تعقب العلامة ياسين الحمصي العليمي كلام صاحب التوضيح وحاول توجيهه ، حيث قال المصنف : "قد يحذف الفاعل للجهل به كسرق المتاع"[١] .

قال العلامة ياسين الحمصي : "قوله "للجهل به" نظر فيه المصنف بأن الجهل به إنما يقتضي أن لايصرح باسم الفاعل ، لا أن يحذف ، وتفصيله ومايتعلق به يطلب من حاشيتنا على الفاكهي"[٢] .

وقد رجعت لحاشيته[٣] على الفاكهي ، فوجدته قد أطال النفس ، وساق العديد من كلام العلماء ، وخلاصته أنه ذكر أن الجهل بالفاعل يراد به عدم معرفته لا أن يراد به ألا يكون له فاعل في أصل وضعه ، لأن الجهل الذي هو عدم المعرفة بالفاعل يصح به حذف الفاعل ، لا الجهل الذي يراد به ألا يوجد للفعل فاعل في أصل الوضع ، لأن هذا لايتلاءم مع الحذف وإنما يتلاءم مع عدم التصريح به .

ولنستمع لابن عاشور في تحليله لحذف الفاعل في الفعل "يتوفون" . قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : "وهو ـ أي : يتوفون ــ من توفاه الله ، أو توفاه الموت ، فاستعمال التوفي منه مجاز ، تنزيلا لعمر الحي منزلة حق للموت أو لخالق الموت ، فقالوا : توفي فلان كما يقال : توفي الحق ، ونظيره قبض فلان ، وقبض الحق ، فصار المراد من توفي مات ، كما صار المراد من قبض ، وشاع هذا المجاز حتى صار حقيقة عرفية ، وجاء الإسلام فقال الله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس﴾ ، وقال : ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾ ، وقال : ﴿قل يتوفاكم ملك الموت﴾ فظهر الفاعل المجهول عندهم ، في مقام التعليم أو الموعظة ، وأبقى استعمال الفعل مبنيا للمجهول فيما عدا ذلك : إيجازا وتبعا للاستعمال"[٤] .

---

(١) شرح التصريح على التوضيح (٢٨٦/١) .

(٢) ن.م.س .

(٣) حاشية العلامة الحمصي على شرح الفاكهي على قطر الندى (٧٤/٢) ومابعدها .

(٤) التحرير والتنوير (٤٤١/٢) .

ولربما كان هذا الإيضاح الدقيق الذي يبين طرائق استعمال هذا الفعل في مجازه ومواطن ظهور فاعله وحذفه لاتحسن الزيادة عليه إلا في إرجاع المجاز إلى أساسه حيث يقول الزمخشري عن هذا الفعل : "ومن المجاز : أوفى على المائة إذا زاد عليها ، ووافيت العام : حججت وتوفي فلان ، وتوفاه الله تعالى ، وأدركته الوفاة"[١] .

واستثنى أيضا ماأود إضافته من أن ظهور الفاعل في مواطن التعليم أو الموعظة يدفعني للقول بأن الحذف في بقية المواضع التي يحذف فيها الفاعل من هذا الفعل الوارد بصيغة المجهول إنما يكون من باب الحذف للعلم به وتعينه .

وقد يرد تساؤل على الذي أوردته فحواه أن التعين المدعي غير ثابت في المقامات المتعددة فتارة يرد الفاعل لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾[٢] ، وتارة يرد الفاعل ملك الموت : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[٣] ، وتارة يرد الفاعل الموت نفسه ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾[٤] .

والإجابة على هذا التساؤل أن تعدد الفاعلين في إسناد هذا الفعل لغير الفاعل الحقيقي في بعض المواطن إنما هو من باب المجاز العقلي .

ومن أغراض الحذف أيضا الحذف تجنبا للإطالة بسبب تعدد المحذوف .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "وحذف فاعل التزيين ، لأن المزين لهم أمور كثيرة منها خلق بعض الأشياء حسنة بديعة كمحاسن الذوات والمناظر ، ومنها إلقاء حسن بعض الأشياء في نفوسهم وهي غير حسنة كقتل النفس ، ومنها إعراضهم عمن

---

(١) أساس البلاغة ، مادة (وفى) (٢/٥٢٠) .
(٢) سورة الزمر : آية (٤٢) .
(٣) سورة السجدة : آية (١١) .
(٤) سورة النساء : آية (١٥) .
(٥) سورة البقرة : آية (٢١٢) .

يدعوهم إلى الإقبال على الأمور النافعة حتى انحصرت هممهم في التوغل من المحاسن الظاهرة التي تحتها العار لو كان باديا ، ومنها ارتياضهم على الانكباب على اللذات دون الفكر في المصالح ، إلى غير ذلك من أمور يصلح كل منها أن يعد فاعلا للتزيين حقيقة أو عرفا ، فلأجل ذلك طوى ذكر هذا الفاعل تجنبا للإطالة"[1]

وقد رأى الطاهر احتمالا آخر لمرجح الحذف في هذه الآية الكريمة وهو دقة المحذوف وخفاؤه .

قال الطاهر : "ويجوز أن يكون حذف الفاعل لدقته ، إذ المزين لهم الدنيا أمر خفي ، فيحتاج في تفصيله إلى شرح في أخلاقهم ، وهو ماكتسبته نفوسهم من التعلق باللذات وبغيرها من كل ماحملهم على التعلق به التنافس أوالتقليد حتى عموا عما في ذلك من الأضرار المخالطة للذات ، أو من الأضرار المختصة المغشاة بتحسين العادات الذميمة ، وحملهم على الدوام عليه ضعف العزائم الناشئ عن اعتياد الاسترسال في جلب الملائمات دون كبح لأزمة الشهوات ..." [2] .

وقد أشار الزمخشري إلى حذف فاعل الفعل "زين" وقدره تقديرين آخرين غير التقديرين السابقين ، فقال : "المزين هو الشيطان زين لهم الدنيا ، وحسنها في أعينهم بوساوسه وحببها إليهم فلايريدون غيرها ، ويجوز أن يكون الله قد زينها لهم بأن خذلهم حتى استحسنوها وأحبوها ، أو جعل إمهال المزين له تزيينا"[3] .

وتتبعه ابن المنير ، ورأى أن في هذا التفسير دسيسة اعتزالية ، فعقب عليه بقوله : "قال محمود رحمه الله : "المزين هو الشيطان ..الخ" ، قال أحمد رحمه الله : وردت إضافة التزيين إلى الله تعالى ، وإضافته إلى غيره في مواضع من الكتاب العزيز وهذه الآية تحمل الوجهين ، لكن الإضافة إلى قدرة الله تعالى حقيقة ، والإضافة إلى غيره مجاز على قواعد أهل السنة . والزمخشري يعمل على عكس هذا ، فإن أضاف الله فعلا من أفعاله إلى قدرته جعله مجازا ، وإن أضافه إلى بعض مخلوقاته جعله حقيقة

---

(١) التحرير والتنوير (٢/٢٩٤) .

(٢) ن.م.س .

(٣) الكشاف (١/٣٥٤) .

وسبب هذا التعكيس إتباع الهوى في القواعد الفاسدة"[١] .

ومما يزيد الصورة جلاء لجهة التأويل الاعتزالي في تفسير الزمخشري لفاعل "التزيين" الذي نبه عليها ابن المنير ، ماذكره أبو حيان الأندلسي من تعقيب على كلام الزمخشري بعد سوقه بالنص حيث قال : "وهو جار على مذهب المعتزلة بأن الله تعالى لايخلق الشر ، وإنما ذلك من خلق العبد ، فلذلك تأول التزيين على الخذلان أو على الإمهال"[٢] .

وعبارة صاحب المحرر الوجيز في تقدير فاعل "زين" عبارة وجيزة ودقيقة وواضحة ، إذ قال : "المزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر ، ويزينها أيضا الشيطان بوسوسته وإغوائه"[٣] .

والبيضاوي عدل عما قاله الزمخشري في تقدير الفاعل في هذا الفعل ، فقال : "والمزين على الحقيقة هو الله تعالى ، إذ مامن شئ إلا وهو فاعله ، ويدل عليه قراءة "زين" على البناء للفاعل ، وكل من الشيطان والقوة الحيوانية ، وماخلقه الله فيها من الأمور البهيمية والأشياء الشهوية مزين بالعرض"[٤] .

وهذا العدول من البيضاوي عن كلام الزمخشري ، لم يرق للشهاب الخفاجي لأنه لايرى في كلام الزمخشري مايدفع للعدول عنه ؛ إذ يقول ــ بعد إيراد تفسير الزمخشري ـ : "وليس هذا مبنيا على الاعتزال ، كما زعمه صاحب الانتصاف ، ولامن عدم الفرق بين الفاعل الحقيقي عند أهل العربية وعند المتكلمين ، فإن الفرق بينهما مشهور ،وتفصيله في حواشي العضد للأبهري ، ولكن يبقى النظر في عدول المصنف رحمه الله عن المعنى الذي فسره به الزمخشري ، فإن كان بناء على ماتوهمه صاحب الانتصاف وهو المتبادر من كلامه فغير وارد ، وإن كان لمعنى آخر فلينظر"[٥] .

---

(١) كتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، ضمن تفسير الكشاف (٣٥٤/١) .

(٢) البحر المحيط (١٣٨/٢) .

(٣) المحرر الوجيز (٢٨٤/١) .

(٤) تفسير البيضاوي (٢٩٨/٢) .

(٥) حاشية الشهاب (٢٩٨/٢) .

وقد عد الشهاب الخفاجي تفسير القاضي البيضاوي لفاعل التزيين خطأ ، وذلك نتيجة عدم التأمل في موارد هذه المادة ومعانيها ، ولانعدام التفريق بين الفاعل النحوي والفاعل الكلامي ، والخلط في المقامات ، فقال : "والقاضي أخطأ في المدعى وماأصاب في الدليل"[١] . ثم بعد ذلك بدأ يفصل وجه الخطأ فقال : "أما الأول فلأن التزيين صفة تقوم بالشيطان ، والفاعل الحقيقي لصفة ماتقوم به تلك الصفة ، وليت شعري مايقول هذا القائل في الكفر والضلالة ، وأما الثاني : فلأن مبناه عدم الفرق بين الفاعل النحوي الذي كلامنا فيه والفاعل الكلامي الذي بمعزل عن هذا المقام ، وهذا كله من عدم التأمل ، لأن الله تعالى نسب التزيين إلى نفسه في مواضع ، كقوله ﴿زينا لهم أعمالهم﴾ وفي مواضع إلى الشيطان كقوله ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ ، وفي مواضع ذكره غير مسمى فاعله كما هنا"[٢] . ثم بعد هذا الرد القوي على المصنف فيما ذهب إليه من التفسير ، شرع الخفاجي في تفسيره هو للفاعل المحذوف في هذا الموضع فقال : "فالتزيين إن كان بمعنى إيجادها وإبداعها ذات زينة ، كما في قوله تعالى : ﴿زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ فلاشك أن فاعله هو الله عند النحويين والمتكلمين ، وإن كان بمعنى التحسين بالقول ونحوه من الوسوسة ، كقوله تعالى : ﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم﴾ فلاشك أن فاعله عندهما الشيطان"[٣] .

ويظهر لي أن تفسير الطاهر وتقديره للفاعل المحذوف بأحد الاحتمالين السابقين ، من كونه أمرا خفيا ، أو كونه أمورا كثيرة متعددة ، قد يكون مما سبقت إليه الماحة صاحب البحر المحيط إذ يقول - في تقديرات أخرى بعد تقديره أن الفاعل المحذوف هو لفظ الجلالة ـ : "وقيل : المزين نفوسهم كقوله ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ ، ﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه﴾ ، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ وقيل : شركاؤهم من الجن والإنس ، قال تعالى : ﴿وكذلك زين لكثير من

---

(١) حاشية الشهاب (٢٩٨/٢) .

(٢) ن.م.س .

(٣) ن.م.س .

المشركين﴾ وقال : ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض﴾ وقيل : المزين هذه الحياة الدنيا . قال ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾ وقيل : المزين المجموع"[1] .

وتفسير أبي السعود في هذه الآية وتقديره لفاعل التزيين إنما هو تفسير البيضاوي ، لايكاد يختلف عنه حتى في العبارة ، إذ يقول : "والتزيين من حيث الخلق والإيجاد مستند إلى الله سبحانه كما تعرب عنه القراءة على البناء للفاعل ، إذ مامن شئ إلا وهو خالقه ، وكل من الشيطان والقوى الحيوانية ومافي الدنيا من الأمور البهية ، والأشياء الشهية مزين بالعرض"[2] .

وعلامة اليمن الفقيه الأصولي النحوي المفسر كان تقديره للفاعل المحذوف قريبا من تقدير أبي حيان ، إذ قال : "قوله "زين" مبني للمجهول ، والمزين هو الشيطان أو الأنفس المجبولة على حب العاجلة"[3] .

وتفسير علامة بغداد محمود الألوسي هو تفسير ابن عطية والشهاب الخفاجي في تقدير فاعل الفعل "زين" ، إذ قال : "﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أي : أوجدت حسنة وجعلت محبوبة في قلوبهم فتهافتوا عليها تهافت الفراش على النار وأعرضوا عما سواها . ولذا أعرض أهل الكتاب عن الآيات وبدلوها ، وفاعل التزيين بهذا المعنى حقيقة هو الله تعالى ، وإن فسر بالتحسين بالقول ونحوه من الوسوسة كما في قوله تعالى ﴿لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم﴾ كان فاعل ذلك هو الشيطان ، والآية محتملة المعنيين"[4] .

وقد أرجأت تفسير الإمام فخر الدين الرازي ، لأختم به هذا التطواف بين ثنايا رياض التفاسير ، وخبايا أفكار النحارير ، لأجل إطالته المعهودة في بحث المسائل ، ومناقشته المستفيضة في الردود ، التي تعتمد على المحاورات المنطقية ، والرسوم الصورية ، والقضايا والبراهين العقلية ، فلقد أفاض فيما يقارب صفحتين

---

(١) البحر المحيط (١٣٨/٢) .

(٢) تفسير أبي السعود (٢١٣/١) .

(٣) فتح القدير (٢٦٦/١) .

(٤) روح المعاني (١٠٠/٢) .

اثنتين في تقدير هذا الفاعل المحذوف ، فبدأ بتقدير أبي علي الجبائي[(١)] في تفسيره حيث قدر الفاعل المحذوف غواة الجن والإنس الذين زينوا للكفار الحرص على الدنيا وقبحوا أمر الآخرة في أعينهم ، ومنع الجبائي أن يكون الفاعل هو الله بما زعمه من قياس عقلي لايثبت للمناقشة العلمية الجادة ولاللبحث الواعي المستنير .

فرد عليه تقديره هذا فخر الدين الرازي بأن قوله تعالى ﴿زين للذين كفروا﴾ يتناول جميع الكفار ، والمزين لجميع الكفار مغاير لهم إلا أن يقال : إن كلا منهم يزين للآخر ، فيلزم على ذلك الدور ، فثبت أن المزين مغاير لهم ، وبطل تقديره بغواة الإنس والجن .

وثنى الإمام الرازي بإيراد تأويل آخر هو أن المزين في قوله ﴿زين للذين كفروا﴾ هم الكفرة أنفسهم زينوا لأنفسهم المريضة مازينوا من أمور تودي بهم إلى الهلاك ، وهذا التقدير يجري على سنن العرب في كلامهم ، إذ يقولون لمن يبعد عنهم أين يذهب بك؟ ولايريدون أن ذاهبا يذهب به بل هو نفسه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[(٢)] ، ﴿أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾[(٣)] ، ويوضح هذا قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[(٤)] ، فأضاف هذا الأمر إلى المال والولد لما كانا السبب ، ولما كان الشيطان ليس باستطاعته إرغام الإنسان على المعصية .

ورده الإمام أيضا ووصفه بالضعف ، لأن الفعل "زين" يقتضي فاعلا محذوفا غير الذين كفروا المذكور ، وفي هذا عدول عن الحقيقة إلى المجاز ، وهذا لايصح .

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد الجبائي المعتزلي ، يكنى بأبي علي ، من علماء الكلام والتفسير ، من آثاره : تفسير القرآن ، توفي ٣٠٣هـ .
ينظر : البداية والنهاية (١١/١٢٠) ، طبقات المفسرين للسيوطي (ص٨٨) ، روضات الجنات (ص٦٧١) .

(٢) سورة المائدة : آية (٧٥) .

(٣) سورة غافر : آية (٦٩) .

(٤) سورة المنافقون : آية (٩) .

وأورد الإمام الرازي تأويلا ثالثا أو بالأصح تقديرا ثالثا للفاعل المحذوف في الفعل "زين" ، وهو أن يكون المزين هو الله سبحانه وتعالى ، واستحسن تقدير من قدره هذا التقدير ، واستشهد على صحته بوجهين اثنين ، أحدهما نقلي وهو قراءة من قرأ[1] الآية الكريمة بالبناء للفاعل (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) ، فإن ضمير الفاعل المستتر في "زين" يعود على لفظ الجلالة المذكور في الآية التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[2] .

ثانيهما : عقلي - إذا جاز التعبير - أي : من جهة المعنى — وقد استشهد له من القرآن الكريم بما يفيد في المعنى أن الله هو الذي جعل الحياة الدنيا زينة ، كقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[3] .

ثم بين أن هؤلاء القائلين بأن المزين هو الله سبحانه وتعالى ذكروا ثلاثة أوجه في تأويل معنى الآية الكريمة :

الأول : إنما زين الله الحياة الدنيا بما خلق فيها من أمور تستهوي النفوس والقلوب ابتلاء وامتحانا ، فركب في الطباع مايدفعهم للميل لها على سبيل التحبيب لاعلى سبيل الإلجاء .

الثاني : المراد بتزيين الله للدنيا أمهالهم فيها وعدم منعه لهم عنها ، فهذا الإمهال هو المراد بالتزيين .

الثالث : أن الله زين من الحياة الدنيا ماكان فيها من المباحات دون المحظورات ، وهذا وجه ضعيف ؛ لأن التزيين واقع أيضا في المحظورات .

---

(١) الذي قرأ بالبناء للفاعل "زين" هو ابن محيصن ، وهي من القراءات الشواذ .
ينظر : إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي (ص١٥٦) ، الميسر في القراءات الأربعة عشرة (ص٣٣) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢١١) .

(٣) سورة الكهف : آية (٧) .

وقد أشار الفخر الرازي إلى أن هذه الوجوه من التفسير في الآية الكريمة ما ذكره المعتزلة في تفاسيرهم ، وأن الوجه المختار عنده ، هو أن يكون الفاعل المحذوف هو لفظ الجلالة ، فيكون المزين هو الله سبحانه وتعالى الذي خلق ماعلى الأرض زينة لها على سبيل التحبيب للعباد لاعلى سبيل الإلجاء ، ابتلاء واختبارا وامتحانا ، بما يتفق مع الوجه الأول في ذلك ، ويختلف معه في أن الخالق لأفعال العباد ليس إلا الله[1] .

وهكذا تبدو الصورة جلية في الاختلاف بين العلماء في تقدير الفاعل المحذوف الذي تباينت تقديراتهم له بشكل عام ، بغض النظر عن الموافقة الجزئية في بعض الأحيان .

وتلك التقديرات إنما هي تقديرات نوعية في مجملها وليست ضدية ، تثري الجملة القرآنية ، وتزيد في وفرة المعاني المفهمة لها ، وتبعث في نفس المطلع عليها الزخم الهائل الذي توحي به معاني هذا الكتاب العزيز ، كما تشير من جهة أخرى إلى بعد مرامي أنظار المفسرين ، وصدق قدمهم في العلم وطول باعهم فيه ، وتقادح أوار فكرهم في الترجيحات بما يستندون إليه مما يعتمد عليه ، وتشير أيضا إلى خفايا معتقدات بعض الفرق الإسلامية من التأويلات المبينة عنها .

ولأجل ذين الجانبين العقدي والبلاغي ـ وهما مهمان وثريان ـ استدعيا مني الإطالة ، والبيان عن هذا الحذف الوارد في الجملة القرآنية الكريمة .

ومن أغراض الحذف أيضا تعين المحذوف وعدم احتمال غيره .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة هود : ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾[2] .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : "وبناء فعل "قيل" للمفعول هنا اختصار لظهور فاعل القول ؛ لأن مثله لايصدر إلا من الله ، والقول هنا أمر تكوين"[3] .

---

(١) ينظر : مفاتيح الغيب (٦/٦) ومابعدها .

(٢) سورة هود : آية (٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٧٨) .

وهذا الغرض الذي ذكره ابن عاشور سبقت إشارة الزمخشري له ، مع إضافة غرضين آخرين هما دلالة الحذف في هذا الموضع على الجلال والكبرياء ، ولعل اطراح ابن عاشور لهذين الغرضين أصوب من تسجيلهما ، لأن ذكر لفظ الجلالة يكون أكثر بيانا وإفادة لتلك المعاني المفهومة منه كالجلال والكبرياء والعظمة والعز والمنعة والقوة والجبروت والألوهية ...الخ ، من بناء الفعل للمفعول .

قال صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية : "ومجئ إخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لاتكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأن فاعلها فاعل واحد لايشارك في أفعاله ، فلايذهب الوهم إلى أن يقول غيره : ياأرض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي ، ولاأن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ، ولاأن تستوي السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره"[1] .

وصاحب المحرر الوجيز ذكر الغرضين في هذا الحذف اللذين امتنع عنهما التحرير والتنوير ، بل جعلهما يشملان جميع الأفعال المبنية للمفعول الواردة في الآية الكريمة ، إذ قال : "وقوله تعالى ﴿وقيل ياأرض ابلعي ماءك﴾ الآية ، بناء الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت ، وكذلك بناء الأفعال بعد ذلك في سائر الآية ، وروي أن أعرابيا سمع هذه الآية فقال : هذا كلام القادرين"[2] .

ولم يذكر ابن عطية غير هذين الغرضين في حذف الفاعل في "قيل" ، ولم يشفعه بغرض التعيين كما فعل علامة خوارزم .

وربما رأى أن غرض التعيين في مثل هذا المقام أوضح من أن يشار إليه ، على أنه هو الغرض الذي كان الأولى رصده وتسجيله .

وقد تابع البيضاوي الكشاف فيما رآه ، غير أن عبارته لها إيحاءاتها ، إذ قال "وإيراد الإخبار على البناء للمفعول للدلالة على تعظيم الفاعل ، وأنه متعين في

(١) الكشاف (٢/٢٧١) ومابعدها .
(٢) المحرر الوجيز (٣/١٧٥) .

نفسه ، مستغنى عن ذكره ، إذ لايذهب الوهم إلى غيره ، للعلم بأن مثل هذه الأفعال لايقدر عليها سوى الواحد القهار"[١] .

وقد اقتصر الشهاب الخفاجي على غرض التعيين و لم يعد غيره ، وعدل عما قاله البيضاوي وقبله الكشاف في إفادة هذا الحذف الغرضين الآخرين فقال الخفاجي "قوله "وإيراد الإخبار على البناء للمفعول الخ" يعني أن الفاعل قد يترك ويبنى للمجهول لتعينه ، لأن تلك الصفات لاتليق بغيره حقيقة أو ادعاء . وقد صرح الشعراء بهذا المعنى ، وتشبثوا به ، كما قال أبو نواس :

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذي نعني"[٢]

وكأني بابن عاشور قد اطلع على ماقاله الشهاب الخفاجي في هذا الموضع ، فرأى مايؤيده في وجهته التي توجه إليها ، ولاأقول رأى مااستحسنه فنقله .

بينما الحاشية الأخرى على البيضاوي وهي حاشية محيي الدين شيخ زادة تابعت البيضاوي فيما رأي ، إذ قال شيخ زادة : "قوله "وإيراد الإخبار" وهي قوله وغيض الماء ، وقضي ، وقيل ، على البناء للمفعول للدلالة على غاية العظمة والجلال بحيث إذا ذكرت هذه الأفعال مسندة إلى المفعول لاينصرف الفعل إلا إليه"[٣] .

ولايقع في الخاطر أو يجري في الخيال أن إفادة الجلال والكبرياء والتعظيم من حذف الفاعل في أفعال هذه الآية مما قاله الإمام عبد القاهر الجرجاني في تحليله البياني لهذه الآية ، لأن كلامه لو كان مفيدا لذلك لاستشهد به ، ولأن ابن عاشور كتب تعليقات على الدلائل ، ولو أفهم كلام الإمام عبد القاهر هذا المعنى لأشار إليه ، ولأن كلام الإمام عند التأمل يفيد أن هذه الأفعال لاتصدر إلا عن الله ، إذ قال في حذف الفاعل فيها : "﴿وغيض الماء﴾ فجاء الفعل على صيغة "فُعِل" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة قادر"[٤] .

---

(١) تفسير البيضاوي (١٠٢/٥) .

(٢) حاشية الشهاب (١٠٢/٥) .

(٣) حاشية الشيخ زادة (٤٧/٣) .

(٤) دلائل الإعجاز (ص٤٦).

ونحو هذا الآية في إفادة الحذف التعيين قوله تعالى : ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[١] .

ومن أغراض الحذف أيضا أن يكون التركيب جاريا مجرى المثل .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة الأنعام : ﴿قُل لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وتركيب "قضي الأمر" شاع فجرى مجرى المثل ، فحذف الفاعل ليصلح التمثل به في كل مقام ، ومنه قوله : ﴿قضي الأمر الذي فيه تستفيتان﴾ ، وقوله ﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ ، وقوله ﴿وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر﴾ ؛ ولذلك إذا جاء في غير طريقة المثل يصرح بفاعله كقوله تعالى : ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾"[٣] .

وقد جرى النظم الكريم على هذا التركيب "قضي الأمر" في سبعة مواضع هي :

(١) ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾[٤]

(٢) ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾[٥] .

(٣) ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[٦] .

(٤) ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٧]

(٥) ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾[٨] .

---

(١) سورة النساء : آية (٢٨) .

(٢) سورة الأنعام : آية (٥٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٦٩/٧) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢١٠) .

(٥) سورة الأنعام : آية (٨) .

(٦) سورة هود : آية (٤٤) .

(٧) سورة يوسف : آية (٤١) .

(٨) سورة إبراهيم : آية (٢٢) .

(٦) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾[١] .

والآية السابعة هي الآية التي نحن بصددها وهي آية سورة الأنعام[٢] .

وهناك اثنتا عشرة آية ورد فيها الفعل "قضى" بدون كلمة "الأمر"[٣] ، كما مثل ابن عاشور في كلامه الآنف الذكر بقوله تعالى : ﴿وَلَوْلا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[٤] .

ويظهر لي أن هذه الصورة من التركيب لاتجري مجرى المثل ، وإن عدها ابن عاشور منه ؛ لأن صيغة المثل لابد أن تكون مستقلة بذاتها وهذا متوافر في "قضي الأمر" بخلاف "قضى" المستتر فيها الضمير ، فتبين الفرق .

والذي يدل على أن هذا التركيب يجري كالمثل ماورد في سورة يوسف في قوله تعالى : ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾[٥] على أن المستفتي اثنان ، والأمر أمرهما ، قال صاحب الكشاف : "فإن قلت : ماستفتيا في أمر واحد بل في أمرين مختلفين فما وجه التوحيد؟ قلت : المراد بالأمر ماتهم به من سم الملك وماسجنا من أجله ، وظنا أن مارأياه في معنى مانزل بهما ، فكأنهما كانا يستفتيانه في الأمر الذي نزل بهما أعاقبته نجاة أم هلاك . فقال لهما : قضي الأمر الذي فيه تستفيان ، أي : مايجر إليه من العاقبة وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر"[٦] ، وهناك وجوه أخرى[٧] غير ماذكره الزمخشري .

وعلامة بغداد محمود الألوسي يرى أن الحذف في آية سورة الأنعام يفيد ثلاثة أغراض ، إذ قال : "وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيين الفاعل الذي هو الله جلت عظمته وتهويل الأمر ، ومراعاة حسن الأدب مالايخفى"[٨] .

---

(١) سورة مريم : آية (٣٩) .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٥٤٧) مادة (قضى) .

(٣) ن.م.س .

(٤) سورة الشورى : آية (٢١) .

(٥) سورة يوسف : آية (٤١) .

(٦) الكشاف (٣٢١/٢) ومابعدها .

(٧) روح المعاني (٢٤٦/١٢) ومابعدها .

(٨) روح المعاني (١٧٠/٧) .

وهذه نكت بلاغية ترد في مرجح الحذف في الآية ، إضافة إلى نكتة الحذف التي جعلت التركيب يجري مجرى المثل ، وقد أشار إليها الألوسي في آية سورة يوسف المذكورة آنفا حين قال : "وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة"(١) .

وقد نبه ابن عاشور على صورة من التركيب تجرى مجرى المثل ، لم يسبقه إلى التنبيه عليها أحد من المفسرين ، عند تفسيره قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "ومعنى "لم تفعل" لم تفعل ذلك وهو تبليغ ماأنزل إليك ، وهذا حذف شائع في كلامهم ، فيقولون : فإن فعلت أو فإن لم تفعل . قال تعالى : ﴿ولاتدع من دون الله مالاينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين﴾ أي إن دعوت مالاينفعك ، يحذفون مفعول فعلت و لم تفعل لدلالة ماتقدم عليه ، وقال تعالى : ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ في سورة البقرة ، وهذا مما جرى مجرى المثل فلايتصرف فيه إلا قليلا"(٣) .

ومن أغراض الحذف العلم بالمحذوف .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾(٤) .

قال ابن عاشور : "وجملة "لئن أنجانا" في محل نصب قول محذوف ، أي : قائلين ، وحذف القول كثير في القرآن إذا دلت عليه قرينة الكلام"(٥) .

ومن حذف القول في القرآن الكريم أيضا ماورد في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾(٦) .

---

(١) روح المعاني (١٢/٢٤٦) .
(٢) سورة المائدة : آية (٦٧) .
(٣) التحرير والتنوير (٦/٢٦٢) .
(٤) سورة الأنعام : آية (٦٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٧/٢٨١) .
(٦) سورة الأنعام : آية (٩٣) .

قال ابن عاشور : "وجملة "أخرجوا أنفسكم" مقول لقول محذوف ، وحذف القول في مثله شائع والقول على هذا من جانب الله تعالى ،والتقدير : نقول لهم : أخرجوا أنفسكم"[١] .

ونحوه ماورد في تفسير آية سورة آل عمران : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وقوله : "أكفرتم" مقول قول محذوف يحذف مثله في الكلام لظهوره ، لأن الاستفهام لايصدر إلا من مستفهم ، وذلك القول هو جواب أما ، ولذلك لم تدخل الفاء على "أكفرتم" ليظهر أن ليس هو الجواب ، وأن الجواب حذف برمته"[٣] .

ومنه أيضا مارآه في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وقد دلت كلمة "بين" على محذوف تقديره وآخر ، لأن بين تقتضي شيئين فأكثر"[٥] .

وهذا التقدير ماارتضاه الطاهر خروجا من تقديرات متعددة[٦] في بيان وجه المعنى في تركيب الآية الكريمة وهو ماسبقت إشارة ابن عطية إليه ، إذ قال : "وفي الكلام حذف تقديره : بين أحد منهم وبين نظيره ، فاختصر لفهم السامع"[٧] .

ومن الحذف للعلم به مارآه في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾[٨] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٧٩/٧) .
(٢) سورة آل عمران : آية (١٠٦) .
(٣) التحرير والتنوير (٤٥/٤) .
(٤) سورة البقرة : آية (١٣٦) .
(٥) التحرير والتنوير (٧٤٠/١) .
(٦) ينظر : روح المعاني (٣٩٥/١) ومابعدها .
(٧) المحرر الوجيز (٢١٥/١) .
(٨) سورة الأعراف : آية (٢) .

قال ابن عاشور عند تفسير هذه الآية : "وصيغ فعل "أنزل" بصيغة النائب عن الفاعل اختصارا للعلم بفاعل الإنزال ، لأن الذي ينزل الكتاب على الرسل هو الله تعالى"[١] .

وربما قيل ـ أيضا في حذف الفاعل هنا ـ إضافة إلى النكتتين اللتين هما الاختصار والعلم بالفاعل ، نكتة ثالثة وهي تعين الفاعل ، لأن هذا الفعل لايكون إلا من الله ، وهذا ماذكره الألوسي إذ قال : "وبنى الفعل للمفعول ... لغاية ظهور تعينه"[٢] .

ومن أغراض الحذف عدم تعلق غرض بذكر المحذوف .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة يوسف : ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وحذف من الكلام ذكر إرساله ومشيه ووصوله ، إذ لاغرض فيه من القصة"[٤] .

فالمحذوف هنا عدة جمل وليس مفردات .

وقد سبقت من علامة خوارزم إلماحة ، حين قال : "المعنى : فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال : ﴿يوسف أيها الصديق﴾"[٥] .

ومن هذا الحذف أيضا ماورد في تفسير قول الله تعالى في سورة الشورى : ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ﴾[٦] .

قال ابن عاشور : "وبنى فعل "يعرضون" للمجهول ، لأن المقصود حصول الفعل لاتعيين فاعله"[٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٨) .

(٢) روح المعاني (٧٥/٨) .

(٣) سورة يوسف : آية (٤٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨٤/١٢) .

(٥) الكشاف (٣٢٤/٢) .

(٦) سورة الشورى : آية (٤٥) .

(٧) التحرير والتنوير (١٢٦/٢٥) .

ومن أغراض الحذف الاستيعاب مع الإيجاز .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة الذاريات : ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وإنما حذف فاعل "يؤفك" وأبهم مفعوله بالموصولية للاستيعاب مع الإيجاز"(٢) .

فالمفيد للاستيعاب التركيب ، وليس حذف الفاعل فقط ، بل هو حذف الفاعل وإبهام الموصول أي مجموع هذين الأمرين ، فللفاعل حظه في إفادة هذا الغرض ؛ لذا ذكرته في هذا المقام .

ومن أغراض الحذف التنزيه والتعظيم .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلا مَعْرُوفًا﴾(٣) .

قال ابن عاشور : "وحذف متعلق "فيطمع" تنزها وتعظيما لشأن نساء النبي ﷺ مع قيام القرينة"(٤) .

فحذف المتعلق ـ بصيغة اسم الفاعل ـ والتقدير : "فيكن" وهو متعلق بالفعل "فيطمع" ، وقد تنبه إليه ابن عاشور بفطنة شديدة ، جعلته يقيد هذا الغرض البلاغي الذي يفيد تعظيم أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وأرضاهن ، وتنزيههن عن أن يكن هدفا لمرضى القلوب ، ومطمعا لأصحاب الهوى .

ومن أغراض الحذف إفادة الكمال .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٥) .

قال ابن عاشور : "وحذف المتعلق للإشارة إلى أنهم افلحوا فلاحا كاملا"(٦) .

---

(١) سورة الذاريات : آية (٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٤٣/٢٦) .

(٣) سورة الأحزاب : آية (٣٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٩/٢٢) .

(٥) سورة المؤمنون : آية (١) .

(٦) التحرير والتنوير (٨/١٨) .

ولم أر غير شاهد واحد في كلامه لهذا الغرض والغرضين السابقين ، وليس ثمة شاهد في كلام غيره من المفسرين .

ومن أغراض الحذف الإيجاز ورعاية الفاصلة .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة القمر : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وحذف متعلق "فانتصر" للإيجاز وللرعي على الفاصلة ، والتقدير : فانتصر لي ، أي انصرني"[٢] .

ولايخفى أن غرض رعاية الفاصلة غرض لفظي لايمكن أن يكون من الأغراض التي تكون كافية وحدها بمقاصد النظم القرآني اللهم إلا أن يشفع بغرض آخر معنوي .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة طه : ﴿قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾[٣] .

قال ابن عاشور ـ في أحد احتمالات حذف متعلق يطغى ـ : "وحذف متعلق "يطغى" فيحتمل أن حذفه لدلالة نظيره عليه ، وأوثر بالحذف لرعاية الفواصل ، والتقدير : أو أن يطغى علينا"[٤] .

وقد سبق[٥] في باب التقديم أن اعتذر الباحث للعلامة ابن عاشور في إفراده نكتة رعاية الفاصلة بالغرض .

ومن أغراض الحذف الإيجاز .

وهذا من الأغراض العامة للحذف ، ولكن ابن عاشور ذكره ولايخفى مافيه من النظر .

---

(١) سورة القمر : آية (١٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٢/٢٧) .

(٣) سورة طه : آية (٤٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٢٧/١٦) .

(٥) ينظر باب التقديم (ص١٧٣) .

فمن هذا الحذف ماتفصح عنه الفاء المسماة بالفصيحة[(١)] ، وهي الدالة على محذوف قبلها هو سبب لما بعدها ، ومنها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[(٢)] والمراد بها الثانية الواقعة في جملة "فانفجرت" ، والتقدير : فضرب فانفجرت .

وذكر ابن السبكي أن الطيبي نقل عن الحواشي المنسوبة للزمخشري أن هذه الفاء سميت بالفصيحة لدلالتها على فصاحة المتكلم واستعماله لها في كلامه[(٣)] .

وقال الدسوقي : سميت بالفصيحة لإفصاحها عن الجملة المقدرة قبلها ودلالتها عليها ، سواء كانت هذه الفاء عاطفة أو رابطة لجواب الشرط[(٤)] ، وهذه طريقة الجمهور[(٥)] .

ولابن عاشور رأيه النحوي والبلاغي في هذه الفاء ، إذ يقول : "وعندي أن الفاء لاتعد فاء فصيحة إلا إذا لم يستقم عطف مابعدها على ماقبلها ، فإذا استقام فهي الفاء العاطفة ، والحذف إيجاز"[(٦)] .

وهكذا يبدي رأيه ابن عاشور في الفاء الفصيحة بأنها ليست عاطفة ، ولكنه لايلبث في تفسيره أن يعد الفاء العاطفة فاء فصيحة ، ويتفق مع الجمهور في رأيهم وفيما ذهبوا إليه من عدها كذلك ، ويطرح وجهة نظره ولايلتزم بها ، ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾[(٧)] .

قال ابن عاشور : "عطفت "الفاء" جملة فذبحوها على مقدر معلوم وهو فوجدوها أو فظفروا بها أو نحو ذلك . وهذا من إيجاز الحذف الاقتصاري ، ولما

---

(١) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (١٩٨/٣) ومابعدها .
(٢) سورة البقرة : آية (٦٠) .
(٣) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (١٩٨/٣) ومابعدها .
(٤) ينظر : حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (١٩٩/٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٥١٩/١) .
(٦) ن.م.س .
(٧) سورة البقرة : آية (٧١) .

ناب المعطوف في الموقع عن المعطوف عليه صح أن نقول : الفاء فيه للفصيحة ، لأنها وقعت موقع جملة محذوفة فيها فاء للفصيحة ، ولك أن تقول : إن فاء الفصيحة ماأفصحت عن مقدر مطلقا"[١] .

ويظهر للوهلة الأولى أن هذا محض التناقض في آراء صاحب التحرير والتنوير ولكن الأمر على خلاف ذلك ؛ لأن ابن عاشور التزم التقيد بطريقة الجمهور وسار عليه ، حتى في ذلك الموضع الذي أبدى فيه رأيه في الفاء الفصيحة ، فهو إذن لم يسر على منهج ويخل به ، وهو لايعدو أن يكون قد سجل رأيه في الفاء الفصيحة .

وقبل هذه الفاء يحذف أيضا الشرط وجوابه جميعا للإيجاز ، ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وقوله "فلن يخلف الله عهده" الفاء فصيحة دالة على شرط مقدر وجزائه . ومابعد الفاء هو علة الجزاء . والتقدير : فإن كان ذلك فلكم العذر في قولكم ؛ لأن الله لايخلف عهده"[٣] .

وقد يحذف الشرط وحده ويبقي الجواب مذكورا في الجملة القرآنية ، ففي تفسير قول الله تعالى في سورة الشورى : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "والفاء في قوله : "فالله هو الولي" فاء جواب لشرط مقدر دل عليه مقام إنكار اتخاذهم أولياء من دون الله ، لأن إنكار ذلك يقتضي أن أولياءهم ليست جديرة بالولاية ، وأنهم ضلوا في ولايتهم إياها ، فنشأ تقدير شرط معناه : إن أرادوا وليا بحق فالله هو الولي"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٥٥٦/١) .
(٢) سورة البقرة : آية (٨٠) .
(٣) التحرير والتنوير (٥٨٠/١) .
(٤) سورة الشورى : آية (٩) .
(٥) التحرير والتنوير (٤٠/٢٥) .

ثم ساق كلام السكاكي في المفتاح حول حذف الشرط في هذه الآية فقال : "قال السكاكي في المفتاح : "وتقدير الشرط لقرائن الأحوال غير ممتنع ، قال تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾ على تقدير إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ، وقال ﴿فالله هو الولي﴾ على تقدير : إن أرادوا وليا بحق فالله هو الولي بالحق لاولي سواه""[(١)] .

وقد يعكس الأمر السابق ، فيحذف الجواب ويبقى الشرط ، نحو تفسير قول الله تعالى في سورة النساء : ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : " و"لو آمنوا" شرط حذف جوابه لدلالة ماقبله عليه ، وقد قدم دليل الجواب اهتماما بالاستفهام ، كقول قتيلة بنت الحارث :

ماكان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

ومن هذا الاستعمال تولد معنى المصدرية في "لو" الشرطية ، فأثبته بعض النحاة في معاني "لو" وليس بمعنى "لو" في التحقيق ، ولكنه ينشأ من الاستعمال . وتقدير الكلام : لو آمنوا ماذا الذي كان يتعبهم ويثقلهم ، أي : لكان خفيفا عليهم ونافعا لهم ، وهذا من الجدل بإراءة الحالة المتروكة أنفع ومحمودة"[(٣)] .

وتعرضه لحرف "لو" وأنه حرف غير مصدري على التحقيق هذه مسألة نحوية ليست من قضايا هذا المجال ، والذي من قضايا هذا المقام حذف جواب الشرط في الآية الكريمة ، وقد وردت آيات كثيرة على نحو هذا الضرب ، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[(٤)] .

---

(١) التحرير والتنوير . وينظر المفتاح (ص١٣٤) . وفي نسخة التي لدي من كتاب "المفتاح" ليس فيها : "وتقدير الشرط لقرائن الأحوال غير ممتنع" .

(٢) سورة النساء : آية (٣٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٥٤/٥) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٩٣) .

قال ابن عاشور : "وقوله ﴿فلاعدوان إلا على الظالمين﴾ قائم مقام جواب الشرط ، لأنه علة الجواب المحذوف ، والمعنى : فإن انتهوا عن قتالكم و لم يقدموا عليه فلا تأخذوهم بالظنة ، ولاتبدؤهم بالقتال ، لأنهم غير ظالمين ، وإذ لاعدوان إلا على الظالمين ، وهو مجاز بديع"(١) .

ومنه أيضا ماورد في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢) .

أي : إن كنتم صادقين فأتوا بالتوراة .

وقد أشار الطاهر إلى أسلوب قرآني يكثر فيه حذف الجواب ، ففي تفسير قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣) .

قال ابن عاشور : "وجواب "فلما أسلما" محذوف دل عليه قوله "وناديناه" وإنما جئ به في صورة العطف إيثارا لما في ذلك من معنى القصة على أن يكون جوابا ، لأن الدلالة على الجواب تحصل بعطف بعض القصة دون العكس ، وحذف الجواب في مثل هذا كثير في القرآن ، وهو من أساليبه"(٤) .

ثم ذكر مثل هذا الأسلوب في آية سورة يوسف وهي قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/٢٠٩) .
(٢) سورة آل عمران : آية (٩٣) . وينظر : التحرير والتنوير (٤/١٠) .
(٣) سورة الصافات : آية (١٠٣-١٠٥) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٣/١٥٥) .
(٥) سورة يوسف : آية (١٥-١٦) . وينظر : التحرير والتنوير (٢٣/١٥٥) .

ومن أغراض الحذف أيضا التفخيم والتهويل كي تذهب النفس في تصويره كل مذهب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وجواب "لو" محذوف لقصد التفخيم وتهويل الأمر لتذهب النفس في تصويره كل مذهب ممكن ، ونظيره ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت﴾ ، ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ، ﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾"[٢] .

وقد أوضح علامة تونس وجه مجئ هذا الغرض لما أورد كلام شارح الحماسة إذ قال : "قال المرزوقي عند قول الشميذر الحارثي :

وقد ساءني ماجرت الحرب بيننا بني عمنا لو كان أمرا مدانيا

: (حذف الجواب في مثل هاته المواضع أبلغ وأدل على المراد ، بدليل أن السيد إذا قال لعبده : لئن قمت إليك ثم سكت تزاحم على العبد من الظنون المعترضة للتوعد مالايتزاحم لو نص على ضرب من العذاب)"[٣] .

وتقدير الجواب في آية سورة البقرة : أي : لرأوا أمرا عظيما[٤] . أو : لوقعوا من الحسرة والندامة فيما لايكاد يوصف[٥] .

وهكذا تتضح إفادة الحذف في جواب "لو" لغرض التفخيم والتهويل الذي تذهب النفس فيه كل مذهب في هذه الآية الكريمة ومثيلاتها إلا أنه قد يخفى في آية سورة الرعد وهي قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ

---

(١) سورة البقرة : آية (١٦٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٩٤/٢) ومابعدها .

(٣) التحرير والتنوير (٩٤/٢) ومابعدها . وينظر : شرح الحماسة للمرزوقي (١٢٦/١) .

(٤) ينظر : ن.م.س .

(٥) ينظر : روح المعاني (٣٥/٢) .

الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[١] لأن التقدير في هذه الآية الكريمة لكان هذا القرآن .

"فكيف تذهب النفس في الجواب كل مذهب؟ وليس لها في التعرف على الجواب إلا مذهب واحد ، لأن ماتقدم في جملة الشرط يشير إلى أن الجواب لايكون إلا هذا القرآن"[٢] .

والجواب على مثل هذا الطرح هو أن "ذلك من حيث الإشارة الواضحة في الشرط إلى أن الكلام فيه من القوة والطاقة الهائلة مايجعله أقوى من الجبال والأرض والحياة والموت ، فهو كلام تسير به الجبال لأنه أقوى منها ، وتقطع به الأرض كذلك ، وتبطل به أعظم النواميس وأجلها وأغمضها حين تكلم به الموتى ، والكلام الذي هذا حاله لابد أن يكون كلام ذا قدرة فوق الجبال والأرض والكون ولايكون هذا إلا كلام الله ؛ لأن الكلمة إنما تحمل طاقة قائلها ، ولايكون كلام يحمل هذه القدرات الهائلة منبعثة به نفس ليس لها هذه القدرات"[٣] .

ومن هذا القبيل الذي تذهب فيه النفس كل مذهب حذف جواب القسم ، نحو ماورد في تفسير سورة ق في قوله تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وجواب القسم محذوف ، لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام ، فيدل عليه ابتداء السورة بحرف (ق) المشعر بالنداء على عجزهم عن معارضة القرآن بعد تحديهم بذلك ، أو يدل عليه الاضراب في قوله ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم﴾"[٥] .

ثم بعد ذلك ، أخذ ابن عاشور يقدر هذا الجواب المحذوف فيقول : "والتقدير : والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق ، كما صرح به في قوله

---

(١) سورة الرعد : آية (٣١) .

(٢) الإعجاز البلاغي ، د. محمد أبو موسى (ص٩٢) .

(٣) ن.م.س .

(٤) سورة ق : آية (١-٢) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/٢٧٧) .

﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . أو يقدر الجواب : إنه لتنزيل من رب العالمين ، أو نحو ذلك كما صرح به في نحو ﴿حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ ونحو ذلك ، والإضراب الانتقالي يقتضي كلاما منتقلا منه ، والقسم بدون جواب لايعتبر كلاما تاما ، فتعين أن يقدر السامع جوابا تتم به الفائدة يدل عليه الكلام"(١) .

ومما رآه ابن عاشور من هذا القبيل قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "فقوله ﴿يوم يجمع﴾ ظرف ، والأظهر أنه معمول لعامل محذوف يقدر بنحو : اذكر يوم يجمع الله الرسل ، أو يقدر له عامل يكون بمنزلة الجواب للظرف ، لأن الظرف إذا تقدم يعامل معاملة الشرط في إعطائه جوابا ، وقد حذف هذا العامل لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن من التهويل ، تقديره يوم يجمع الله الرسل يكون هول عظيم لايبلغه طول التعبير فينبغي طيه ..." (٣) .

والذي يهمنا في هذا المقام هو ماذكره من معاملة الظرف كالشرط وأن له جوابا محذوفا ، لقصد التهويل حتى تذهب فيه النفس كل مذهب ممكن .

وهذا الاحتمال في الآية الكريمة ألمح إليه الزمخشري في تفسيره إذ قال : "﴿يوم يجمع﴾ بدل من المنصوب في قوله ﴿واتقوا الله﴾ وهو من بدل الاشتمال ، كأنه قيل : واتقوا الله يوم جمعه ، أو ظرف لقوله ﴿لايهدي﴾ أي : لايهديهم طريق الجنة يومئذ كما يفعل بغيرهم ، أو ينصب على إضمار اذكر ، أو يوم يجمع الله الرسل كان كيت كيت"(٤) .

وربما يكون هذا الاحتمال ليس مرجوحا فحسب بل هو ضعيف ، لأن تقدير العامل المتأخر المحذوف قليل تقديره في الظروف ، وهذا يفضي بنا إلى القول

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٢٧٧) .
(٢) سورة المائدة : آية (١٠٩) .
(٣) التحرير والتنوير (٧/٩٨) ومابعدها .
(٤) الكشاف (١/٦٥٢) .

بأن معاملة الظروف معاملة الشرط قل ورودها إن لم يكن ندر إضافة إلى أن هذا الوجه الإعرابي قل المستحسنون له من أئمة المعاني وعلماء النحو من المفسرين ، فالبيضاوي الذي لخص الكشاف ومفاتيح الغيب لم يذكره و لم يشر إليه[١] ، والشهاب الخفاجي رغم أنه ينقل كلام الكشاف فيما يغفل عنه المصنف مما يستحق النقل إلا أنه لم يحفل بهذا التقدير و لم يشر إليه[٢] ، والعلامة النسفي يكثر في تفسيره من الإشارة إلى الأوجه الإعرابية لم يسجله في تفسيره[٣] ، وصاحب البحر المحيط وإن أشار إليه إلا أنه لم يستحسنه واستحسن غيره فقال : "والذي نختاره غير ماذكروا ، وهو أن يكون "يوم" معمولا لقوله "لاعلم لنا" أي : قال الرسل وقت جمعهم وقول الله ماذا أجبتم ..." [٤] .

وعلامة بغداد محمود الألوسي ذكره بصيغة التمريض ، فقال ـ في إعراب كلمة "يوم" ـ : "وقيل : منصوب بفعل مؤخر حذف للدلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه لكمال فظاعة مايقع فيه ، كأنه قيل : يوم يجمع الله الرسل ..الخ يكون من الأحوال والأهوال مالايفي ببيانه نطاق المقال"[٥] .

وهكذا يبدو لي أن هذا الإعراب لم يلق قبولا بين الأئمة ، وإن أورده بعضهم في تفسيره كأبي حيان والسمين الحلبي[٦] ومحمود الألوسي . فإنما يظهر لي أن هؤلاء أوردوه لأنهم ممن يحاول استظهار جميع وجوه المعاني والأوجه الإعرابية في الآية ، لا لأنهم استحسنوا مثل هذا التخريج ، وكلامهم يصدق مقالتي لمتأمله .

وهذا الاختيار من ابن عاشور مما يحسبه الباحث من إطراح ربقة التقليد لهذا البحر الذي لاسواحل له تقربه من نواظر أكلها الزمان ، ولكن الباحث يتجشم تحقيق المسائل ، والنظر في كلام الأواخر والأوائل ، لعله يحظى باستنارات العلم

---

(١) ينظر : تفسير البيضاوي (٢٩٧/٣) ومابعدها .

(٢) ينظر : حاشية الخفاجي (٢٩٧/٣) ومابعدها .

(٣) ينظر : تفسير النسفي (٣٠٨/١) .

(٤) البحر المحيط (٥٢/٤) .

(٥) روح المعاني (٥٤/٧) .

(٦) ينظر : الدر المصون (٦٤٠/٢) ومابعدها .

التي تضئ له شموعا أذبلتها من يائس الزمن هواجس فكر قد أضرها من الليالي نواها وقربها من سوانح موائد العلماء هواها ، فهي لاتبرح وهي الكليلة أن ترى ، ولاتنفك وهي العليلة أن تناقش الأئمة من الورى ، فإن أصابت فمن الله توفيقها ، وإن أخطأت فمن الشيطان ضلت طريقها ، وقد بقي لها أن تخص أغراض المفعول بفصل مستقل ، لأن له أغراضا لايشاركه فيها غيره ، تستحق الوقوف عندها ، والإشارة إليها والتنبيه عليها .

الفصل الثالث

أغراض حذف المفعول

حذف المفعول

فقد ورد في القرآن الكريم حذف المفعول لأغراض يتباصر بها ويدركها أئمة المعاني من المفسرين والبلاغيين .

فإن علاقة المفعول مع فعله علاقة من وقع عليه الفعل لامن وقـع منـه ، فهي علاقة من جهة الارتباط بالفعل أقل من سابقه في الرتبة ، ولكن ليست أقل منه مـن جهة المعنى وثرائه إن لم تكن أكثر .

فترك ذكر المفعول مع الفعل قد يكون مقصودا منه تنزيل الفعل منزلة الـلازم وهذا في ذاته ملمح لطيف ، لأنه يثري اللغة والبيان ، ويجعل للفعل اعتبارين ، كونه متعديا وكونه لازما في الفعل ذاته ، مما يدفع للقول : بأن كل فعـل متعـد يمكـن أن يكون لازما عند البلاغيين .

قال تعالى : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وقوله ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حاليـة ، ومفعـول تعلمـون متروك ، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول بل قصد إثباته لفاعله فقط ، فنزل الفعل منزلة اللازم ، والمعنى وأنتم ذوو علم"[(٢)] .

وقد جوز العلامة الزمخشري في هذه الآية الكريمة الوجهين ، من كون الفعـل متعديـا لمفعـول مقـدر محذوف أو كونـه مـنزلا منزلـة الـلازم ، فقـال : "ومفعـول "تعلمون" متروك كأنه قيل : وأنتم من أهل العلم والمعرفة ، والتوبيخ فيه آكـد أي : أنتم العرافون المميزون ، ثم أن ماأنتم عليـه في أمـر ديـانتكم مـن جعـل الأصنـام لله أندادا هو غاية الجهل ونهايـة سـخافة العقـل ، ويجـوز أن يقـدر وأنتـم تعلمـون أنـه لايماثل ، أو وأنتم تعلمون مابينها وبينه من التفاوت ، أو وأنتم تعلمون أنها لاتفعـل مثل أفعاله ، كقوله تعالى:﴿هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ﴾..."[(٣)]

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٣٥/١) .

(٣) الكشاف (٢٣٧/١) ومابعدها .

فتأمل كيف أمكن من فعل واحد أن يأتي بمعنيين اثنين حالة تعديه إلى مفعوله ، وحالة اقتصاره على فاعله .

ولست في هذا المقام بصدد تحرير كلام الزمخشري في هذه المسألة ، لأن وجه استشهاده به هو قبول الفعل الواحد ذينك المعنيين المختلفين المشار إليهما .

ولاشك أن هذا الاستعمال هو سبيل من سبل سعة هذا اللسان العالي ، الذي يضفي على الكلمة في أساليب الاستعمال اعتبارات جديدة لم تكن في أصل واقع حالها .

وعلى هذا النحو ورد قوله تعالى : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وحذف[(٢)] مفعول "احذروا" لينزل الفعل منزلة اللازم ، لأن القصد التلبس بالحذر في أمور الدين ، أي الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله وذلك أبلغ من أن يقال : واحذروهما ، لأن الفعل اللازم يقرب معناه من معنى أفعال السجايا ، ولذلك يجئ اسم الفاعل منه على زنة فعل كفرح ونهم"[(٣)] .

وهكذا يتجلى دقة ترك المفعول ، ليفيد معنى أبلغ في تنزيل الفعل منزلة اللازم ، من تعديته ، لأنه أتى بمعنى إفادة تلبس النفس بالحذر في أمور الدين ، كالأمر الفطري الذي سكن بها ، وخلق معها .

---

(١) سورة المائدة : آية (٩٢) .

(٢) هذا تسامح من ابن عاشور في اطلاق لفظة "حذف" على مفعول لم يذكر أصلا ، فضلا عن أن يحذف ، كما أن لفظة "حذف" مشعرة أنه مقدر والمقدر كالمذكور ، وهذا خلاف واقع حاله ، إذ أنه غير مذكور أصلا ، ولعلي ألتمس له توجيها بما أورده صاحب بغية الإيضاح بأن التعبير بالحذف عن مفعول الفعل المنزل منزلة اللازم تعبير من الوجهة البلاغية ولايعني تقديره كما هي وجهة النحاة ، وإنما تعني مطلق عدم الذكر ، قدر أو لم يقدر .
ينظر : بغية الإيضاح (٢١٦/١) .

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٧) .

ونحوه آية سورة الزمر المشهورة في هذا الباب وهي قوله تعالى : ﴿قل هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وفعل "يعلمون" في الموضعين منزل منزلة اللازم ، فلم يذكر له مفعول . والمعنى : الذين اتصفوا بصفة العلم ، وليس المقصود الذين علموا شيئا معينا حتى يكون من حذف المفعولين ، إذ ليس المعنى عليه ، وقد دل على أن المراد الذين اتصفوا بصفة العلم قوله عقبه "إنما يتذكر أولو الألباب" أي أهل العقول والعقل والعلم مترادفان ..." (٢) .

وإذا كان الفعل نفسه في أصل اللغة متعديا ولازما ، ثم ورد في التركيب بدون ذكر المفعول ، فيمكن اعتبار أنه من الاستعمال اللازم للفعل ، أو اعتبار أنه نزل منزلة اللازم بترك مفعوله نحو قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(٣) .

قال ابن عاشور : "وفعل "تعقلون" منزل منزلة اللازم أو هو لازم ، وفي هذا نداء على كمال غفلتهم ، واضطراب حالهم"(٤) .

فالفعل(٥) "عقل" ورد عن العرب لازما ومتعديا ، والمعنى في الآية الكريمة أفلا عقل لكم(٦) .

وإذا كان الفعل يتعدى لمفعولين اثنين ، فقد يترك المفعولان أو أحدهما ، فإذا ترك المفعولان فإن الفعل يكون بهذه الصورة منزلا منزلة اللازم .

وقد ورد في سورة الأحزاب في قول الله تعالى : ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾(٧) .

---

(١) سورة الزمر : آية (٩) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٣/٣٤٨) .
(٣) سورة البقرة : آية (٤٤) .
(٤) التحرير والتنوير (١/٤٧٧) .
(٥) ينظر : لسان العرب (١١/٤٥٨) ومابعدها ، مادة (عقل) ، المصباح المنير (ص١٦٠) ومابعدها .
(٦) ينظر : روح المعاني (١/٢٤٨) .
(٧) سورة الأحزاب : آية (١٠) .

قال ابن عاشور : "وحذف مفعولا "تظنون" بدون وجود دليل يدل على تقديرهما فهو حذف لتنزيل الفعل منزلة اللازم ، ويسمى هذا الحذف عند النحاة اقتصارا ، أي : للاقتصار على نسبة فعل الظن لفاعله ، والمقصود من هذا التنزيل أن تذهب نفس السامع كل مذهب ممكن ، وهو حذف مستعمل كثيرا في الكلام الفصيح ، وعلى جوازه أكثر النحويين ، ومنه قوله تعالى : ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ ، وقوله : ﴿وظننتم ظن السوء﴾ ، وقول المثل : من يسمع يخل ، ومنعه سيبويه والأخفش"[١] .

وقد يترك أحد المفعولين ، فينزل الفعل منزلة مايتعدى إلى مفعول واحد ، لعدم تعلق الغرض بالمفعول الآخر ، وبهذا تتزايد دقائق المعاني من خلال أساليب الاستعمال في الأنساق المتعددة للفعل الواحد .

وقد رأى الطاهر أنه يمكن أن يحمل الفعل "آتنا" في أحد احتمالاته على هذا المعنى ، في قول الله عز وجل : ﴿فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾[٢] .

قال رحمه الله : "وقوله "آتنا" ترك المفعول الثاني ، لتنزيل الفعل منزلة مالايتعدى إلى المفعول الثاني ؛ لعدم تعلق الغرض ببيانه ، أي : أعطنا عطاءا في الدنيا"[٣] .

وقد يترك المفعول فيصبح الفعل بهذه الحالة مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص ، على حد قول البحتري يمدح المعتز ويعرض بالمستعين بالله :

شجو حساده وغيظ عداه　　　أن يرى مبصر ويسمع واع[٤]

وقد رأى ابن عاشور مثل هذا الترك في قوله تعالى : ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨١/٢١) .
(٢) سورة البقرة : آية (٢٠٠) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٤٧/٢) .
(٤) الديوان (١٢٤٤/٢) .
(٥) سورة البقرة : آية (١٧) .

قال ابن عاشور : "ومفعول "لايبصرون" محذوف لقصد عموم نفي المبصرات فنزل الفعل منزلة اللازم ، ولايقدر له مفعول ، كأنه قيل : لا إحساس بصر لهم ، كقول البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه   أن يرى مبصر ويسمع واع"[١]

وربما توهم أن في هذا الكلام خلطا بين اعتبارات حذف المفعول ، ولكن عند التحقيق ليس ثمة من خلط ، لأن الشيخ يسير على تقسيمات الخطيب القزويني وليس على تقسيم الإمام عبد القاهر الجرجاني ، ووجه الفرق بينهما هو في الضرب الأول ، الذي ينزل فيه الفعل منزلة اللازم ، بترك مفعوله لغرض إثبات الفعل للفاعل فهذا الضرب عند الخطيب القزويني ينقسم إلى قسمين بأن يجعل الفعل مطلقا كناية عن تعلقه بمفعول مخصوص نحو قول البحتري السابق ، أو لايجعل ، نحو قوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢] .

وهذا الضرب عند الإمام عبد القاهر قسم واحد ، من قبيل آية سورة الزمر الآنفة الذكر ، وأما قول البحتري فلايدخل في هذا الضرب عند الإمام ، بل هو من الضرب الثاني الذي حذف مفعوله ؛ لأن له مفعولا مقصودا محذوفا ، ولايؤثر عليه محاولة المتكلم أن ينسيه نفسه[٣] .

وابن عاشور جعل الفعل في هذه الآية منزلا منزلة اللازم من القسم الأول للضرب الأول الذي يجعل الفعل فيه مطلقا كناية عن الفعل المتعلق بمفعول مخصوص مدلول عليه بالقرينة ، والدليل على ذلك قول البحتري .

وهنا الفعل المنفي "لايبصرون" ترك مفعوله الذي هو "النور" المذكور في الآية نفسها "ذهب الله بنورهم" .

فجعل نفي مطلق الإبصار ، وهو قوله : "لقصد عموم نفي المبصرات" كناية عن نفي إبصارهم النور .

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٢/١) .

(٢) سورة الزمر : آية (٩) .

(٣) ينظر : بغية الإيضاح (٢١٥/١) ومابعدها .

بينما رأى علامة خوارزم أن الفعل في هذه الآية الكريمة منزل منزلة اللازم ولم يجعل كناية عن مفعول مخصوص فقال : "والمفعول الساقط من "لايبصرون" من قبيل المتروك المطرح الذي لايلتفت إلى إخطاره بالبال ؛ لامن قبيل المقدر المنوي ، كأن الفعل غير متعد أصلا نحو (يعمهون)" [١] .

والمراد بـ"يعمهون" أي في قوله تعالى : ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٢] إشارة إلى أن "لايبصرون" مثل "يعمهون" الذي لايتعدى إلى مفعول أصلا[٣] .

وقد زاد كلام الكشاف إيضاحا السيد الشريف فقال : "قوله "كأن الفعل غير متعد أصلا" أي نزل منزلة اللازم وقطع النظر عن المتروك ، وقصد إلى نفس الفعل ، كأنه قيل : ليس لهم إبصار ، وهو أبلغ من أن يقدر المفعول ، أي : لايبصرون شيئا ، لأن الأول يستلزم الثاني دون العكس"[٤] .

وقد رأى هذه النظرة التي رآها الكشاف ، الرازي[٥] ، والبيضاوي[٦] ، ونظام الدين النيسابوري[٧] ، والخفاجي[٨] .

والأمر أوضح من أن يحتاج إلى مزيد من كلام أهل العلم ، ولكني أود أن أشير إلى أمر أحسبه يمكن أن يكون من الأمور التي تجدر الإشارة إليها في هذه الأطروحة ، وتسجيله فيها من خلال دراسة استقرائية لما أمكن الباحث أن يطلع عليه من كلام أئمة المعاني من المفسرين الذين لهم وزنهم العلمي ، وكلمتهم الحقة في تقرير القواعد البلاغية المستعملة عن طريق تفسيرهم للقرآن الكريم الذي هو أبلغ كلام يستطاع منه تحرير وتقرير وتأصيل السمات البلاغية والفنية السامية في

---

(١) الكشاف (٢٠١/١) .
(٢) سورة الأعراف : آية (١٨٦) .
(٣) تنظر : حاشية السيد على الكشاف (٢٠١/١) .
(٤) ن.م.س .
(٥) ينظر : مفاتيح الغيب (٦٩/٢) .
(٦) ينظر : تفسير البيضاوي (٣٧٦/١) .
(٧) ينظر : غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١٧٤/١) .
(٨) تنظر : حاشية الشهاب (٣٧٦/١) .

معيارية النصوص الأدبية وتحديد جمالياتها ووجه التفاضل بين أساليب استعمالاتها ومدى ورودها ، لأن ذلك كله يرقى إلى أن يكون هناك سمو في إدراك جمالي وأدبي وفني يصح الانطلاق منه إلى الآفاق الإبداعية .

ولاشك أن القرآن هو الهادي إلى هذا السبيل ، والركيزة في هذا التأصيل ، وأن استقراء مافيه من أساليب الاستعمال هو مبتدأ التقعيد الذي يسعى إليه الجادون ويقيده المتألقون ، من البلاغيين الذين عنوا بالتفسير أو من المفسرين الذين عنوا بالبلاغة ، ليرصدوا لنا ماند من دقيق المعنى وآبده ، وبديع التركيب ومتفرده ، وقد حاولت جهدي أن أستقرئ كلامهم في هذا الضرب الذي يطرح فيه المفعول ويكون الفعل فيه مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص على حد قول البحتري السابق ، فلم أظفر إلا بالنزر اليسير الذي لم يكد يتفق عليه الأئمة من أهل التفسير ، من إشارتين أعدهما كلا إشارة ، ومن نظرتين أعدهما كلا نظرة ، لاختلافهم في تلك الإشارات ، ولردهم على بعضهم بداحض الحجج والعبارات ، فالإشارة الأولى للعلامة الزمخشري عند تفسيره قوله تعالى في سورة طه : ﴿قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(١) قال : "﴿أسمع وأرى﴾ مايجري بينكما وبينه من قول وفعل ، فافعل مايوجبه حفظي ونصرتي لكما ، فجائز أن يقدر : أقوالكم وأفعالكم ، وجائز أن لايقدر شئ ، وكأنه قيل : أنا حافظ لكما وناصر سامع مبصر ، وإذا كان الحافظ والناصر كذلك تم الحفظ وصحت النصرة ، وذهبت المبالاة"(٢) .

فكلام الزمخشري عند التحقيق ليس فيه إشارة إلى هذا الضرب ، لأنه قدر تقديرين اثنين في الآية الكريمة ، أولهما أن يكون هناك مفعول محذوف ولاأقول مطروحا ، وقد قدره بتقدير : أقوالكم وأفعالكم ، فهو إذن ليس من الباب الذي نحن فيه ، وإن فهمه من فهمه بخلاف ذلك كما سأبينه ـ إن شاء الله ـ وثانيهما أن ينزل منزلة اللازم ، فيكون بمثابة الفعل غير المتعدي في أصل وضعه ، وهذا على حد آية الزمر ، وليس على حد قول البحتري السابق .

---

(١) سورة طه : آية (٤٦) .

(٢) الكشاف (٥٣٨/٢) ومابعدها .

وقد فهم العلامة البيضاوي كلام الزمخشري على مراده ، وسجله في تفسيره فقال : "أسمع وأرى مايجري بينكما وبينه من قول وفعل . فأحدث في كل حال مايصرف شره عنكما ، ويوجب نصرتي لكما ، ويجوز أن لايقدر شئ على معنى أنني حافظكما سامعا مبصرا ، والحافظ إذا كان قادرا سميعا بصيرا تم الحفظ"(١) .

وقد عقب عليه بما زاده جلاء محيي الدين شيخ زادة فقال : "قوله "أسمع وأرى مايجري بينكما وبينه" يعني أن قوله تعالى "أسمع وأرى" فعلان متعديان لم يذكر مفعولاهما ، وليسا منزلين منزلة اللازم ، بل قصد تعلقهما بالمفعول الغير المذكور فوجب تقديره على حسب تعيين القرينة : إن عاما فعام ، وإن خاصا فخاص ، والقرينة تقتضي تقدير العام ، أي : أسمع وأرى جميع مايجري بينكما وبينه من قول وفعل الخ . وذلك لأن قوله تعالى : "أسمع وأرى" ذكر تأكيد لقوله "إنني معكما" ، أخبر أولا بأنه حافظهما وناصرهما ثم أخبر بأنه يسمع ويرى ، للدلالة على أنه يفعل بهما مايوجب حفظهما ونصرتهما على أتم الوجوه وأكملها .." (٢) .

ثم حاول محيي الدين شيخ زادة أن يبين الوجه الثاني الذي ينزل فيه الفعل منزلة اللازم والذي سبقت إليه إشارة البيضاوي بقوله : "ويجوز أن لايقدر شئ الخ" فقال : "قوله : "ويجوز أن لايقدر شئ" بأن ينزل الفعلان منزلة اللازم ولايقصد تعلقهما بالمفعول ، فضلا عن عمومه وخصوصه ، وأن يكون القصد إلى شأن الحفظ والنصرة ، وإلى مايتأتيان بسببه من السمع والبصر مع قطع النظر عن تعلقهما بالمسموع والمبصر ، لأنهما ذكرا تتميما لقوله : "إنني معكما" لكونهما مما يتم به الحفظ والنصرة ، ولامدخل في ذلك الاعتبار لتعلقهما بالمفعول ..." (٣) .

وقد صرح الخفاجي باستبعاد أن يكون تنزيل الفعل منزلة اللازم في هذه الآية الكريمة من باب قول البحتري السابق ، فقال ـ في تعقيبه على كلام البيضاوي السابق ـ : "قوله : "ويجوز أن لايقدر شئ" إشارة إلى الوجه الثالث وتنزيله منزلة

---

(١) تفسير البيضاوي (٦/٤ ٢٠) .

(٢) حاشية محيي الدين شيخ زادة (٣/٣١٧) .

(٣) ن.م.س .

اللازم من غير نظر إلى المفعول ، لأنه تتميم لما يستقل به الحفظ ، وليس من باب : أن يرى مبصر ويسمع واع ، على ماأظن فتأمل"(١) .

وقول الشهاب الخفاجي : "إشارة إلى الوجه الثالث" أي على تقسيم الشهاب في حاشيته عدم ذكر المفعول في الآية إلى ثلاثة أوجه ، أن يقدر له مفعول عام ، أو يقدر له مفعول خاص ، أو يكون من تنزيل الفعل منزلة اللازم من القسم الثاني على حد آية الزمر(٢) .

وقول الشهاب : "على ماأظن فتأمل" ، كأني به يحترز في مخالفته الطيبي الذي ذكر في حاشيته(٣) على الكشاف أن الفعلين "أسمع وأرى" منزلان منزلة اللازم من باب قول البحتري .

وقد نقل ذلك عنه صاحب روح المعاني(٤) ، ورد عليه هذه الوجهة ، ووصفها بالزعم .

وهكذا يتجلى فهم العلماء لكلام الزمخشري ووجهات أنظارهم في استبعادهم إجراء احتمال هذا الأسلوب في الآية الكريمة إلا ماكان من تفرد الطيبي في ذلك .

والإشارة الأخرى أو الموضع الآخر هي إشارة ابن عاشور السابقة في آية سورة البقرة وقد تفرد أيضا بهذه الوجهة ، رغم أن غيره من العلماء لم يقل بها ولم يشر إليها .

وبذا يتضح أن هذا الأسلوب الذي يطرح فيه المفعول ليكون فيه الفعل مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص من الأساليب التي قل ورودها في كتاب الله العزيز ، لأصرح بما ضاق الصدر عن كتمانه من وجهة نظر لاتعدو أن تكون شخصية ، وفي نفس الوقت مبنية على مايظنه الباحث براهين وحججا ، من

---

(١) حاشية الشهاب (٢٠٤/٦) .

(٢) ينظر : ن.م.س .

(٣) ينظر : الكشف

(٤) ينظر : روح المعاني (١٩٧/١٦) ومابعدها .

وضوح التكلف في هذا الأسلوب الذي يجعل فيه المطلق ملزوما للمقيد ، أو بالأصح يكون فيه المقيد لازما للمطلق ، ويدعي فيه إطراح المفعول وتقدير مفعول مخصوص ثم ندرة وجود هذا الأسلوب في جمل الكتاب المعجز الذي حوى من البلاغة غاياتها ، ومن الأساليب كمالاتها ، ألا يدفعني هذا كله إلى أن أصرح بإعادة النظر في تقعيد هذا الأسلوب الذي يحتاج من أرباب الكلام ونقدته إلى النظر الفاحص والبيان الشافي .

ومن أغراض حذف المفعول التهويل ، ولتذهب فيه النفس كل مذهب ممكن .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الزخرف : ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١] .

قال ابن عاشور ، "وحذف مفعول "تعلمون"[٢] للتهويل لتذهب نفوسهم كل مذهب ممكن"[٣] .

وهذه الآية الكريمة توجيه من الله عز وجل إلى نبيه في الإعراض والصفح عن محاجة المشركين ، وإنذاره لهم ، وتهديده إياهم بقوله ﴿فسوف تعلمون﴾ ، فحذف المفعول في هذه الجملة القرآنية لأجل التهويل والتخويف لتذهب نفوسهم في تصويره كل مذهب ممكن .

ومما رآه ابن عاشور من الحذف للتهويل قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وحذف مفعول "انتظر" للتهويل ، أي : انتظر أياما يكون لك فيها النصر ، ويكون لهم فيها الخسران"[٥] .

---

(١) سورة الزخرف : آية (٨٩) .

(٢) على قراءة من قرأ بالتاء وهم نافع وابن عامر وأبو جعفر ، والباقون قرأوا بالياء . ينظر : السبعة لابن مجاهد (ص٥٨٩) ، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي (ص٣٨٧) ، الميسر في القراءات الأربعة عشر (ص٤٥٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٥/٢٧٤) .

(٤) سورة السجدة : آية (٣٠) .

(٥) التحرير والتنوير (٢١/٢٤٣) ومابعدها .

فمعنى انتظر أي : ارتقب . والمفعول محذوف للتهويل ، لأن الكافرين كانوا يسألون المسلمين عن وقت الفتح والتمكين في الأرض ، وكان المسلمون يتحدون الكافرين بتحقق ذلك ، فكان سؤال الكافرين للمسلمين سؤال تكذيب كما صور ذلك قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(١)] فكان حذف المفعول في الآية القرآنية ﴿فأعرض عنهم وانتظر﴾ لأجل التفخيم والتهويل .

وقد قدره صاحب الكشاف تقديرا آخر ، فقال : "﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ الغلبة عليكم وهلاككم ، كقوله تعالى : ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾"[(٢)] .

فالمفعول الثاني المقدر لاسم الفاعل "منتظرون" غير وارد معنا في هذا الغرض إذ يرى ابن عاشور أنه حذف لدلالة السياق عليه ، فيقول : "ومفعول "منتظرون" محذوف دل عليه السياق ، أي : منتظرون لكم الفرصة لحربكم أو لإخراجكم ، قال تعالى : ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ وقال : ﴿ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء﴾ أي : لم نكن ظالمين في تقدير العذاب لهم ، لأنهم بدأوا بالظلم"[(٣)] .

وقد قدره العلامة الألوسي كتقدير الزمخشري ، ولم يشر فيه إلى أن حذف المفعول لأجل التهويل ، فقال : "﴿وانتظر﴾ النصرة عليهم وهلاكهم ﴿إنهم منتظرون﴾ قال الجمهور : أي : الغلبة عليكم ، كقوله تعالى : ﴿فتربصوا إنا معكم متربصون﴾ وقيل : الأظهر أن يقال : إنهم منتظرون هلاكهم ، كما في قوله تعالى : ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ الآية ..."[(٤)] .

ولم أر أحدا من المفسرين أشار إلى أن الحذف في هذه الجملة القرآنية لأجل التهويل غير ابن عاشور .

---

(١) سورة السجدة : آية (٢٨) . وينظر : التحرير والتنوير (٢١/٢٤٢) ومابعدها .

(٢) الكشاف (٣/٢٤٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٢١/٢٤٤) .

(٤) روح المعاني (٢١/١٤١) .

ومما رآه ابن عاشور من الحذف الذي تذهب فيه النفس كل مذهب قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "والأظهر أن مفعول "يخشى" حذف لتذهب نفس السامع في تقديره كل مذهب محتمل ، فينظر كل سامع بحسب الأهم عنده مما يخشاه أن يصيب ذريته"[(٢)] .

ولم يبين ابن عاشور وجوه تقديرات المفعول في هذه الجملة القرآنية حتى تتجلى لنا صورة الحذف ، وقد رأيت صاحب البحر المحيط قدر حذف مفعول "وليخش" فقال : "ومفعول "وليخش" محذوف يحتمل أن يكون اسم الجلالة أي : الله ، ويحتمل أن يكون هذا الحذف عن طريق الإعمال ، أعمل "فليتقوا" وحذف معمول الأول ، إذ هو منصوب ، يجوز أن يحذف اقتصارا[(٣)] ، فكان حذفه اختصارا أجوز ، ويصير نحو قولك : أكرمت فبررت زيدا ..." [(٤)] .

ونحو هذا التقدير قدره صاحب الدر المصون ، فقال : "ومفعول "وليخش" محذوف أي : وليخش الله ، ويجوز أن تكون المسألة من باب التنازع ، فإن "وليخش" يطلب الجلالة ، وكذلك "فليتقوا" ويكون من إعمال الثاني للحذف من الأول"[(٥)] .

بينما اختلف تقدير الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي للمفعول المحذوف ، إذ قال : "ومفعول "وليخش" إما الله بدليل قوله "فليتقوا الله" ، أو على أولادهم بدليل قوله "خافوا عليهم" ..." [(٦)] .

---

(١) سورة النساء : آية (٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/٢٥٢) .

(٣) الحذف للاقتصار أن يكون الحذف لغير دليل ، والحذف للاختصار أن يكون الحذف بدليل . ينظر : مغني اللبيب (٢/٦١١) ومابعدها .

(٤) البحر المحيط (٣/١٨٥) .

(٥) الدر المصون (٢/٣١٦) .

(٦) حاشية الشهاب (٣/١٠٩) .

وهكذا قدره العلماء بهذين التقديرين فقط إما لفظ الجلالة ، أو على أولادهم ، والثاني ليس مفعولا وإنما هو متعلق ـ بصيغة اسم الفاعل ـ أي : جار ومجرور ، وأطلق عليه لفظ المفعول تجوزا ، فهما تقديران فكيف يتلاءم هذا مع قول ابن عاشور : "لتذهب نفس السامع في تقديره كل مذهب محتمل ، فينظر كل سامع بحسب الأهم عنده"؟

ولقد تأملت كلامه في تفسير هذه الآية لأرى ماالذي فسر به معنى الخشية ، لأجده أضافها إلى كلمة "عذاب الله" الذي هو مفعولها ، فقال : "فابتدئت الموعظة ـ أي : في الآية ـ بالأمر بخشية الله تعالى أي خشية عذابه ، ثم أعقب بإثارة شفقة الآباء على ذريتهم"[(١)] .

ولعل مراد ابن عاشور بالمفاعيل المقدرة ـ والله أعلم ـ التي يقصدها في هذا المقام هي : العذاب ، النار ، الفقر ، الضياع ، العوز ، الحاجة ... عدا ماسبق تقديره .

والقرينة على أن مراده كذلك قوله : "مما يخشاه أن يصيب ذريته" . والله أعلم .

ومن أغراض حذف المفعول العلم به .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وقد حذف مفعول قفينا للعلم به ، وهو ضمير موسى"[(٣)] .

والتقدير أي : قفيناه من بعده بالرسل ، لأن قفى يتعدى إلى مفعول واحد ، ففي المصباح المنير : "قفوت أثره قفوا ، من باب قال ، تبعته ، وقفيت على إثره بفلان أتبعته إياه"[(٤)] . وليس التضعيف في هذه الصيغة للتعدية ، بل الفعل يتعدى إلى

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥٢/٤) .
(٢) سورة البقرة : آية (٨٧) .
(٣) التحرير والتنوير (٥٩٣/١) .
(٤) المصباح المنير ، مادة (قفو) (ص١٩٥) .

مفعول واحد سواء كان مضعفا أو غير مضعف ، لأنه لو كان التضعيف للتعدية لوردت الجملة القرآنية بهذه الصورة ، وقفيناه من بعده الرسل فالباء غير زائدة ، ومما يعضد هذه الوجهة ورود هذا الفعل بهذه الباء في جميع الآيات التي ورد بها في النظم القرآني بهذه الصيغة :

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(١) .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾(٢) .

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ﴾(٣) .

وأيضا آية سورة البقرة التي نحن بصدد بيان حذف مفعولها الذي سقت هذا الإيضاح لأجل التباسه واختلاف ثبوت وقوعه(٤) .

ومن هذا القبيل أيضا مارآه ابن عاشور في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٥) .

قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : "وحذف مفعول "يعلمون" ؛ لظهوره من المقام أي : يعلمون سوء فعلهم ، وعظم غضب الرب ، ووجوب التوبة إليه ، وأنه تفضل بقبول التوبة فمحا بها الذنوب الواقعة"(٦) .

بينما أومأ صاحب الكشاف إلى تقدير المحذوف فقال في تفسيره : "وليسوا ممن يصرون على الذنوب وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها وبالوعيد عليها ، لأنه قد يعذر من لايعلم قبح القبيح"(٧) .

---

(١) سورة المائدة : آية (٤٦) .

(٢) سورة الحديد : آية (٢٧) .

(٣) سورة الحديد : آية (٢٧) .

(٤) ينظر : البحر المحيط (٤٦٧/١) ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص٥٤٩) ، مادة (ق ف و) .

(٥) سورة آل عمران : آية (١٣٥) .

(٦) التحرير والتنوير (٩٣/٤) .

(٧) الكشاف (٣٦٤/١) ومابعدها .

فتقدير الزمخشري أي : "وهم يعلمون" قبح الذنوب والنهي عنها ، والوعيد عليها .

وربما يتضح قرب تقدير التحرير والتنوير من تقدير الكشاف .

لكن صاحب البحر المحيط قدر عدة تقديرات بعضها منقول عن السلف ، فقال : "وقال أبو البقاء : وهم يعلمون المؤاخذة بها أو عفو الله عنها ، وقال ابن عباس والحسن : وهم يعلمون أن تركه أولى من التمادي ، وقال مجاهد وأبو عمارة يعلمون أن الله يتوب على من تاب . وقال السدي ومقاتل : يعلمون أنهم قد أذنبوا وقيل : يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها . أطلق اسم العلم على الذكر ، لأنه من ثمرته وقال ابن إسحاق : يعلمون ماحرمت عليهم ، وقال الحسين بن الفضل : يعلمون أن لهم ربا يغفر الذنب ، وقال ابن بحر : يعلمون بالذنب . وقيل : يعلمون العفو عن الذنوب وإن كثرت"(١) .

وهذه تقديرات نوعية يصح أن تكون تأويلات للمحذوف مختلفة في درجات الاستحسان ، اللهم إلا ماذكره من كون التضمين واقعا في الفعل "يعلمون" بمعنى "يذكرون" فهذا بعيد ، لأنه لايعمد للتضمين إلا إذا كانت هناك قرائن قائمة على صرفه عن معناه الأصلي .

وقد استحسن صاحب روح المعاني تقديرا واحدا من هذه التقديرات فقال : "ومفعول "يعلمون" محذوف أي : يعلمون قبح فعلهم"(٢) .

وبهذا ربما يعلم مصدر تقدير التحرير والتنوير للمفعول المحذوف في هذه الجملة القرآنية .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٣) .

---

(١) البحر المحيط (٣/٦٥) .

(٢) روح المعاني (٤/٦٢) .

(٣) سورة البقرة : آية (٤٢) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "فمفعول "تعلمون" محذوف دل عليه ماتقدم ، أي : وأنتم تعلمون ذلك ، أي : لبسكم الحق بالباطل ، قال الطيبي عند قوله تعالى الآتي ﴿أفلا تعقلون﴾[(١)] إن قوله تعالى ﴿وأنتم تعلمون﴾ غير منزل منزلة اللازم ، لأنه إذا نزل منزلة اللازم دل على أنهم موصوفون بالعلم الذي هو وصف كمال ، وذلك ينافي قوله الآتي ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ إلى قوله ﴿أفلا تعقلون﴾ ، إذ نفى عنهم وصف العقل ، فكيف يثبت لهم هنا وصف العلم على الإطلاق"[(٢)] .

وقد قدر العلامة الزمخشري مفعولا محذوفا في هذه الآية فقال : "﴿وأنتم تعلمون﴾ في حال عملكم أنكم لابسون كاتمون ..."[(٣)] .

وقد كانت عبارات صاحب المحرر الوجيز أكثر وضوحا في بيان معنى الآية إذ قال : "وقوله تعالى : ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة في موضع الحال ، ولم يشهد لهم تعالى بعلم ، وإنما نهاهم عن كتمان ماعلموا ، ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص في أمر محمد عليه السلام ، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق"[(٤)] .

وقد غفل بعض المفسرين عن هذه النظرة للمفعول التي ارتبطت بنظرة كلية للآيات المنزلة في شأن هذه الفئة بما قدم بسطه ابن عاشور والطيبي ولم يغفل عنه الزمخشري وابن عطية من خلال تقديرهما للمفعول المحذوف ، إذ عد بعض المفسرين أن الفعل منزل منزلة اللازم ، فأبعدوا الشقة في تجاوز النظرة العامة للآيات قال صاحب البحر المحيط : "ومفعول "تعلمون" محذوف اقتصارا[(٥)] . إذ المقصود وأنتم من ذوي العلم ، فلايناسب من كان عالما أن يكتم الحق ويلبسه بالباطل ، وقد قدروا حذفه حذف اختصار ، وفيه أقاويل ستة ..."[(٦)] .

---

(١) أي في قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة : آية (٤٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٧٢/١) .

(٣) الكشاف (٢٧٧/١) .

(٤) المحرر الوجيز (١٣٦/١) .

(٥) المراد بالاقتصار هنا المعنى اللغوي ، أي : مقتصر الفعل على الفاعل .

(٦) البحر المحيط (٣٣٥/١) ومابعدها .

والأقاويل الستة اثنان منها تقديرا الكشاف والمحرر الوجيز ، والأربعة الأخر كالآتي :

(١) ﴿وأنتم تعلمون﴾ البعث والجزاء .

(٢) ﴿وأنتم تعلمون﴾ الحق من الباطل .

(٣) ﴿وأنتم تعلمون) أنه نبي مرسل للناس قاطبة .

(٤) ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنه مذكور ﷺ وصفته في التوراة[١] .

وبعد هذه التقديرات ذكر أن أرجحها التقدير الذي قدره هو فقال : "والأظهر من هذه الأقاويل ماقدمناه أولا من كون العلم حذف مفعوله حذف اقتصار ..." [٢] .

والذي فهم من كلام صاحب فتح القدير هذا الحذف الاقتصاري أيضا إذ قال : "وقوله ﴿وأنتم تعلمون﴾ جملة حالية ، وفيه أن كفرهم كفر عناد لاكفر جهل . وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة ، وهذا التقييد لايفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل ، لأن الجاهل يجب عليه أن لايقدم على شئ حتى يعلم بحكمه خصوصا في أمور الدين ، فإن التكلم فيها والتصدي للإصدار والإيراد في أبوابها إنما أذن الله به لمن كان رأسا في العلم ، فردا في الفهم ، ومالِلجهال والدخول فيما ليس من شأنهم والقعود في غير مقاعدهم"[٣] .

وعلى هذا السبيل سجل علامة بغداد هذا الفهم ولكنه أردفه بالحذف للاختصار ، مقدما السابق فقال : "ومفعول "تعلمون" محذوف اقتصارا ؛ أي : وأنتم من ذوي العلم ، ولايناسب من كان عالما أن يتصف بالحال الذي أنتم عليه ، ولايبعد أن يكون الحذف للاختصار ، أي : وأنتم تعلمون أنكم لابسون كاتمون ، أو تعلمون صفته ﷺ أو البعث والجزاء ..." [٤] .

---

(١) ينظر : البحر المحيط (٣٣٥/١) .

(٢) البحر المحيط (٣٣٦/١) .

(٣) فتح القدير (٩٤/١) .

(٤) روح المعاني (٢٤٦/١) .

وهكذا تبدو تغاير فهوم العلماء لمن حاول أن يتبحر في كلامهم لتعلن شاهدة على أن التفاضل العلمي في الفهم والإدراك ليس مقصورا على فئة دون فئة ، أو سابق دون لاحق ، ولتعلن أيضا بصوت مسموع أن الإنسان مهما بلغ من دقة الفهم وقوة الإدراك لايملك معرفة جميع أبعاد مرامي الجمل القرآنية وتراكيبها ، وإدراك جميع أسرار معانيها ومبانيها ليدين المرء بالعبودية المطلقة والولاء الصادق لعالم السر وأخفى في فهم أسرار ذلك الكتاب العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وليبقى هذا الكتاب العظيم ببلاغته المعجزة وجملته القرآنية الوضاءة الباهرة دليل صدق وشاهد حق على أسمى مايمكن أن تتوجه إليه العارفة البليغة من الأنظار .

ومن أغراض حذف المفعول شناعة ذكره .

فقد رأى ابن عاشور نكتتين اثنتين في حذف المفعول الثاني في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾[١] .

فقال رحمه الله : "وحذف المفعول الثاني لـ"اتخذتم" لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره ، وتقديره معبودا أو إلها"[٢] .

بينما لم يقدر صاحب الكشاف مفعولا محذوفا ، بل ضمن فعل "اتخذتم" معنى العبادة ، فقال : "﴿وأنتم ظالمون﴾ يجوز أن يكون حالا : أي عبدتم العجل وأنتم واضعون العبادة غير موضعها ، وأن يكون اعتراضا بمعنى وأنتم قوم عادتكم الظلم"[٣] .

ولكن العلامة البيضاوي قدر مفعولا محذوفا ، ولم يشر لمرجح الحذف ، إذ قال : "﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي : إلها"[٤] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٩٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٩٩/١) .

(٣) الكشاف (٢٩٧/١) .

(٤) تفسير البيضاوي (٢٠٥/٢) .

و لم يزد الشهاب الخفاجي في تعقيبه على بيان أن المحذوف هو المفعول الثاني حين قال : "وقوله "إلها" يعني أن نصب العجل باتخذتم ، والمفعول الثاني محذوف ، وقد يتعدى "اتخذ" لواحد نحو "اتخذت" مع الرسول سبيلا"[(١)] .

ومن أغراض حذف المفعول الإيجاز ، وهو غرض عام ، ولكن ذكره ابن عاشور ونحن نذكره ، ولايخفى مافيه من النظر .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وحذف مفعول "وعد" الثاني في قوله "ماوعد ربكم" لمجرد الإيجاز ، لدلالة مقابله عليه في قوله : "ماوعدنا ربنا" ، لأن المقصود من السؤال سؤالهم عما يخصهم ، فالتقدير فهل وجدتم ماوعدكم ربكم ، أي : من العذاب ، لأن الوعد يستعمل في الخير والشر"[(٣)] .

وقد سبقت إشارة الكشاف إلى هذا المعنى إذ قال : "فإن قلت : هلا قيل ماوعد ربكم كما قيل : ماوعدنا ربنا؟ قلت : حذف ذلك تخفيفا لدلالة وعدنا عليه . ولقائل أن يقول : أطلق ليتناول كل ماوعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة ، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع ، ولأن الموعود كله مما ساءهم ، ومانعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم ، فأطلق لذلك"[(٤)] .

وإجابة الزمخشري الأخيرة في قوله "ولقائل أن يقول : أطلق ...الخ" إنما هي إجابة لحذف المفعول الثاني وهو الضمير العائد على اسم الموصول في قوله "ماوعد ربكم حقا" ، والذي نحن بصدده هو المفعول الأول ضمير المخاطبين "كم" وقد قدره ابن عاشور بقوله "فهل وجدتم ماوعدكم ربكم" . ولايقع في الوهم ، أن كلمة "الثاني" في قول ابن عاشور السابق : "وحذف مفعول "وعد" الثاني" صفة للمفعول بل صفة للفعل .

---

(١) حاشية الشهاب (٢/٢٠٥) .

(٢) سورة الأعراف : آية (٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٨/١٣٧) .

(٤) الكشاف (٢/٨٠) ومابعدها .

ومثله ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وحذف مفعول "قدموا" اختصارا لظهوره ؛ لأن التقديم هنا إعداد الحسنات ، فإنها بمنزلة الثقل الذي يقدمه المسافر"[(٢)] .

وتقدير المفعول المحذوف كما يظهر لي من هذا التفسير هو الحسنات ، أي : قدموا الحسنات ، وهو تقدير لطيف لم يسبق إليه ابن عاشور في هذا الموضع ، ويظهر لطف هذا التقدير ببيان سياق هذه الآية الكريمة التي تتناول أحكام شئون العلاقة الزوجية ، وهي قوله تعالى : ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)] . وبيان تقديرات أئمة المفسرين ، فالطبري ذكر عدة تقريرات وأطال فيها كعادته ، وخلاصتها ، ثلاثة ، أي : قدموا لأنفسكم الخير أو ذكر الله عند الجماع وإتيان الحرث أو التسمية عند الجماع[(٤)] .

والزمخشري قدر المحذوف فقال : "﴿وقدموا لأنفسكم﴾ مايجب تقديمه من الأعمال الصالحة ، وماهو خلاف مانهيتكم عنه ، وقيل : هو طلب الولد ، وقيل : التسمية على الوطء"[(٥)] .

وربما يستشف من هذا الكلام أن حذف المفعول لإفادة العموم إضافة إلى غرض الاختصار السابق ، إذ عبارة "مايجب تقديمه من الأعمال الصالحة" تومئ إلى هذا المعنى ، على حسب مايبدو من هذه التقديرات ، ويعضدني في ذلك ماأشار إليه البحر المحيط إذ قال : "مفعول "قدموا" محذوف ، فقيل : التقدير ذكر الله عند

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٢٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢/٣٧٤) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٢٣) .

(٤) ينظر : تفسير الطبري (٢/٤١١) ومابعدها .

(٥) الكشاف (١/٣٦٢) .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : "﴿فسوف تعلمون﴾ وعيد أجمله ثم فصله بقوله ﴿لأقطعن﴾"[(١)] .

وقد قدر البيضاوي المفعول المحذوف ، فقال : "﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة مافعلتم ، وهو تهديد مجمل تفصيله ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾"[(٢)] .

وقد تبعه في هذا التقدير علامة بغداد محمود الألوسي إذ قال : "﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة مافعلتم ، وهذا وعيد ساقه بطريق الإجمال للتهويل ثم عقبه بالتفصيل فقال : ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾"[(٣)] .

بينما قدر صاحب البحر المحيط تقديرا آخر للمفعول المحذوف فقال : "ومفعول "تعلمون" محذوف أي : مايحل بكم ، أبهم في متعلق "تعلمون" ثم عين مايفعل بهم ، فقال مقسما : ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾" .

والذي يظهر عند التحقيق أن الخبر أجمعه هو الذي أفاد الإجمال في الوعيد وليس ذاك مقصورا على عامله أو أحد معمولاته ، لأن المفعول لو قدر على أحد التقديرين السابقين فقيل : فسوف تعلمون عاقبة مافعلتم ، أو قيل : فسوف تعلمون مايحل بكم ، لبقي قدر من معنى الإجمال في الوعيد مفادا من هذه الجملة ، غير منتف عنها بتقدير المفعول ، ومن جهة أخرى فهذا لايعني أن حذف المفعول لم يساعد في إفهام غرض الإجمال في الوعيد في هذه الجملة القرآنية ، ولكنه لم يتفرد بالقيام به أو لم يقم به وحده ، ولايصح بأي حال من الأحوال تجريد حذف المفعول من هذا الغرض .

ومن أغراض حذف المفعول البيان بعد الإبهام .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[(٤)] .

---

(١) الكشاف (٢/١٠٤) .

(٢) تفسير البيضاوي (٢/٢٠٥) .

(٣) روح المعاني (٩/٢٧) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٠) .

قال ابن عاشور : "وقوله تعالى : ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ مفعول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه ، وذلك شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما ، إذا وقع متصلا بما يصلح لأن يدل على مفعوله مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو : ماشاء الله كان ، أي : ماشاء كونه كان ، ومثل وقوعه شرطا للو لظهور أن الجواب هو دليل المفعول ، وكذلك إذا كان في الكلام السابق قبل فعل المشيئة مايدل على مفعول الفعل نحو قوله تعالى : ﴿سنقرئك فلاتنسى إلا ماشاء الله﴾"[١] .

ففعل المشيئة والإرادة ونحوهما أي : كالمحبة تحذف مفاعيلها إذا دل عليها دليل ، وأظهر مايكون حذفها إذا وقعت شرطا[٢] ، لأن جواب الشرط يبين ويوضح المحذوف المبهم "نحو فلو شاء لهداكم أجمعين ، أي : فلو شاء هدايتكم لهداكم أجمعين ، فإنه لما قيل : لو شاء ، علم السامع أن هناك شيئا علقت المشيئة عليه ، لكنه مبهم ، فإذا جئ بجواب الشرط صار مبينا ، وهذا أوقع في النفس"[٣] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾[٦] .

ويحذف المفعول في غير الشرط خلافا لمن[٧] اشترط ذلك مثل بدر الدين محمد بن يعقوب المعروف بابن النحوية[٨] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢١/١) .

(٢) ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (١٣١/٢) .

(٣) مختصر المعاني للتفتازاني ضمن شروح التلخيص (١٣٢/٢) .

(٤) سورة الأنعام : آية (٣٥) .

(٥) سورة الأنفال : آية (٣١) .

(٦) سورة الشورى : آية (٢٤) .

(٧) ينظر : البرهان (١٩٧/٣) .

(٨) هو محمد بن يعقوب بن الياس الحموي الدمشقي المعروف بابن النحوية ، نحوي بياني ، من آثاره : ضوء المصباح في المعاني والبيان ، وشرح ألفية ابن معطي ، توفي سنة ٧١٨هـ .
الدرر الكامنة (٥٧/٥) ، كشف الظنون (ص١٥٥،١٧٦٤) ، معجم المؤلفين (١١٧/١٢) .

ومن حذفه في غير الشرط ماورد في سورة الأعلى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾(١) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والتقدير : إلا الذي شاء الله أن تنساه فحذف مفعول فعل المشيئة ، جريا على غالب استعماله في كلام العرب"(٢) .

ونحوه قوله تعالى في سورة البقرة آية الكرسي : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ﴾(٣) ، وقد أشار إلى هذه الآية ابن السبكي(٤) .

فضابط الحذف إذا دل على المفعول المحذوف دليل ، وقد أوضحه ابن عاشور في كلامه السابق حيث قال : "إذا وقع متصلا بما يصلح لأن يدل على مفعوله" .

ولكن الباحث لاحظ أن البلاغيين وأئمة المعاني من المفسرين يتجه كلامهم من جهة التمثيل للمفعول المحذوف في هذا الغرض غرض البيان بعد الإبهام ، على فعل المشيئة في الغالب ، على أنهم ذكروا فعل الإرادة وفعل المحبة مثيلين له .

وقد حاول أن يستقرئ شواهد فعل المحبة الجاري على هذا النمط في الجملة القرآنية فلم يعثر ولو على شاهد واحد له .

وقد مثلوا له بمثال مصنوع وهو قولهم : لو أحب لأعطاكم ، والتقدير : لو أحب إعطاءكم لأعطاكم(٥) .

وأما الفعل الآخر وهو فعل الإرادة فله شاهدان قرآنيان لم يحذف فيهما المفعول لخصوصيات بلاغية تقتضي ذكره . أحدهما ورد في سورة الأنبياء : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ﴾(٦) ، والآخر ورد في سورة الزمر : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾(٧) .

---

(١) سورة الأعلى : آية (٦،٧) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٨٠/٣٠) .
(٣) سورة البقرة : آية (٢٥٥) .
(٤) ينظر : عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص (١٣١/٢) .
(٥) تنظر : حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص (١٣١/٢) .
(٦) سورة الأنبياء : آية (١٧) .
(٧) سورة الزمر : آية (٤) .

وقد نبه الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز[(١)] أن المفعول الذي نحن بصدده من البلاغة أن يجاء به محذوفا إلا أن يكون أمرا عظيما أو بديعا غريبا ، كقول إسحاق بن حسان الخريمي[(٢)] يرثي أحد قواد الرشيد :

ولو شئت أن أبكي دما لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسع[(٣)]

قال الإمام تعليقا على إظهار مفعول المشيئة في هذا البيت : "وسبب حسنه أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الإنسان أن يبكي دما ، فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره في نفس السامع ويؤنسه به"[(٤)] .

ثم قعد الإمام قاعدة كلية في حذف مفعول المشيئة ، فقال ـ عقب تعليقه السابق ـ : "وإذا استقريت وجدت الأمر كذلك أبدا متى كان مفعول "المشيئة" أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأحسن أن يذكر ولايضمر ، يقول الرجل يخبر عن عزه لو شئت أن أرد على الأمير رددت ، ولو شئت أن ألقى الخليفة كل يوم لقيت ، فإذا لم يكن مما يكبره السامع ، فالحذف"[(٥)] .

وابن عاشور يرى أن الأصل أن يحذف هذا المفعول إلا أن يكون غريبا فيستحسن ذكره ، ولايلزم . قال رحمه الله : "وعندي أن الحذف هو الأصل لأجل الإيجاز ... وقد يوهم كلام أئمة المعاني أن المفعول الغريب يجب ذكره ، وليس كذلك ، فقد قال الله تعالى : ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ فإن إنزال الملائكة أمر غريب ، قال أبو العلاء المعري :

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها   عبيدك واستشهد إلهك يشهد"[(٦)]

---

(١) ينظر : دلائل الإعجاز (ص١٦٤) .

(٢) هو إسحاق بن حسان بن قوهي الخريمي ، يكنى بأبي يعقوب ، شاعر مطبوع ، خراساني الأصل ، توفي سنة ٢١٢هـ .
ينظر : الحيوان (٢٢٤/١) ومابعدها ، معاهد التنصيص (٢٥٢/١) ، الأعلام (٢٩٤/١) .

(٣) الديوان (ص٤٣) .

(٤) دلائل الإعجاز (ص١٦٤) .

(٥) ن.م.س (ص١٦٥) .

(٦) التحرير والتنوير (٣٢٢/١) .

وتعليل الحذف بالإيجاز لايمكن أن يسلم له به ؛ لبقائه حتى مع إظهار المفعول ، فعند قولك : لو شئت أن أقابل الأمير كل يوم لقابلته ، فقد حذف من الجواب لـ"قابلته" الاسم الظاهر ليبقى الضمير عائدا عليه ، ويقع الإيجاز في الجواب وقد استدرك ابن عاشور على نفسه تعليل الحذف بالإيجاز بعد أن عرض لحالتي حذف مفعول المشيئة أو ذكره قائلا : "والإيجاز حاصل على كل حال ، لأن فيه حذفا إما من الأول أو من الثاني"(١) أي : من فعل الشرط أو الجواب .

والذي يظهر أن الحذف لأجل البيان بعد الإبهام ، وقد أشار إليه ابن عاشور بقوله : "فالبليغ تارة يستغنى بالجواب فيقصد البيان بعد الإبهام ، وهذا هو الغالب في كلام العرب"(٢) ، وكان الأولى أن يعلل أصالة الحذف به لا بالإيجاز .

وكلام البلاغيين عند التحقيق يصرح باستحسان إظهار مفعول المشيئة الغريب لا إيجابه ، فهذا كلام الإمام عبد القاهر المذكور آنفا يقول فيه : "وإذا استقريت وجدت الأمر كذلك أبدا متى كان مفعول "المشيئة" أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأحسن أن يذكر ولايضمر"(٣) فعبارته "الأحسن" واضحة جدا في التنصيص على الاستحسان لاعلى الإيجاب .

وإليك أيضا عبارة صاحب نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز وهي قوله : "واعلم أنه متى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأولى ذكره وإلا فالحذف أولى"(٤) .

فقد قال : "أولى" أي أفضل وأحسن ، ولم يقل "أوجب" .

والعلامة السكاكي لم يشر لامن قريب ولامن بعيد عن هذا الحكم في مفعول المشيئة ، بل قصارى ماهو مثبت في النسخة المطبوعة من كتابه مفتاح العلوم هو سوق الأمثلة .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢٢/١) .

(٢) ن.م.س .

(٣) دلائل الإعجاز (ص١٦٥) .

(٤) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز (ص١٧٣) .

وقد أحسن العلامة الطاهر في التعبير بكلمة "يوهم" في كلام أئمة المعاني من إيجاب ذكر مفعول المشيئة الغريب .

ومبعث ذلك الإيهام هي عبارة الخطيب القزويني إذ قال في التلخيص : "ثم الحذف إما للبيان بعد الإبهام كما في فعل المشيئة ما لم يكن تعلقه به غريبا"(١) .

وقال في الإيضاح : "فإن كان في تعليق الفعل به غرابة ذكرت المفعول لتقرره في نفس السامع وتؤنسه به"(٢) .

وقد اقتفى أثر الخطيب القزويني في هذا الإيهام بعض شراح التلخيص ، كالعلامة التفتازاني إذ قال : "... بخلاف ماإذا كان تعلق فعل المشيئة به غريبا فإنه لايحذف حينئذ ..." (٣) .

وكابن يعقوب المغربي حين قال : "فإن كان تعلقه به غريبا لم يحذف"(٤) .

وقد علق صاحب الحواشي والنكات على هذا الإيهام في كلام السعد بالتحقيق فقال : "قوله "فإنه لايحذف" وعبارة المطول : "فإنه لابد من ذكره" ، والمراد أنه لايحسن حذفه ، وصرح به الشيخ في دلائل الإعجاز فقال : إذا كان فعل المشيئة غريبا لم يستحسن حذفه ، انتهى ع س و ف"(٥) .

---

(١) تلخيص المفتاح ضمن شروح التلخيص (١٣١/٢) .

(٢) الإيضاح (ص١٩٩) .

(٣) مختصر المعاني ضمن شروح التلخيص (١٣٢/٢) .

(٤) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص (١٣١/٢) ومابعدها .

(٥) مخطوطة الحواشي والنكات لأحمد بن قاسم العبادي ، نسخة مكتبة الحرم المكي الشريف تحت رقم ٣٣٥١ ، لوحة ٢٨٣ ، ونسخة مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم ١٦٣٢ ، لوحة ١٠٠ . والرمز بـ (ع س) أي : لشيخه عيسى الصفوي ، والرمز بـ(ف) أي : إلى الفنري.

وأيضا حرر عبارة المختصر صاحب التجريد[١] والعلامـة الدسـوقي[٢] ، بأنـه لايستحسن الحذف إذا كان المفعول غريبا ، بمعنى أنه لايلزم ذكره .

ومن هنا تتضح براعة رؤية علامة تونس في تحريـر القضايـا العلميـة وتحقيقهـا ببصر ناقد ، وحس بصير ، وأما حذف المفعول في آية سورة فصلت مع أنـه غريـب في حقيقته وواقع أمره وفي بيت المعري كذلك ، إلا أن القائلين في الآية وهـم كفـار قريش والمعري في البيت الشعري لايرون أن المفعول غريب ادعاءا .

---

(١) ينظر : تقرير الانبابي على السعد (١٣/٣) .

(٢) ينظر : حاشية العلامة الدسوقي ضمن شروح التلخيص (١٣٢/٢) .

الباب الرابع

التعريف

الفصل الأول : التعريف بالإشارة .

الفصل الثاني : التعريف بالموصولية .

الفصل الثالث : التعريف بغيرهما .

التوطئة

التعريف لغة :

هو مصدر الفعل "عرَّف"ـ بتشديد الراء ـ مضعف الثلاثي عرَّفه يعرِّفه ــ من باب ضرب ـ عرفانا ومعرفة وعرفة ـ بكسر العين وسكون الراء ـ .

ويتعدى "عرَّف" المضعف إلى مفعولين ، تارة بنفسه ، وتارة بالباء ، نحو :

(١) عرفته الأمر

(٢) عرفته بالأمر

والفرق بين هذين التركيبين أن : عرَّفته الأمر أي : أعلمته إياه ، وعرَّفته بالأمر أي : أوضحته وأبنته ووسمته بهذا الأمر .

والتعريف : الإعلام والتوضيح ، أو هو بمعنى أدق تحديد الشئ بذكر خواصه المميزة[١] .

واصطلاحا :

ليس ثمة تعريف اصطلاحي عند علماء هذا الفن من البلاغيين ، وإن كان هناك تعريفات للتعريف في فنون أخرى ذكرها المصنفون[٢] في هذا النطاق ، لاتدخل معنا في هذا الباب .

وقد عقد صاحب الطراز بابا في هذا الشأن ، وعرف فيه المعرفة والنكرة بالتعريف النحوي فقال : "اعلم أن المعرفة مادلت على شئ بعينه ، والنكرة مادلت على شئ لابعينه"[٣] . وهذا غير مراد هنا ، والمراد في هذا المقام هو تعريف التعريف بمعنى أن يكون التعريف جامعا لأفراد هذا الباب وأقسامه المنصوص عليها في البلاغة لافي كتب النحو ، لأن التعريف البلاغي غير التعريف النحوي ، فهو يتجاوزه إلى

---

(١) ينظر : الصحاح ، مادة (عرف) (١٤٠٠/٤) ومابعدها ، لسان العرب (٢٣٦/٩) ومابعدها المصباح المنير (ص١٥٤) ، المعجم الوسيط (ص٥٩٥) .

(٢) ينظر : تعريفات الجرجاني (ص٦٢) ، التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (ص١٨٦) ، الكليات للكفوي (١٨/٢) ومابعدها .

(٣) الطراز (ص٢٠٨) .

أفق أبعد ، ومجال أرحب وأسعد ، ليضمه تحت جناحه ، وينطلق عنه إلى المتسع من ساحه ، بنظر في الدقائق أدق ، وبتحليل أدبي أجمل وأرق ، يبحث عن أسرار التعبير بأحد أقسام التعريف الستة الإضمار ، والعلمية ، والموصولية ، والإشارة ، واللام ، والإضافة ، متناولا أسرار تلك الأبواب ونكاتها ، ودقائق معانيها ودلالاتها.

أقسام التعريف

لاغرو أن علم المعاني ينطلق من النحو ويبدأ منه ، لاليقف عنده ويركن إليه بل ليستشرف آفاقا جديدة ، تبهر العقول وتسمو بالأذواق ، وتتداخل في أعماق النفس وأسرارها ، وليظهر أفنان بعيدة وفنون عديدة في سامي اللغة وبديع التركيب وليبرز جماليات تتفاضل فيها القرائح ، وتتمايز بها المواهب والمنائح ، وليدل على مبتدأ الطريق الزاهي الذي يوصل إلى هرم عز الوصول إليه ، وقل الطالبون له .

ولايختلج في ضمير واع ، وقلب نابض بالحس ، وعقل حي سقوط تلك المقولة القائلة : إن علم المعاني ماهو إلا نحو فني[١]

شتان بين قواعد صورية وتذوق سام رهيف الحس

وسيظهر للعيان في هذا الباب ، ماتجلى في غيره من سابق الأبواب ، من تلك الاستقلالية الظاهرة بين الفنين ، ومن ذلك الشأو الواضح بين الطريقين ، بما لايحتاج مني إلا إلى الرد الضمني خلال هذا التحبير .

فالنحاة[٢] يقسمون المعارف على جهة الاستقصاء إلى أحد عشر قسما ، ذكر العلامة ابن مالك الجياني الطائي ستة منها في ألفيته[٣] فقال :

وغيره معرفة كهم وذى وهند وابني والغلام والذي

فأشار في هذا النظم إلى الضمائر "هم" وأسماء الإشارة "ذي" والأعلام "هند" والمضاف إلى معرفة "ابني" والمعرف بالألف واللام "الغلام" والأسماء الموصولة "الذي" .

ولم يشر إلى النكرة المقصودة في النداء نحو : يارجل ــ بالبناء على الضم ــ بينما ذكرها في الكافية[٤] فقال :

فذو أداة فمنادى عينا فذو إضافة بها تبينا

(١) ينظر مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (ص٣١٣) ، العدد التاسع ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٢) ينظر : حاشية الصبان على الأشموني (١/١١٧) ، حاشية الخضري (١/٥٣) .

(٣) ألفية ابن مالك (١/٥٣) .

(٤) الكافية الشافية (١/٢٢٢) .

و لم يشر أيضا إلى أسماء الأفعال غير المنونة نحو : صه وأواه ، و لم يشر إلى لفظة "أجمع" في التوكيد ، و"سحر" فيما لاينصرف ، و"أمس" في بنائها على الكسر فهذه المذكورة جميعها قد أشار إليها النحاة ولكن البلاغيين لايتابعونهم فيما ذهبوا إليه ، ولايقومون ببحثها ودراستها كلها ، بل يصطفون منها مايلمح في هذا اللسان الخالد إلى وجه سر مختف بين ثناياها ، وإلى نكت بلاغية ، ودقائق معنوية ، تتواءم مع طبيعة مادتهم ، وتبين عن دقتهم واستقلاليتهم ، لتفصح عن جوانب لاتنكشف إلا لهم ، ولاتظهر إلا على أيديهم ، في بيان مرجحات اختيار أسلوب دون غيره ، وتركيب دون سواه ، وتجلية خصوصياته ، وبيان إيحاءات دلالاته إلى آخر مايمكن أن يستشف منه من عطاء فني يفهمه التركيب ويوحي به .

إذن فالبلاغيون لايقتفون أثر النحويين في دراسة هذه المعارف كلها ، ولايخصون بالدراسة منها إلا مايثري الدرس البلاغي باصطفاء ستة أقسام من ضمير وعلم واسم إشارة ، واسم موصول ومعرف باللام ومضاف إلى أحد هذه الأقسام ، ويطرحون البقية .

وهذه الأقسام الستة تتفاوت فيما بينها في درجات قوة التعريف التي يجمعها وتشترك فيه خلافا لما نقله صاحب الهمع(١) عن ابن حزم الذي يرى أن المعارف متساوية في التعريف ، ولاتفاضل بينها ، إذ لايصح أن يقال : عرفت هذا أكثر من هذا .

ولايخفى أن هذا القول بين البطلان بأدنى تأمل ، إذ قولك : بلدتي طيبة ، لاتبلغ في التعريف درجة قولك : مكة طيبة ، إذ الإضافة هنا قاربت أن تبلغ حد النكرة . إذ لاتعرف أي بلدة إلا بقرائن خارجية تساعد على بيان المراد منها(٢) .

وأدحض حجة لبطلان رأي ابن حزم ماورد في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾(٣) فهذا التعريف يساوي النكرة في المعنى ، مثل قولك ذئب .

---

(١) ينظر : همع الهوامع (١/١٨٧) .

(٢) ينظر : شرح الكافية للرضي (١/٢٤) ، (٣/٣١٨) .

(٣) سورة يوسف : آية (١٣) .

وقد ذكر الإمام ابن مالك النحوي في كافيته[١] مراتب تعريفها فقال :

فمضمر أعرفها ثم العلم ... واسم إشارة وموصول متم

وذو أداة أو منادى عينا ... أو ذو إضافة بها تبينا

فأعرفها عنده هو الضمير ، وهو مذهب سيبويه والجمهور[٢] .

وهذا قول لايمكن التسليم به ولاقبوله ، بل الحجة تدحضه ، والبرهان يقطعه لأن الضمير لابد فيه من قيد تكلم أو خطاب أو غيبة ، إذ لايدل على مدلوله إلا بهذه القيود ، إذ لو جردته من هذه القيود وقلت : أنا ، أنت ، هو ، صح أن تقع لكل متكلم أو مخاطب أو غائب ، فأصبح مدلولها غير معين ، وقد عد البلاغيون[٣] قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[٤] لكل من يتأتى منه الخطاب دون اختصاصها براء معين ، فتعريفها لابد فيه من استحضار هذه القيود ، بخلاف العلم الذي لايحتاج في الدلالة على مدلوله إلى قيد ، بل يدل عليه مطلقا ، قال ابن مالك في الألفية[٥] :

اسم يعين المسمى مطلقا ... علمه كجعفر وخرنقا

وعزا أبو حيان في ارتشاف الضرب[٦] ، والسيوطي في همع الهوامع[٧] هذا الرأي بصيغة التمريض إلى الصيمري[٨] صاحب التبصرة والتذكرة ، فرجعت إليه

---

(١) الكافية الشافية (٢٢٢/١) .

(٢) ينظر : ارتشاف الضرب (٤٥٩/١) ، توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادي (١٢٦/١) ، شفاء العليل في إيضاح التسهيل للسليلي (١٧١/١) .

(٣) ينظر : شروح التلخيص (٢٩١/١) ومابعدها ، حاشية الصبان مع تقرير الانبابي (٣١/٢) ومابعدها .

(٤) سورة السجدة : آية (١٢) .

(٥) ألفية ابن مالك ضمن حاشية الخضري (٦٢/١) .

(٦) ينظر : ارتشاف الضرب (٤٥٩/١) ومابعدها .

(٧) ينظر : همع الهوامع (١٨٧/١) ومابعدها .

(٨) هو عبد الله بن علي بن إسحاق الصيمري ، نحوي ، له كتاب تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهي ، توفي سنة ٥٤١هـ ، لكن محقق كتابه رجح أنه توفي في نهاية القرن الرابع .
ينظر : إنباه الرواة (١٢٣/٢) ، البلغة في تاريخ أئمة اللغة (ص١١٢) ، مقدمة التبصرة والتذكرة .

فلم أجد له إلا التصريح بما ينقض هذا الرأي إذ يقول : "فلما كان المضمر أخص الأسماء وأعرفها"[١] ، ثم يصرح أن العلم يأتي بعد المضمر فيقول : "والاسم العلم بعد المضمر أخص"[٢] .

إذن فرأى صاحب التبصرة والتذكرة على خلاف مانسبه إليه هذان الإمامان ويظهر أن السيوطي مقتف أثر أبي حيان وناقل عنه ، دون رجوع إلى صاحب الرأي ، لأن التشابه في العبارتين يكاد يؤكد ذلك ، فعبارة السيوطي "وقيل : العلم أعرفها ، وعليه الصيمري ، وعزى للكوفيين ، ونسب لسيبويه ..."[٣] ، وعبارة أبي حيان : "وقيل : أعرفها العلم ، ونسب إلى سيبويه والكوفيين ، وهو قول الصيمري"[٤] .

وهكذا يتضح أن النقل دون تثبت أو رجوع إلى المصادر قد يوقع التبعة على الناقل فيما ينقله عن غيره كما هي واقعة على المنقول عنه ، ليقف بنا على أن من أصول البحث العلمي الجاد هو التيقن الكامل في نسبة الآراء إلى ذويها دون أن يكون هناك مزلة قلم في هذا الشأن يبني عليها بناء غير راسخ .

وقد رجعت أيضا إلى كتاب سيبويه فلم أجد له رأيا صريحا فيما نسب إليه إلا من تقديم العلم على سائر المعارف[٥] ، ولكن عبارة أبي حيان والسيوطي في عزو الرأي إليه أخف من عزوهما إلى الصيمري ، إذ صدراها بقولهما : "ونسب" بما يفيد أنهما لم يقفا عليه ، مما يجردهما من تبعتها .

وبعض النحاة[٦] يرى أعرفية العلم ، ووافقهم أبو حيان واحتج بأن العلم جزئي وضعا واستعمالا ، وباقي المعارف كليات وضعا وجزئيات استعمالا[٧] .

---

(١) التبصرة والتذكرة (١/١٧٢) .
(٢) ن.م.س .
(٣) همع الهوامع (١/١٨٧) .
(٤) ارتشاف الضرب (١/٤٥٩) .
(٥) ينظر : الكتاب (٢/٥) .
(٦) ينظر : الإنصاف (٢/٤١٨) ، ارتشاف الضرب (١/٤٦١) ، الهمع (١/١٨٧) .
(٧) ينظر : ارتشاف الضرب (١/٤٦١) .

ثم بعد هـذا التحقيـق الـذي يقضـي بكـون العلـم أعـرف أنـواع المعـارف ، ولاأقول : أعرف المعارف لأن أعرف المعارف على الإطـلاق لفـظ الجلالـة[١] . ثـم يجئ بعد العلم في المقام الثاني الضمير . ولابد من بيـان وجـوه تفـاضل التعريـف في كل نوع على حدة ليفي البيان ويتم المقصود ، وليعلـم المطلـع أن مقنعنـا هـو دليـل العقول لاكثرة النقول لإيماننا بدقة نظـام لغتنـا المختـارة الخـالدة فيمـا يكشـف عـن أسرار مرجحة أو أسباب موجبة .

ويجئ الضمير في المرتبة الثانيـة لدلالتـه علـى المـراد بنفسـه وبمشـاهدة مدلولـه وبتميز صورته ، وبعدم صلاحيته لغـيره[٢] إلا ضمـير الغيبـة فإنـه يتـأخر عـن مطلـق الضمير لاحتياجه إلى مرجع يعود عليه[٣] .

ثم يجئ بعد ذلك في منزلـة واحـدة اسـم الإشـارة والنكـرة المقصـودة لكـون التعريف فيهما بالقصد[٤] .

ثم بعدهما يكون في مرتبة واحدة الموصـول والمعـرف بـاللام ، لأن التعريـف فيهما بالعهد[٥] .

وأخيرا يأتي المضاف في منزلة ماأضيف إليه[٦] ، إلا المضـاف إلى مضمـر فإنـه في رتبة العلم[٧] .

وهكذا نتبين أسرار وجوه قوة التعريف في هذه الأقسام على وجه يـبين عمـا دق خفاؤه ، وحسن رواءه ، وحمد التحقيق والتحبير إزاءه ، على صفة العموم الـتي تنبئ عن نظير مقيس لأفراد النوع الواحد ، بتداعيات استطراد فكري ثاقب ، يجلـي صورا أخرى يختزنها متبصر بخفايا اللغة ، في تفاضلات يغني عنهـا التمثيـل الـذي في

---

(١) ينظر : حاشية الخضري (٥٣/١) .
(٢) ينظر : شفاء العليل في إيضاح التسهيل (١٧١/١) ، تسهيل الفوائد (٧٧/١) .
(٣) ينظر : شفاء العليل في إيضاح التسهيل (١٧١/١) ، تسهيل الفوائد (٧٧/١) ومابعدها .
(٤) ينظر : الهمع (١٨٨/١) ، التصريح (٩٥/١) .
(٥) ينظر : الهمع (١٨٨/١) ، التصريح (٩٥/١) .
(٦) ينظر : تسهيل الفوائد (١٧٨/١) ، الهمع (١٨٨/١) .
(٧) المقرب لابن عصفور (٢٢٢/١) ، الهمع (١٨٩/١) .

العلم أو الإشارة أو المعرف باللام ، فأعرف درجات الإعلام بعد لفظ الجلالة أسماء الأماكن ثم أسماء الأناسي ثم يأتي بعد ذلك أسماء الأجناس[١] .

وأيضا فأعرف أسماء الإشارة ماكانت الإشارة فيه للقريب ثم ماكانت فيه للوسط ، ثم ماكانت فيه للبعيد[٢] .

وكذلك فإن أعرف أنواع المعرف باللام ماكان التعريف فيه للحضور ثم ماكان التعريف فيه للعهد ، ثم ماكان التعريف فيه للجنس[٣] .

وإخالني قد بلغت غايتي في بيان تحقيق هذاالمقام ، لأدلف من خلاله إلى رصد واع لأساليب التعريف في أربعة أقسام هي مستودع أسرار هذا الباب ، عن طريق ماتزخر به تراكيب الجمل القرآنية وأسرار أساليب استعمالاتها البيانية في تحبير طاهر من الطاهر برائع من التحليل الفني الذي ينطوي على ماشتدت أصولها وتسامق طولها في إثراء بلاغي فائق ، يجدد للرائين نظرات بيانية للكشاف ، ويضيء إلى علم نتلمس منارة طلوعه في حذق الأفراد من العلماء ، متجاوزا آفاق رؤى مكرورة متناقلة إلى بديع منها وجديد من الآفاق ، ليؤكد أن البلاغة متجددة بتجدد النصوص ، باقية بقاء القرآن على مر الليالي والأيام ، وأنه بعد مرور مايقارب من أربعة عشر قرنا من نزول القرآن الكريم المعجزة الخالدة مازالت تتجلى بلاغة البلاغة في استظهار مابلغته فكرة هذا الجهبذ ، وماوسعته طاقته وتأمله وحسن تدبره ليبقى القرآن معينا ثرا يثري البلاغة التي نشأت في كنفه ، واستظلت بوارف ظلاله.

---

(١) ينظر : الهمع (١٨٨/١) ، التصريح (٩٥/١) .

(٢) ينظر : الهمع (١٨٨/١) ، التصريح (٩٥/١) .

(٣) ينظر : الهمع (١٨٨/١) ، التصريح (٩٥/١) .

فائدة عامة في التعريف

ينظر أصحاب كل فن بالنسبة إلى الجملة نظرة تختص بهم ، وتتفق مع علمهم ، ويسمون طرفي الإسناد بتسميات يقتضيها العلم الذي يبحثونه بما يتواطئون أو يصطلحون عليه وفق مقتضيات علمهم واعتباراته .

ولذا سمى البلاغيون طرفي الإسناد مسندا ومسندا إليه ، لأن نظرهم يكون معنيا بالإسناد في علاقة ترابط المفردات فيما بينها ، فانبعثت تسميتهم من أصل بحثهم ونظرتهم .

وسمى النحويون طرفي الإسناد مبتدأ وخبرا أو فعلا وفاعلا ، لأن نظرهم يكون متجها به لأحوال المركبات الموضوعة وضعا نوعيا ، فاتجهوا للبحث عن ذلك النوع من المعاني النسبية من حيث دلالة تلك الأحوال عليها فكانت التسمية[١] .

وسمى الأصوليون طرفي الإسناد محكوما عليه ومحكوما به ، لأنهم ينظرون إلى ماهية الحكم المستفاد من التركيب ، فجاءت التسمية وفق مقتضى النظر[٢] .

وسمى المنطقيون طرفي الإسناد موضوعا ومحمولا لكونهم ينظرون إلى قوانين تعصم مراعاتها الذهن عن الوقوع في الخطأ الفكري كما زعموا ذلك فجاءت تسميتهم مواءمة مع طبيعة منظورهم في حمل طرفي الإسناد وضمهما إلى بعض[٣] .

فالمنظور إليه أمر واحد عند جميع أرباب هذه الفنون ولكن النظرات متباينة فيما بينها ، ومتفاوتة في جوانب النظر لهذا الأمر الواحد بما يتوصل من طريقه إلى أن الرؤى العامة لابد أن تؤخذ في الحسبان عند استجلاء معاقد الصلات ومواطن النظر في وشائج القربى الرحمية بين العلوم فضلا عن الفن الواحد الذي يرتبط بنظرة عامة للمتفحصين لمجامع التقارب ومداخل التشابه في سلوك نظم روابط الأصول في مبتدأ الختم أو منطلق البدء بغض النظر عما تفترق فيه من طرق وشعاب لاستجماع ناد

---

(١) ينظر : مفتاح السعادة (١/١٣٨) .

(٢) ينظر : إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني (١/٤٦) ومابعدها .

(٣) ينظر : المنطق الصوري والرياضي لعبد الرحمن بدوي (ص٣) ومابعدها .

الدقائق بحسن الإحاطة ولانتظام ورقات البحث واستحصال فوائد لم تكن لتكون لولا شمولية النظر وصدق التبصر ، وقد صرح الأئمة[١] من البلاغيين بفائدة عامة ونكتة جامعة في مقام التعريف لانتظام عقود التعريف في ازدياد الإفادة وأتميتها ولاأقول تمامها ، لأنها بالتنكير أيضا تامة ، في نحو : أقائم الزيدان .

بل وصف العلامة يس الحمصي العليمي في حاشيته[٢] على المختصر تلك الفائدة بالكمال . ووجه الأتمية بالتعريف ، لأن الحكم كلما كان أبعد من الذهن كان الإخبار به أكبر فائدة ، وكلما كان أقرب كانت الفائدة أضعف .

وبعد الحكم يجئ بحسب تخصيص المسند إليه بالمسند ، لأنه إذا كان الحكم أكثر خصوصية كان أكثر بعدا ، وإذا كان أكثر عموما كان أكثر قربا[٣] .

فعلى سبيل المثال يكون قولك : شئ ما موجود ـ الفائدة فيه ضعيفة ، لأن الحكم فيه قريب[٤] .

ويكون قولك : فلان بن فلان ناجح في الامتحان ، الفائدة فيه أكبر وأعظم لأن هذا الحكم بهذه الصورة كان بعيدا من الذهن[٥] .

ولايراد بالتخصيص في هذا المقام التخصيص الاصطلاحي وهو القصر وإنما يراد بالتخصيص هو كماله بالتعريف[٦] ، بمعنى إرادة أن يكون هناك تعيين ، والأصل في التعيين الموجب لازدياد الفائدة المعارف[٧] .

---

(١) ينظر : المفتاح (ص٥٨) ، الإيضاح (ص١١٢) ، لطائف التبيان في علمي المعاني والبيان (ص٤٧) .

(٢) ينظر : حاشية يس على المختصر لوحة ٤٧ مخطوطة رقم (٣٣٦١) بمكتبة الحرم المكي .

(٣) ينظر : عروس الأفراح (٢٨٧/١) ، حاشية الدسوقي (٢٨٧/١) .

(٤) ن.م.س .

(٥) ينظر : مواهب الفتاح (٢٨٧/١) .

(٦) ينظر : عروس الأفراح (٢٨٧/١) .

(٧) ينظر : مواهب الفتاح (٢٨٧/١) .

ولاترد النكرة المخصصة بالوصف نحو : رجل كريم في أرض لاأنيس بها ، لأنها لاتصل إلى درجة المعرفة التي التعريف بها وضعي[1] .

(١) ينظر مواهب الفتاح (٢٨٧/١) .

الفصل الأول

التعريف بالإشارة

التعريف بالإشارة

تتزايد نكات التعريف بالإشارة في دلالات الجملة القرآنية التي تجلت فيها الاستعمالات البلاغية لهذه الأسماء ، وهذا يتطلب مزيدا من بحث أولي العلم المعتنين بهذا الفن لاقتفاء آثارمابدأ به الأئمة من الرواد الذين ذكروا في تفاسيرهم جوانب من ذلك .

وإخالني بعد الوقوف على تلك التفاسير ومعايشتها خلال تلك السنوات فيما يختص بهذه الأبواب من المعاني أقول إن مالم يذكره البلاغيون أكثر مما ذكروه ، وذلك أمر طبعي يرجع إلى شأن البدايات في العلوم ، وإلى فضل ريادتهم التي لانطالبهم فيها بكمال جميع مسائل العلم على أيديهم ، ويكفيهم أنهم أبدعوا معرفة جديدة وفتحوا بابا من العلم مغلقا ، ووضعوا معالم الطريق ، فلايصح ممن أتى بعدهم أن يطالبهم بالقيام بدوره بعد أن قاموا بدورهم ، لاسيما وأنهم قاموا بأصعب المهام في البناء وأشدها في الإشادة .

كما أشير من جانب آخر إلى أن التفسير البلاغي أو البياني للجمل القرآنية يستوجب كامل العناية من البحث والدراسة من قبل البلاغيين في استجلاء شئ من جوانب بلاغة هذا الإعجاز الخالد .

بمعنى آخر أن التفاسير المعنية ببلاغة القرآن في بيانها لوجوه الإعجاز البياني تتطلب المضاعفة في جهد جاد ومقتدر لاستظهار الأوجه البلاغية والنكات البيانية في هذا الكتاب الذي يزخر بالبلاغة في كل آية من آياته وتركيب من تركيباته . قال ابن عاشور رحمه الله مصداقا لهذا الكلام : "... ولكن فنا من فنون القرآن لاتخلو عن دقائقه ونكته آية من آيات القرآن ، وهو فن دقائق البلاغة"[١] .

بل يرى ابن عاشور أن هذا الفن لم يخصه أحد بكتاب وإنما عني بعض المفسرين في تفاسيرهم ببيان هذا الفن في بعض الآيات التي يلوح لهم فيها وجها من ذلك ، إذ يقول متابعا كلامه السابق : "وهو فن دقائق البلاغة هو الذي لم يخصه

---

(١) التحرير والتنوير (٨/١) .

أحد من المفسرين بكتاب ، كما خصوا الأفانين الأخرى ، من أجل ذلك التزمت أن لاأغفل التنبيه على مايلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما ألهمته بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر"(١) .

وهو هنا ينفي أن يكون هناك كتاب اختص بالبلاغة القرآنية ، وليت شعري ماهي كتب إعجاز القرآن؟ وعلام تدور؟ وماهي موضوعاتها؟ أوليست في البلاغة القرآنية . اللهم إلا إن كان يقصد أن يكون هناك كتاب يختص بدراسة البلاغة القرآنية من مبتدأ أول آية في القرآن إلى آخر آية منه ، فإن حمل كلامه على هذا الوجه صادف وجها من الصحة .

وعلى كل فلست بصدد المناقشة في هذا المقام ، ولكنني بصدد الاعتضاد لما ألمحت إليه من طلبي مزيدا من مضاعفة الجهد في هذا الفن الذي لايدع فيه المعرفة إلا الأفذاذ المؤهلون بالحس اليقظ والذهن الوقاد والقريحة الجياشة والخبرة بأساليب هذا اللسان . وقد أشار علامة خوارزم إلى وصف من تأهل من البلاغيين لاستظهار دقائق البلاغة ونكات الأساليب إذ قال : "... لايكشف عنها ـ أي : دقائق البلاغة وغوامض الأسرار ـ من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، وإلا واسطتهم وفصهم ، وعامتهم عماة عن إدراك حقائقها بأحداقهم ، عناة في يد التقليد لايمن عليهم بجز نواصيهم وإطلاقهم"(٢) .

ولاغرو أن يكون مثل هذا العلم ـ الذي لايكون مقتدرا لخوض عبابه من أربابه إلا من كان بتلك المثابة التي صورها الزمخشري(٣) ـ مصدر الإعجاز

(١) التحرير والتنوير (٨/١) .

(٢) الكشاف (١٤/١) ومابعدها .

(٣) وقد أوضح الزمخشري بتفصيل صفات ذلك البلاغي الأوحد والأخص بقوله : "... إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان . وتمهل في ارتيادهما آونة وتعب في التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة في معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله ، بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات . قد رجع زمانا ورجع إليه ، ورد ورد عليه ، فارسا في علم الإعراب ، مقدما في حملة الكتاب ، وكان مع ذاك مسترسل =

ومنبع البيان ، ومعين البلاغة الروي ، ومستودع دقتها وسرها السماوي ، وقد وصفه صاحب الكشاف بقوله : "... ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير ..." [١] .

وبهذا يظهر جليا أن دراسة الظواهر البلاغية في الآيات القرآنية على جانب كبير من كمال العناية ، لكونه هو الجانب الأظهر والأنصع في الإسهام الجادة في الدرس البلاغي بتسجيل مواقعها وشواهدها ودلالاتها ، واستظهار أساليب استعمالاتها ، في أرقى الدراسات وأصدق الشواهد ، لنشؤها في ظله ، واستمدادها منه ، ولو لم يكن من ذلك إلا حظ الاستظهار .

وقد حاول علامة تونس في تحريره وتنويره رصد كثير من الأغراض البلاغية لمواقع أسماء الإشارة الواردة في الجملة القرآنية في خروجها عن معناها الأصلي الذي هو الإشارة إلى محسوس مشاهد[٢] ، بما يستوجب في هذا المقام دراسة تلك الأغراض والوقوف عليها .

فمن تلك الأغراض التنبيه عند الإشارة إلى موصوف على أن المشار إليه جدير بما أسند لاسم الإشارة من أجل كونه موصوفا[٣] .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾[٤] .

= الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفي مكانها ، لاكزا جاسيا ، ولاغليظا جافيا ، متصرفا ذا دربة بأساليب النظم والنثر ، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقة ، ووقع في مضاحضه ومزالقه" . (١٦/١) ومابعدها .

(١) الكشاف (١٥/١) .

(٢) ينظر : شرح الرضي على الكافية (٧٥/٣) ، المطول (ص٧٧) ، حاشية السيد على المطول (ص٧٧) .

(٣) ينظر : الأطول (ص٩٨) ، التجريد (٨٢/٢) .

(٤) سورة البقرة : آية (٥) .

قال ابن عاشور : "وأصل الإشـارة أن تعـود إلى ذات مشـاهدة معينـة إلا أن العرب قد يخرجون بها عن الأصل ، فتعود إلى ذات مستحضرة من الكـلام بعـد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ماينزلها منزلة الحـاضر في ذهـن المتكلـم والسـامع ، فـإن السـامع إذا وعـى تلـك الصفـات وكـانت مهمـة أو غريبـة في خـبر أو ضده صـار الموصوف بها كالمشاهد ، فالمتكلم يبني على ذلك فيشـير إليـه كالحـاضر المشـاهد ، فيؤتى بتلك الإشارة إلى أنه لاأوضح في تشخصه ولاأغنـى في مشـاهدته مـن تعـرف تلك الصفات ، فتكفي الإشارة إليها ، هذا أصل الاستعمال في إيـراد الإشـارة بعـد ذكر صفات مع عدم حضور المشار إليه"[1] .

وأراني مضطرا لمقاطعة ابن عاشور للتنبيه على هذه الفكرة بالذات الـتي فيهـا إشارة واعية ولفتة دقيقة في كيفية خروج اسم الإشارة عن معناه الأصلي إلى المعنـى البلاغي بما لم أر أحدا من البلاغيين قد أوفاه من البيان بما أوفاه به علامة تونس وإن حفلت كتبهم[2] بهذه الآية الكريمة .

إضافة إلى أنه يعد منطلقا واضحا لما سيتلو هذا الغرض من أغراض من حيث الإبانة المستفيضة لهذه الفكرة .

وقد أوضح ابن عاشور وجه هذا الغـرض البلاغـي ، فقـال ــ متابعـا كلامـه السابق ـ : "ثم أنهم قد يتبعون اسم الإشارة الوارد بعد تلـك الأوصـاف بأحكـام ؛ فيدل ذلك على أن منشأ تلك الأحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الإشارة لأنها لما كانت هي طريق الاستحضار كانت الإشـارة لأهـل تلـك الصفـات قائمـة مقام الذوات المشار إليها ، فكما أن الأحكام الواردة بعد أسمـاء الـذوات تفيـد أنهـا ثابتة للمسميات ، فكذلك الأحكام الـواردة بعـد مـاهو للصفـات تفيـد أنهـا ثبتـت للصفات ؛ فكقوله : ﴿أولئك على هـدى مـن ربهـم﴾ بمنزلـة أن يقـول : إن تلـك الأوصاف هي سبب تمكنهم من هدى ربهم إياهم"[3] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٤١/١) .

(٢) ينظر : شروح التلخيص (٣١٩/١) ومابعدها ، لطائف التبيان في علمي المعاني والبيـان للطيبي (ص٧٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٤١/١) .

وهو بهذا يشير أيضا إلى مااختصت به أسماء الإشارة في مثل هذا المقام من إيذانها بعلية الوصف ؛ بمعنى أنها تفهم أن المشار إليهم كانوا جديرين بتلك الأحكام من كونهم على هدى من ربهم وتمكنهم من الهداية بسبب مااتصفوا به من الإيمان بالله وبما أنزل من كتبه ، ومن إقامتهم الصلاة ، ومن إنفاقهم مما رزقهم الله ، ومن إيقانهم بالآخرة .

كما ينشأ عن غرض هذا الإنباء وتلك العلية غرض آخر ذكره صاحب مواهب الفتاح : "وهو الترغيب في تحصيل تلك الأوصاف"(١) .

على أن صاحب التحرير والتنوير ينظر نظرة عامة لمثل هذا الأسلوب فيقرر أن تقدم الأوصاف على مثل هذا النحو ينبئ عن ترقب فائدة تلك الأوصاف فيجئ الحكم ضاما تلك الفائدة(٢) .

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام وأمثاله هو : لماذا أورد اسم الإشارة هنا مع أن المحل محل الضمير؟

والإجابة على هذا التساؤل هو أن اسم الإشارة حل محل الضمير ، لأن اسم الإشارة تضمن جميع الأوصاف المتقدمة ، خلاف الضمير ، ولأنه أفاد التنويه بتلك الأوصاف ، خلاف الضمير ، ولأنه أشعر بعلية الحكم الناشئ عن تلك الأوصاف ، خلاف الضمير ، ولأنه أفاد استحقاق الموصوفين ذلك الحكم وهو مأفاده أيضا الضمير ، فكان هذا المقام أنسب وأسعد بلاغة وبيانا باسم الإشارة لابالضمير(٣) .

ومثل هذا الغرض البلاغي الوارد في الجملة القرآنية الكريمة ماورد في الآية نفسها معطوفا على الجملة السابقة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٤) .

ويقع تساؤل آخر في هذه الجملة ، وهو لماذا كرر اسم الإشارة ، رغم أنه يصح عطف هذا الحكم على سابقه دون ذكر اسم الإشارة؟

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص (٣٢٠/١) .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير (٢٤٢/١) .

(٣) ينظر : المطول (ص٢٦٠) .

(٤) سورة البقرة : آية (٥) .

وقد كفانا مؤنة الإجابة العلامة ابن عاشور فقال : "ووجه تكرير اسم الإشارة التنبيه على أن كلتا الأثرتين جديرة بالاعتناء والتنويه ، فلاتذكر إحداهما تبعا للأخرى بل تخص بجملة وإشارة خاصة ليكون اشتهارهم بذلك اشتهارا بكلتا الجملتين ، وأنهم ممن يقال فيه كلا القولين"(١) .

ولو نظرنا إلى عدم تكرير اسم الإشارة بأن كان التركيب بهذه الصورة : أولئك على هدى من ربهم وهم مفلحون ، فقد فاتت هذه الأغراض التي ذكرها التحرير والتنوير ، ولربما توهم أن الاستقلال بالمجموع لا بكل واحدة منهما(٢) .

والمعنى الذي ذكره الطاهر ماهو إلا معنى الزمخشري ، إذ قال : "وفي تكرير أولئك تنبيه على أنهم كما ثبتت لهم الأثرة بالهدى فهي ثابتة لهم بالفلاح ، فجعلت كل واحدة من الأثرتين في تميزهم بها عن غيرهم بالمثابة التي لو انفردت كفت مميزة على حيالها"(٣) .

وللعلامة الألوسي إضافة لطيفة في ورود اسم الإشارة في الآية إذ يقول : "وإيراد اسم الإشارة هنا بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة مع مافيه من الإشعار بكمال تميزه بها وانتظامه لذاك في سلك الأمور المشاهدة مع الإيماء إلى بعد منزلته وعلو درجته"(٤) .

وهذا التعبير الرائع عنده في وصف معنى اسم الإشارة في مثل هذا المقام بقوله "بمنزلة إعادة الموصوف بصفاته المذكورة ، ليس له وإنما هو تعبير العلامة ناصر الدين البيضاوي إذ قال : "... فإن اسم الإشارة ههنا كإعادة الموصوف بصفاته المذكورة... "(٥) .

فهذه العبارة تقوم مقام كلام كثير في إيضاح تميز معنى الإشارة هنا وتتسم بأنها أحسن تعبير وقع لهذا المعنى ، وقد حفل بذلك العلامة الخفاجي إذ قال عنها :

(١) التحرير والتنوير (١/٢٤٦) .
(٢) ينظر : حاشية السيد على الكشاف (١/١٤٥) ، حاشية الشهاب (١/٢٥٠) .
(٣) الكشاف (١/١٤٥) .
(٤) روح المعاني (١/١٢٤) .
(٥) تفسير البيضاوي (١/٢٤٤-٢٤٥) .

"وهذه العبارة أخصر وأحسن من قوله في الكشاف "بإعادة اسم من استؤنف عنه الحديث ... أو بإعادة صفته" لما يرد عليه من أن الصفة لم تذكر أولا حتى تعاد ، وإن اعتذر له بأنه أراد به إعادة ذكر من استؤنف عنه الحديث باسمه أو بصفته إذ هو مشاكلة ..." [(١)] .

ومثل هذا الغرض البلاغي في هاتين الجملتين القرآنيتين ماورد في قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾[(٢)] .

ففي تفسير هذه الآية قال ابن عاشور : "واسم الإشارة هنا غير مشار به إلى ذوات ولكن إلى صنف اجتمعت فيهم الصفات الماضية ، فانكشفت أحوالهم حتى صاروا كالحاضرين تجاه السامع بحيث يشار إليهم ، وهذا استعمال كثير الورود في الكلام البليغ"[(٣)] .

والصفات الماضية هي صفات المنافقين التي جلاها القرآن الكريم بدءا من قوله تعالى : ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[(٤)] وماعطف عليها .

فالإشارة بـ"أولئك" استحضار وإعادة لهذا الصنف الموصوف بصفاته المذكورة ، وبها علية هذا الحكم الناشئ عن تلك الأوصاف ، والترغيب عنها ، واستحقاقهم إياها .

ويرى علامة تونس أن اسم الإشارة في مثل هذا الأسلوب لايفيد قربا أو بعدا وإنما هو لمجرد الإشارة إذ يقول : "وليس في هذه الإشارة إشعار ببعد أو قرب حتى تفيد تحقيرا ناشئا عن البعد ، لأن هذا من أسماء الإشارة الغالبة في كلام العرب فلاعدول فيها ؛ حتى يكون العدول لمقصد ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ذلك الكتاب﴾ ، ولأن المشار إليه هنا غير محسوس حتى يكون له مرتبة معينة ، فيكون العدول عن لفظها لقصد معنى ثان"[(٥)] .

---

(١) حاشية الشهاب (٢٤٥/١) .
(٢) سورة البقرة : آية (١٦) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٩٧/١) .
(٤) سورة البقرة : آية (٨) .
(٥) التحرير والتنوير (٢٩٧/١) .

فاستدلاله على كون هذه الإشارة لاتفيد قربا أو بعدا من جهات ثلاث :

الجهة الأولى : غلبة وروده في كلام العرب على هذه الصفة .

الجهة الثانية : ليس فيها ثمة عدول .

الجهة الثالثة : كون المشار إليه غير محسوس ، فليس له مرتبة معينة .

وهذا الاستدلال غير كاف في تجريد اسم الإشارة عن هذا المعنى المطرد فيه ، لأنه يمكن أن يرد على تلك الجهات بما ينقضها ، فيقال :

ردا على الجهة الأولى : إن غلبة وروده في كلام العرب على هذه الصفة لايمنع أن يكون دالا على درجة المشار إليه ، لاسيما أنه يخرج عن هذه الغلبة في مواطن أخرى ، فيلزم من ذلك أن يكون له وجه من البلاغة ، مع التنبيه على أن البلاغيين يتساءلون عما ورد على الأصل ، فسقط وجه الاستدلال .

أما الجهة الثانية : فإن العدول أمر افتراضي يقدره البلاغيون وهو وارد في هذا المقام ، وهناك من الأسباب مايلتمس لاستظهار علة مجئ هذه الإشارة بهذه الخصوصية .

أما الجهة الثالثة من كون المشار إليه غير المحسوس ليس له مرتبة معينة ، فإن هذا الكلام غير سديد ، إذ أن ابن عاشور نفسه عد اسم الإشارة في قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[1] لمعنى بلاغي هو التعظيم إذ قال : "فجاء باسم إشارة البعيد تعظيما للتأويل بعد ظهوره"[2] فجعل له مرتبة معينة ، وافترض العدول عن تلك المرتبة . ورأى للإشارة في هذا الموضع معنى بلاغيا .

ويعضدني في هذه الوجهة مارأيته عند علامة بغداد محمود الألوسي ، إذ رأى أن الإشارة بالبعيد لغرض بلاغي في آية سورة البقرة نفسها التي نفى ابن عاشور أن يكون للإشارة بالبعيد فيها أي معنى بلاغي ، إذ قال الألوسي : "﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ إشارة إلى المنافقين الذين تقدم ذكرهم الجامعين للأوصاف

---

(١) سورة الكهف : آية (٨٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٤١٨) .

الذميمة من دعوى الصلاح وهم المفسدون ، ونسبة السفه للمؤمنين ـ وهم السفهاء والاستهزاء ـ وهم المستهزأ بهم ـ ولبعد منزلتهم في الشر وسوء الحال أشار إليهم بما يدل على البعد"[١] .

وقد ألمح قبله صاحب نظم الدرر إلى ذلك فقال : "﴿أولئك﴾ أي : الشديدو البعد من الصواب"[٢] .

فجعل لاسم الإشارة بالبعيد غرضا بلاغيا ، وقد قدمت تفسير الألوسي لأنه أوضح وأصرح ، وإن كان كلاهما يخالفان الوجهة التي اتجه إليها صاحب التحرير والتنوير .

ومثل هذا الغرض البلاغي الذي نحن مازلنا بصدده ماورد في قوله تعالى في سورة النساء : ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[٣] ، وماورد في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٤] .

ومن تلك الأغراض تمييز المشار إليه أكمل تمييز لأغراض ذكر ابن عاشور منها :

ماورد في تفسير قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة من قوله ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ مقصود منه تمييز المشار إليه أكمل تمييز ، وهو من يتعدى حدود الله ، اهتماما بإيقاع وصف الظالمين عليهم"[٦] .

---

(١) روح المعاني (١/١٦٠) .
(٢) نظم الدرر (١/٤٧) .
(٣) سورة النساء : آية (١٥١) ، وينظر : التحرير والتنوير (٦/١١) .
(٤) سورة الأنعام : آية (١٠٢) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧/٤١٢) .
(٥) سورة البقرة : آية (٢٢٩) .
(٦) التحرير والتنوير (٢/٤١٣) .

وأفعل التفضيل على بابه في قوله "أكمل تميز" ، وهذا لايقضي بأن اسم الإشارة أعرف أنواع المعارف ، بل تكون أكملية التمييز من جهة أن معه إشارة حسية ولايتأتى فيها الاشتباه أصلا ، وهذه الخصوصية لاتنفي أن يكون من المعارف ماهو أعرف منه(١) ـ لما سبق بيانه(٢) ـ .

والغرض البلاغي الذي قصد به تمييزه أكمل تمييز هو إجراء وصف الظالمين عليهم .

ومن تلك الأغراض أيضا ماورد في سورة آل عمران : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣) .

قال ابن عاشور : "والإشارة في قوله ﴿ذلك بأنهم قالوا﴾ إلى الحكم المذكور وهو ﴿إن تأمنه بدينار لايؤده إليك﴾ وإنما أشير إليه لكمال العناية بتمييزه لاختصاصه بهذا الشأن العجيب"(٤) .

ولعل كلام الزمخشري ـ وإن ظهر بعيدا ـ هو الذي فتح باب هذا الفهم عند ابن عاشور إذ قال : "﴿ذلك﴾ إشارة إلى ترك الأداء الذي دل عليه ﴿لم يؤده﴾ ؛ أي : تركهم أداء الحقوق بسبب قولهم ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾ ..."(٥) .

لأن العالم يستخرج من هذه الوقفة عند بيان مرجع اسم الإشارة ما لم يستخرجه غيره ، ويلمح فيها عن بعد ما لم يلمحه غيره عن كثب ، لأن نظرات العلماء لاتقف عند ظاهر المعرفة بل تغوص فيها ثم تستخرج ماوراءها من معارف وهكذا تتنامى لتصل حلقات بحلقات مكونة منظومة قل المتباصرون بها ، ولكنها لاتخفى عليهم .

---

(١) ينظر : مواهب الفتاح (٣١٤/١) ، حاشية الدسوقي (٣١٣/١) .

(٢) ينظر (ص٣٥٢) .

(٣) سورة آل عمران : آية (٧٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٨٧/٣) .

(٥) الكشاف (٤٣٨/١) .

والغرض البلاغي في جهة تمييز المشار إليه أكمل تمييز هو اختصاصه بهذا الشأن العجيب من كون بعض أهل الكتاب لايؤدي ماستؤمن عليه من حقوق ولو كان من القلة بمكان بحجة أن المستأمنين ليسوا من أهل الكتاب فهم من الأميين ، فليس عليهم سبيل من لوم أو عتاب .

ومن تلك الأغراض ماورد في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾(١) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية الكريمة : "واسم الإشارة هنا لقصد تمييز الكوكب من بين الكواكب ، ولكن اجراؤه على نظيريه في قوله ـ حين رأى القمر وحين رأى الشمس ـ : "هذا ربي ـ هذا ربي" يعين أن يكون القصد الأصلي منه هو الكناية بالإشارة عن كون المشار إليه أمرا مطلوبا مبحوثا عنه ، فإذا عثر عليه أشير إليه"(٢) .

وهذا المعنى الذي ذكره علامة تونس من حمل اسم الإشارة على معنيين صريح وكنائي ، لم يشر إليه البلاغيون و لم يذكروه في كتبهم .

لأن المعنى الصريح لاسم الإشارة في هذه الآية تمييز المشار إليه وهو الكوكب أكمل تمييز ، فإذا ماجعلنا ذلك هو الغرض البلاغي فإنه يضعف من كونه كذلك وجود الإشارة إلى كوكبين آخرين بالصياغة نفسها "هذا ربي" ، فكان حريا بالبليغ أن يبحث عن غرض بلاغي أصلي مقصود بهذه الإشارة . فلم يكن طريق إلا الكناية التي نتوصل من خلالها إلى معنى بديع يحل مثل هذا الضعف الذي يقع في المعنى الصريح ولايمنعه ، لنتصل بسبب واضح إلى معرفة سر التعبير بالإشارة في هذا الموضع ، لنخلص إلى أن المشار إليه أمر مطلوب مبحوث عنه ، فإذا عثر عليه أشير إليه ، وهذا معنى كنائي لاسم الإشارة إضافة إلى المعنى الصريح .

ولربما يقال : إن هذا المعنى الذي ذكره ابن عاشور لايقع إلا فيما ندر من الشواهد القرآنية والأمثلة النثرية والشعرية .

---

(١) سورة الأنعام : آية (٧٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٣١٨/٧) .

وسيتولى الرد على هذا الإيراد ابن عاشور نفسه ، ليؤكد صحة ماذهب إليه وماستظهره من معنى بلاغـي في إيراد اسم الإشارة مستعملا في معنييه الصريح والكنائي ، مؤيدا ذلك بحشد من الشواهد إذ قال : "وذلك كالإشارة في قوله تعالى ﴿لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث﴾ ، وقوله : ﴿قالت فذلكن الذي لمتنني فيه﴾[1] ولم يقل : فهو الذي لمتني ، ولعل منه قوله ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ إذ لم يقتصروا على "بضاعتنا ردت إلينا" ، وفي صحيح البخاري قال الأحنف بن قيس : ذهبت لأنصر هذا الرجل - يعني علي بن أبي طالب - ولم يتقدم له ذكر ، لأن عليا وشأنه هو الجاري في خواطر الناس أيام صفين ، وسيأتي قوله تعالى ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني كفار قريش ، وفي حديث سؤال القبر : فيقال : ماعلمك بهذا الرجل - يعني الرسول ﷺ -"[2] .

فجملة ماعضد به كلامه ستة شواهد ، أربع آيات وحديثان ، وقد استقصيت مظانها عنده فلم أحفل بما يستوجب تسجيله أو الإشارة إليه إلا فيما سأذكره من فائدة في آية سورة الأنعام ، وماأحاول تقريره من تردد ابن عاشور في آية سورة يوسف وهي قوله تعالى : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[3] ، من أن الغرض البلاغي لاسم الإشارة فيها - كما يظهر لي - هو الكناية بالإشارة إلى كون المشار إليه وهو البضاعة أمرا مطلوبا مبحوثا عنه ، مضافا إلى المعنى الصريح من إرادة تمييز المشار إليه أكمل تمييز .

وكأني بعلامة تونس إذ لم يبسط هذا الغرض البلاغي في مواضع الآي الأخرى قد اكتفى واقتنع بما قد تم تحريره وتقريره في هذا الموضع ، بعد أن أكد بصريح العبارة أن هذا الغرض البلاغي مما قد فات البلاغيون ذكره حين قال :

---

(١) ذكر البلاغيون أن الغرض البلاغي في التعريف باسم الإشارة "فذلكن" لقصد التعظيم بالبعد ، رفعا لمنزلته في الحسن ، وتمهيدا لعذر الافتتان به ، وهذا لاينافي النكتة التي استظهرها ابن عاشور في هذا المقام ، لأن النكت لاتتزاحم . ينظر : الإيضاح (ص١٢٠) ، عروس الأفراح (٣١٧/١) .

(٢) التحرير والتنوير (٣١٨/٧) ومابعدها .

(٣) سورة يوسف : آية (٦٥) .

"وهذا من الأغراض الداعية للتعريف باسم الإشارة التي أهملها علماء البلاغة"[١] .

وأما الفائدة التي ذكرها في آية سورة الأنعام وهي قوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والإشارة في قوله "هؤلاء" إلى المشركين من أهل مكة ، وهي إشارة إلى حاضر في أذهان السامعين ، كما ورد في حديث سؤال القبر : "فيقال له ماعلمك بهذا الرجل" ، يعني : النبي ﷺ . وفي البخاري قال الأحنف بن قيس : "ذهبت لأنصر هذا الرجل" يعني : علي بن أبي طالب .

وقد تقصيت مواقع آي القرآن فوجدته يعبر عن مشركي قريش كثيرا بكلمة "هؤلاء"كقوله : ﴿بل متعت هؤلاء وآباءهم﴾ و لم أر من نبه عليه من قبل"[٣] .

والذي دفعه لتقصي مواقع آي القرآن في كلمة "هؤلاء" ربما يكون انعدام مرجع المشار إليه من الناحية اللفظية ، فكأني بالإشارة في هذا المقام تقوم مقام لام العهد الذهني ، بمعنى أن المشار إليه معهود لدى المخاطبين ، فلااحتياج حينئذ إلى بيان لفظي للمشار إليه ، ليصبح مرادا بها في القرآن كفار قريش .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية الكريمة مايؤكد أن المشار إليهم مشركو قريش[٤] .

وقد أكد ابن عاشور هذا المعنى في موطن آخر إذ قال : "وهكذا اصطلاح القرآن حيث يذكر "هؤلاء" بدون سبق مايصلح للإشارة إليه ، وهذا قد ألهمني الله إليه"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٩/٧) .
(٢) سورة الأنعام : آية (٨٩) .
(٣) التحرير والتنوير (٣٥٣/٧) .
(٤) ينظر : تفسير الطبري (٢٦٠/٥) ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٥٢/٣) .
(٥) التحرير والتنوير (٩/٢١) .

ومنها ماورد في قوله تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "والإشارة إلى القرآن ، لأن المحاولة في شأنه من ادعائهم نفي نزوله من عند الله ، ومن تبكيتهم بإنزال التوراة يجعل القرآن كالحاضر المشاهد فأتى باسم الإشارة لزيادة تمييزه تقوية لحضوره في الأذهان"[٢] .

فالغرض البلاغي من تمييز المشار إليه وهو القرآن لقصد تقوية حضوره في الأذهان ، لأنهم ادعوا نفي نزول أي كتاب من الله على بشر ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾[٣] .

ومنها ماورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ﴾[٤] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والإشارة بـ"ذلكم" لزيادة التمييز ، وللتعريض بغباوة المخاطبين المشركين ، لغفلتهم عن هذه الدلالة على أنه المنفرد بالإلهية ، أي : ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحي من الميت والميت من الحي هو الذي يعرفه الخلق باسمه العظيم الدال على أنه الإله الواحد ، المقصور عليه وصف الإلهية ، فلاتعدلوا به في الإلهية غيره ، ولذلك عقب بالتفريع بالفاء قوله ﴿فأنى تؤفكون﴾"[٥] .

فالغرض البلاغي من زيادة تمييز المشار إليه في هذا المقام قصد التعريض بغباوة المشركين من المخاطبين ، لغفلتهم عن دلائل ألوهية الخالق جل وعلا .

ومنها ماورد في قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾[٦] .

---

(١) سورة الأنعام : آية (٩٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٦٩/٧) .

(٣) سورة الأنعام : آية (٩١) .

(٤) سورة الأنعام : آية (٩٥) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٨٩/٧) .

(٦) سورة الكهف : آية (١٥) .

قال ابن عاشور : "والإشارة إلى قومهم بـ"هؤلاء" لقصد تمييزهم بما سيخبر به عنهم ، وفي هذه الإشارة تعريض بالتعجب من حالهم وتفضيح صنعهم ، وهو من لوازم قصد التمييز"(١) .

وهذا تعريض آخر يفيده التعريف باسم الإشارة من جهة تميز المشار إليه أكمل تمييز ، والتعريض بسوء صنيعهم ورداءة فكرهم ، وقلة معرفتهم وفهمهم ، والتشهير بفعلهم ، والتعجب من حالهم .

بينما رأى علامة بغداد محمود الألوسي أن الإشارة هنا تفيد التحقير ، إذ قال ""هؤلاء" هو مبتدأ وفي اسم الإشارة تحقير لهم"(٢) .

ولكن الغرض البلاغي في التحرير والتنوير أقوى وأوجه ، لأن الإشارة إلى قومهم المنسوبين لهم تضعف ـ ولاأقول تنفي ـ أن يكون المراد باسم الإشارة في هذا المقام التحقير . إذ المرء يعتد بقومه لايحقرهم إلا فيما ندر ولكن يتعجب من حالهم وينقد صنيعهم .

وهذا المعنى الذي رآه علامة بغداد أحسب أنه مما بصر به عند الشهاب الخفاجي ، لاسيما أنه ينقل عنه كثيرا ويحفل بآرائه وينتصر له ، ففي تعقيبه على قول المصنف : ""هؤلاء" مبتدأ ، "قومنا" عطف بيان"(٣) ، قال الخفاجي : "وقوله "عطف بيان" لهؤلاء المجترئة لتحقيرهم ، لاخبر لعدم إفادته ، ولاصفة لعدم شرطها"(٤) .

ومنها ماورد في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢٧٤) .
(٢) روح المعاني (١٥/٢١٩) .
(٣) تفسير البيضاوي (٦/٨٠) .
(٤) حاشية الشهاب (٦/٨٠) .
(٥) سورة مريم : آية (٣٤) .

قال ابن عاشور : "والإشارة لتمييز المذكور أكمل تميـيز تعريضا بـالرد علـى اليهود والنصارى جميعا ، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجنـاة ، ورفعـه النصـارى إلى مقام الإلهية ، وكلاهما مخطئ مبطل ، أي : ذلك هو عيسى بالحق"[1] .

وقد ألمح إلى هذا المعنى البيضاوي إذ قال - في تفسير هذه الآية - : "﴿ذلـك عيسى بـن مريـم﴾ أي : الـذي تقـدم نعتـه هـو عيسـى ابـن مريـم ، لاماتصفـه النصارى..."[2] .

وقد أردفه الشهاب الخفاجي بتعقيب حاول فيه إيضاح كلام المصنف إذ قال "قوله "أي الذي تقدم نعته هو عيسى بن مريم الخ" يعني أن "ذلك" إشارة إلى الذات الموصوفة بما تقدم من الصفات ..."[3] .

وقد صرح العلامة أبـو السـعود بمعـان مفـادة مـن اسـم الإشـارة ، إذ قـال : "﴿ذلك﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة ومافيه من معنـى البعـد للدلالـة علـى علو مرتبته وبعد منزلته ، وامتيازه بتلك المناقب الحميـدة عـن غـيره ، ونزولـه منزلـة المشاهد المحسوس"[4] .

وهو بهذا قد ركز على جانبين اثنين في اسم الإشارة هما كالآتي :

أولا : دلالة اللام في اسم الإشارة "ذلك" ، وهي لام تفيد البعد ، والبعد هنا بعد معنوي لاحسي ، إذ لامجال للبعد الحسي هنا ، والبعد المعنوي هـو ماأشـار إليـه بقوله "ومافيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته" .

ثانيا : دلالة أصالة وضع الإشارة في اسم الإشارة إلى ذات مشاهدة محسوسـة فأشار إلى أولهما بقولـه "وامتيـازه بتلـك المناقـب الحميـدة عـن غـيره" ، وأشـار إلى ثانيهما بقوله : ونزوله منزلة المشاهد المحسوس .

وقد نقل العلامة الألوسي في تفسيره ماذكره أبو السـعود في اسـم الإشـارة ، دون أي إضافة ، إذ قال : "(ذلك) إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة ، وفيه إشارة

---

(١) التحرير والتنوير (١٠١/١٦) .
(٢) تفسير البيضاوي (١٥٦/٦) .
(٣) حاشية الشهاب (١٥٦/٦) .
(٤) تفسير أبي السعود (٢٦٤/٥) .

إلى علو مرتبته وبعد منزلته ، وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ، ونزوله منزلة المحسوس المشاهد"[١] .

وإذا ماأردنا المفاضلة بين ماذكره العلامة أبو السعود وماذكره علامة تونس من أغراض بلاغية في اسم الإشارة "ذلك" نستطيع أن نقول ـ بعد إجالة طرف التفكر ـ إن كلام الأول أشمل ، وكلام الثاني أعمق .

ووجه الشمول عند أبي السعود واضح ، لانضواء كلام الطاهر ضمنه من تمييزه وامتيازه بتلك المناقب الحميدة ، إضافة إلى المعاني الأخرى التي ذكرها .

ووجه العمق عند الطاهر ابن عاشور هو تفصيله لتلك النكتة ، وغوصه في خفاياها ، إذ يقول ـ في تقرير دقيق لوجه هذه النكتة ـ : "وأما من تصفونه فليس هو عيسى ، لأن استحضار الشخص بصفات غير صفاته تبديل لشخصيته ، فلما وصفوه بغير ماهو صفته جعلوا بمنزلة من لايعرفونه ، فاجتلب اسم الإشارة ليتميز الموصوف أكمل تمييز عند الذين يريدون أن يعرفوه حق معرفته ، والمقصود بالتمييز تمييز صفاته الحقيقية عن الصفات الباطلة التي ألصقوها به ، لاتمييز ذاته عن الذوات إذ ليست ذاته بحاضرة وقت نزول الآية ؛ أي : تلك حقيقة عيسى عليه السلام وصفته"[٢] .

ومنها ماورد عند قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "والإشارة في قوله تعالى ﴿هذا ذكر من معيَ﴾ إلى مقدر في الذهن يفسره الخبر ، والمقصود من الإشارة تمييزه وإعلانه بحيث لايستطيع المخاطب المغالطة فيه ولافي مضمونه ، كقوله تعالى : ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ في سورة لقمان"[٤] .

---

(١) روح المعاني (٩١/١٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٠٢/١٦) .

(٣) سورة الأنبياء : آية (٢٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٧/١٧) .

فالغرض البلاغي لتميز المشار إليه هو إعلانه وظهوره لكي لايمكن المخاطب من المغالطة فيه .

ومنها ماورد عند قوله تعالى في سورة فصلت : ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "﴿وذلكم ظنكم﴾ الإشارة إلى الظن المأخوذ من فعل "ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون" ، ويستفاد من الإشارة إليه تمييزه أكمل تمييز وتشهير شناعته للنداء على ضلالهم"[٢] .

بينما رأى العلامة أبو السعود ملمحا آخر تفيده الإشارة للبعيد في هذه الآية إذ قال : "﴿وذلكم﴾ إشارة إلى ماذكر من ظنهم ، ومافيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء"[٣] .

وقد نقل عنه العلامة الألوسي نقلا حرفيا هذا الغرض فقال : "﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ظنهم المذكور في ضمن قوله سبحانه ﴿ظننتم﴾ ، ومافيه من معنى البعد للإيذان بغاية بعد منزلته في الشر والسوء"[٤] .

فالغرض البلاغي في هذه الآية من تمييز المشار إليه وهو "ظنكم" أكمل تمييز ، قصد تشهير شناعته لأجل النداء على ضلالهم .

ففي هذا الغرض تظهر علة التشهير بالشناعة ، وهي سوء الظن بالله ، لأجل النداء على ضلالهم .

ومنها ماورد في قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "والإشارة لتمييز المشار إليه وهو المفهوم من "فحكمه إلى الله" ، وهذا التمييز لإبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على المشركين إذ سموا

---

(١) سورة فصلت : آية (٢٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٧١/٢٤) .

(٣) تفسير أبي السعود (١١/٨) .

(٤) روح المعاني (٣٦٩/٢٤) .

(٥) سورة الشورى : آية (١٠) .

الأصنام آلهة وأربابا ، وأوثر اسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد لقصد التعظيم بالبعيد الاعتباري اللازم للسمو وشرف القدر ، أي : ذلكم الله العظيم ، ويتوصل من ذلك إلى تعظيم حكمه ، فالمعنى : الله العظيم في حكمه هو ربي الذي توكلت عليه فهو كافيني منكم"[١] .

فعلامة تونس يتناول جهتي الدلالة في اسم الإشارة "ذلكم" ، دلالة أصالة الإشارة ، ودلالة المرتبة ؛ فيرى أن الإشارة هنا أفادت تمييز المشار إليه وهو الحاكم العظيم الشأن لغرض إبطال التباس ماهية الإلهية والربوبية على أن بعض[٢] الأئمة استظهر نكتة أخرى وهي استحضار اسم الإشارة للصفات المتقدمة .

ثم نظر ابن عاشور في دلالة المرتبة على أنه بعد اعتباري لقصد التعظيم وشرف القدر وسموه ، لتتزايد أغراض التعريف باسم الإشارة من جهتي الدلالة .

ومنها ماورد في سورة الحجرات في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وتوسيط اسم الإشارة لزيادة تمييزهم تفظيعا لحالهم وللتنبيه ، بل إنهم استحقوا قصر الظلم عليهم ، لأجل ماذكر من الأوصاف قبل اسم الإشارة"[٤] .

والأوصاف التي ذكرت قبل اسم الإشارة هي السخرية واللمز والتنابز بالألقاب الواردة في الآية الكريمة نفسها ، قال تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ .

وهذه الأوصاف معاص عظيمة ؛ بقرينة قصر الظلم على من لم يتب منها ، وبقرينة مجئ اسم الإشارة فيها تفظيعا لمنتهكيها ، وتنبيها على عظيم اقترافها ، بتمييزهم أكمل تمييز .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٢/٢٥) .
(٢) ينظر : الكشف ، روح المعاني (١٦/٢٥) .
(٣) سورة الحجرات : آية (١١) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٥٠/٢٦) .

وقد ذكرت تلك الأغراض المتفرعة عن غرض تمييزه أكمل تمييز ، لأنها هي الأغراض البلاغية الأصلية في هذا السياق ، ولأنها لم توف حقها في الدراسة البلاغية ضمن هذا الغرض ، ولأن ماهو مذكور في كتب القوم لايفهم هذه المعاني المبسوطة في التحرير والتنوير .

ومن الأغراض البلاغية في التعريف باسم الإشارة إظهار رفعة شأن المشار إليه وعزة مناله وبعد منزلته .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "... فلاجرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد ؛ لإظهار رفعة شأن هذا القرآن ، لجعله بعيد المنزلة .

وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشئ المرفوع في عزة المنال ، لأن الشئ النفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صونا له عن الدروس ، وتناول كثرة الأيدي والابتذال"(٢) .

وقد سبق منه قبل إيراد هذا الغرض تحقيق مطول حول تقرير حقيقة استواء الوضع اللغوي في التعبير عن مثل هذا المعنى باسم الإشارة القريب والبعيد ، من قبل أهل اللسان ، حتى خلص إلى ذلك ، فقال : "فإذا كان الوجهان سواء ، كان ذلك الاستعمال مجالا لتسابق البلغاء ، ومراعاة مقتضيات الأحوال .

ونحن قد رأيناهم يتخيرون في مواقع الإتيان باسم الإشارة ماهو أشد مناسبة لذلك المقام ، فدلنا على أنهم يعرفون مخاطبيهم بأغراض لاقبل لتعرفها إلا إذا كان الاستعمال سواء في أصل اللغة ، ليكون الترجيح لأحد الاستعمالين على معنى مثل زيادة التنبيه في اسم الإشارة البعيد كما هنا ..." (٣) .

وهذا التحقيق الذي قدمه ، وقرر فيه هذه الحقيقة إنما هو ـ في نظره ـــ تمهيد مفض لاستخراج نكتة التعبير باسم الإشارة البعيد في هذه الآية .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٢٢٠) ومابعدها .

(٣) ن.م.س .

وهو في نظري تحقيق غير مجد ، لأن البلاغيين في دراستهم لايتعرضون لكثرة الاستعمال أو قلته وإنما يتعرضون للسر البلاغي في إيراد الكلام بهذه الصورة مع إمكان الإتيان بغيرها .

إذن البلاغيون يتعرضون للسبب المرجح لاالسبب الموجب ، والذي هنا سبب مرجح ، وهب أن العرب استعملوا هذه اللفظة دون تلك ، ألا يحق للبلاغي أن يدرس مرجحات هذا الاستعمال على غيره؟

فتحقيق ابن عاشور هنا غير مجد بلاغيا ، وإن أجدى نحويا .

والذي يخصنا ويخص البلاغة هنا هو إفادة اسم الإشارة هذه المعاني البلاغية كلها التي ذكرها ابن عاشور من زيادة التنبيه وإظهار رفعة الشأن وبعد المنزلة ، وعزة المنال .

وقد رد ابن عاشور مايرد من اعتراض في صورة تساؤل ، من ورود الإشارة إلى القرآن الكريم باسم الإشارة الموضوع للقريب ، مثل ماورد في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾[1] ، فما هو وجه البلاغة في الإشارة باسم الإشارة القريب إلى القرآن الكريم الذي عز مناله وبعدت منزلته ، وارتفع شأنه ، وعلا سلطانه؟

وقد رد ابن عاشور ذلك التساؤل بقوله : "فذلك للإشارة إلى كتاب بين يدي أهله ؛ لترغيبهم في العكوف عليه ، والاتعاظ بأوامره ونواهيه"[2] .

فكان قربه من هذه الجهة يستدعي التعبير عنه في هذا المقام بما يناسبه ، لأن المقال يختلف باختلاف المقام .

وأصل النكتة البلاغية التي أوردها ابن عاشور في سر التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد في آية سورة البقرة ، هي مما صرح به السكاكي في مفتاحه إذ قال ـ في مقتضيات تعريف المسند إليه باسم الإشارة البعيد ـ : "و ـ أن تقصد ـ ببعده تعظيمه كما تقول في مقام التعظيم ذلك الفاضل وأولئك الفحول ، وكقوله عز وعلا ﴿ألم ذلك الكتاب﴾ ذهابا إلى بعده درجة"[3] .

---

(١) سورة الأنعام : آية (٩٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٢١/١) .

(٣) مفتاح العلوم (ص٨٨) .

وقد أثنى ابن عاشور[(١)] على السكاكي في هذا الفهم الذي لم يفطن إليه الزمخشري .

ومثل هذا الغرض البلاغي ماورد في قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة ﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ إلى مايشاهدونه من العذاب ، وجيء بإشارة البعيد لتعظيم مايشاهدونه من الأهوال"[(٣)] .

وقد كانت نظرة العلامة أبي السعود العمادي في سر التعبير باسم الإشارة في هذا المقام أليق بالنظم القرآني الكريم ، إذ قال : "﴿ذلك﴾ إشارة إلى ماذكر من الضرب والعذاب ، ومافيه من معنى البعد للإشعار بكونهما في الغاية القاصية من الهول والفظاعة"[(٤)] .

وتحتمل عبارة علامة بغداد في وجه السر البلاغي في التعبير باسم الإشارة البعيد ، ماذكره العلامة أبو السعود ، ومافهمه علامة تونس ، إذ قال : "﴿ذلك﴾ أي الضرب والعذاب اللذان هما هما"[(٥)] .

ونحوه ماورد في قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[(٦)] .

قال ابن عاشور : "ووجه الإتيان بإشارة البعيد التنبيه على تعظيم المشار إليه وهو الذي عناه في الكشاف بالجعل العجيب ، فالتعظيم هنا لبداعة الأمر وعجابته..."[(٧)] .

إذن المعنى الذي ذكره ابن عاشور في اسم الإشارة إنما أفاده من الزمخشري الذي ألمح إلى هذا المعنى إلماحة إذ قال : "﴿وكذلك جعلناكم﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم"[(٨)] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢١/١) .
(٢) سورة الأنفال : آية (٥١) .
(٣) التحرير والتنوير (٤١/١٠) .
(٤) تفسير أبي السعود (٢٦/٤) .
(٥) روح المعاني (١٧/١٠) .
(٦) سورة البقرة : آية (١٤٣) .
(٧) التحرير والتنوير (١٥/٢) .
(٨) الكشاف (٣١٧/١) .

ومن تلك الأغراض التهويل والتعظيم والتعجيب من المشار إليه .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "وفائدة الإشارة إليه تهويله أو تعظيمه أو التعجيب منه ، كقوله تعالى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ فالمعنى : ماهذا العذاب العظيم في حال كونه يستعجله المجرمون ..." [٢] .

هذا على اعتبار أن "ماذا" كلمتان "ما" الاستفهامية ، و"ذا" اسم الإشارة ، فالإشارة هنا باسم الإشارة الموضوع للقريب لغرض التعظيم ، وهذا على خلاف الجمل القرآنية السابقة في إفادتها التعظيم من خلال التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد ، وإذا كانت العلاقة واضحة في التعبير عن التعظيم باسم الإشارة البعيد من جهة كون البعد الاعتباري يومئ إلى معنى التعظيم ويشير إليه ، فكيف تكون الإشارة بالقريب موحية بمعنى التعظيم ومفهمة له؟ وماهو وجه التعبير بها؟

ووجه العلاقة في التعبير بين اسم الإشارة القريب والتعظيم تكون من جهة كون اعتبار المشار إليه قريبا للنفس ومخالطا لها ، وحاضرا عندها[٣] ، وبهذا يصح التعبير عنه بالقريب ، وإن كان عظيما في ذاته ، أو بهذا يصح أن تكون جهة عظمته .

والمراد بالآية التي نظر بها ابن عاشور رحمه الله ، وهي قوله تعالى : ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾[٤] هي آية سورة المدثر ، لاآية سورة البقرة ، لأن آية سورة البقرة يكون الغرض البلاغي في التعريف باسم الإشارة قصد تحقيره بالقرب[٥] ، بخلاف آية سورة المدثر التي ترد فيها معاني المنظر له .

فالأغراض البلاغية الواردة في هذه الجملة القرآنية التهويل والتعظيم والتعجيب من المشار إليه .

---

(١) سورة يونس : آية (٥٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٩٢/١١) .

(٣) ينظر : الأطول (ص٩٨) ، حاشية الدسوقي (٣١٧/١) .

(٤) سورة المدثر : آية (٣١) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٣٦٥/١) .

ومن تلك الأغراض التنويه والتعظيم وزيادة التمييز والاختصار .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١] .

قال ابن عاشور : "والإشارة في قوله "فبذلك" للمذكور ، وهو مجموع الفضل والرحمة ، واختير للتعبير عنه اسم الإشارة لما فيه من الدلالة على التنويه والتعظيم مع زيادة التمييز والاختصار"[٢] .

بينما ذكر العلامة أبو السعود العمادي في التعريف باسم الإشارة هنا معاني قد تكون بعيدة عن معنى الآية ، ضرب عنها صفحا علامة تونس ؛ لكونها لاتتواءم إلا بوجه بعيد مع سياق الآية ، ودلالة الفضل والرحمة بها التي من الله بها على عباده من نعمتي القرآن والإسلام ، إذ قال أبو السعود : "ومعنى البعد في اسم الإشارة للدلالة على بعد درجة فضل الله تعالى ورحمته"[٣] .

اللهم إلا إذا حمل كلامه على إرادة التعظيم وهو غير الظاهر صح مراده ، وحسن معناه .

ومن تلك الأغراض أيضا التشويق .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وتأخير المشار إليه عن الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق ، كقوله تعالى : ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ ، أو من كلام متقدم عن اسم الإشارة كما للبيضاوي ؛ إذ جعل المشار إليه هو الهدى المأخوذة من قوله تعالى ﴿يهدي من يشاء﴾ ولعله رأى لزوم تقدم المشار إليه"[٥] .

فاسم الإشارة يفيد في هذا الموضع التشويق ، لأن المشار إليه باسم الإشارة "كذلك" هو الوارد بعده وهو قوله "جعلناكم أمة وسطا" ، وهذا أسلوب من

---

(١) سورة يونس : آية (٥٨) .

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٠٤) .

(٣) تفسير أبي السعود (٤/١٥٦) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٤٣) .

(٥) التحرير والتنوير (٢/١٧) .

أساليب أهل اللسان ، وهو كقول الشاعر[١] :

كذاك أدبت حتى صار من خلقي أني رأيت ملاك الشيمة الأدبا[٢]

وليس هو من باب تشبيه الشئ بنفسه ، ولكنه من باب آخر قرره ابن عاشور فقال : "وقد يكون مرادا منه ــ أي : من اسم الإشارة ــ التنويه بالخبر ، فيجعل كأنه مما يروم المتكلم تشبيهه ، ثم لايجد إلا أن يشبهه بنفسه ، وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع" .

وقد مثل له بالبيت السابق ، وبقول زهير :

كذلك خيمهم ولكل قوم إذا مستهم الضراء خيم[٣]

وأما البيضاوي فقد جعل المشار إليه متقدما وهو الهدى المأخوذ من الآية الواردة قبل اسم الإشارة ، وهي قوله تعالى : ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤] .

وإليك نصه إذ قال : "﴿وكذلك﴾ إشارة إلى مفهوم الآية المتقدمة أي : كما جعلناكم مهديين إلى الصراط المستقيم أو جعلنا قبلتكم أفضل القبل"[٥] .

لكنه لم يذكر الغرض البلاغي لاسم الإشارة ، بينما أشار إليه ابن عاشور في هذا المقام .

ومن تلك الأغراض التي تقتضي التعريف باسم الإشارة ، **أن يكون أبعث على الالتفات ، وأدعى للتأمل .**

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ﴾[٦] .

---

(١) لم أعثر على اسمه ، ونسب في الحماسة البصرية لرجل من بني فزارة (٢/٧) .

(٢) تنظر : الحماسة البصرية (٢/٧) ، الحماسة لأبي تمام بشرح الأعلم الشنتمري (١/٦٢٧) ، الخزانة (٩/١٤١) .

(٣) الديوان (ص١٦٢) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٤٢) .

(٥) تفسير البيضاوي (٢/٢٥٠) .

(٦) سورة البقرة : آية (١٥٩) .

قال ابن عاشور : "واختير اسم الإشارة البعيد ليكون أبعث للسامع على التأمل منهم ، والالتفات إليهم ، أو لأن اسم الإشارة بهذه الصيغة هو الأكثر استعمالا في كلامهم"[١] .

وكلام ابن عاشور في كون هذه الصفة الأكثر ورودا في استعمالهم ليس هذا من الأغراض البلاغية التي يمكن أن يعلل بها التركيب ، وليس مما يوجب السكوت وغض الطرف عن الأسرار البيانية ، بل لابد للبليغ من مسألة الدلالات واستنطاقها لكشف دقائقها ، وبيان نكاتها . وقد فعل ابن عاشور ذلك إذ تأمل في إيراد اسم الإشارة في هذا المقام فظهر له أن إيراده أبعث على التأمل في حالهم وأدعى للتنبه والالتفات إلى أمرهم ، واستظهر غرضا آخر في اسم الإشارة في الآية نفسها هو الإيماء باسم الإشارة للتنبيه على الاستحقاق ، يقول : "وقد اجتمع في الآية إيماءان إلى وجه ترتب اللعن على الكتمان ، وهما الإيماء بالموصول إلى وجه بناء الخبر ، أي علته وسببه ، والإيماء باسم الإشارة للتنبيه على أحرويتهم بذلك ، فكان تأكيد الإيماء إلى التعليل قائما مقام التنصيص على العلة"[٢] .

وهكذا يرى علامة تونس هذا الغرض البلاغي لاسم الإشارة إضافة إلى الغرض الآخر المشار إليه آنفا ، لأن ماورد قبل اسم الإشارة من كتمان الهدى والبينات المنزلة من عند الله بعد أن بينها الله للناس في الكتاب يومئ إلى التنبيه على استحقاق تلك العقوبة من لعن الله جل وعلا لهم ولعن اللاعنين نتيجة اقترافهم هذا الذنب العظيم .

ومن تلك الأغراض الإيماء باسم الإشارة إلى التحقير .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وفي اسم الإشارة إيماء إلى تحقير لشأنهم ، أكده التصريح بأنهم شرذمة قليلون"[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢/٦٧) .

(٢) ن.م.س .

(٣) سورة الشعراء : آية (٥٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٩/١٣٠) .

فالذي يظهر في اسم الإشارة هنا الإشعار بالتحقير لهذه الفئة المؤمنة في نظر فرعون اللعين ، لكون هذه الفئة ضعيفة ، ولكون أفرادها قليلين ، فأتى باسم الإشارة لإيمائه وإشعاره بهذا المعنى .

ومن تلك الأغراض الإيماء باسم الإشارة إلى الوصول للمشار إليه ، والتوطئة لما يرد بعده .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الطور : ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "والإشارة بكلمة "هذه" الذي هو المشار إليه القريب المؤنث تومئ إلى أنهم بلغوها ، وهم على شفاها ، والمقصود بالإشارة التوطئة لما سيرد بعدها من قوله ﴿التي كنتم بها تكذبون﴾ إلى ﴿لاتبصرون﴾"[(٢)] .

وفي هذا حس بالغ الدقة في فهم معنى الإشارة في هذه الآية الكريمة ، مما يبرهن على أن ابن عاشور أوتي حظا كبيرا قل أن تجده عند المفسرين والبلاغيين بله غيرهم .

فالإشارة هنا لها قيمتها البلاغية التي ترتبط بلاحق الكلام في التمهيد والتوطئة له ، من مشاهدتهم المشار إليها والموقوف عليها المكذب بها وبحقيقيتها ، فقد رأوها رأي العيان ، وهاهي الإشارة تنبئ عن ذلك ، وتومئ بما سيقع هنالك ، لنخلص إلى ذين المعنيين اللذين يسطران هذا الوعي الدقيق .

ومن تلك الأغراض استحضار المشار إليه ، أو وقوع اسم الإشارة موقع ضمير الشأن .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[(٣)] .

قال ابن عاشور : "فموقع اسم الإشارة مثل موقعه في قول النابغة :

بني عمه دنيا وعمرو بن عامر ... أولئك قوم بأسهم غير كاذب

---

(١) سورة الطور : آية (١٣-١٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٤٣/٢٧) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٥٣) .

والإشارة إلى جماعة المرسلين في قوله ﴿وإنك لمن المرسلين﴾ .

وجئ بالإشارة لما فيها من الدلالة على الاستحضار ؛ حتى كأن جماعة الرسل حاضرة للسامع بعدما مر من ذكر عجيب أحوال بعضهم ، وماأعقبه من ذكر لهم على سبيل الإجمال"[١] .

هذا الغرض البلاغي لاسم الإشارة يكون باعتبار أن موقع هذه الآية فذلكة للآيات التي قبلها الواردة في حق الرسل تفصيلا أو إجمالا .

أما إذا كان موقع هذه الآية كالمقدمة لبيان سبب اختلاف الناس في أمر الدين والاقتتال فيما بينهم والجهاد في سبيل الله ، فإن موقع اسم الإشارة يكون كموقع ضمير الشأن .

قال ابن عاشور : "فموقع اسم الإشارة على هذا الاعتبار كموقع ضمير الشأن ، أي : هي قصة الرسل وأممهم . فضلنا بعض الرسل على بعض فحسدت بعض الأمم أتباع بعض الرسل ، فكذب اليهود عيسى ومحمدا عليهما الصلاة والسلام ، وكذب النصارى محمدا ﷺ "[٢] .

ونحو الغرض الأول وهو غرض استحضار المشار إليه باسم الإشارة ماورد في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة في قوله ﴿وهذا النبي﴾ مستعمل مجازا في المشتهر بوصف بين المخاطبين كقوله في الحديث : "فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار" ، فالإشارة استعملت في استحضار الدواب المعروفة بالتساقط على النار عند وقودها ، والنبئ ليس بمشاهد للمخاطبين بالآية ، حينئذ ولاقصدت الإشارة إلى ذاته"[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير (٥/٣) .

(٢) ن.م.س .

(٣) سورة آل عمران : آية (٦٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٧٧/٣) .

وهذا الغرض البلاغي الذي رآه في الآية لاسم الإشارة فيه ضرب من القلق الذي يند به عن التسليم والإقرار له فيه من حيث ادعاء كون النبي ﷺ غير مشاهد للمخاطبين وهو الذي كان يتلو هذه الآية على المخاطبين وغيرهم ، وكان في زمنهم وبين ظهرانيهم .

ومعنى ذلك أني لاأنفي احتمال وقوع كون النبي ﷺ غير مشاهد للمخاطبين ، ولكني أقلل من احتمال وقوعه .

وهذا مادفع الطاهر إلى إردافه بإجراء الإشارة على ظاهرها ، إذ قال : "ويجوز أن تكون الإشارة مستعملة في حضور التكلم باعتبار كون النبي هو الناطق بهذا الكلام ، فهو كقول الشاعر :

نجوت وهذا تحملين طليق

أي : والمتكلم الذي تحملينه"[1] .

ونحو الغرض الثاني وهو غرض وقوع اسم الإشارة موقع ضمير الشأن ماورد في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[2] .

قال ابن عاشور : "وقوله ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ الواو اعتراضية ، والإشارة بتلك إلى ماسيذكر بعد ، فالإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن لقصد الاهتمام بالخبر"[3] .

وقد أشار إلى هذا المعنى العلامة الخفاجي إذ قال : "واسم الإشارة مشار به إلى مابعده كما في الضمائر المبهمة التي يفسرها مابعدها نحو : ربه رجلا ، ومثله يفيد التفخيم والتعظيم ..."[4] .

وفي كلام الخفاجي بيان وجه الغرض البلاغي من التفخيم والتعظيم وهو مالم يصرح به ابن عاشور ، من كون ضمير الشأن يلزم منه إفادة هذا المعنى .

---

(١) التحرير والتنوير (٣/٢٧٧) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٤٠) .

(٣) التحرير والتنوير (٤/١٠٠) .

(٤) حاشية الشهاب (٣/٦٥) .

وقد نقل كلام الخفاجي علامة بغداد ، إذ قال : "و"تلك الأيام" اسم الإشارة مشار به إلى مابعده كما في الضمائر المبهمة التي يفسرها مابعدها نحو : ربه رجلا ، ومثله يفيد التفخيم والتعظيم"[(١)] .

وهذا الغرض البلاغي في اسم الإشارة الذي رصده هؤلاء العلماء إنما هو جار على سنن ماألمح إليه العلامة الزمخشري في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[(٢)] .

إذ قال : "فإن قلت : "هذا" إشارة إلى ماذا؟ قلت : قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ماقال موسى عليه السلام "إن سألتك عن شئ بعدها فلاتصاحبني" ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول : هذا أخوك ، فلايكون هذا إشارة إلى غير الأخ ، ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث : أي هذا الاعتراض سبب الفراق ، والأصل هذا فراق بيني وبينك ..."[(٣)] .

فالزمخشري يتساءل عن المشار إليه في قوله "هذا فراق" ، فأشار إلى جهتين اثنتين ، إما أن يرجع إلى كلمة "فراق" ، وهي غير واقعة في الخارج حينئذ وإنما متصورة في الذهن ، فالإشارة راجعة إلى مابعدها وهذا شبيه بالضمائر المبهمة التي يفسرها مابعدها نحو : ربه رجلا ، وهو وجه الاستشهاد في هذا المقام .

وإما أن ترجع الإشارة إلى الاعتراض الثالث من موسى عليه السلام على الخضر في قوله تعالى : ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[(٤)] . وهذا واضح .

ومن تلك الأغراض تصوير حالهم كالمشاهد إضافة إلى استحقاقهم الحكم.

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾[(٥)] .

---

(١) روح المعاني (٤/٦٨) .
(٢) سورة الكهف : آية (٧٨) .
(٣) الكشاف (٢/٤٩٥) .
(٤) سورة الكهف :آية (٧٧) .
(٥) سورة النساء : آية (٥٢) .

قال ابن عاشور : "وموقع اسم الإشارة هنا في نهاية الرشاقة ، لأن من بلغ من وصف حاله هذا المبلغ صار كالمشاهد ، فناسب بعد قوله "ألم تر" أن يشار إلى هذا الفريق المدعي أنه مرئي ، فيقال : "أولئك" .

وفي اسم الإشارة تنبيه على أن المشار إليهم جديرون بما سيذكر من الحكم لأجل ماتقدم من أحوالهم"[١] .

وهذه لفتة من لفتات ابن عاشور السامية في سر وجه التعبير بالإشارة التي أخذت بعدا آخر من الخروج عن الأصل في الغرض البلاغي إلى الرجوع إلى الأصل لتتضح صورتهم وحالاتهم كأنهم مشاهدون وهم غير مشاهدين ، ليجلي في هذه الجملة القرآنية هذه النكتة البلاغية .

ومنها أيضا تنزيل المسموع منزلة المرئي وغير المشاهد منزلة المشاهد ، إضافة إلى التشويق .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "فالإشارة إلى مايؤخذ من الجملة الواقعة بعد اسم الإشارة المبينة للإخبار عن اسم الإشارة ، وهي جملة "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" ، فتكون الإشارة إلى غير مشاهد تنزيلا له منزلة المشاهد ، وتنزيلا للمسموع منزلة المرئي"[٣] .

فالمشار إليه هي جملة "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" ، فهو قول مسموع نزل منزلة المرئي ، وغير مشاهد نزل منزلة المشاهد عن طريق اسم الإشارة.

إضافة إلى أن تفسير الإشارة بما بعدها يشابه الضمائر المبهمة التي يفسرها مابعدها ، وقد بين ذلك فقال : "ثم إن هذا المنزل منزلة المشاهد هو مع ذلك غير

---

(١) التحرير والتنوير (٥/٨٧) .

(٢) سورة الحجر : آية (٤١-٤٢) .

(٣) التحرير والتنوير (١٤/٥١) .

مذكور لقصد التشويق إلى سماعه عند ذكره ، فاسم الإشارة هنا بمنزلة ضمير الشأن كما يكتب في العهود والعقود ، هذا ماقاضى عليه فلان فلانا أنه كيت وكيت ، أو هذا مااشترى فلان من فلان أنه باعه كذا وكذا"(١) .

وهذه الأغراض البلاغية لاسم الإشارة في هذه الجملة القرآنية تكون على اعتبار أن المشار إليه هو مابعد اسم الإشارة من قوله تعالى : ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ .

ومن تلك الأغراض أيضا أن يكون التعريف باسم الإشارة لقصد الاستيعاب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "وفي ذكر اسم الإشارة وهو خصوص "ذلك" قصد استيعاب جميع المذكور"(٣) .

فالإشارة تشمل قصة ابني آدم وماذكر فيها من أحداث ، فهي تستوعب بلفظة "ذلك" جميع المذكور .

والزمخشري لم يذكر وجه التعريف بالإشارة بل فسر المشار إليه ، فقال : "و"ذلك" إشارة إلى القتل المذكور"(٤) .

ومن تلك الأغراض العناية بالمخبر عنه وبالخبر .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٥) .

قال ابن عاشور : "والإشارة إلى مضمون قوله : "فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب" أي : ذلك المذكور بسبب أن الله لم يك مغيرا الخ ، أي : ذلك الأخذ بسبب أعمالهم التي تسببوا بها في زوال نعمتهم .

---

(١) التحرير والتنوير (٥١/١٤) .
(٢) سورة المائدة : آية (٣٢) .
(٣) التحرير والتنوير (١٧٥/٦) .
(٤) الكشاف (٦٠٨/١) .
(٥) سورة الأنفال : آية (٥٣) .

والإشارة تفيد العناية بالمخبر عنه وبالخبر"[١] .

وليست الإشارة هنا للتعليل إنما التعليل وارد من "الباء" السببية في قوله "بأن" وإنما الإشارة وردت لأجل الاهتمام والعناية بهذا الأخذ وسببه .

وقد حاول العلامة أبو السعود[٢] بيان غرض الإشارة في هذه الآية ، ولكنه لم يفطن إلى ماتفطن إليه علامة تونس ، وقد نقل عنه تلك الرؤية في موقع اسم الإشارة علامة بغداد بتحرير أدق ، إذ قال : "(ذلك) إشارة إلى مايفيده النظم الكريم من كون ماحل بهم من العذاب منوطا بأعمالهم السيئة غير واقع بلاسابقة مايقتضيه"[٣] .

و لم أنقل كلام أبي السعود لأنه عرض لموقع اسم الإشارة مع موقع الجملة بكلام لم أستطع تجزئته بأحسن مما فعل علامة بغداد .

ونحو هذا الغرض إضافة إلى غرض بلاغي آخر ماورد في سورة الأنفال في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنْكُمْ﴾[٤] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والإتيان باسم الإشارة للذين آمنوا من بعد وهاجروا ، دون الضمير ، للاعتناء بالخبر وتمييزهم بذلك الحكم"[٥] .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإشارة للتشهير إضافة إلى أغراض أخرى .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾[٦] .

قال ابن عاشور : "والإشارة بـ"ذلك" إلى القول المستفاد من : قالت اليهود ، وقالت النصارى ، والمقصود من الإشارة تشهير القول وتمييزه ، زيادة في تشنيعه عند المسلمين"[٧] .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٤/١٠) .
(٢) ينظر : تفسير أبي السعود (٢٨/٤) .
(٣) روح المعاني (١٩/١٠) .
(٤) سورة الأنفال : آية (٧٥) .
(٥) التحرير والتنوير (٩٠/١٠) .
(٦) سورة التوبة : آية (٣٠) .
(٧) التحرير والتنوير (١٦٨/١٠) .

فالإشارة لغرض تشهير هذا القول العظيم من هاتين الفئتين اليهود والنصارى وهم أهل كتاب ، ويقولون بمثل هذا القول الذي يفترون فيه إثما عظيما .

فكانت الإشارة تشهيرا بقولهم وتشهيرا بهم على مايقتضيه وجه التلازم بين هذا القول وقائليه ، إضافة إلى تمييز هذا القول بالإشارة إليه أكمل تمييز لأجل الزيادة في تشنيعه وتفظيعه .

وقد كانت للعلامة أبي السعود العمادي رؤية في اسم الإشارة إذ قال : "(ذلك) إشارة إلى ماصدر عنهم من العظيمتين ومافيه من معنى البعد للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة"[١] .

فأشار إلى جزء مما أشار إليه علامة تونس ، واستخلصها من دلالة البعد بينما كانت نظرة ابن عاشور أدق لشمولها ماذكره إضافة إلى التشهير والتمييز المفاد من دلالة أصالة التعريف باسم الإشارة .

ومن تلك الأغراض أيضا الحث على المشار إليه أو الإقناع به .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "فالمقصود من الإشارة إما الحث على النظر في آيات القرآن ليتبين لهم أنه من عند الله ويعلموا صدق من جاءهم به .

وإما إقناعهم من الآيات الدالة على صدق النبي ﷺ بآيات الكتاب الحكيم ، فإنهم يسألون النبي آية على صدقه ، كما دل عليه قوله في هذه السورة ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾ فقيل لهم : ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي : ماهو آية واحدة بل آيات كثيرة ، فإن الإعجاز حاصل بكل سورة"[٣] .

هذان الغرضان على اعتبار أن يكون المشار إليه هو مابعد اسم الإشارة على سنن مايجري في ضمير الشأن ، نحو : ربه رجلا .

---

(١) تفسير أبي السعود (٤/٥٩) .

(٢) سورة يونس : آية (١) .

(٣) التحرير والتنوير (١١/٨١) .

أما إذا كانت الإشارة إلى حروف ﴿الر﴾ فتكون الإشارة لغرض تعظيم المشار إليه ، وليس ثمة من الأغراض السابقة من شئ .

لكن العلامة أبا السعود سجل مايراه في اسم الإشارة إذ قال : "ومافي اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة ..."[١] .

فهو لم يستخلص إلا هذا الغرض البلاغي بعد أن فسر المشار إليه وهي حروف ﴿الر﴾ وتبعه في ذلك علامة بغداد[٢] دون أن يضيف رؤية بلاغية لمعنى اسم الإشارة في هذه الجملة القرآنية الكريمة وإن أطال النفس في بيانها .

ومن تلك الأغراض أن يكون اسم الإشارة مفيدا وقوع أمر محبوب غير مترقب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة عائد إلى ذات يوسف عليه السلام ، خاطب الوارد بقية السيارة ، ولم يكونوا يرون ذات يوسف عليه السلام حين أصعده الوارد من الجب ، إذ لو كانوا يرونه لما كانت فائدة لتعريفهم بأنه غلام ، إذ المشاهدة كافية عن الإعلام ، فتعين أيضا أنهم لم يكونوا مشاهدين شبح يوسف عليه السلام حين ظهر من الجب"[٤] .

فابن عاشور في هذا كله يبين جهة المشار إليه وأنها ذات يوسف التي لم يرها بقية السيارة ، في أسلوب مرتب وسهل وناصع الوضوح ، ليوطئ بذلك إلى ماسيذكره من غرض بلاغي لاسم الإشارة ، إذ يقول : "فالظاهر أن اسم الإشارة في مثل هذا المقام لايقصد به الدلالة على ذات معينة مرئية ، بل يقصد به إشعار السامع بأنه قد حصل شئ فرح به غير مترقب ، كما يقول الصائد لرفاقه : هذا غزال ، وكما يقول الغائص : هذه صدفة ، أو لؤلؤة ، ويقول الحافر للبئر : هذا ماء قال النابغة يصف الصائد وكلابه وفرسه :

---

(١) تفسير أبي السعود (١١٥/٤) .

(٢) روح المعاني (٥٩/١١) .

(٣) سورة يوسف : آية (١٩) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٤٢/١٢) .

يقول راكبه الجني مرتفقا   هذا لكن ولحم الشاة محجور

وكان الغائصون إذا وجدوا لؤلؤة يصيحون ؛ قال النابغة :

أو درة صدفاته غواصها   بهج متى يرها يهل ويسجد

والمعنى : وجدت في البئر غلاما ؛ فهو لقطة ؛ فيكون عبدا لمن التقطه ؛ وذلك سبب ابتهاجه"(١) .

فهذا هو الغرض البلاغي الذي في اسم الإشارة في هذه الآية الكريمة ، إذ أن وجدان هذا الغلام إنما هي بضاعة يستبشر الواجد لها ، ويفرح الحاصل عليها ؛ لأنه سيحصل من وراءها على مال ودراهم معدودة ، وهذا ماجعل الوارد يخبر بقية السيارة عن وجدانه هذا الغلام ، بهذا التركيب الذي يفيد فيه اسم الإشارة أنه قد وقع أمر محبوب غير مترقب .

وقد أورد علامة تونس هذه الأمثلة التي يعضد بها هذا الغرض البلاغي ، وشاهدا شعريا يجري على هذا النمط الأسلوبي ، وآخر يومئ إليه ويوحي به .

وهذه دقة متناهية لعلامة تونس في استظهار هذا الغرض الذي تفرد به ، بما يكون قرينة شاهدة على أن هذا الجهبذ أوتي من الحس الأدبي ، والذوق البلاغي والمعرفة الدقيقة بأساليب الاستعمال ودلالات التراكيب مايزاحم به المتفردين من أئمة المعاني فضلا عن سائرهم .

ومن تلك الأغراض أيضا تنزيل غير العاقل منزلة العاقل .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة بقوله "أولئك" يعود إلى السمع والبصر والفؤاد ، وهو من استعمال اسم الإشارة الغالب استعماله للعاقل في غير العاقل ، تنزيلا لتلك الحواس منزلة العقلاء ، لأنها جديرة بذلك إذ هي طريق العقل والعقل نفسه"(٣) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٤٢) .
(٢) سورة الإسراء : آية (٣٦) .
(٣) التحرير والتنوير (١٥/١٠٢) .

فهو يرى أن الإشارة إلى هذه الحواس باسم الإشارة "أولئك" إنما هو تنزيل لها منزلة العقلاء ، لجدارتها واستحقاقها ذلك ، لأنها هي الحواس التي تمد العقل وترفده فهي طريق العقل ، بل الفؤاد هو العقل ، لأنه هو الذي يفقه ويعرف ، قال تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[١] . فدل على أن الفؤاد أو القلب الذي في الصدر وليس المخ الذي في الرأس هو مصدر الفهم والتعقل والفقه ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢] ، فدل على أن القلب المتعقل الذي يفقه ويفهم هو في الصدر .

وعلى هذا التحرير فإنه ليس لعلامة تونس في هذه الجملة القرآنية شاهد ، إذ هي من باب التغليب .

أضف على هذا أن استعمال اسم الإشارة "أولئك" ليس مقصورا على العقلاء فيما تجري به استعمالات هذا اللسان ، وقد نص أرباب النحو في باب اسم الإشارة على ذلك .

يقول العلامة هشام : "ويقل ــ أي : أولاء ــ مجيئه لغير العقلاء ،كقوله : والعيش بعد أولئك الأيام"[٣] .

وقد أشار ابن عاشور إلى ذلك بقوله السابق "وهو من استعمال اسم الإشارة الغالب استعماله للعاقل" ، فذكر أنه غالب لا لازم ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فقال : "على أن استعمال "أولئك" لغير العقلاء استعمال مشهور ، قيل هو استعمال حقيقي ، أو لأن هذا المجاز غلب حتى ساوى الحقيقة ، قال تعالى : ﴿ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض﴾ ، وقال :

ذم المنازل بعد منزلة اللوى ... والعيش بعد أولئك الأيام"[٤]

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٧٩) .

(٢) سورة الحج : آية (٤٦) .

(٣) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك (١/١٣٤) .

(٤) التحرير والتنوير (١٥/١٠٢) ومابعدها .

فذكر أنه استعمال حقيقي أو مجاز ساوى الحقيقة فحاول أن يفسره بما ذكره من احتمالات .

ومايهمنا في هذا الجانب هو جانب الغرض البلاغي من تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ، وهو ماسبقت إليه إشارة الزمخشري في الآية نفسها ، إذ قال : "(أولئك) إشارة إلى السمع والفؤاد كقوله : والعيش بعد أولئك الأيام"[(١)] .

وقد حاولت تحرير القول فيه بما يخلص أنه ليس من هذا الباب الذي أشار إليه الزمخشري في قول جرير بن عطية الخطفي : والعيش بعد أولئك الأيام[(٢)] .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإشارة للتحقير ، والاستصغار .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾[(٣)] .

قال الطاهر : "واسم الإشارة مستعمل في التحقير ، كقوله تعالى : ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾"[(٤)] .

لأن الإشارة حكاية عن مقالة الشيطان في ازدرائه آدم عليه السلام وتحقيره ، والتقليل من شأنه ، قال تعالى : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[(٥)] .

فهو على هذا يرى أن آدم أقل من أن يسجد له ، مما يقتضي أن الإشارة مقصود بها التحقير .

وقد أشار إلى هذا الغرض البلاغي في الجملة القرآنية العلامة الخفاجي إذ قال "وجعل المفعول اسم إشارة للتحقير"[(٦)] .

ونقل عنه ذلك علامة بغداد إذ قال : "وأيا ماكان فاسم الإشارة للتحقير"[(٧)].

---

(١) الكشاف (٤٤٩/٢) .

(٢) الديوان (ص٤٥٢) ، وأيضا بشرح الصاوي (ص٥٥١) .

(٣) سورة الإسراء : آية (٦٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١٥١/١٥) .

(٥) سورة الأعراف : آية (١٢) .

(٦) حاشية الشهاب (٤٥/٦) .

(٧) روح المعاني (١٠٩/١٥) .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[١] .

قال علامة تونس : "فقوله "إن هذا" إشارة إلى الشيطان إشارة مرادا منها التحقير ، كما حكى الله في سورة الأنبياء من قول المشركين ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾"[٢] .

فالإشارة صادرة من المولى جل وعلا من باب التحذير لآدم وزوجه ، مشارا بها إلى الشيطان الرجيم مقصودا بها تحقيره واستصغاره .

ونحو هذا الغرض أن يكون التعريف باسم الإشارة التحقير والاستخفاف .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة سبأ : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "واسم الإشارة في "هذا الوعد" للاستخفاف والتحقير ، كقول قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموت لايلف حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها"[٤]

وقد أضيف إلى غرض التحقير غرض آخر هو الاستخفاف بالمشار إليه وأنه مما يستهزأ به ولايعبأ به ، كاستخفاف الشاعر بالموت وعدم الاكتراث به ، مما توحي به الإشارة في هذا السياق .

وقد ألمح إلى معنى الإشارة في الآية العلامة ناصر الدين البيضاوي إذ قال : "﴿متى هذا الوعد﴾ يعنون المبشر به والمنذر عنه أو الموعود بقوله ﴿يجمع بيننا ربنا﴾"[٥] .

وقد نقل عنه هذا المعنى ببعض الإيضاح العلامة أبو السعود العمادي ، إذ قال : "﴿متى هذا الوعد﴾ بطريق الاستهزاء ، يعنون به المبشر به ، والمنذر عنه أو الموعود بقوله تعالى : ﴿يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾"[٦] .

---

(١) سورة طه : آية (١١٧) .
(٢) التحرير والتنوير (٣٢٠/١٦) .
(٣) سورة سبأ : آية (٢٩) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٠٠/٢٢) .
(٥) تفسير البيضاوي (٢٠٤/٧) .
(٦) تفسير أبي السعود (١٣٣/٧) .

وقد أخذ علامة بغداد[١] هذا المعنى ، فنقله نقلا كاملا دون أدنى إضافة أو دون زيادة تذكر .

ونحو ذين الغرضين وهما التحقير وقلة الاكتراث ماورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "واسم الإشارة في "هذا الفتح" مع إمكان الاستغناء عنه بذكر مبينه مقصود منه التحقير وقلة الاكتراث به ، كما في قول قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموت لايلف حاجة لنفسي إلا قد قضيت قضاءها"

إنباء بقلة اكتراثه بالموت"[٣] .

وهذه الجملة القرآنية الكريمة على نفس وتيرة تركيب الجملة القرآنية السابقة جملة آية سبأ ، والإشارة فيهما بمعنى واحد إذ الغرض منها التحقير والاستخفاف وقلة الاكتراث .

ومن تلك الأغراض أيضا أن يكون التعريف بالإشارة لزيادة كشف المعنى وجلائه .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[٤] .

قال الطاهر : "والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدال على انحطاطها عن رتبة الألوهية"[٥] .

وهكذا رأى أن الإشارة تزيد في كشف حقيقة هذه الأصنام وانحطاط رتبتها وقلة عقل عابديها ، وضعف رأيهم ، وأفنة فكرهم ، لأن الذي يعبد الأصنام إنما عقله سقيم ، وفكره عقيم ، فكأنه مسلوبه .

---

(١) ينظر : روح المعاني (٢٢/١٣٩) .
(٢) سورة السجدة : آية (٢٨) .
(٣) التحرير والتنوير (٢١/٢٤٣) .
(٤) سورة الأنبياء : آية (٥٢) .
(٥) التحرير والتنوير (١٧/٩٤) .

لأن الإشارة تجلي معاني هذه الدونية في التماثيل ، لتشير إلى حقيقة معبوداتهم ، وأنها لاتضر ولاتنفع ... ولاتستحق أن ينظر إليها فضلا عن أن تتخذ كآلهة ، أو أن تعبد .

بينما الذي يفهم من كلام الكشاف في هذه الجملة القرآنية أن الإشارة تفيد التحقير فقد قال : "﴿ماهذه التماثيل﴾ تجاهل لهم وتغاب ليحقر آلهتهم ، ويصغر شأنها مع علمه بتعظيمهم وإجلالهم لها"[١] .

وقد فهم هذا الفهم عن الزمخشري العلامة ناصر الدين البيضاوي إذ قال : "﴿ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ تحقير لشأنها وتوبيخ على إجلالها..."[٢] .

وقد صرح العلامة الخفاجي بأن الإشارة أفادت التحقير في تعقيبه على المصنف حين قال : "قوله "تحقير لشأنها الخ" التحقير من الإشارة بما يشار به للقريب - كما بين في المعاني - ومن تسميتها تماثيل"[٣] .

ونقل العلامة الألوسي هذا المعنى في اسم الإشارة ، فقال : "وفي الإشارة إليها بما يشار به للقريب إشارة إلى التحقير"[٤] .

وهذا المعنى الذي ألمح إليه الكشاف وتبعه عليه هؤلاء المفسرون في أن اسم الإشارة في هذه الجملة القرآنية يفيد التحقير ، إنما هو معنى وارد في الآية الكريمة ، ولكن علامة تونس أخذ يبحث عن معنى جديد لاسم الإشارة ليستظهر أن الإشارة لكشف المعنى وجلائه ، ويسجل هذه الرؤية في هذا الموضع ، الذي ربما يكون قد فتح له باب فهم فيه كلام الكشاف . فتأمل .

ومن تلك الأغراض أيضا تحقق الوقوع .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة ص : ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[٥].

---

(١) الكشاف (٥٧٥/٢) .
(٢) تفسير البيضاوي (٢٥٩/٦) .
(٣) حاشية الشهاب (٢٥٩/٦) .
(٤) روح المعاني (٥٩/١٧) .
(٥) سورة ص : آية (٥٣) .

قال الطاهر : "وجئ باسم الإشارة القريب تنزيلا للمشار إليه منزلة المشار إليه الحاضر إيماء إلى أنه محقق وقوعه تبشيرا للمتقين"[١] .

فهو يرى الإشارة في هذه الجملة القرآنية لها غرض آخر في التعبير بها عقب ماأعد الله جل وعلا للمتقين من نعم كثيرة وخيرات وفيرة في جنات مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها على تلك الأرائك من إستبرق وجنى الجنتين دان ، ويدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم حور عين كأنهن بيض مكنون . قاصرات الطرف عليهم أتراب . فكأن هذه الحال التي لاشك في أنها ستتحقق استدعى الإعجاز التعبير عنها باسم الإشارة الموضوع للقريب في تنزيلها منزلة الحاضر المرئي الواقع فكانت هذه الجملة القرآنية ﴿هذا ماتوعدون ليوم الحساب﴾ فلله سر هذا الإعجاز ، الذي يأخذ بالقلوب والألباب .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى : ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "اسم الإشارة هنا جاء على غالب مواقعه ، وهو نظير قوله ﴿هذا ماتوعدون ليوم الحساب﴾ والقول فيه مثله"[٣] .

فهو يرى أن الإشارة في هذا الموضوع تفيد غرضا بلاغيا وهو تحقق الوقوع من جهة تنزيل المشار إليه منزلة الحاضر . فالإشارة متجهة إلى الآية التي قبل اسم الإشارة ، وهي قوله تعالى : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٤] ، فكأنها أمام أعينهم ، وكأنها بمنزلة الحاضر المرئي .

ولكن ماهو السر في إيثار التعبير باسم الإشارة القريب في هذه الآية؟ وقد أجاب علامة تونس على ذلك قائلا : "وإشارة القريب لتقريب الإنذار ..."[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٣/٢٣) .

(٢) سورة ص : آية (٥٧) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٣) .

(٤) سورة ص : آية (٥٦) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٣) .

وهكذا يستظهر هذا العلامة أغراضا بلاغية متزايدة بدقة فكره ونـور بصيرتـه وصدق حسه ، وشدة دربته بأساليب الاستعمال ، ليضيف إضافات مثرية وعظيمـة تستحق كل إجلال وإكبار .

وبعد ... فقد بقي في أسماء الإشارة من التراكيب القرآنية ووجوه الاستعمال التي فيها للعلماء آراء بلاغية مايمكن أن يخصه الباحث بما يأتي من تحبير .

ورود اسم الإشارة بعد الضمير
[هاأنتم أولاء]

ورد في القرآن الكريم اسم الإشارة في تراكيب قرآنية معجزة ، ووجوه من الاستعمال البياني ، مما تطلب من الأئمة فضلا عن الدارسين الوقوف عنده ، وتحقيق القول فيه .

ومن أولئك الأئمة العلامة الطاهر الذي مافتئ قدر جهده ومبلغ طاقته أن يحاول بيان الغرض البلاغي في تلكم الاستعمالات .

ومن تلك الاستعمالات أن يرد اسم الإشارة بعد الضمير في نحو قولك : هاأنا ذا ، أو قولك : هاأنتم أولاء ، وماشاكل ذلك .

فما المقصود من مجئ اسم الإشارة في مثل هذا التركيب؟

وماهو السر البلاغي في مجئ اسم الإشارة في هذا التركيب؟

وهل يصح انعقاد جملة من الضمير واسم الإشارة؟ وهل يصح الاستغناء عن اسم الإشارة ليرد التركيب بهذه الصورة : هاأنا فعلت ، هاأنتم فعلتم؟

وربما يكون التساؤل الثالث مما يلحق بهذا المبحث ، لأنه في حقيقته سؤال يخرج عن دقة البحث في الأمر الزائد على أصل التركيب إلى صحة الاستعمال الذي يتعلق بنواح معرفية في علم آخر .

ولكن ذلك لايمنع إيراده على سبيل الإحاطة والشمول في تقرير المسألة وتحقيقها ، إذ أنه يتعلق بطرف خفي بتلك الأسماء ، ويعكس جوانب أخرى تساعد في تجلية أن هناك من المواطن مايمكن أن يكون خاصا أو شبه خاص ، للتدليل على الوزن ، أو قل القيمة البلاغية التي تنطوي عليها استعمالات هذه الأسماء وأساليبها ، ولكن ثمة ماتقرره النواظر قبل الألباب من كون التساؤل الأول يعد مدخلا عاما يحسن به هذا الطرح من ورود هذا الأسلوب القرآني العربي ، مما يخلص إلى تأكيد جعل التساؤل الثاني بيت القصيد في هذا المقام ، لكونه يعنى بالتساؤل البلاغي الصرف في بناء هذه الجملة القرآنية الواردة على هذا النمط ، وهذه الصياغة .

وقد حاول ابن عاشور أن يعالج هذا التركيب وأسراره البيانية حينما عرض لتفسير قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾[(١)] .

فهو يرى أن مجئ اسم الإشارة في هذا الاستعمال مقصود به زيادة التعيين ، لأن الضمير تعيين والإشارة تعيين ، فهي لزيادة تعيين مفاد الضمير ، وللتنبه على حضور المشار إليهم ، فهاتان فائدتان في مجئ اسم الإشارة في هذا الأسلوب .

أما السر البلاغي في اسم الإشارة في هذا الأسلوب فهو إفادة معنى التعجب في غالب مواقعه عن طريق القرائن الدالة عليه .

قال ابن عاشور مبينا هذه الأسرار : "... والخطاب لليهود الحاضرين في وقت نزول القرآن بقرينة قوله : "هؤلاء" ، لأن الإشارة لاتكون إلى غائب ، وذلك نحو قولهم : هاأنا ذا ، وهاأنتم أولاء ، فليست زيادة اسم الإشارة إلا لتعيين مفاد الضمير ، وهذا استعمال عربي يختص غالبا بمقام التعجب من حال المخاطب"[(٢)] .

وقد حاول إيضاح معنى التعجب الوارد في مثل هذا التركيب ، فقال : "ويستفاد معنى التعجب في أكثر مواقعه من القرينة ، كما تقول ـ لمن وجدته حاضرا وكنت لاتترقب حضوره ـ : هاأنت ذا ، أو من الجملة المذكورة بعده إذا كان مفادها عجيبا ..." [(٣)] .

ومن شواهد الجمل المفيدة معنى التعجب بعد اسم الإشارة ماهو بصدد تفسيره من آية سورة البقرة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أوليس في هذه الجملة "تقتلون أنفسكم" معنى يتعجب منه المخاطب ، ليقف مشدوها مذهولا من حال هؤلاء المشار إليهم الذين يفعلون مثل هذا الفعل .

بينما ذكر الزمخشري معنى بلاغيا آخر في هذه الجملة القرآنية إذ قال : "﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ استبعاد لما أسند إليهم من القتل والإجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم وإقرارهم وشهادتهم .

---

(١) سورة البقرة :آية (٨٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٥٨٦/١) .

(٣) ن.م.س (٥٨٧/١) .

والمعنى : ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون ؛ يعني أنكم قوم آخرون غير أولئك المقرين تنزيلا لتغير الصفة منزلة تغير الذات ؛ كما تقول : رجعت بغير الوجه الذي خرجت به"(١) .

فاسم الإشارة هنا يفيد تنزيل المشار إليهم منزلة أقل من منزلتهم ، فوقع بهذا التغاير بين المبتدأ والخبر ، فانعقدت الجملة ، بدليل أن مراده هذا هو أن قدر جملة "تقتلون" حالا ، ولم يقدرها خبرا إذ قال : "وقوله "تقتلون" بيان لقوله : ثم أنتم"(٢).

وقد رأيت الشيخ زادة يبين بأسلوب أكثر وضوحا عن هذا المعنى معقبا على كلام العلامة البيضاوي : "(وأنتم) مبتدأ و(هؤلاء) خبره"(٣) ، إذ قال : "قوله "وأنتم مبتدأ وهؤلاء خبره" فيكون مدلول الكلام حمل ذوات محسوسة يشار إليها إشارة حسية على ذوات المخاطبين ، ولاشك أن ذاتي الموضوع والمحمول لايجوز اتحادهما ذاتا ووصفا وإلا لزم حمل الشئ على نفسه مثل من يقول : أنتم أنتم ، بل يجب أن يكونا متغايرين إما بحسب الذات أو بحسب الوصف والاعتبار ، والأول محال ضرورة امتناع أن يحمل أحد المتغايرين ذاتا على الآخر ، فتعين أن يتغايرا بحسب الوصف ..."(٤) .

وعلى هذا صح تنزيل الإشارة لهذه الذوات منزلة أخرى باعتبار أوصافها ، قال أيضا رحمه الله : "... فنزل تغاير الصفة منزلة تغاير الذات ، فإن من خرج ملابسا لوصف إذا رجع بوصف آخر يقال له : رجعت بغير الوصف الذي خرجت به ، يكنون بتغير الوصف عن تغير الذات ،كأنه قيل : ذهب بك وجئ بغيرك"(٥) .

وقد ألطف العلامة الخفاجي في دقة من التعبير عن هذا الإعراب الذي رآه الزمخشري من كون الجملة "أنتم هؤلاء" إذ قال : "وجعل قوله "تقتلون أنفسكم"

---

(١) الكشاف (٢٩٣/١) .

(٢) ن.م.س (٢٩٣/١،٢٩٤) .

(٣) تفسير البيضاوي (١٩٦/٢) .

(٤) حاشية الشيخ زادة (٣٤٢/١) .

(٥) ن.م.س .

جملة مبينة مستقلة ، ليفيد أن الذي تغير هو الذات بعينها نعيا عليهم بشدة وكادة[١] أخذ الميثاق ثم تساهلهم فيه وقلة المبالاة به"[٢] .

وأما بالنسبة للأوجه الإعرابية في هذه الآية وماماثلها فهناك سبعة أوجه إعرابية ذكرها صاحب الدر المصون ، هي كالتالي :

أولها : وأوجهها وأظهرها هو ماانعقدت فيه بين الضمير واسم الإشارة جملة وتكون فيه جملة "تقتلون" حالا ، ومنه قول العرب : هاأنت ذا قائما ، وهاأنا ذا قائما ، وهاهو ذا قائما .

ثانيها : يكون "أنتم" مبتدأ ، و"هؤلاء" خبره ، لكن على تقدير حذف مضاف ، أي : ثم أنتم مثل هؤلاء .

ثالثها : يكون "أنتم" خبرا مقدما ، و"هؤلاء" مبتدأ مؤخرا ، ذكره ابن عطية وهو مردود ، لاستواء طرفي الجملة تعريفا وتنكيرا فلايجوز تقدم الخبر .

رابعها : تكون "هؤلاء" منادى حذف منه حرف النداء ، والجملة "أنتم تقتلون" . وهو قول الفراء ، ولايجيزه البصريون .

خامسها : يكون "أنتم" مبتدأ ، و"هؤلاء" موصول بمعنى "الذين" وهو الخبر و"تقتلون" صلته ، وهو قول الكوفيين .

سادسها : يكون "هؤلاء" منصوبا على الاختصاص ، والجملة "أنتم تقتلون" والنحويون نصوا على أن الاختصاص لايكون بالنكرات وأسماء الإشارة .

سابعها : يكون الإعراب على نحو الوجه الأول الأوجه ، من جعل "أنتم"مبتدأ ، و"هؤلاء" خبره ، لكن يختلف عنه في أن جملة "تقتلون" ليست حالا ، بل تكون جملة مستأنفة مبينة للجملة التي قبلها[٣] .

والسؤال بعد بيان هذه الأوجه الإعرابية هل يصح في مثل هذا التركيب أن يطرح اسم الإشارة؟ وتبقى "ها" التنبيه في التركيب نحو : هاأنا فعلت؟

---

(١) في الأصل "وكأنه" والمعنى غير مستقيم ، وربما كانت خطأ مطبعيا .

(٢) حاشية الشهاب (١٩٦/٢) .

(٣) ينظر : الدر المصون (٢٨٣/١) ومابعدها .

والإجابة على ذلك أن النحاة اختلفوا[١] في بقاء "هاء" التنبيه في التركيب بعد اطراح اسم الإشارة ، فمن مجيز بقاءها ، ومن مانع بقاءها ، لكن ابن عاشور أجاز أن تبقى هذه الهاء في التركيب ، وذكر في مقدمة التحرير والتنوير مايدل على تجويزه هذا الأسلوب إذ قال : "وهاأنا أبتدئ بتقديم مقدمات تكون عونا للباحث في التفسير ، وتغنيه عن معاد كثير"[٢] .

وعقب عليه في هامش الصفحة بقوله : "عن قصد قلت "وهاأنا" و لم أقل "وهاأنا ذا" كما التزمه كثير من المتحذلقين ..." [٣] .

لأن هاء التنبيه عنده دخلت على الجملة و لم تدخل على اسم الإشارة ، بينما الذين يمنعون ورودها بعد اسم الإشارة ، يرون أنها دخلت على اسم الإشارة ، فإذا حذف حذفت معه .

ولاشك أن هذه "الهاء" حرف من حروف التنبيه مثل : ألا وأما ، وقد ارتبطت مع أسماء الإشارة في غالب أمرها ، ولكن ذلك لايمنع أن ترد بدون اسم الإشارة وتدخل على الجملة .

وعلى كل فلنرجع إلى الأسلوب نفسه لنستخلص منه الأساليب أو التراكيب القرآنية التي وردت في الكتاب العزيز لنرى أن ابن عاشور[٤] يجعله على مراتب ثلاث :

الأولى : كقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ﴾[٥] .

الثانية : كقوله تعالى : ﴿هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ﴾[٦] .

الثالثة : كقوله تعالى : ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٧] .

---

(١) ينظر : المساعد على تسهيل الفوائد (١/١٨٧) ، مغني اللبيب (٢/٣٤٩) ، الهمع (١/٢٤٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٩) .

(٣) ن.م.س .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير (١/٥٨٧) .

(٥) سورة البقرة : آية (٨٥) .

(٦) سورة آل عمران : آية (١١٩) .

(٧) سورة النساء : آية (١٠٩) .

وليس المقام مقام مفاضلة بين الأساليب الثلاثة وسياقاتها ودلالاتها ، وإنما هو مقام إحاطة بالأساليب القرآنية لهذا التركيب الذي وقع كل منه موقعه الذي لايليق به غيره .

دخول كاف التشبيه على اسم الإشارة {كذلك جعلناكم أمة وسطا}

قد سبق[١] أن ذكرنا في الأغراض السابقة غرضا بلاغيا يستفاد من مثل هذا التركيب .

وذلك الغرض هو التشويق ، لأن تأخير المشار إليه عن اسم الإشارة يفيد في هذا المقام غرض التشويق .

بينما في هذا الموضع سيكون وجه التناول جانبا آخر ، ألمحت إليه في ذلك المقام ، وأضيف عليه مابقي في المزادة لأجل أن تتضح صورة هذا التركيب ، لأن وقوع الإشكال في تقرير هذا التركيب بين العلماء هو وجود كاف التشبيه دون ظهور مشبه به في غالب أحواله ، وأيضا عدم تعين المشار إليه . حتى أن شراح الكشاف اختلفوا في تقرير عبارة الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية إذ قال : "﴿وكذلك جعلناكم﴾ ومثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم"[٢] .

فمنهم من يرى أن المشار إليه متقدم وهو مفهوم من الآية التي قبلها وهي قوله تعالى : ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٣] . أي : كما جعلنا قبلتكم أفضل قبلة جعلناكم أمة وسطا[٤] .

ومنهم من يرى أن الكاف في مثل هذا التركيب تكون اسما بمعنى "مثل" منصوبا على المفعولية المطلقة ، فهي ليست تشبيه بل تمثيل حالة بحالة . أي : تمثيل حالة الهدى التام المفهوم من الآية التي قبلها والمشار إليها سابقا بحالة جعلناكم أمة وسطا ، ثم يرى هذا الشارح أن وجه التعبير بإشارة البعيد لأجل التعظيم[٥] .

---

(١) ينظر (ص٣٧٩) .

(٢) الكشاف (٣١٧/١) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٤٢) .

(٤) ينظر : تفسير البيضاوي (٢٥٠/٢) .

(٥) ينظر : فتوح الغيب في كشف قناع الريب لوحة (٤٣) مخطوطة مصورة رقم (٣٨٠٦) بمكتبة الحرم المكي الشريف .

ومنهم من يرى أن الكاف في مثل هذا التركيب مقحمة لاتدل على تشبيه ولاتمثيل ويكون اسم الإشارة نائبا مناب مفعول مطلق ، أي : جعلناكم ذلك الجعل ويكون وجه إيراد اسم الإشارة على هذا التقدير لأجل إفادة بداعة هذا الجعل وإفادة عجائبه ، والتنويه به من خلال إيثار الإشارة بالبعيد[١] .

وهكذا يظهر لك اختلاف فهم المراد من الكاف واسم الإشارة في هذه الجملة القرآنية ، مما يكون تمهيدا وتوطئة في تقرير هذا التركيب العجيب الذي تختفي في طيات إلحاته أسرار بلاغية ونكات بيانية أفصح عن بعض منها شراح الكشاف فيما استظهروه من معان لتقرير هذا التركيب ، ليبقى على علماء الأسلاف المتميزين في هذا الفن مايميطون به لثام المعاني المحتجبة ودلالات التركيب المخبأة مما يضربون فيه بأنظار فكرهم ، وببصائر بصيرتهم ، وطول فكرتهم ، ودقة تأملهم ، مايكون لهم حظ فيه .

وقد كان من العلامة ابن عاشور مايروي صدى المتعطش إلى تحرير هذه المسألة ، ويجلو هم من أرهقته فكرة التحير فيها ، ليبين عن فهم واع استغرق منه مااستغرق من الفكر والوقت ، لأنه جهد تظهر عليه ملامح الإجادة التي تنبعث من نفائس الدقة ، ودقيق النفائس ، ليقرر لنا بعد إيراده محامل فهم سابقيه مايقرره في هذا التركيب من معنى بتدرج يجري فيه على إيضاح ماهيته ومايفاد منه من خلال هذه الصياغة ، وذلك التركيب .

فيذكر أن أصل "كذلك" على هذه الصورة يفيد التشبيه فيقول : "والتحقيق عندي أن أصل "كذلك" أن يدل على تشبيه شئ بشئ والمشبه به ظاهر مشار إليه أو كالظاهر ادعاءا ؛ فقد يكون المشبه به المشار إليه مذكورا مثل قوله تعالى : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ إشارة إلى قوله ﴿وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله﴾ الآية..."[٢]

---

(١) ينظر : حاشية التفتازاني على الكشاف لوحة (٩٤) مخطوطة رقم (٥٧٦) بمكتبة الحرم المكي الشريف .

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٢) .

ثم يبين بعد ذلك القسم الثاني الذي لايكون المشبه فيه مذكورا فيقول : "وقد يكون المشبه به المشار إليه مفهوما من السياق ؛ فيحتمل اعتبار التشبيه ، ويحتمل اعتبار المفعولية المطلقة كقول أبي تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض دمعها عذر

قال التبريزي في شرحه : الإشارة للتعظيم والتهويل ، وهو في صدر قصيدة لم يسبق له مايشبه به ، فقطع النظر فيه عن التشبيه ، واستعمل في لازم معنى التشبيه. أ.هـ ، يعني : أن الشاعر أشار إلى الحادث العظيم وهو موت محمد بن حميد الطوسي ..."[1] .

والذي يفهم من هذا الكلام أنه إذا لم يذكر المشبه به أو المشار إليه لاسم الإشارة الداخلة عليه الكاف ، جاز في هذه الحالة اعتباران اثنان ، أحدهما : التشبيه ، المفهوم من الحال أو السياق ، وثانيهما : المفعولية المطلقة باعتبار أن الكاف بمعنى "مثل" أو باعتبار أنها مقحمة ، والاعتبار الثاني في الكاف ضعيف .

ثم بدأ يؤطر الرؤية التي يريد تقريرها في هذا الاستعمال فيقول : "وقد يكون مرادا منه التنويه بالخبر فيجعل كأنه ما يروم المتكلم تشبيهه ثم لايجد إلا أن يشبهه بنفسه ، وفي هذا قطع النظر عن التشبيه في الواقع ، ومثله قول أحد شعراء فزارة في الأدب من الحماسة :

كذاك أدبت حتى صار من خلقي   أني رأيت ملاك الشيمة الأدبا

أي : أدبت هذا الأدب الكامن العجيب"[2] .

وهكذا يقرر ابن عاشور وجه هذا الاستعمال الذي يفاد من كاف التشبيه واسم الإشارة "كذلك" .

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/٢) .

(٢) ن.م.س .

وقد سبقت من العلامة الخفاجي[1] إشارات واضحة في هذا السياق في تحرير مطول وتحقيق بديع عند تفسير قوله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ حشد لها أقوال شراح الكشاف وفتح بابا موصدا أحسب أنه لم يخف على علامة تونس .

(١) ينظر : حاشية الشهاب (٢/٢٥٠) ومابعدها .

ربط الكلام اللاحق بالسابق
{ذلك بأن الله نزل الكتاب}

هناك تراكيب قرآنية وعربية يتميز وقوع اسم الإشارة فيها بإفادة الربط بين لاحق الكلام وسابقه .

وقد وردت جمل قرآنية كريمة يقع اسم الإشارة منها هذا الموقع ، نحو ماورد في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(١) .

قال ابن عاشور رحمه الله عند تفسير هذه الآية : "جئ باسم الإشارة لربط الكلام اللاحق بالسابق على طريقة العرب في أمثاله ، إذا طال الفصل بين الشئ ومماارتبط به من حكم أو علة أو نحوهما . كقول النابغة :

وذلك من تلقاء مثلك رائع

بعد قوله :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني"(٢)

فوقوع هذا الاسم يكون إذا حصل فصل بين الكلام اللاحق والسابق ، فيعمد إلى اسم الإشارة ليربط بين الكلامين .

ففي الآية الكريمة يكون الكلام السابق هو الكتمان المأخوذ من "يكتمون" الذي ورد قبلها بآيتين ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾(٣) .

---

(١) سورة البقرة : آية (١٧٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢٦/٢) .

(٣) سورة البقرة : آية (١٧٤-١٧٦) .

أو يكون الكلام السابق الآية التي قبلها ﴿فما أصبرهم على النار﴾ ، ويكـون الفصل واقعا باعتبار انتهاء الآية ووجود الفاصلة القرآنية ، فجاء اسم الإشارة لـيربط بين الآيتين .

أما قول النابغة الذبياني فقد ورد في قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان ، مطلعها:

عفا ذو حسا من فرتني فالفوارع   فجنبا أريك فالتلاع الدوافع[1]

ومنها :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتـــني   وتلك التي تستك منها المسامع

مقالة أن قد قلت سوف أناله   وذلك من تلقاء مثلك رائـع[2]

فالإشارة بـ"ذلك" إلى معنى الفاعل المأخوذ من قوله "أتـاني أبيـت اللعـن ... البيت" ، وقوله "مقالة أن قدقلت سوف أناله" تبيين لقوله "أنك لمتني" .

فجاء اسم الإشارة ليربط لاحق الكـلام بسـابقه ، وهـذا مـن لطـائف مواقـع أسماء الإشارة في صياغة التراكيب .

ونحو هذا الاستعمال لاسم الإشـارة قولـه تعـالى في سـورة الحشـر : ﴿ذَلِـكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3] .

وقوله تعالى في سورة التغابن : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّـهُ كَـانَتْ تَـأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[4] .

---

(١) ذو حسا : موضع في بلاد بني مرة ، وفرتني : اسم امرأة ، والفـوارع : أعلـى الجبـل أو مكـان بعينه ، وأريك : موضع ، والتلاع : جمع تلعة : وهي مجاري الماء من أعلى الأودية أو مـاانهبط من الوادي ، والدوافع : التي تدفع إلى الوادي . والمعنى : لم يبق من آثارهم شئ .
مختار الشعر الجاهلي (ص١٥٥) ، الديوان (ص٤٢) .

(٢) رائع : مخيف ومفزع . الديوان (ص٤٧) ومابعدها .

(٣) سورة الحشر : آية (٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧٤/٢٨) .

(٤) سورة التغابن : آية (٦) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٦٨/٢٨) .

الانتقال من غرض إلى آخر
{هذا وإن للطاغين لشر مآب}

هذا استعمال خاص لاسم الإشارة ، يفيد فيه هذا الاسم الانتقال من غرض إلى آخر ، أو الفصل بين كلامين ، أو وجهين لكلام واحد ، ليباين عمله في الاستعمال السابق من إفادة اتصال الكلام وربطه ، وربما كان الفصل باسم الإشارة "ذلك" ، خلافا لما شاع من استعمال "هذا" في هذا الاستعمال .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "اسم الإشارة مستعمل هنا للفصل بين كلامين أو بين وجهين من كلام واحد ، والقصد منه التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده ، فالإشارة مراد بها التنبيه ، وذلك حيث يكون مابعده غير صالح لوقوعه خبرا عن اسم الإشارة فيتعين تقدير خبر عنه في معنى : ذلك بيان أو ذكر ، وهو من أساليب الاقتضاب في الانتقال" .

وعلة هذا التركيب التنبيه على الاهتمام بما سيذكره بعده ، وسر التعبير بالبعيد هو الدلالة على تعظيم الأمر والتنويه به ، على أن المشهور استعمال اسم الإشارة "هذا" في أمثاله ، وقد نبه إلى ذلك ابن عاشور فقال : "والمشهور في هذا الاستعمال لفظ "هذا" كما في قوله تعالى ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ . وقول زهير :

هذا وليس كمن يعيا بخطبته وسط الندى إذا ماقائل نطقا

وأوثر في الآية اسم إشارة البعيد للدلالة على بعد المنزلة كناية عن تعظيم مضمون ماقبله .

فاسم الإشارة مبتدأ حذف خبره لظهور تقديره ، أي ذلك بيان ونحوه ، وهو كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض الأغراض ، فإذا أراد الخوض في غرض

---

(١) سورة الحج : آية (٣٠) .

آخر ، قال : هذا وقد كان كذا وكذا"[١] .

وهذا المعنى لاسم الإشارة والاستعمال الخاص به في الجملة القرآنية الكريمة مما صرح به علامة خوارزم إذ قال : "﴿ذلك" خبر مبتدأ محذوف ، أي : الأمر والشأن ذلك ، كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا"[٢] .

ونقله عنه البيضاوي في تفسيره إذ قال : "﴿ذلك" خبر محذوف ، أي : الأمر ذلك ، وهو وأمثاله يطلق للفصل بين كلامين"[٣] .

وقد عقب عليه العلامة الخفاجي ، فقال : "(قوله وهو وأمثاله) أي : من أسماء الإشارة كهذه وتلك ، والمشهور فيه هذا ، كقوله : "هذا وإن للطاغين لشر مآب" ، واختيار "ذلك" هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ، لملاءمة مابعده لما قبله كما هنا ، فمن قال : إنه لايطرد لم يصب"[٤] .

وقد سجل هذا المعنى أيضا أبو حيان الأندلسي ، فقال : "﴿ذلك" خبر مبتدأ محذوف وقدره ابن عطية : فرضكم ذلك ، أو الواجب ذلك ، وقدره الزمخشري : الأمر أو الشأن ذلك . قال : كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ، ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر ، قال : هذا ، وقد كان كذا . انتهى ... ونظير هذه الإشارة البليغة قول زهير ـ وقد تقدم له جمل في وصف هرم ـ :

هذا ، وليس كمن يعيا بخطبته ... وسط الندى إذا ماناطق نطقا

وكان وصفه قبل هذا بالكرم والشجاعة ، ثم وصفه في هذا البيت بالبلاغة ، فكأنه قال :هذا خلقه ، وليس كمن يعيا بخطبته"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٥١/١٧) .

(٢) الكشاف (١١/٣) .

(٣) تفسير البيضاوي (٢٩٤/٦) .

(٤) حاشية الشهاب (٢٩٤/٦) .

(٥) البحر المحيط (٣٣٩/٦) .

وأشار أيضا إلى هذا المعنى كسابقيه ببعض الإضافة علامة بغداد بقوله : "﴿ذلك﴾ أي : الأمر ، وهذا وأمثاله من أسماء الإشارة يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد ، والمشهور من ذلك "هـذا" كقوله تعالى : ﴿هـذا وإن للطاغين لشر مآب﴾ وكقول زهير وقد تقدم له وصف هرم بالكرم والشجاعة :

هذا ، وليس كمن يعيا بخطبته   وسط الندى إذا ماناطق نطقا

واختيار "ذلك" هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته ، وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ؛ لملاءمة مابعده لما قبله"[1] .

وهكذا تتبين أن ابن عاشور قد أخذ من كل هؤلاء الأئمة ماتميز به تقريره من تحبير .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة ص في قوله تعالى : ﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[2] .

قال ابن عاشور : "اسم الإشارة "هذا" مستعمل في الانتقال من غرض إلى غرض تنهية للغرض الذي قبله"[3] .

---

(١) روح المعاني (١٧/١٤٧) .

(٢) سورة ص : آية (٥٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/٢٨٥) .

الفصل الثاني

التعريف بالموصولية

التعريف بالموصولية

حفلت الجمل القرآنية الكريمة بأغراض بلاغية من خلال تعريفها بالموصولية .

من تلكم الأغراض :

التنبيه على خطأ المخاطبين لقصد التنديم .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وعبر بالموصولية في قوله ﴿ماكنتم تكنزون﴾ للتنبيه على غلطهم فيما كنزوا لقصد التنديم"[(٢)] .

ففي الآية الكريمة مضاف محذوف تقديره : عذاب ماكنتم تكنزون ، وفي هذا تنبيه على خطأ يقع فيه هؤلاء الصنف من الأغنياء الذين لاينفقون أموالهم في وجوه البر ، أو لايخرجون زكاة أموالهم ، وإنما يجمعون المال على المال طمعا في المزيد من الثراء ، دون أداء واجبات مناطة بهم ، أو قيام بحقوق محقوقين بها ومسئولين عنها .

فجاءت الآية تنبيها لما وقعوا فيه من الخطأ العظيم ، والأمر الجسيم ، من تعطيلهم شعائر الدين ، ومنعهم الحقوق عن مستحقيها من المسلمين ، مع إذاقتهم ذلك العذاب الأليم ، لقصد التنديم ، وإثارة الحسرة والكمد في قلوبهم ، عن طريق الموصولية ، إذ أن إيقاع إذاقة العذاب على الموصول الذي هو "ماكنتم تكنزون" يفصح عن ذلك ويبين عنه .

وقد ألمح إلى هذا المعنى الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية إذ قال : "وقوله "لأنفسكم" أي : كنزتموه لتنتفع به نفوسكم ، وتلتذ وتحصل لهم الأغراض التي حامت حولها ، وماعلمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم"[(٣)] .

---

(١) سورة التوبة : آية (٣٥) .

(٢) التحرير والتنوير (١٠/١٨٠) .

(٣) الكشاف (٢/١٨٨) .

فهو في هذه الجملة القرآنية أومأ إلى ماصرح به ابن عاشور في الجملة القرآنية التي وليتها .

وهكذا يفيد العلماء بعضهم من بعض من خلال اللمحة الدالة ، أو الرمزة الخفية ، ليعي السائر على هذا الطريق أن حظ الأذهان من الفهم ورغبتها في العلم هو الذي يصنع العالم الصنع ـ بفتح الصاد والنون ـ بعد توفيق الله وتسديده ليشيد بناءه الخاص به في صرح العلم العالي .

بينما لم يذكر الزمخشري عند الجملة القرآنية التي استظهر منها علامة تونس هذا الغرض ، إلا وجوها إعرابية في "ما" ، إذ قال : "﴿فذوقوا ماكنتم تكنزون﴾ وقرئ تكنزون ـ بضم النون ـ ، أي : وبال المال الذي كنتم تكنزونه ، أو وبال كونكم كانزين"[١] .

فجعل "ما" موصولة أي : وبال المال الذي الخ ، أو مصدرية ، أي : وبال كونكم ...الخ .

وقدر الزمخشري المضاف المحذوف : وبال .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الجمعة في قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "ووصف الموت بـ"الذي تفرون منه" للتنبيه على أن هلعهم من الموت خطأ ، كقول علقمة :

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا"[٣]

وهذا البيت الشعري هو المشهور في هذا الغرض في كتب[٤] البلاغيين ، وهو لعبدة بن الطبيب[٥] وليس لعلقمة كما نسبه العلامة ، وهذا سهو من الشيخ

---

(١) الكشاف (٢/١٨٨) .

(٢) سورة الجمعة : آية (٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٨/٢١٨) ومابعدها .

(٤) ينظر : شروح التلخيص (١/٣٠٧) .

(٥) الديوان (ص٤٨) .

لأنه قد عاود في تحريره وتنويره ذكر هذا البيت الشعري فنسبه إلى عبدة بن الطبيب[١] لا إلى علقمة .

وقد جئ بالموصول وصفا للموت تنبيها على خطأهم في فرارهم من الموت وهروبهم منه ، لأنه ملاقيهم وواقع بهم ، ولن ينفعهم هذا الفرار في النجاة منه ، فكأن مجئ الموصول ينبههم على ماهم واقعون به من الاعتقاد الخاطئ ، والفكر السقيم ، ليردهم إلى حقيقة الأمر وواقعه .

ونحو هذا الغرض مع غرض آخر ، ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وإيثار اسم الموصول في قوله "مالايضرهم ولاينفعهم" لما تؤذن به صلة الموصول من التنبيه على أنهم مخطئون في عبادة مالايضر ولاينفع ، وفيه تمهيد لعطف "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" لتحقير رأيهم من رجاء الشفاعة من تلك الأصنام ، فإنها لاتقدر على ضر ولانفع في الدنيا فهي أضعف مقدرة في الآخرة"[٣] .

فالموصول هنا أفاد التنبه على خطأ كفار مكة في عبادتهم أصنام لاتضر ولاتنفع ، وأفاد خطأ تقديمهم لها مايأملونه من خير أو يستدفعونه من ضر ، وأفاد أيضا هذا الموصول توطئة وتمهيدا لعطف الجملة اللاحقة "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" على الجملة السابقة "ويعبدون من دون الله" ، فقد مهد لهذا العطف بالمعنى الذي تضمنته الصلة .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[٤] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير (٢٢٠/٩) .
(٢) سورة يونس : آية (١٨) .
(٣) التحرير والتنوير (١٢٥/١١) .
(٤) سورة الأعراف : آية (١٩٤) .

قال علامة تونس : "والمراد بالذين تدعون من دون الله : الأصنام ، فتعريفها بالموصول لتنبيه المخاطبين على خطأ رأيهم في دعائهم إياها من دون الله ، في حين ليست أهلا لذلك ، فهذا الموصول كالموصول في قول عبدة بن الطبيب :

إن الذين ترونهم إخوانكم يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا"[(١)]

وقد نسب هذا البيت الشعري إلى قائله ، بخلاف مافي النص السابق من خطأ في النسبة .

ولايخفى وجه الغرض البلاغي في هذه الجملة القرآنية .

ومن تلك الأغراض التعظيم .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "والمراد من الموصول وصلته التعظيم ، كقولهم : قد كان ماكان"[(٣)] .

فهو يرى أن التعبير عن الجنة بالموصول "مما كانا فيه" لأجل التعظيم ، وهو معنى ظاهر للعيان في هذه الجملة القرآنية إذا فسر الضمير في الجملة القرآنية قبلها في قوله ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه﴾ بعوده على الشجرة في قوله "عنها" فيكون المعنى : فأزلهما الشيطان عن الشجرة فأخرجهما من الجنة التي كانا فيها .

وقد فسر الموصول بالكرامة والنعيم ، وقيل : أخرجهما من لباسهما الذي كانا فيه[(٤)] .

وقد سبقت إشارة العلامة أبي السعود العمادي إذ قال : "﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي : من الجنة إن كان ضمير عنها للشجرة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بفخامتها وجلالتها وملابستهما له أي : من المكان العظيم الذي كانا

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢٠/٩) .

(٢) سورة البقرة : آية (٣٦) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٣٤/١) .

(٤) تنظر : حاشية الشهاب (١٣٨/٢) ، حاشية الصاوي على الجلالين (٣٣/١) .

مستقرين فيه ، أو من الكرامة والنعيم إن كان الضمير للجنة"[١] .

أي : إن كان الضمير للجنة في قوله "عنها" فيكون الموصول مرادا به الكرامة والنعيم .

ومن أغراض التعريف بالموصول التعليل .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "فقوله "التي أنعمت عليكم" وصف أشير به إلى وجوب شكر المنعم لما يؤذن الموصول وصلته من التعليل ، فهو من باب قوله تعالى : ﴿وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون﴾"[٣] .

على أن المتأمل يرى أن أصل المعنى يفهم بقوله "نعمتي" دون أن يذكر الموصول وصلته ، وإنما جئ بالموصول وصلته في هذه الجملة القرآنية لأجل التعليل لقوله : اذكروا .

ونحو هذا الغرض الإيماء إلى التعليل ماورد في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "وقد عدل عن لفظ اليهود إلى الموصول والصلة ، وهي : "الذين اتخذوا دينكم هزؤا" الخ لما في الصلة من الإيماء إلى تعليل موجب النهي"[٥] .

فهو يرى أن العدول عن الاسم إلى الموصول في هذه الجملة القرآنية إيماء إلى علة النهي في قوله : "لاتتخذوا" ، أي : لاتتخذوهم أولياء .

و لم يقل : تعليل للنهي ، وإنما قال : إيماء إلى علة النهي ، إذ أن هناك فرقا بين ذين التعبيرين .

---

(١) تفسير أبي السعود (١/٩١) .
(٢) سورة البقرة : آية (٤٠) .
(٣) التحرير والتنوير (١/٤٥٢) .
(٤) سورة المائدة : آية (٥٧) .
(٥) التحرير والتنوير (٦/٢٤١) .

لأن تعليل النهي هي العلة الموجبة لـه ، نحـو قولـك : لاتستمع كـلام الذيـن يضلـون عـن الحـق ، فموجـب النهـي عـن الاسـتماع في قولـك : لاتسـتمع ، هـو الإضلال عن الحق .

أما الإيماء إلى علة النهي : فنحو قولك : لاتستمع كـلام الـذي يكـثر الجـدل فتقع في الضلال ، فإن الإكثار من الجدل ليس علة للنهي في قولك : لاتستمع ، بـل هو إيماء إلى التعليل .

بمعنى أن مافي الآية الكريمة من النهي في قوله : "لاتتخذوا" ليس العلة فيه هـو كون اليهود يتخذون دين الإسـلام هـزؤا ولعبـا ، بـل المسـلمون منهيـون عـن هـذا الاتخاذ ابتداء .

وهذا المعنـى ألمح إليـه الزمخشـري في كشـافه ، إذ قـال : "يعـني أن اتخـاذهم دينكم هزؤا ولعبا لايصح أن يقابل باتخاذكم إياهم أولياء ، بل يقابل ذلك بالبغضـاء والشنآن والمنابذة"[١] .

وقد فهم هذا المعنـى عنـه العلامـة البيضـاوي ، فكـانت عبارتـه أوضـح لهـذا الغرض إذ قال : "وقد رتب النهي عن موالاتهم على اتخاذهم دينهم هزوا ولعبا إيماء إلى العلة ، وتنبيها على أن من هذا شأنه بعيد عن الموالاة ، جدير بالمعـادة والبغضـاء ... على أن النهي عن موالاة من ليس على الحق رأسا ، سواء من كان ذا دين تبـع فيه الهوى ، وحرفه عن الصواب كأهل الكتاب ، ومن لم يكن كالمشركين"[٢] .

وقد عقب عليه الخفاجي بما زاده بيانا ، فقال : "... ولايكـون النهـي عليهـا ـ أي الآية ـ معللا بالاستهزاء ، بل نهوا عن موالاتهم ابتداء"[٣] .

وقد نقل الألوسي هذا المعنى عن الخفاجي فقـال : "ولايكـون النهـي حينئـذ بالنظر إليهم معللا بالاستهزاء ، بل نهوا عن موالتهم ابتداء"[٤] .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعـالى : ﴿وَآمِنُـوا بِمَـا أَنزَلْـتُ مُصَدِّقًـا لِمَـا مَعَكُمْ﴾[٥] .

---

(١) الكشاف (٦٢٤/١) .
(٢) تفسير البيضاوي (٢٥٧/٣) ومابعدها .
(٣) حاشية الشهاب (٢٥٧/٣) ومابعدها .
(٤) روح المعاني (١٧٢/٦) .
(٥) سورة البقرة : آية (٤١) .

قال علامة تونس : "وفي تعليق الأمر باسم الموصول ، وهو ماأنزلت دون غيره من الأسماء ؛ نحو : الكتاب أو القرآن أو هذا الكتاب ، إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به ، وهو أنه منزل من الله ، وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه منزل من الله ، ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة ؛ إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله"[١] .

بينما ذكر علامة بغداد في اسم الموصول وصلته غرضا آخر فقال : "والمراد "بما أنزلت" القرآن ، وفي التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه ، والمراد بما معكم التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإيذان بعلمهم بتصديقه لها ؛ فإن المعية مئنة لتكرار المراجعة إليها ، والوقوف على تضاعيفها المؤدي إلى العلم بكونه مصدقا لها"[٢] .

فهو يرى أن التعظيم هو الغرض البلاغي للموصول في قوله "بما أنزلت" ، كما يرى أيضا أن الإيذان بالعلم المستلزم للتصديق هو الغرض البلاغي للموصول في قوله "لما معكم" ، فهو يستظهر غرضين اثنين متباينين لكل من الموصولين ، في حين أن ابن عاشور يرى في الموصول الأول "بما أنزلت" إيماء إلى تعليل الأمر ، ويرى في الموصول الثاني "لما معكم" إفادة الشمول ، إذ قال : "والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وماألحق بها من كتب الأنبياء من بني إسرائيل كالزبور ، وكتاب أشعياء ، وأرمياء ، وحزقيال ، ودانيال ، وغيرها ، ولذا اختير التعبير بما معكم دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا ، لأن في كتب الأنبياء من بعد موسى عليه السلام بشارات ببعثة محمد ﷺ أصرح مما في التوراة ، فكان التنبيه إليها أوقع"[٣] .

ثم هو يرى أن هذه الكتب الأخرى التي أفاد الموصول شمولها فيها مايستوجب الإيمان بالنبي ﷺ من البشارات ببعثته .

والتعليل إنما يقع في الجمل الإنشائية ويختص بها في الغالب ، ولايقع في الجمل الخبرية إلا على وجه قليل ؛ لأن الطلب الوارد في الجمل الإنشائية يحتاج إلى

---

(١) التحرير والتنوير (١/٤٥٨) .

(٢) روح المعاني (١/٢٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١/٤٥٨) ومابعدها .

تعليل في السبب الدافع إليه ، والداعي له في غالب أمره ، بينما الخبر لايحتاج إلى شئ من ذلك ، لأنه حكاية لما في الواقع .

وقد أشار ابن عاشور إلى هذا المعنى عند تفسير قول الله تعالى في افتتاح سورة الأنعام : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وليس في التعريف بالموصولية هنا إيذان بتعليل الجملة التي ذكرت قبله ، إذ ليست الجملة إنشائية كما علمت ، والجملة الخبرية لاتعلل ، لأن الخبر حكاية مافي الواقع فلاحاجة لتعليله ؛ فالمقصود من الأوصاف التمهيد لقوله بعد ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾"[(٢)] .

وجملة "الحمد لله" ليست إنشائية معنى وإنما هي خبرية لفظا ومعنى ، لأنه ليس هناك مايدعو في هذا السياق إلى جعلها إنشائية معنى ؛ قال علامة تونس : "ثم إن جملة "الحمد لله" هنا خبر لفظا ومعنى ، إذ ليس هنا مايصرف إلى قصد إنشاء الحمد ، بخلاف مافي سورة الفاتحة ؛ لأنه عقب بقوله ﴿إياك نعبد﴾ إلى آخر السورة فمن جوز في هذه أن تكون إنشاء معنى لم يجد التأمل"[(٣)] .

و لم ينص الزمخشري على أنها خبرية بل يفهم من كلامه أنها خبرية لأنه جوز عطف الجملة الخبرية التي بعدها عليها إذ قال : "فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ قلت : إما على قوله : "الحمد لله" على معنى أن الله حقيق بالحمد على ماخلق ، لأنه ماخلقه إلا نعمة ثم الذين كفروا به يعدلون ، فيكفرون نعمته ، وإما على قوله "خلق السموات" .."[(٤)] .

وقد فهم البيضاوي مراد الزمخشري ونص على أنها خبرية فقال : "﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ أخبر أنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد ، ونبه

---

(١) سورة الأنعام : آية (١) .

(٢) التحرير والتنوير (١٢٦/٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٢٥/٧) .

(٤) الكشاف (٣/٢) ومابعدها .

على أنه المستحق له على هذه النعم الجسام حمد أو لم يحمد ، ليكون حجة على الذين هم بربهم يعدلون"[(١)] .

وقد عقب عليه الشهاب الخفاجي بما ذكر فيه من بسط الخلاف بين كون هذه الجملة خبرية أو إنشائية إذ قال : "وقوله : "أخبر بأنه سبحانه وتعالى حقيق بالحمد الخ" يشير به إلى أنها جملة خبرية ، وقد جوز في هذه الجملة أن تكون خبرية أو إنشائية ، وذهب بعضهم إلى تعين الخبرية فيها ، وذهب بعضهم إلى تعين الإنشائية ..." [(٢)] .

وأخذ يبسط وجه الخلاف بين كلا الفريقين ، وليس هذا موضعه فيستقصى .

ومايهمني أن الموصول في هذه الآية ﴿الذي خلق السموات والأرض﴾ ليس للتعليل ، لأن جملة الحمد جملة خبرية ، والجملة الخبرية لاتعلل ، لأنها تحكي واقعا ، فتأمل .

والغرض من الموصول في هذه الجملة القرآنية إنما هو للتذكير كما يرى ذلك ابن عاشور إذ يقول : "والموصول في محل الصفة لاسم الجلالة ، أفاد مع صلته التذكير بعظيم صفة الخلق الذي عم السموات والأرض ومافيهن من الجواهر والأعراض ، وذلك أوجز لفظ في استحضار عظمة قدرة الله تعالى"[(٣)] .

وإنما كان أوجز لفظ ، لأنه ذكر خلقه لهذا كله في جملة صلة الذي وهي ثلاث كلمات "خلق السموات والأرض" .

وهذا من البلاغة العالية التي صرفنا الإلف عن تأملها .

وقد ذكر أن أحسن مايمثل به لغرض الإيماء للتعليل ماورد في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾[(٤)] .

---

(١) تفسير البيضاوي (٢/٤) ومابعدها .
(٢) حاشية الشهاب (٢/٤) ومابعدها .
(٣) التحرير والتنوير (١٢٦/٧) .
(٤) سورة الأنعام : آية (٦٨) .

قال ابن عاشور : "وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية دون أن يقال : الخائضين أو قوما خائضين لأن الموصول فيه إيماء إلى وجه الأمر بالإعراض ، لأنه أمر غريب ؛ إذ شأن الرسول عليه الصلاة والسلام أن يمارس الناس لعرض دعوة الدين ، فأمر الله إياه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه واستئناس ، وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته ، أي : فأعرض عنهم لأنهم يخوضون في آياتنا"(١) .

وهو بهذا يبين باستدلال واضح أن مجئ الموصول في هذه الآية أومأ إلى وجه العلة في الأمر بالإعراض .

لأن الإعراض يخالف المهمة التي بعث لأجلها الرسل وهي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى .

فكان مجئ الموصول موضحا ومبينا وجه التعليل في هذا الطلب بأنه لأجل خوض أولئك في آيات الله ، حتى إذا كفوا عن هذا الخوض فقد زالت علة الإعراض ، فارجع إليهم وادعهم ، وهذا ماأفادته الجملة القرآنية التي بعد الأمر ؛ وهي قوله ﴿فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "وهذه الآية أحسن مايمثل به لمجئ الموصول للإيماء إلى إفادة تعليل مابني عليه من خبر أو إنشاء ، ألا ترى أن الأمر بالإعراض حدد بغاية حصول ضد الصلة .

وهي أعدل شاهد لصحة مافسر به القطب الشيرازي في شرح المفتاح قول السكاكي "أو أن تومئ بذلك إلى وجه بناء الخبر" بأن وجه بناء الخبر هو علته وسببه ، وإن أبى التفتازاني ذلك التفسير"(٢) .

والذي يظهر لي أن كلام التفتازاني بعد إجالة طرف التفكر فيه أدعى للقبول وأليق بالمقام ، لأن الإيماء أشمل من العلة والسبب ، فقول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾(٣) فيها إيماء إلى وجه بناء الخبر أنه من جنس العقاب ،

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨٨/٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٩/٧) .

(٣) سورة غافر : آية (٦٠) .

كما تعتبر في الوقت نفسه علة وسببا للخبر الذي هو ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١] .

فقد اجتمع الإيماء والسبب في وجه بناء هذا الخبر ، ولكن الإيماء ينفرد عن العلة في شواهد أخرى ، منها قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتا دعائمه أعز وأطول[٢]

فليس في قوله "إن الذي سمك السماء" علة لبناء بيت الفرزدق ، ولكن فيه إيماء إلى وجه بناء الخبر أنه من جنس الرفعة والبناء .

ولذلك رد العلامة التفتازاني على محمود بن مصلح الشيرازي المشهور بالقطب الشيرازي تفسيره الإيماء بالعلة والسبب[٣] ، وقد تبعه في هذا التفسير الترمذي[٤] ، قال العلامة التفتازاني في رده عليهما في كتابه الموسوم بالمطول : "والفاضل العلامة قد فسر في شرح المفتاح الوجه في الإيماء إلى وجه بناء الخبر بالعلة والسبب ، كما هو الظاهر في قولنا : إن الذين آمنوا لهم درجات النعيم ، ثم صرح بأن قوله : "ثم يتفرع على هذا اعتبارات لطيفة ربما جعل ذريعة إلى كذا وكذا" إشارة إلى جعل المسند إليه موصولا موميا إلى وجه بناء الخبر ، فأشكل عليه الأمر في نحو : إن الذي سمك السماء ، وإن التي ضربت ، وإن الذين ترونهم ، لعدم تحقق السببية ، وهو لم يتعرض لذلك"[٥] .

فهذا رده على العلامة الشيرازي ، وقد صرح به في قوله "الفاضل العلامة"[٦] ثم بدأ يرد على الترمذي دون أن يصرح باسمه فقال متابعا كلامه السابق : "ومن

---

(١) سورة غافر : آية (٦٠) .
(٢) الديوان (٢/١١٥) .
(٣) ينظر : المطول (ص٧٦) .
(٤) ينظر : التجريد (٢/٦٨) .
(٥) المطول (ص٧٦) .
(٦) ويعضدني في أن المراد بالفاضل العلامة هو القطب الشيرازي المتوفى سنة ٧١٠هـ ماصرح به العلامة الإنبابي في تقريره بعد سوقه كلام المطول معقبا عليه بقوله : "وقوله "الفاضل العلامة" أي : القطب الشيرازي" . تقرير الانبابي (٢/٦٦) .

الناس[١] من اقتفى أثره في تفسير الوجه بالعلة ، لكن هرب عن الإشكال بأن معنى قوله : ثم يتفرع على هذا ، أي : على إيراد المسند إليه موصولا من غير اعتبار الإيماء ، فلايلزم أن يكون في الأبيات المذكورة إيماء ، وسوق الكلام ينادي على فساد الرأي عند المنصف"[٢] .

وبهذا يظهر أن تحقيق التفتازاني وإن لم يرتضه ابن عاشور هو الأولى ، لكون الإيماء يشمل العلة ويكون أوسع مفهوما .

ونحو هذا الغرض الإيماء إلى تعليل الحكم .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "وجئ بالمسند إليه موصولا لقصد مافي الصلة من الإيماء إلى تعليل الحكم بأن الذي فطرهم أول مرة قادر على إعادة خلقهم ، كقوله تعالى : ﴿هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ فإنه لقدرته التي ابتدأ بها خلقكم في المرة الأولى قادر على أن يخلقكم مرة ثانية"[٤] .

وقد تضمن الموصول وصلته الإجابة على سؤالهم "فسيقولون من يعيدنا" ، كما تضمن في الوقت نفسه الحجة والبرهان على أن الذي فطرهم من العدم قادر على بعثهم مرة أخرى .

فاجتمع في الموصول وصلته الإجابة مع الدليل والبرهان ، وهذا من أسرار الاستعمال القرآني في التعريف بالموصولية .

وفي هذا الموصول أيضا إشارة إلى تعليل إعادة الخلق مرة أخرى ، وهو ماأشار إليه ابن عاشور بقوله "إيماء إلى تعليل الحكم" .

---

(١) عقب العلامة الانبابي في تقريره على هذه العبارة بقوله : "قوله : "ومن الناس الخ" مراده ببعض الناس العلامة الترمذي" . تقرير الانبابي (٦٨/٢) .

(٢) المطول (ص٧٧) .

(٣) سورة الإسراء : آية (٥١) .

(٤) التحرير والتنوير (١٢٨/١٥) .

ونحو هذا الغرض ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وتعريف المسند إليه بالموصولية هنا دون اللام للإيماء بالموصول إلى علة بناء الخبر ،وهي أن إيمانهم وعملهم هو سبب حصول مضمون الخبر لهم"(٢) .

فالموصول وصلته علة وسبب لبناء الخبر عليه ، لأن الإيمان بالله والعمل الصالح هما سبب حصول الهداية ودخول الجنة .

وقد استدل الزمخشري في هذه الآية بالموصول وصلته على أن الإيمان المقيد هو سبب الفوز والتوفيق والسعادة والنور ، وهو بهذا ينحو بالآية منحى آخر ، وهو منحى عقدي ، يرى فيه أن الموصول جمع بين أمرين اثنين هما الإيمان بالله والعمل الصالح في قوله : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ، ليقرر ويعزز مايذهب إليه من أن شرط دخول الجنة العمل الصالح ، وأن من لم يعمل يخلد في النار .

قال الزمخشري : "فإن قلت : فلقد دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو إيمان مقيد ، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح ، والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لاتوفيق له ولانور . قلت : الأمر كذلك ؛ ألا ترى كيف أوقع الصلة مجموعا فيها بين الإيمان والعمل ، كأنه قال : إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال : "بإيمانهم" هذا المضموم إليه العمل الصالح ، وهو بين واضح لاشبهة فيه"(٣) .

وقد عقب على كلامه ابن المنير إذ قال : "هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح ، وأن من لم يعمل مخلد في النار كالكافر ، وأنى له ذلك

---

(١) سورة يونس : آية (٩) .

(٢) التحرير والتنوير (١٠١/١١) .

(٣) الكشاف (٢٢٦/٢) .

وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان ، فقال : ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ ..."[١] .

وابن المنير يستدل بالآية نفسها في الرد على الزمخشري ، من أن الإيمان في قوله تعالى : ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي : المراد به الإيمان المطلق لا الإيمان المقيد ، فثبت أن الهداية تحصل بمطلق الإيمان .

وهكذا ترى الزمخشري يحاول أن يستدل لمذهبه بما أفاده الموصول وصلته ، فيقف له ابن المنير مفندا تلك الاستدلالات .

ومنها الإيماء إلى وجه بناء الخبر من التأييد والكرامة والتعظيم .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة القصص : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "وجئ بالمسند إليه اسم موصول دون اسمه تعالى العلم ، لما في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر ؛ وأنه خبر الكرامة والتأييد ، أي : أن الذي أعطاك القرآن ماكان إلا مقدرا نصرك وكرامتك ، لأن إعطاء القرآن شئ لانظير له ، فهو دليل على كمال عناية الله بالمعطى ، قال كعب بن زهير :

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ   قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وفيه إيماء إلى تعظيم شأن الرسول ﷺ "[٣] .

فالفعل "فرض" مضمن معنى "أنزل" بقرينة تعديه بحرف الجر "على" ، أو يكون الفعل نفسه بمعنى "أعطى" ، لأنك عندما تقول : فرضت لك كذا ، أي : أعطيتك أو قدرت[٤] لك فيكون المعنى : إن الذي أنزل عليك القرآن أو أعطاكه ، موميا بهذا الإكرام والإعطاء العظيمين إلى أن الخبر من جنس الكرامة والتأييد .

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٢/٢٢٦) .

(٢) سورة القصص : آية (٨٥) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/١٩٢) .

(٤) ينظر : الصحاح ، مادة (فرض) (٣/١٠٩٧) ، المصباح المنير (ص١٧٨) ، المعجم الوسيط (ص٦٨٢) .

كما أن فيه من جهة أخرى إيماء إلى تعظيم المعطى ـ بصيغة اسم المفعول ـ لأن القرآن لانظير له ، فمعطاه مصطفى بهذا الإعطاء ، مما يشير إلى التنويه به .

والإيماء إلى التعليل أو إلى وجه بناء الخبر باب واسع في أسماء الموصول ، لأن الصلة في غالب أحوالها تتضمن معنى يفسر وجه الطلب قبلها أو بعدها ، أو معنى يشير إلى وجه بناء مايأتي بعدها من أخبار ، ويترتب عليها من معان وأحكام .

ومن تلك الآيات التي تزيد ذلك إيضاحا ماورد في سورة المؤمنون من تكرر اسم الموصول في مطلع تلك السورة الكريمة ، بدءا من قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[١] إلى آخر تلك الآيات .

قال علامة تونس : "وإجراء الصفات على "المؤمنون" بالتعريف بطريق الموصول وتكريره للإيماء إلى وجه فلاحهم وعلته ، أي : أن كل خصلة من هاته الخصال هي من أسباب فلاحهم"[٢] .

وأيضا ماورد في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ﴾[٣] .

قال علامة تونس : "والصلة التي في قوله ﴿الذين لعنهم الله﴾ ليس معلوما للمخاطبين اتصاف المخبر عنهم بها اتصاف من اشتهر بها ، فالمقصود أن هؤلاء هم الذين إن سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هم .

ويجوز أن يكون المسلمون قد علموا أن اليهود ملعونون ، فالمقصود من الصلة هو ماعطف عليها بقوله : "ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا" .

والموصول على كلا الاحتمالين فيه إيماء إلى تعليل الإخبار الضمني عنهم : بأنهم لانصير لهم ، لأنهم لعنهم الله ، والذي يلعنه لانصير له"[٤] .

وهكذا ربما بدت الصورة جلية في أن هذا الباب وهو باب الإيماء أو غرض الإيماء بالأصح ، يتزايد في الأسماء الموصولة ، لأن الصلة في ذاتها تنبئ عنه ، وتومئ إليه ، وقد ذكرت الشاهد الأول في سورة المؤمنون ، لتكرر الموصول فيه ووضوح

---

(١) سورة المؤمنون : آية (٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٩/١٨) .

(٣) سورة النساء : آية (٥٢) .

(٤) التحرير والتنوير (٨٧/٥) .

الشاهد به ، وذكرت الشاهد الآخر في سورة النساء ، لأنه يخيل بعده عن هذا الغرض ، وهو منه ، وهذا الإيماء غالب في اسم الموصول لا أنه يلزم في كل صلة .

وقد أشار الخفاجي إلى هذا المعنى عند تعقيبه على كلام العلامة البيضاوي في تفسيره آية سورة يونس السابقة وهي قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾[1] إذ قال ـ في بحث مطول ـ : "... فإن كون الصلة علة للخبر في نحو : الذي يؤمن يدخل الجنة بطريق المفهوم ، فلايعارض السبب الصريح المنطوق ، وليس كل خبر عن الموصول يلزم فيه ذلك نحو : الذي كان معنا أمس فعل كذا ، كما فصل في المعاني"[2] .

والذي يخصنا في هذا المقام قوله "وليس كل خبر عن الموصول يلزم فيه ذلك الخ" فإشارته بذلك مراد منها الإيماء إلى التعليل ، أو على حد تفسير القطب الشيرازي ، أي : العلة والسبب . وقد نقل عنه هذه العبارة علامة بغداد[3] ، وقرر معناها .

ومن أغراض التعريف بالموصول الإغاظة وإثارة الحسرة .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾[4] .

قال ابن عاشور : "على أن في صلة "الذين اتبعوا" تنبيها على إغاظة المتبوعين وإثارة حسرتهم ، وذلك عذاب نفساني يضاعف العذاب الجثماني ، وقد نبه عليه قوله : ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾"[5] .

فهو يستدل على الغرض البلاغي في هذه الجملة القرآنية الكريمة بقرينة قوله ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ .

---

(١) سورة يونس : آية (٩) .

(٢) حاشية الشهاب (٩/٥) .

(٣) روح المعاني (٧٤/١١) .

(٤) سورة البقرة : آية (١٦٧) .

(٥) التحرير والتنوير (٩٨/٢) .

ومن ضمن تلك الحسرات الاتباع ، حتى إن التابعين يتمنون أن يجازوا المتبوعين برجعة أخرى يكون فيها التابع متبوعا والمتبوع تابعا ، وهيهات أن يتحقق لهم ذلك وقد قال الله : ﴿وماهم بخارجين من النار﴾ .

فالتعريف لهم بالموصول وصلته "الذين اتبعوا" دون أن يعبر عنهم بمعرف آخر نحو : الضعفاء ، لأجل التنبيه على إغاظتهم وإثارة حسرتهم .

ومن الأغراض أيضا التعجيب من حالهم والتشنيع عليهم .

ففي تفسير قول الله تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وجئ بالموصول دون غيره من المعرفات لما في الصلة من الأمر العجيب وهو أن يكون المختلفون في مقصد الكتاب هم الذين أعطوا الكتاب ليزيلوا به الخلاف بين الناس ، فأصبحوا هم سبب خلاف فيه ، ولاشك أن ذلك يبطل المراد منه .

والمعنى تشنيع حال الذين أوتوه بأن كانوا أسوأ حالا من المختلفين في الحق قبل مجئ الشرائع ، لأن أولئك لهم بعض العذر بخلاف الذين اختلفوا بعد كون الكتاب بأيديهم"[2] .

فقد عمد التعبير القرآني لاختيار الموصولية لبيان أن العلماء منهم الذين كان حريا بهم تعليم الناس وإرشادهم وبيان الحق لهم ، وتفقيههم في دينهم ، أصبح هؤلاء العلماء هم مصدر الفتنة والجهل والخلاف .

وفي ذلك من التعجيب من حالهم التي كان يفترض بها أن ترتفع بهم إلى شاهق العلم ونوره من خلال ماأوتوه من البينات ، فحرموا تلك المكانة السامقة وانحدروا إلى مستنقع الخلاف وغياهبه ، مما يدفع إلى التشنيع عليهم ، والتشهير بهم.

وقد سبقت من علامة بغداد إشارة إلى هذا الغرض حين قال : "وقيل : عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك المختلفين ، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم"[3] .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٠٩/٢) .

(٣) روح المعاني (١٠٢/٢) .

ونحو هذا الغرض مـاورد في تفسير قولـه تعـالى في سـورة آل عمـران : ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾[١] .

قال علامة تونس في أحد احتمالات المقصود بالموصول في هذه الآية ، مانصه "وهذا ضرب آخر جاء به فريق آخر من أهل الكتاب ، فلذلك عبر عنهم بالموصول للتوصل إلى ذكر صلته العجيبة من حال من يفعل الشر والخسة ثم لايقف عند حـد الانكسار لما فعل ، أو تطلب الستر على شنعته ، بل يرتقي فيترقب ثناء النـاس علـى سوء صنعه ، ويتطلب المحمدة عليه"[٢] .

فهذا تعجيب من حال هؤلاء الفريق الذين هم من أهـل الكتـاب ، لأن هـذا الفعل مدعاة للسامعين في التعجب منه ، وقد فهم من الصلة وماعطف عليها مما يعد في حكمها صورة هؤلاء الفريق الذين يفرحـون بمـا أتـوا ويحبـون أن يحمـدوا بمـا لم يفعلوه .

وهذا أيضا يدفع إلى تشنيع حالهم الـذي هـم عليـه مـن سـوء فعلهـم ، وقلـة عقلهم ، ورداءة أحلامهم ، مما يصنعونه أو يتمنونه .

قال ابن عباس رضـي الله عنهمـا : هـم أهـل الكتـاب أنـزل عليهـم الكتـاب فحكموا بغير الحق وحرفوا الكلام عن مواضعه وفرحوا بذلك وأحبوا أن يحمدوا بمـا لم يفعلوا من الصلاة والصيام[٣] .

وقد سبقت الإشارة إلى هذا المعنى من العلامة أبي السعود العمادي ، إذ قال "... فالموصول عبارة عن المذكورين ـ أي : اليهود ـ أو مشاهيرهم ، وضـع موضـع ضميرهم ، والجملة مسوقة لبيان ماتستتبعه أعمالهم المحكية من العقاب الأخروي إثـر بيان قباحتها ، وقد أدمج فيها بيان بعض آخـر مـن شـنائعهم وهـو إصرارهـم علـى ماهم عليه من القبـائح وفرحهـم بذلـك ومحبتهـم لأن يوصفـوا بمـا ليـس فيهـم مـن الأوصاف الجميلة ، وقد نظم ذلك في سـلك الصلـة الـتي حقهـا أن تكـون معلومـة

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٨٨) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/١٩٣) .

(٣) روح المعاني (٤/١٥٠) .

الثبوت للموصول عند المخاطب إيذانا بشهرة اتصافهم بذلك"[١] .

وقد نقل عنه هذا الغرض البلاغي علامة بغداد ، إذ قال : "فعلى هذا يكون الموصول عبارة عن المذكورين سابقا ـ أي : أهل الكتاب ـ الذين أخذ ميثاقكم ، وقد وضع موضع ضميرهم ، وسيقت الجملة لبيان مايستتبع أعمالهم المحكية من العذاب إثر بيان قباحتها ، وفي ذلك من التسلية أيضا مالايخفى ، وقد أدمج فيها بيان بعض آخر من شنائعهم وفضائحهم وهو إصرارهم على القبيح وفرحهم بذلك ومحبتهم لأن يوصفوا بما ليس فيهم من الأوصاف الجميلة ، وأخرج سبحانه ذلك مخرج المعلوم إيذانا بشهرة اتصافهم به"[٢] .

وقد أضاف معنى آخر أفاده الموصول وصلته في هذا المقام هو التسلية التي تفهم ضمنا من عرض قبائح هؤلاء القوم وسوء صنائعهم ، وخباثة طباعهم ، وقد تضمنتها الصلة بهذا العرض .

ومن أغراض التعريف بالموصولية الجمع .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "والموصول في قولهم : ﴿بالذي آمنتم به﴾ هو ماأرسل به صالح عليه السلام وهذا كلام جامع لرد ماجمعه كلام المستضعفين حين : ﴿قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ فهو من بلاغة القرآن في حكاية كلامهم ، وليس من بلاغة كلامهم"[٤] .

فقد جمع الموصول وهو قوله ﴿إنا بالذي آمنتم به﴾ معنى الموصول الذي ورد قبله في جواب من آمن بصالح عليه الصلاة والسلام وهو قوله : ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ وهذا الموصول الأخير أيضا يجمع من المعاني مايتجلى في النفس عند

---

(١) تفسير أبي السعود (٢/١٢٦) .

(٢) روح المعاني (٤/١٥٠) ومابعدها .

(٣) سورة الأعراف : آية (٧٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٨/٢٢٣) ومابعدها .

التأمل في سياق الآيتين ، قال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(١) .

والذي هو موضع الشاهد هو الموصول الأخير الوارد في قوله ﴿بالذي آمنتم به كافرون﴾ .

ونحو هذا الغرض مع أغراض أخرى ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾(٢) .

قال علامة تونس : "وعبر عنهم بالموصول إيجازا ، لأن الصلة تجمعهم ، والإيماء إلى وجه بناء الخبر وهو قوله ﴿لهم عذاب شديد﴾"(٣) .

فقد ذكر ثلاثة أغراض للتعريف بالموصولية في هذه الجملة القرآنية :

الغرض الأول : الإيجاز ، وقد حصل هذا الغرض من كون الموصول واقعا موقع ثلاث فئات ، فئة اليهود ، وفئة النصارى ، وفئة أخرى تشمل باقي المشركين لأن هذه الفئات الثلاثة كفروا بالقرآن الكريم .

الغرض الثاني : وهو الشمول ، وهو ظاهر جدا في كون الصلة تجمع هذه الأقسام الثلاثة من الكفرة ، وتشملهم جميعا .

الغرض الثالث : وهو الإيماء إلى وجه بناء الخبر ، من كون الصلة وهي قوله ﴿الذين كفروا بآيات الله﴾ تدل على أن الخبر من جنس العقاب .

وتتزايد معاني الموصول في التراكيب القرآنية لمن يحاول أن يجيل طرف الفكر وأن يديم النظر في دلالاتها ووجوه معانيها وأغراضها ، ببصر بصير ، وحس يقظ .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٧٥-٧٦) .

(٢) سورة آل عمران : آية (٤) .

(٣) التحرير والتنوير (١٥٠/٣) .

ومن أغراضه أيضا الجمع والشمول .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا﴾[(١)] .

قال علامة تونس : "والإتيان بالموصول لأنه أشمل وأجمع للأمم التي تقدمت مثل عاد وثمود ، ممن ضرب العرب بهم المثل في القوة"[(٢)] .

فاسم الموصول وصلته "الذين من قبلكم" مع وجازة لفظه شمل جميع الأمم السابقة التي عرفها العرب بالقوة والبأس وليس فقط التي يضرب العرب بها المثل في القوة .

والغرض البلاغي في اسم الموصول الشمول والجمع .

ونحو هذا الغرض وهو الشمول ، إضافة إلى غرض آخر وهو التشنيع بكفرهم ، ماورد في سورة الممتحنة في قوله تعالى : ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "﴿وماجاءكم من الحق﴾ هو القرآن والدين ، فذكر طريق الموصولية ليشمل كل ماأتاهم به الرسول ﷺ على وجه الإيجاز ، مع مافي الصلة من الإيذان بتشنيع كفرهم بأنه كفر بما ليس من شأنه أن يكفر به طلاب الهدى ، فإن الحق محبوب مرغوب"[(٤)] .

فهذان غرضان بلاغيان لاسم الموصول "ما" الوارد في قوله ﴿وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ والغرض الأول وهو الشمول أفاده اسم الموصول "ما" ، لاستيعابه وشموله المعاني التي واقع عليها ، والغرض الآخر وهو التشنيع أفاده جزء من جملة الصلة وهو قوله ﴿من الحق﴾ ، لأن الكفر بالحق شناعة أي شناعة .

وكلامي هذا لايعني بأي حال من الأحوال التجزئة بين الموصول وصلته ، بل هما كالشئ الواحد ، والصلة جزء من الموصول ، ولكن كلامي هنا ضرب من التدقيق في الوقوف على مصادر الغرضين ليس إلا .

---

(١) سورة التوبة : آية (٦٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٥٧/١٠) .

(٣) سورة الممتحنة : آية (١) .

(٤) التحرير والتنوير (١٣٤/٢٨) .

ومن تلك الأغراض أيضا العموم .

ففي تفسير قول الله تعالى : ﴿إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "والموصول هنا يعم كل من تحققت فيه الصلة ، وقد بين مدلول الاستثناء قوله : ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾"[2] .

فالاستثناء هو مبتدأ الآية ، وهو مستثنى من حكم نقض العهد الوارد في أول السورة في قوله تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِنْ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾[3] ، ثم استثنى من هذا الحكم وهو نقض العهد ومن السياحة ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين﴾ الآية ، وقد أوضح ذلك الاستثناء وبين مدلوله ماورد في آخر الآية من قوله ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ .

فهذا المستثنى يخرج من الحكم السابق ، وهو موضع الشاهد في هذا الإيراد ، لأن اسم الموصول هنا لايحدد فريقا بعينه ، بل كل فريق عقدت معه معاهدة ولم يخل بها ، ولم يقتل منكم أحدا ولم يضركم قط ، ولم يناصر عليكم أحدا ، فمن توفرت وتحققت فيه هذه الصلات الواردة في الآية الكريمة استثني من ذلك ، وفي هذه دلالة واضحة على أن المراد باسم الموصول هنا العموم ، وهذا هو الغرض الذي يظهر في الآية الكريمة .

وأحسب أن الذي دفع ابن عاشور إلى هذا الغرض هو وجود الفاء في قوله تعالى ﴿فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ ، لأن الفاء لاتقع في خبر الموصول إلا إذا أفاد الموصول العموم ، وأصبح بذلك قريبا من أسماء الشرط ، فتلحق الفاء خبره ، نحو : الذي يجتهد فهو الفائز .

---

(١) سورة التوبة : آية (٤) .

(٢) التحرير والتنوير (١١٢/١٠) .

(٣) سورة التوبة : آية (١-٢) .

وقد ذكر النحاة[١] هذه المسألة ، وأوفوها حقها من البيان ، مما لاداعي للإطالة فيها ، أو كثرة الوقوف عليها .

ومن أغراض التعريف بالموصول الإحاطة .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة الأعراف : ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "و"ماهم فيه" هو حالهم ، وهو عبادة الأصنام وماتقتضيه من الضلالات والسيئات ، ولذلك اختير في تعريفها طريق الموصولية ؛ لأن الصلة تحيط بأحوالهم التي لايحيط بها المتكلم والمخاطبون"[٣] .

فالموصول "ماهم فيه" يفيد الإحاطة بجميع أحوال هؤلاء ، مما توغلوا في الوقوع في براثنه ورذائله ومستنقعات خبائثه من التوجه الأعمى لهذه الأصنام التي لاتسمع ولاتبصر ولاتغني عنهم شيئا ...

فيجئ الموصول وصلته وافيا بالإحاطة لجميع أحوال عبدة الأصنام ، في أوجز عبارة .

ومن تلك الأغراض الإبهام والتهويل .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "والموصول في قوله تعالى : ﴿مابه من ضر﴾ مقصود منه الإبهام ، ثم تفسيره بـ"من" البيانية لقصد تهويل ذلك الضر لكثرة أنواعه بحيث يطول عدها"[٥] .

---

(١) ينظر : مغني اللبيب (١/١٦٥) .

(٢) سورة الأعراف : آية (١٣٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٩/٨٣) .

(٤) سورة الأنبياء : آية (٨٤) .

(٥) التحرير والتنوير (١٧/١٢٧) .

فهاهنا غرضان اثنان للتعريف بالموصولية ، أول الغرضين الإبهام الذي يفيده اسم الموصول في مثل هذا المقام ، لأن اسم الموصول من الأسماء المبهمة التي يفسرها مابعدها ، ويزال إبهامها بصلاتها ، فعند قولك : جاء الذي كان في الدار ، لاشك إن في اسم الموصول في هذا المثال قدرا من الإبهام ترجع إلى ماهيته وإن كانت الصلة أسهمت في تحجيم هذا الإبهام .

فهو إذن غرض بلاغي يرجع إلى أصل حقيقة هذه الأسماء ، أو إلى أصل وضعها .

والغرض الثاني وهو التهويل ، إنما أفادته الصلة التي هي جزء من الموصول ، لأن معنى الموصول لايتم إلا بالصلة والعائد ، فهي على ذلك جزء منه ، وقد أفادت الصلة هنا معنى التهويل من مجئ "من" البيانية التي بينت وجه الإبهام في اسم الموصول بأنه من جنس الضر ، فكان ذلك باعث التهويل .

وبعد هذا البيان ، فلايقال : إن الغرض البلاغي في هذا المقام هو الإبهام وحده دون التهويل ، لأن التهويل معنى آخر أفهمته "من" البيانية .

ومثل غرض الإبهام ماأشار إليه ابن عاشور في نفس الموضع فقال : "ومثله قوله تعالى : ﴿ومابكم من نعمة فمن الله﴾ إشارة إلى تكثيرها"[١] .

ومن تلك الأغراض التوهين إضافة إلى غرض آخر هو زيادة التعجيب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[٢] .

قال ابن عاشور : "وعرف المتحدث عنهم بطريق الموصولية دون لقبهم ، أعني : اليهود ؛ لأن في الصلة مايزيد التعجيب من حالهم ، لأن كونهم على علم من الكتاب قليل أو كثير من شأنه أن يصدهم عما أخبر به عنهم ، على مافي هذه الصلة من توهين علمهم المزعوم"[٣] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢٧/١٧) .

(٢) سورة آل عمران : آية (٢٣) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠٩/٣) .

وقد قدمت بغرض التوهين لأنه غرض جديد يمكن رصده على أنه غرض بلاغي من أغراض التعريف بالموصول ، يحسن تسجيله والتنبيه عليه في عداد هذه الأغراض ، بينما الغرض الآخر وهو زيادة التعجيب ليس هو غرض التعجيب ، لأن هناك فرقا بين أصل الشئ وزيادته عند التحقيق لاتخفى على أحد .

وعلى كل فإن الآية الكريمة قد حفلت بهذين الغرضين كما استظهر ذلك العلامة لأن العلم الذي لايؤثر في صاحبه يعد كلاعلم ، إما لأن النفس المتعلمة له غير قابلة للتعلم ، فهو لم يصل إلى التأثير فيها بسبب علتها هي ، وضعفها هي ، وهذا هو المعنى الأظهر في توهين هذا العلم .

وإما لأن هذا العلم الذي أوتوه هؤلاء اليهود علم لعبت به أيدي التحريف والتغيير فحرفوه وبدلوه بقرينة قوله تعالى : ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2] .

فكيف لعلمهم المحرف المبدل أن يؤثر في أهله وذويه ، بل لايعدو أن يكون ضربا من الجهل والخداع وغش الناس . وهذا هو الوجه الثاني في تفسير التوهين .

أما زيادة التعجيب من حالهم فوجهه ماأخبر به عنهم من توليهم إذا دعوا للكتاب مع أنهم أهل كتاب .

ومن تلك الأغراض الشهرة في التعين .

ففي تفسير قول الله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[3] .

قال علامة تونس : "وعدل عن تعريف البيت باسمه العلم بالغلبة ، وهو الكعبة ، إلى تعريفه بالموصولية بأنه "الذي ببكة" ، لأن هذه الصلة صارت أشهر في

---

(١) سورة المائدة : آية (١٣) .

(٢) سورة البقرة : آية (٧٩) .

(٣) سورة آل عمران : آية (٩٦) .

تعينه عند السامعين ، إذ ليس في مكة يومئذ بيت للعبادة غيره ، بخلاف اسم الكعبة فقد أطلق اسم الكعبة على القليس الذي بناه الحبشة في صنعاء لدين النصرانية ، ولقبوه الكعبة اليمانية"(١) .

والغرض البلاغي في التعريف بالموصولية راعى أمرين اثنين :

أولا : خشية الإلباس عمد إلى الموصول بدل الاسم العلم ، لأن في الاسم العلم مايمكن أن يكون منه لأهل الأهواء مندوحة في تأويله بغيره ، فدفعا لذلك الإيهام أغلق هذا الباب .

ثانيا : إن للسامعين والمخاطبين حظا وافرا في مراعاة المتكلم مايليق بأفهامهم ومايقرب المعاني عندهم ، ويوضحها لديهم ، فيؤتى المشهور عندهم إذا تطلب المقام ذلك ، دون الأشهر .

وفي قول "ببكة" تشريف يلحق هذه البلدة بأسرها ، من كون هذا البيت الشريف بها ، لأن تشريفها نابع من تشريفه ، وقدسيتها من قدسيته .

ونحو هذا الغرض مع غرض آخر وهو التمييز أكمل تمييز ماورد في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "وقوله "الذين قالوا لإخوانهم" بدل من "الذين نافقوا" أو صفة له ، إذا كان مضمون صلته أشهر عند السامعين ؛ إذ لعلهم عرفوا من قبل بقولهم فيما تقدم "لو كانوا عندنا ماماتوا وماقتلوا" فذكر هنا وصفا لهم ليتميزوا كمال تمييز"(٣) .

هذه الجملة القرآنية الكريمة متصلة في الفهم بسياق الآيات التي قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾(٤) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/٤) .

(٢) سورة آل عمران : آية (١٦٨) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦٤/٤) .

(٤) سورة آل عمران : آية (١٦٦-١٦٨) .

واسم الموصول وصلته في قوله "الذين قالوا لإخوانهم" مراد به المنافقون الوارد ذكرهم في قوله "الذين نافقوا" فهو بدل منه أو صفة له ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أو مبتدأ خبره : "فادرؤا عن أنفسكم الموت" ، وهناك وجوه أخرى من الإعراب[١] .

والذي يهمنا في هذا المقام أن اسم الموصول وصلته أفاد غرضين بلاغيين :

أحدهما : شهرة الصلة بين المسلمين ، إذ أن الحادثة مشهورة والقصة معروفة ، والقول صادر من كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، ومن انخذل معه يوم أحد .

ثانيهما : أن الصلة اشتملت على مقولة هؤلاء المنافقين التي ميزتهم أكمل تمييز ، وهذا غرض سبق بيانه في أسماء الإشارة[٢] .

وهذان الغرضان البلاغيان اللذان توافرا في التعريف بالموصولية في هذه الجملة القرآنية يرجعان إلى النظر في جملة الصلة نفسها من جانبين اثنين هما كالتالي :

الجانب الأول : بالنظر إلى الصلة نفسها من جهة درجة معرفة السامعين بها وهو مايسمى بشهرة الصلة بالنسبة إليهم .

الجانب الثاني : بالنظر إلى ذات الصلة في إيضاح المراد منها ، بكمال تمييزها.

ونحو هذا الغرض إضافة إلى غرض آخر ماورد في سورة النحل في قوله تعالى ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾[٣] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والتعبير عن المشركين بالموصول وصلته ﴿الذين لايؤمنون بالآخرة﴾ لأنهم قد عرفوا بمضمون الصلة واشتهروا بها اشتهار لمز وتنقيص عند المؤمنين ، كقوله : ﴿وقال الذين لايرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ ، وللإيماء إلى أن لهذه الصلة ارتباطا باستمرارهم على العناد"[٤] .

---

(١) ينظر : الدر المصون (٢/٢٥٥) ، تفسير أبي السعود (٢/١١١) .

(٢) ينظر (ص٣٦٦) .

(٣) سورة النحل : آية (٢٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١٤/١٢٨) .

وهذه شهرة لمز وتنقيص لهؤلاء المشركين أفادتها جملة الصلة ، كما أنها أفادت إيماء إلى أن هؤلاء المشركين مازالوا مستمرين على عنادهم وكفرهم .

وهذان غرضان أفادتهما الموصولية في هذه الجملة القرآنية .

بينما رأى العلامة الخفاجي أن الموصول يفيد العلية حين عقب على كلام المصنف في قوله : "والأول هو العمدة في الباب ، ولذلك رتب عليه ثبوت الأخيرين"[(١)] ، يريد أن سبب إصرارهم هو أنهم لايؤمنون بالآخرة وأن قلوبهم منكرة وأنهم مستكبرون ، والأول هو الموصوف عنده بالعمدة ، واللذان بعده هما الموصوفان بالأخيرين ، فعقب الخفاجي على هذا الكلام قائلا : "وقوله : "والأول هو العمدة" يعني : قول الذين لايؤمنون بالآخرة ، والأخيرين : إنكار قلوبهم واستكبارهم ، وترتيبه عليه يجعله خبرا للموصول المفيد لعلية الصلة للخبر على ماقرر في المعاني"[(٢)] .

وقد ألمح إلى هذا المعنى أيضا العلامة أبو السعود إذ قال : "وبناء الحكم المذكور على الموصول للإشعار بكونه معللا بما في حيز الصلة ، .." [(٣)] .

وقد نقل علامة بغداد هذا المعنى كلية من أبي السعود ، فقال : "وبناء الحكم على الموصول للإشعار بعلية مافي حيز الصلة له ..." [(٤)] .

وهكذا يبدو أن علامة تونس لايقتصر على كلام سابقيه فيما استظهروه من معان بلاغية ونكات بيانية ، بل يذكر مالم يشيروا إليه أو ينبهوا عليه ، كما استظهر غرض التشهير الذي لم يتناقلوه أو يذكروه .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾[(٥)] .

---

(١) تفسير البيضاوي (٣٢٣/٥) .

(٢) حاشية الشهاب (٣٢٣/٥) .

(٣) تفسير أبي السعود (١٠٦/٥) .

(٤) روح المعاني (١٢١/١٤) .

(٥) سورة النحل : آية (١٠٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٩١/١٤) .

وأوضح مايكون هذا الغرض وهو غرض الاشتهار ماورد في سورة الأنبياء في قوله تعالى : ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[١] .

ومن تلك الأغراض التعريف بالموصولية لأجل التذكير .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "وذيل ذلك بقوله ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ وفي إجراء الوصف بالموصول وتلك الصلة تذكير بأن المرجع إلى الله ، ليعد الناس مااستطاعوا من الطاعة لذلك اللقاء"[٣] .

والمراد بالإشارة في قوله "ذلك" أي : تحريم صيد البر في الإحرام ، المنصوص عليه بقوله تعالى : ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾[٤] .

وقد أفاد التعريف بالموصول وصلته في هذه الجملة القرآنية وعظ الناس وتذكيرهم بحقيقة رجوعهم إلى الله ومايتبع ذلك الرجوع من الثواب والعقاب ، ومايرد على الذهن من أحوال الدار الآخرة فيكون رادعا عن مقارفة ماحرم الله سبحانه وتعالى فيما نهى عنه في هذه الآية القرآنية وفي غيرها .

ومن تلك الأغراض التعريف بالموصولية لأجل البيان .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "وتعين ذكر الموصول هنا لأن المقصود بيان مافي هذه المقالة من الكفر ، لابيان ماعليه النصارى من الضلال ، لأن ضلالهم حاصل لامحالة إذا كانت هذه المقالة كفرا"[٦] .

---

(١) سورة الأنبياء : آية (٩١) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٧/١٣٧) .
(٢) سورة المائدة : آية (٩٦) .
(٣) التحرير والتنوير (٧/٥٣) .
(٤) سورة المائدة : آية (٩٦) .
(٥) سورة المائدة : آية (١٧) .
(٦) التحرير والتنوير (٦/١٥١) ومابعدها .

فهو يرى أن العبارة التي هي مقول القول مقصودة بذاتها ، أعني الصلة وهي قولهم إن الله هو المسيح ابن مريم ، لأنها عبارة عظيمة في الافتراء والكذب والدجل فإيرادها هو بيان لأجل ذاتها ، لأن في إيرادها مالايمكن أن يتصوره السامع من مقالات الكفرة التي تكاد السموات أن يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا.

فكيف بهذه المقالة التي يقولون فيها هذا الافتراء العظيم : إن الله هو المسيح ابن مريم؟!

فإيراد العبارة لبيان عظم الجرم والافتراء التي تحمله ، لا لبيان ضلال هؤلاء الكفرة ، فتبين الفرق .

ومن تلك الأغراض التهكم والاستهزاء .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[١] .

قال علامة تونس : "واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكم ، وقرينة التهكم قولهم : ﴿إنك لمجنون﴾ ، وقد أرادوا الاستهزاء بوصفه فأنطقهم الله بالحق فيه صرفا لألسنتهم عن الشتم ..." [٢] .

وهذا شاهد من الشواهد البلاغية ، وقد أشار إلى قرينة التهكم وهي قولهم "إنك لمجنون" .

وفي هذا الشاهد القرآني أن هؤلاء الكفرة المستهزئين الذين أرادوا الاستهزاء بقولهم "الذي نزل عليه الذكر" نطقوا في جملة الصلة بالحق لابالباطل ، ولكنها على سبيل التهكم والاستهزاء وأنه نزل عليه الذكر بحسب دعواه لابحسب اعتقادهم .

وقد عقب ابن عاشور بقوله : "وفي هذا إسناد الصلة إلى الموصول بحسب مايدعيه صاحب اسم الموصول لابحسب اعتقاد المتكلم على طريقة التهكم"[٣] .

---

(١) سورة الحجر : آية (٦) .

(٢) التحرير والتنوير (١٤/١٦) .

(٣) ن.م.س .

وقد سبقت من الزمخشري الإشارة إلى هذا المعنى إذ قال : "وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون : "إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون" .

وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون ، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله في مواضع منها ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ ، ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ ، وقد يوجد كثير في كلام العجم"[١] .

ولكن الزمخشري جعل النداء هو وجه التهكم والاستهزاء على سبيل الإجمال لأن جملة الصلة داخلة في النداء ، بينما ماذكره ابن عاشور في النداء وفي جملة الصلة في هذه الجملة القرآنية الكريمة كان أكثر دقة ، إذ رأى أن النداء للتشهير بالوصف المنادى به لاللتهكم والاستهزاء ، وإنما الصلة هي التي أفادت غرض التهكم والاستهزاء .

قال ابن عاشور : "والنداء في ﴿ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ للتشهير بالوصف المنادى به ، واختيار الموصولية لما في الصلة من المعنى الذي جعلوه سبب التهكم ..." [٢] .

وابن عطية رأى أن النداء هو وجه التهكم والاستهزاء إذ قال : "وقولهم : ﴿ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ كلام على جهة الاستخفاف ، أي : بزعمك ودعواك ، وهذه المخاطبة كما تقول ـ لرجل جاهل أراد أن يتكلم فيما لايحسن ـ : ياأيها العالم لاتحسن تتوضأ"[٣] .

فتنظيره بقوله : ياأيها العالم لاتحسن تتوضأ ، دون أن يذكر الموصول وصلته قرينة على أنه يرى أن النداء في هذا الأسلوب هو وجه التهكم والاستهزاء .

---

(١) الكشاف (٣٨٧/٢) .

(٢) التحرير والتنوير (١٦/١٤) .

(٣) المحرر الوجيز (٣٥١/٣) .

وقد تابعهما البيضاوي إذ قال : "﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ نادوا به النبي ﷺ على التهكم ، ألا ترى إلى مانادوه له ، وهو قوله : ﴿إنك لمجنون﴾"[١] .

ولم يعرج محيي الدين الشيخ زادة ولاالشهاب الخفاجي بشئ يستحق أن ينقل في هذا المقام .

بينما ذكر صاحب البحر المحيط مايخرج به عن دائرة من تقدموه من المفسرين في هذه الجملة القرآنية إذ قال : "وهذا الوصف بأنه الذي أنزل عليه الذكر قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف ..."[٢] .

فقد أراد بالوصف اسم الموصول "الذي" ، لأنه صفة للمنادى أو بدل منه ، محددا بذلك في التركيب مبعث التهكم والاستهزاء .

ونحو هذا الغرض وغرض التحقير ماورد في سورة النجم في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى﴾[٣] .

قال ابن عاشور : "فالموصولية هنا مستعملة في التحقير والتهكم ، نظير حكاية الله عنهم ﴿وقالوا ياأيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ ، إلا أن التهكم المحكى هنالك تهكم المبطل بالمحق لأنهم لايعتقدون وقوع الصلة ، وأما التهكم هنا فهو تهكم المحق بالمبطل ؛ لأن مضمون الصلة ثابت لهم"[٤] .

والمراد بالذين لايؤمنون بالآخرة هم كفار مكة ، والغرض البلاغي من الصلة هو التحقير والتهكم والتوبيخ . والقرينة على هذا قوله : ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾[٥] .

---

(١) تفسير البيضاوي (٥/٢٨٣) .
(٢) البحر المحيط (٥/٤٣٤) .
(٣) سورة النجم : آية (٢٧) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٧/١١٥) .
(٥) سورة النجم : آية (٢٨) .

وقد سبق[١] أن ذكر في هذه الصلة في مقام آخر أنها تفيد اشتهارهم بها اشتهار لمز وتنقيص ، وذكر هنا أنها للتحقير والتهكم . فكيف يذكر ذين الغرضين في تركيب واحد؟

والإجابة أن المقامين يختلفان ، فتلك مقصود بها اليهود والنصارى وبقية المشركين ، وهذه مقصود بها كفار مكة .

ولو سلم أن المراد بهما واحد في كلا المقامين فإنه يجاب على ذلك بأن النكت لاتتزاحم .

ومن تلك الأغراض التشويق وبراعة الاستهلال إضافة إلى الإيماء .

ففي تفسير قوله تعالى في ابتداء سورة محمد : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "وفي الابتداء بالموصول والصلة المتضمنة كفر الذين كفروا ومناواتهم لدين الله تشويق لما يرد بعده من الحكم المناسب للصلة ، وإيماء بالموصول وصلته إلى علة الحكم عليه بالخبر ، أي : لأجل كفرهم وصدهم ، وبراعة استهلال للغرض المقصود"[٣] .

لأن الغرض المقصود هو تحريض المؤمنين على قتال المشركين الذين يكفرون بالله ويصدون عن سبيله ، فكان الابتداء بهذه الجملة القرآنية براعة استهلال بما يثيره من حنق المؤمنين على هؤلاء الكفرة الصادين عن سبيل الله ، حتى إن هذه السورة سميت بهذا الغرض "سورة القتال" ، وأيضا فإن هناك تشويقا لذات الحكم الصادر عليهم من قبل المولى عز وجل .

وأيضا فإن هناك إيماء في الصلة إلى تعليل الحكم الصادر عليهم في قوله : "أضل أعمالهم" .

فكانت هذه ثلاثة أغراض في هذه الجملة القرآنية .

---

(١) ينظر (ص٤٤٣) .

(٢) سورة محمد : آية (١) .

(٣) التحرير والتنوير (٧٣/٢٦) .

بينما رأى الزمخشري أنها تفيد العموم إذ قال : "وقيل : هو عام في كل من كفر وصد"[(١)] .

وقد أوردها بصيغة التمريض ، لأن العموم في الموصولية في هذا المقام لايمكن اجراؤه على كل كافر ؛ إذ ليس كل كافر يصدر منه الصد عن سبيل الله ، بينما المقصودون في هذه الآية هم كفار قريش وقع منهم الصد عن سبيل الله[(٢)] ، لذا أعرض عن إيراد هذا الغرض ابن عاشور .

ومن أغراض التعريف بالموصول الاتصاف بمضمون الصلة .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "ومجئ المسند اسم موصول لإفادة اتصاف الله تعالى بمضمون صلته ، وأنها شأن من شئون الله تعالى ، عرف به ، ثابت له ، لايتخلف ؛ لأنه المناسب لحكمته ، وعظمة شأنه ، وغناه عن خلقه"[(٤)] .

فالموصولية على أنها خبر إلا أنها أفادت في الوقت نفسه الاتصاف بمضمون الصلة فجمعت في هذا البناء بين الخبرية والوصفية ، إضافة إلى أنها أفادت ثبوت تلك الأوصاف نتيجة ابتناء هذه الأفعال على أسلوب الجملة الاسمية ، والذي أكسبها ذين الأمرين من الاتصاف والثبوت رغم أنها أفعال هو مجئ المسند اسم موصول .

ونحو هذا الغرض وهو غرض الاتصاف بمضمون الصلة إضافة إلى غرض الامتنان ماورد في قوله تعالى في ابتداء سورة الفرقان : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[(٥)] .

---

(١) الكشاف (٣/٥٢٩) .

(٢) تنظر : حاشية الشهاب (٨/٤٠) .

(٣) سورة الشورى : آية (٢٥) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٥/٨٩) .

(٥) سورة الفرقان : آية (١-٢) .

فقد ورد في هذه الآيات من الأسماء الموصولة اثنان ، الأول : قوله ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ وغرضه البلاغي الامتنان ، والآخر : قوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ، وغرضه البلاغي اتصاف الله تعالى بالوحدانية .

قال علامة تونس : "وإعادة اسم الموصول لاختلاف الغرض من الصلتين ، لأن الصلة الأولى في غرض الامتنان بتنزيل القرآن للهدى ، والصلة الثانية في غرض اتصاف الله تعالى بالوحدانية"(١) .

فهو يبين السبب في مجئ اسم الموصول مرة أخرى في قوله ﴿الذي له ملك السموات﴾ ، على أنه في الظاهر يمكن أن يكتفي باسم الموصول الأول في قوله ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾ ، وتعطف الجمل على بعضها دون أن يذكر اسم الموصول الثاني .

فبين ابن عاشور السر في ذكر الموصول مرة أخرى ، لاختلاف مقاصد وأغراض الصلتين ، فالأولى للامتنان بتنزيل القرآن للهدى ، والأخرى لغرض آخر هو اتصاف الله تعالى بالوحدانية .

ومن أغراض التعريف بالموصول الإيجاز .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾(٢) .

قال علامة تونس : "والعدول إلى الموصولية لما تؤذن به الصلة من عمل اللسان ليتأتى الإيجاز ، أي : من يتكرر دعاؤكم إياهم ، كما يدل عليه المضارع .

فالمعنى غاب وانصرف ذكر الذين عادتكم دعاؤهم عن ألسنتكم فلاتدعونهم ، وذلك بقرينة ذكر الدعاء هنا الذي متعلقه اللسان . فتعين أن ضلالهم هو ضلال ذكر أسمائهم ، وهذا إيجاز بديع"(٣) .

---

(١) التحرير والتنوير (٣١٨/١٨) .

(٢) سورة الإسراء : آية (٦٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٥٩/١٥) .

فالموصولية في قوله تعالى : ﴿ضل من تدعون﴾ أي : ضل الذين تدعونهم ، وفي صلة الموصول إشارة إلى عمل اللسان وهو تكرر الدعاء ، وفي هذا من الإيجاز مالايخفى .

ومن أغراض التعريف بالموصولية التسجيل عليهم إضافة إلى غرض الإيجاز

ففي تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "وإنما قال ﴿وبالذي قلتم﴾ عدل إلى الموصول للاختصار وتسجيلا عليهم ، في نسبة ذلك لهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وقال لأوتين مالا وولدا﴾ إلى قوله : "﴿ونرثه مايقول﴾ أي نرث ماله وولده"[2] .

المختصر والمسجل عليهم هو مقول قولهم : "إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ..." .

ووجه الاختصار واضح ، ووجه التسجيل عليهم هو نسبة هذا القول لهم بما فيه من افتراء وكذب على الله من أنه عهد إليهم عدم الإيمان برسله حتى يأتوهم بقرابين تأكلها النار .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾[3] .

وموضع الاستشهاد ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ والمراد بهم المشركون ، دون أن يقال : "يقول المشركون" أو "يقولون" كما قال "ينظرون" ، وذلك لتسجيل النسيان عليهم .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٨٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٨٦/٤) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٥٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٥٥/٨) .

ونحو هذا الغرض قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(١) ، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾(٢) ، ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾(٣) فالمراد بهم واحد ، وذكرت هذه الصلات للتسجيل عليهم بأنواع إجرامهم .

ومن أغراض التعريف بالموصول تقرير الغرض المسوق له الكلام .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾(٤) .

قال علامة تونس : "والتعبير عن امرأة العزيز بطريق الموصولية في قوله ﴿التي هو في بيتها﴾ لقصد ماتؤذن به الصلة من تقرير عصمة يوسف عليه السلام لأن كونه في بيتها من شأنه أن يطوعه لمرادها"(٥) .

وقد ذكر صاحب غرائب القرآن ورغائب الفرقان غرضا آخر في التعريف بالموصولية وهو استهجان التصريح بالاسم إضافة إلى غرض التقرير ، فقال : "﴿التي هو في بيتها﴾ ولم يقل زليخا قصدا إلى زيادة التقرير مع استهجان اسم المرأة"(٦) .

بينما ذكر صاحب البحر المحيط أن التعبير بالموصولية دون الاسم الصريح لأجل الستر عليها ، فقال : "﴿التي هو في بيتها﴾ ولم يصرح باسمها ، ولابامرأة العزيز سترا على الحرم ، والعرب تضيف البيوت إلى النساء ، فتقول : ربة البيت ، وصاحبة البيت ، قال الشاعر :

ياربة البيت قومي غير صاغرة"(٧)

---

(١) سورة النحل : آية (٨٤) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٤٧/١٤) ومابعدها .

(٢) سورة النحل : آية (٨٥) ، وينظر : ن.م.س .

(٣) سورة النحل : آية (٨٦) ، وينظر : ن.م.س .

(٤) سورة يوسف : آية (٢٣) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٥٠/١٢) .

(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٧٧/٤) .

(٧) البحر المحيط (٢٩٤/٥) .

وأحسب أنه يقصد الستر على التصريح باسمها ، أي : استهجان ذكر اسم المرأة ، بقرينة ماذكره من طريقة العرب في ذلك .

أما الستر عليها فليس هناك ثمة ستر ، لأن المراد بالموصول هي امرأة العزيز ، وقد وقعت منها المراودة ، وقد ذكر العلامة أبو السعود العمادي ثلاثة أغراض فقال "والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على السر ، أو للاستهجان بذكره ، وإيراد الموصول لتقرير المراودة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك"[(١)] .

فكان تفصيله أدق ، إذ بين أن عدم التصريح بالاسم يرجع إلى غرضين ، وإيراد الموصول يرجع إلى غرض واحد وهو التقرير الذي لم يشر ابن عاشور إلى غيره ، مما يدل على دقة ابن عاشور وأبي السعود .

ولكن يظهر لي أن المراد بقوله "للمحافظة على السر" أي : سر هذه المراودة وفي هذا الكلام نظر ، لأن التعبير بالموصولية مراد به امرأة العزيز ، فليس ثمة سر .

وقد ذكر الشهاب الخفاجي غرضا جيدا يعلل به وجه التعبير بالموصولية من كونه يوافق مايقوي رغبتها في المراودة ، إذ قال : "وقوله : ﴿التي هو في بيتها﴾ دون امرأة العزيز مع أنه أخصر وأظهر ، لأنه أنسب في الدلالة على الداعي لها"[(٢)] .

لأن مما أغراها بالمراودة ودفعها إلى ذلك ، وأطمعها فيما تريده منه كونه في بيتها ، والكينونة في البيت أنسب وأدل على داعي المراودة عندها ، بينما هو أدل في جانب يوسف عليه الصلاة والسلام على عفته ونزاهته وطهارة ذيله .

ويذكر العلامة الشوكاني ماذكره أبو السعود ، حيث قال : "﴿التي هو في بيتها﴾ ولم يقل امرأة العزيز ، وزيلخا ، قصدا إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة ، والمحافظة على الستر عليها"[(٣)] .

وهو لم يفصل كأبي السعود في مجئ هذه الأغراض ، وإن كان يفهم من إجماله مافصله أبو السعود ، ولعل كلام علامة اليمن يبين أن كلمة "السر" عند

---

(١) تفسير أبي السعود (٢٦٥/٤) .

(٢) حاشية الشهاب (١٦٧/٥) .

(٣) فتح القدير (١٩/٣) .

أبي السعود مرادا بها "الستر" ، وهذا من تصحيف النساخ ، والقول فيها كالقول في سابقتها من النظر والاعتراض .

وقد أوضح المراد من الأغراض البلاغية في هذه الآية العلامة الآلوسي ، فقد قال : "والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ماأمكن ، أو للاستهجان بذكره ، وإيراد الموصول دون امرأة العزيز مع أنه أخصر وأظهر لتقرير المراودة ، فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك ، ولإظهار كمال نزاهته عليه السلام في أعلى معارج العفة ..."[١] .

وهذه الجملة القرآنية من شواهد البلاغيين المشهورة في كتبهم[٢] .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة هود في قوله تعالى : ﴿يَاقَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾[٣] .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والتعبير بالموصول "الذي فطرني" دون الاسم العلم لزيادة تحقيق أنه لايسألهم على الإرشاد أجرا ، بأنه يعلم أن الذي خلقه يسوق إليه رزقه ، لأن إظهار المتكلم علمه بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقا"[٤] .

فالصلة زادت تقريرا وتحقيقا لقوله : "لاأسألكم عليه أجرا" أي : أن الذي فطرني هو الذي يرزقني .

ومعنى كلام ابن عاشور "لأن إظهار المتكلم علمه بالأسباب الخ ، بمعنى أن معرفة هود عليه السلام خالقه وإظهار هذه المعرفة لقومه يحقق ويقرر لهم ماأخبرهم به من أن خالقه هو رازقه ، في قوله : ﴿إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ .

ومن تلك الأغراض تنزيل المجهول منزلة المعلوم تنويها به .

وهذا هو الغرض الأخير في هذا البحث من أغراض التعريف بالموصولية ، ويقع في جملة الصلة على وجه التحديد أو الخصوص ، ولايخفى أنها كالجزء من الموصول .

---

(١) روح المعاني (١٢/٢١١) .

(٢) ينظر : شروح التلخيص (١/٣٠٤) ومابعدها .

(٣) سورة هود : آية (٥١) .

(٤) التحرير والتنوير (١٢/٩٥) .

وهذا الغرض يخرج بالصلة عن وضعها الأصلي الذي قرره النحاة من كونها لابد أن تكون معهودة للسامعين معلومة بينهم[(١)] .

وقد أشار إلى ذلك ابن عاشور في تفسير قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾[(٢)] .

قال رحمه الله : "والخطاب بيأيها الذين آمنوا خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان ، لأن شأن الموصول أن يكون بمنزلة المعرف بلام العهد"[(٣)] .

ولكن جملة الصلة قد تخرج عن هذا الأصل ، لغرض تنزيل المجهول منزلة المعلوم .

نحو ماورد في قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ﴾[(٤)] .

قال ابن عاشور : "ووصفت النفس بالموصول والصلة بمقتضى كون تحريم قتلها مشهورا من قبل هذا النهي ، إما لأنه تقرر من قبل بآيات أخرى نزلت قبل هذه الآية ، وقبل آية الأنعام حكما مفرقا ، وجمعت الأحكام في هذه الآية وآية الأنعام ، وإما لتنزيل الصلة منزلة المعلوم ؛ لأنها مما لاينبغي جهله ، فيكون تعريضا بأهل الجاهلية الذين كانوا يستخفون بقتل النفس بأنهم جهلوا ماكان عليهم أن يعلموه ، تنويها بهذا الحكم"[(٥)] .

والذي يخصنا نحن البلاغيين هو الاحتمال الثاني من تنزيل هذا الحكم المجهول منزلة المعلوم للتنويه بشأنه وأنه مما ينبغي ألا يجهل .

---

(١) تنظر : الكافية (٨٩/٣) ومابعدها ، الهمع (٢٧٩/١) ومابعدها .

(٢) سورة البقرة : آية (٢٠٨) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٧٥/٢) .

(٤) سورة الإسراء : آية (٣٣) .

(٥) التحرير والتنوير (٩٢/١٥) .

ونحو هذا الغرض ماورد في تفسير قول الله تعالى : ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "وتعريف النار للعهد ، ووصفها بالموصول المقتضى علم المخاطبين بالصلة كما هو الغالب في صلة الموصول ، لتنزيل الجاهل منزلة العالم بقصد تحقيق وجود جهنم ..."(٢) .

وهو بهذا يتناول خروج صلة الموصول عن أصلها من جانب النظر إلى السامع لامن جانب النظر إلى الصلة ذاتها ، فيقرر الغرض البلاغي السابق من تنزيل الجاهل منزلة العالم ، لقصد التنويه بشأن هذا الخبر وشيوعه وذيوعه وأنه مما لايخفى.

وقد ذكر ابن عاشور بعد هذا الغرض تعليلين اثنين من كون الصلة في هذه الآية معلومة لدى السامعين إما من القرآن نفسه ، أو من أخبار أهل الكتاب(٣) .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٤٥/١) .

(٣) ينظر : ن.م.س .

الفصل الثالث

التعريف بغيرهما

التعريف بالأداة :

قد عدلت عن التعبير بالألف واللام ، وعبرت : بالتعريف بالأداة ، لأنه الأسلم والأشمل لما اختلف فيه أئمة النحو[(١)] من أصل التعريف بالألف واللام ، من كون المعرف الألف وحدها أو اللام وحدها ، أو هما معا .

وهذه الأداة تنقسم إلى قسمين : للعهد ، أو للحقيقة ، وتحت كل منهما أنواع .

ولابد من الدقة في تحديد نوع الأداة في الجملة العربية بصفة عامة والجملة القرآنية بصفة خاصة ، لأن الخطأ في تحديدها إنما هو خطأ في فهم المراد من العبارة أو في فهم المعنى الزائد على أصل المراد منها .

فمثلا في قول الله تعالى في سورة المزمل : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾[(٢)] .

فإذا فهم أن أداة التعريف في كلمة "الرسول" غير مراد بها العهد الصريح ؛ بمعنى أنه غير كلمة "رسولا" الأولى ، كان هذا خطأ في فهم أصل المراد .

ولأجل مايرد في فهم أصل المراد من التباس أخذ النحاة على عواتقهم بيان معانيها ، والوقوف على مقاصدها ومراميها .

بينما قد يقع التفاضل في المعنى الزائد على المراد ، نحو ماورد في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)] .

فيصح أن يراد بأداة التعريف في كلمة "الناس" العهد أو الجنس ، ولكل معنى.

---

(١) ينظر : المساعد على تسهيل الفوائد (١/١٩٥) ، التصريح (١/١٤٨) ومابعدها .

(٢) سورة المزمل : آية (١٥-١٦) .

(٣) سورة البقرة : آية (٨) .

قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية : "والتعريف في "الناس" للجنس ، لأن ماعلمت من استعماله في كلامهم يؤيد إرادة الجنس ، ويجوز أن يكون التعريف للعهد ، والمعهود هم الناس المتقدم ذكرهم في قوله : "إن الذين كفروا" ، أو الناس الذين يعهدهم النبي ﷺ والمسلمون في هذا الشأن"(١) .

وأيضا نحو ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٢) .

قال الزمخشري في تعريف لفظة "الحمد" : "هو نحو التعريف في : أرسلها العراك ، وهو تعريف الجنس ، ومعناه الإشارة إلى مايعرفه كل أحد من أن الحمد ماهو ، والعراك ماهو ، من بين أجناس الأفعال ، والاستغراق الذي يتوهمه كثير من الناس وهم منهم"(٣) .

فالزمخشري يرى أن هذه اللام تكون للجنس وليست للاستغراق كما توهم كثير من الناس ذلك .

وقد نظر أداة التعريف في "الحمد" بقول لبيد :

فأرسلها العراك و لم يذدها ... و لم يشفق على نغص الدخال(٤)

فشبهها "بمثال من المصادر بعيد عن توهم الاستغراق"(٥) .

وقد تابعه في ذلك الطاهر فقال : "والتعريف فيه بالألف واللام تعريف الجنس ، لأن المصدر هنا في الأصل عوض عن الفعل ، فلاجرم أن يكون الدال على

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦٢/١) .

(٢) سورة الفاتحة : آية (٢) .

(٣) الكشاف (٤٩/١) ومابعدها .

(٤) العراك : الجماعة ، لم يذدها : لم يحبسها ، لم يشفق : لم يخف ، نغص الدخال : تنغيص الدخال ، والدخال هو أن يشرب بعضها ثم يرجع مرة أخرى فيزاحم الذي على الماء ، وقيل له دخال لدخول الماء في أجوافها ، وللدخال تفسير آخر وهو دخول الناقة أو البعير الذي قد شرب بين بعيرين لم يشربا ، إيثارا له لمرض به أو لكرمه . الديوان بشرح الطوسي (ص١٦٢) ومابعدها .

(٥) حاشية السيد على الكشاف (٤٨/١) .

الفعل والساد مسده دالا على الجنس ، فإذا دخل عليه اللام فهو لتعريف مدلوله ، لأن اللام تدل على التعريف للمسمى ، فإذا كان المسمى جنسا فاللام تدل على تعريفه"[١] .

لأن الأصل في الجملة القرآنية "الحمد لله" النصب وإن رفعت على الابتداء ، قال الزمخشري : "وارتفاع الحمد بالابتداء ، وخبره الظرف الذي هو لله[٢] ، وأصله النصب الذي هو قراءة بعضهم بإضمار فعله على أنه من المصادر التي تنصبها العرب بأفعال مضمرة في معنى الإخبار لقولهم : شكرا وكفرا وعجبا ومأأشبه ذلك..."[٣] .

وقد وضح كلام الزمخشري السيد السند في حاشيته على الكشاف إذ قال : "قوله "وأصله النصب" المصادر أحداث متعلقة بمحالها ، كأنها تقتضي أن يدل على نسبتها إليها ، والأصل في بيان النسب والتعلقات هو الأفعال ، فهذه مناسبة تستدعي أن تلاحظ مع المصادر أفعالها الناصبة لها ، وقد تأيدت هذه المناسبة في مصادر مخصوصة بكثرة استعمالها منصوبة بأفعال مضمرة ، فلذلك حكم بأن أصله النصب ، وأيده بأنه قراءة بعضهم"[٤] .

ولكن السؤال الذي يرد في مثل هذا المقام لماذا عدل عن الرفع إلى النصب؟ وهل هناك سر بلاغي وراء هذا العدول؟

والإجابة على هذا التساؤل نجدها في الكشاف إذ يقول : "والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره ، ومنه قوله تعالى ﴿قالوا سلاما ، قال سلام﴾ ، رفع السلام الثاني للدلالة على أن إبراهيم عليه السلام حياهم بتحية أحسن من تحيتهم ؛ لأن الرفع دل على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده وحدوثه"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (١/١٥٩) .
(٢) كان الأولى أن يقول : لفظ الجلالة .
(٣) الكشاف (١/٤٧) ومابعدها .
(٤) حاشية السيد الشريف على الكشاف (١/٤٨) .
(٥) الكشاف (١/٤٨) .

ولكن الاستغراق وارد في هـذه الجملة القرآنية من خلال التركيب ، لأن التركيب في قوله "الحمد لله" يدل على الحصر والاختصاص ، مما سيتلزم انحصار جميع أفراد الحمد في التعلق باسم الله .

وقد أشار إلى هذا المعنى علامة تونس فقال : "... غير أن معنى الاستغراق حاصل هنا بالمثال ، لأن الحكم باختصاص جنس الحمد به تعالى ، لوجود لام تعريف الجنس في قوله "الحمد" ولام الاختصاص في قوله "لله" يستلزم انحصار أفراد الحمد في التعلق باسم الله تعالى ؛ لأنه إذا اختص الجنس اختصت الأفراد ، إذ لو تحقق فرد من أفراد الحمد لغير الله تعالى لتحقق الجنس في ضمنه ، فلايتم معنى اختصاص الجنس المستفاد من لام الاختصاص الداخلة على اسم الجلالة"[1] .

وللتباصر بأمثال هذا التفاضل في المعاني الزائدة على أصل المراد أخذ البلاغيون أيضا في مباحثهم دراسة هذه الأداة ، للتعرف على دلالات التراكيب ودقائق المعاني .

وهذه الأداة عند البلاغيين[2] يتفرع منها سبعة أنواع للتعريف ، منضوية تحت القسمين الرئيسيين ، وهما أداة التعريف العهدية ، وأداة التعريف الجنسية "الحقيقة" فالأولى يتفرع منها ثلاثة أنواع وهي التي للعهد :

(١) العهد الصريحي
(٢) العهد الكنائي
(٣) العهد العلمي

والثانية يتفرع منها أربعة أنواع وهي التي للحقيقة :

(١) أداة التعريف التي للجنس أو للحقيقة .
(٢) أداة التعريف التي للعهد الذهني .
(٣) أداة التعريف التي للاستغراق الحقيقي .
(٤) أداة التعريف التي للاستغراق العرفي .

---

(١) التحرير والتنوير (١٦٠/١) .
(٢) ينظر : شروح التلخيص (٣٢٠/١) ومابعدها .

والاختلاف بين البلاغيين والنحاة إنما هو في القسم الثاني من أقسام "أل" التي تفيد الحقيقة ، وذلك القسم هو "أل" التي للعهد الذهني ، قال الدسوقي في حاشيته على المختصر ـ بعد أن بين تلك الأقسام ـ : "فظهر لك أن الأقسام سبعة ، وأن لام العهد الذهني عند البيانيين غيرها عند النحويين"[1] .

وعلى كل الذي يهمنا هو التقسيم البلاغي الذي جرى عليه العلامة ابن عاشور في تحليله لتراكيب الآي الشريف كما سيتضح في هذا المبحث .

كما يهمنا تلك النكات البلاغية والدقائق التي تفهمها هذه الأداة التي يرصدها التحرير والتنوير .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[2] .

قال ابن عاشور : "وقوله "الكتاب" يجوز أن يكون بدلا من اسم الإشارة ؛ لقصد بيان المشار إليه لعدم مشاهدته ، فالتعريف فيه إذن للعهد ، ويكون الخبر هو جملة "لاريب فيه" ، ويجوز أن يكون "الكتاب" خبرا عن اسم الإشارة ، ويكون التعريف تعريف الجنس ، فتفيد الجملة قصر حقيقة الكتاب على القرآن بسبب تعريف الجزءين ، فهو إذن قصر ادعائي ، ومعناه ذلك هو الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب ، بناء على أن غيره من الكتب إذا نسبت إليه كانت كالمفقود منها وصف الكتاب لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب"[3] .

وفي هذا يظهر أن "أل" في لفظة "الكتاب" لها معنيان اثنان ، إما العهد وإما الحقيقة ، ولكل قسم منهما معنى يترتب عليه ويختص به .

فالأولى التي للعهد ليس مرادا بها العهد الصريحي لأنه لم يتقدم له ذكر صراحة ، وليس مرادا بها العهد الكنائي ، لأنه لم يتقدم له ذكر كناية ، وإنما يراد بها العهد العلمي ، وقد نعته ابن عاشور في موضع آخر بأنه العهد التقديري ، إذ قال : "ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع القرآن مانزل منه وماسينزل ، لأن نزوله

---

(١) حاشية الدسوقي على المختصر (٣٢١/١) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٢١/١) .

مترقب فهو حاضر في الأذهان ، فشبه بالحاضر في العيان ، فالتعريف فيه للعهد التقديري والإشارة إليه للحضور التقديري ، فيكون قوله : "الكتاب" حينئذ بدلا أو بيانا من ذلك والخبر هو لاريب فيه"(١) .

والعهد العلمي ماكان معلوما عند المخاطب وإن لم يتقدم له ذكر أصلا سواء كان حاضرا أو لم يكن حاضرا(٢) ، بل كان مقدرا كما هو الحال في هذا السياق .
وعلى هذا فالمعنى في الجملة القرآنية "ذلك الكتاب" إشارة إلى جميع القرآن ، لأن الإشارة فسرها الاسم الذي بعدها المعرف بـ"أل" العهدية ، الذي يعد بدلا منها أو بيانا لها . أو يكون المعنى "ذلك الكتاب" هو المبتدأ ، و"لاريب فيه" خبره(٣) .

بينما يختلف المعنى اختلافا واضحا في جعل أداة التعريف في "الكتاب" للحقيقة أو للجنس ، وينبني عليه معنى دقيق من معاني القصر .

وتكون فيه "أل" بمعنى الاستغراق لجميع خصائص الأفراد مبالغة في المدح ، وهي التي تسمى عند النحاة "أل" المفيدة معنى الكمال(٤) .

ويكون المعنى ، أي : ذلك الكتاب الكامل ، بإعراب "ذلك" مبتدأ و"الكتاب" خبره ، وتفيد الجملة معنى القصر الادعائي ، أي : تخصيص "ذلك" بالكتاب الجامع لصفات الكمال . فكأن غيره من الكتب بالنسبة له يعد كلا كتاب لعدم استيفائها كمالات الكتب .

وفي هذا معنى نفيس من بيان حقيقة هذا الكتاب ورفعة أمره وعلو منزلته وعظم قدره .

وقد سبقت من الزمخشري إشارة إلى معنى "أل" في هذه الجملة القرآنية ، إذ قال : "فإن قلت أخبرني عن تأليف "ذلك الكتاب" مع "آلم" ، قلت : إن جعلت آلم للسورة ، ففي التأليف وجوه : أن يكون "آلم"مبتدأ و"ذلك" مبتدأ ثانيا

---

(١) التحرير والتنوير (٢١٩/١) .
(٢) ينظر : حاشية الدسوقي على المختصر (٣٢٠/١) .
(٣) ينظر : إملاء مامن به الرحمن (١٠/١) .
(٤) ينظر : الهمع (٢٥٩/١) .

و"الكتاب" خبره ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ومعناه أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأن ماعداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنه هو الذي يستأهل أن يسمى كتابا . كما تقول : هو الرجل ، أي : الكامل في الرجولية الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال وكما قال : هم القوم كل القوم يأم خالد"(١) .

هذا هو المعنى الذي ذكره ابن عاشور ثانيا من معاني "أل" وهي التي للحقيقة أو للجنس ، وتفيد استغراق خصائص الأفراد في معرفها على وجه الكمال وضابطها أن تدخل عليها "كل" مجازا . وقد بينه بما ذكره من شعر .

وأشار إلى المعنى الآخر وهي العهدية فقال ـ متابعا كلامه السابق ـ : "وأن يكون الكتاب صفة ، ومعناه : هو ذلك الكتاب الموعود ، وأن يكون "آلم" خبر مبتدأ محذوف ، أي : هذه "آلم" ، ويكون "ذلك" خبرا ثانيا أو بدلا على أن "الكتاب" صفة ..." (٢) .

قال السيد الشريف : "قوله "وأن يكون الكتاب صفة" أي لـ"ذلك" فيكون حينئذ "ذلك الكتاب" على هذا التقدير خبرا مفردا ، والكلام جملة واحدة ، ومعناه ماذكره وقد سبق تحقيقه ، وجعل اللام في الكتاب للعهد على تقدير كونه صفة لذلك لأنه المتبادر عند الإشارة إليه ، وأيضا لافائدة في الإخبار عن السورة لصدق جنس الكتاب عليها ..." (٣) .

وقد أشار إلى المعنى الثاني وهو "أل" العهدية بقوله "وأن يكون الكتاب صفة الخ" وقد عقب عليه السيد السند بما زاده وضوحا .

وقد نقل السيوطي أن ابن عصفور نص على أن كل لام وقعت بعد اسم الإشارة و"أي" في النداء وإذا الفجائية فهي للعهد الحضوري(٤) .

والعهد الحضوري منضو تحت العهد العلمي من معاني "أل" العهدية .

---

(١) الكشاف (١/١١١) ومابعدها .

(٢) ن.م.س (١/١١٢) .

(٣) حاشية السيد على الكشاف (١/١١٢) .

(٤) ينظر : همع الهوامع (١/٢٦٠) .

فهـذه الجملـة القرآنيـة أفـادت معـاني ودلالات نتيجـة تقديـري معنـى "أل" العهدية أو الجنسية .

ونحو هذه المعاني ماورد في قوله تعالى في سـورة يونـس : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "والكتاب : القرآن ، فالتعريف فيه للعهـد ، ويجـوز جعـل التعريف دالا على معنى الكمال في الجنس ، كما تقول : أنت الرجل"[2] .

وربما اكتفى ابن عاشور بمـا ذكـره في سـورة البقـرة ، ولم يحـاول أن يبسـط القول في هذا الموضع ، لكون المعنى قد اتضح .

وربما أفادت "أل" الكمال ولم تحتمل العهـد ، وذلـك نحـو مـاورد في سـورة محمد في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾[3] .

قال علامة تونس : "والتعريف باللام في "الغني" وفي "الفقراء" تعريف الجنـس وهو فيهما مؤذن بكمال الجنس في المخبر عنه ، ولما وقعا خبرين وهما معرفتان أفادا الحصر ، أي : قصر الصفـة علـى الموصـوف ، أي : قصـر جنـس الغنـى علـى الله ، وقصر جنس الفقراء على المخاطبين بـ"أنتم" ، وهو قصر ادعائي فيهما مرتـب علـى دلالة "أل" على معنى كمال الجنس ، فإن كمال الغنى لله لامحالة لعمومه ودوامـه ، وإن كان يثبت بعض جنس الغنى لغيره ، وأما كمال الفقر للناس فبالنسـبة إلى غنـى الله تعالى ، وإن كانوا قـد يغنـون في بعـض الأحـوال ، لكـن ذلـك غنـى قليـل غـير دائم"[4] .

ولاشك أن هذا المعنى الذي أفادته "أل" التي للحقيقة معنى بلاغي ، يقرر أن الإنسان الغني الذي يظن أنه غني هو كامل في فقره بالنسـبة لغنـى الله ، لأن حقيقـة غنى هذا الإنسان فقر ، لكون غناه قليلا وزائلا إما بزوال صاحبـه أو بزوالـه ، فهـو

(١) سورة يونس : آية (١) .
(٢) التحرير والتنوير (٨٢/١١) .
(٣) سورة محمد : آية (٣٨) .
(٤) التحرير والتنوير (١٣٨/٢٦) .

غير مستمر ولاباق ، فكيف يقال عنه غني بالنظر إلى غنى غير متناه في الكم والكيف وفيما لايمكن أن يتصوره العقل ، وغير زائل ، فهو غني أزلي أبدي .

وهذا إثراء في المعنى لاتفي به ولاباستقصائه المجلدات فضلا عن الصفحات ، وأحسب أن "أل" تفيد الإيجاز الذي لم أر من نبه عليه من أئمة المعاني ، وهو من إيجاز القصر الذي يضم من المعاني مايضم تحت جناحي ألفاظه ، وهذا ماتفيده أداة التعريف من المعاني التي تتضمنها من أنواع العهد والحقيقة ، عدا ماتبسطه نكات المقامات .

وقد سبقت إشارة صاحب البحر المحيط إلى هذا المعنى إذ قال : "﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾ أي : الغنى مطلقا إذ يستحيل عليه الحاجات ، و﴿أنتم الفقراء﴾ مطلقا لافتقاركم إلى ماتحتاجون إليه في الدنيا ، وإلى الثواب في الآخرة"[(١)] .

بينما كانت إشارة علامة بغداد أصرح في بيان حقيقة "أل" إذ قال : "﴿والله الغني﴾ لاغيره عز وجل ، ﴿وأنتم الفقراء﴾ الكاملون في الفقر"[(٢)] .

فقد ألمح إلى القصر بقوله "لاغيره" مما يفيد أن هذا التركيب "والله الغني" أفاد بتعريف طرفيه معنى القصر ، وصرح بأن "أل" التي في المسند تفيد الكمال .

وربما كانت "أل" للعهد نحو ماورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلا بِسِيمَاهُمْ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "و"أل" في "الأعراف" للعهد ، وهي الأعراف المعهودة التي تكون بارزة في أعالي السور ، ليرقب منها النظارة حركات العدو ليشعروا به إذا داهمهم .

و لم يسبق ذكر للأعراف هنا حتى تعرف بلام العهد ، فتعين أنها مايعهده الناس في الأسوار"[(٤)] .

---

(١) البحر المحيط (٨٦/٨) .

(٢) روح المعاني (٨٣/٢٦) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٤٦) .

(٤) التحرير والتنوير (١٤١/٨) .

وهذا هو الاحتمال الأول عند علامة تونس ، لأنه يرى أن "أل" هنا هي "أل" التي تفيد العهد الذهني ، نحو قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾[(١)] .

وهذه من أنواع "أل" الجنسية ، وليست من أنواع "أل" العهدية ، ولذلك قال ابن عاشور : "ولم يسبق ذكر للأعراف هنا حتى تعرف بلام العهد" أي : بـ"أل" العهدية .

فالمراد بها هي الحقيقة ، أي : حقيقة الأعراف بمعنى أعالي الأسوار ضمن هذا الفرد المعرف .

وهذا الغرض في "أل" يدفع كل ماذهب إليه المفسرون من تفسيرات لمعنى الأعراف في هذه الجملة القرآنية من مواضع لم تسعفهم الأدلة في تحديدها .

وهناك وجه آخر ذكره العلامة لهذه الأداة في هذه الجملة القرآنية ، إذ قال : "أو يجعل "أل" عوضا عن المضاف إليه ، أي : وعلى أعراف السور ، وهما وجهان في نظائر هذا التعريف كقوله تعالى : ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ .

وأيا ماكان فنظم الآية يأبى أن يكون المراد من الأعراف مكانا مخصوصا يتعرف منه أهل الجنة وأهل النار ، إذ لاوجه حينئذ لتعريفه مع عدم سبق الحديث عنه"[(٢)] .

وهذا مذهب الكوفيين وبعض البصريين في إنابة "أل" عوضا على المضاف إليه ، ولكنهم قيدوا المضاف إليه بأن يكون ضميرا لااسما ظاهرا[(٣)] .

وقد جعل ابن عاشور المضاف إليه في هذا الموضع اسما ظاهرا ، وهو قوله "أعراف السور" .

وقد رأيت علامة خوارزم في تفسيره قد قدره بالاسم الظاهر في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[(٤)] .

---

(١) سورة يوسف : آية (١٣) .

(٢) التحرير والتنوير (١٤١/٨) .

(٣) ينظر : همع الهوامع (٢٦٠/١) .

(٤) سورة البقرة : آية (٣١) .

قال الزمخشري : "أي : أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه لكونه معلوما مدلولا عليه بذكر الأسماء"[١] .

وكون الزمخشري يعمد إلى تقدير المضاف اسما ظاهرا مع إمامته في النحو يسوغ لابن عاشور مافعله وإن أباه النحاة ، لأن المطلع على مسائل النحو في تحريره وتنويره يجزم بدون أدنى ريب أن هذا الرجل ذو باع طويل وقدم صدق راسخة تؤهله لأن يكون مجتهدا لامقلدا ، وهذا مايمثل للعيان أمام المنصفين[٢] .

وفي موضع آخر من تفسيره قدر المضاف إليه اسما ظاهرا مما يؤكد أنه لايرى مايمنع من مثل هذا .

وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾[٣] .

قال علامة تونس : "فالظاهر أن المراد وارث الأب ، وتكون "أل" عوضا عن المضاف إليه ، كما هو الشأن في دخول "أل" على اسم غير معهود ولامقصود جنسه ، وكان ذلك الاسم مذكورا بعد اسم يصلح لأن يضاف إليه ، كما قال تعالى : ﴿لئن لم ينته لنسفعا بالناصية﴾ ، وكما قال : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ أي : نهى نفسه ، فإن الجنة هي مأواه ، وقول إحدى نساء أم زرع (زوجي المس مس أرنب والريح ريح زرنب)"[٤] .

فقد ذكر الضابط في كون "أل" عوضا عن المضاف ، وحشد هذه الأدلة على ذلك من كتاب الله عز وجل ، ومن حديث رسوله ﷺ وبالأصح مما ذكرته عائشة رضي الله عنها من حال تلك النسوة مع أزواجهن بين يدي رسول الله ﷺ والتقدير في آية سورة العلق ماقدره ابن عاشور نفسه إذ قال : "أي : ناصية الذي

---

(١) الكشاف (٢٧٢/١) ، وينظر : الهمع (٢٦٠/١) .

(٢) استدرك ابن عاشور في هذا الباب على النحاة نوعا آخر من العلم بالغلبة عن طريق مجموع الوصف والموصوف . ينظر : التحرير والتنوير (١٤/١٥) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٣٣) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٣٥/٢) .

ينهي عبدا إذا صلى"[١] ثم أشار إلى خلاف النحاة في ذلك فقال : "وهذا اللام هي التي يسميها نحاة الكوفة عوضا عن المضاف إليه ، وهي تسمية حسنة ، وإن أباها البصريون فقدروا في مثله متعلقا لمدخول اللام"[٢] .

والصواب أن بعض البصريين أباها . قال السيوطي في الهمع : "اختلف في نيابة "أل" عن الضمير المضاف إليه ، فمنعه أكثر البصريين ، وجوزه الكوفية وبعض البصريين ، وكثير من المتأخرين ، وخرجوا عليه : ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ .."[٣] .

والتقدير في الحديث : المس : أي مسه ، مس أرنب ، والريح : أي ريحه ريح زرنب .

قال صاحب منال الطالب في شرح طوال الغرائب : "والزرنب نبات طيب الريح ، وقيل هو الزعفران ، وقيل نوع من أنواع الطيب . ويقال فيه الذرنب ، بالذال المعجمة .

أرادت أنه طيب الريح ، طيب العرض والنفس لين الملمس ، سهل كالأرنب في لين وبرها ، أو أرادت طيب ريح جسده ، ولين بشرته"[٤] .

والشاهد أن "أل" في هذه الشواهد عوضا عن المضاف إليه ، وهذا ماأراد تأكيده خلافا لمن لم يجز .

ولئن كانت تتضح المقاصد من وراء التعريف بالعهد ، لربما خفيت مقاصد التعريف بالجنس أو الحقيقة ، خاصة في أسماء الأجناس ، فأراد علامة تونس التنبيه على ذلك .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠/٤٥٠) .
(٢) ن.م.س .
(٣) الهمع (١/٢٦٠) .
(٤) منال الطالب في شرح طوال الغرائب لمجد الدين أبي السعادات ابن الأثير (ص٥٤٦) ومابعدها.
(٥) سورة الشورى : آية (٤٩) .

قال علامة تونس : "وتنكير "إناثا" لأن التنكير هو الأصل في أسماء الأجناس وتعريف "الذكور" باللام ، لأنهم الصنف المعهود للمخاطبين ، فاللام لتعريف الجنس ، وإنما يصار إلى تعريف الجنس لمقصد ، أي : يهب ذاك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به وترغبون فيه ، على حد قول العرب : أرسلها العراك"[(١)] .

وهو يريد بذلك أن هناك فرقا بين اسم الجنس منكرا ومعرفا ، وقد نبه العلامة السعد التفتازاني على ذلك عند قول الخطيب ـ على المعرف بـ"أل" الجنسية للعهد الذهني ـ : "وهذا في المعنى كالنكرة"[(٢)] .

عقب التفتازاني على هذا الكلام لبيان الفرق بين اسم الجنس المعرف والمنكر فقال : "وإن كان في اللفظ يجري عليه أحكام المعارف من وقوعه مبتدأ وذا حال ووصفا للمعرفة وموصوفا بها ، ونحو ذلك ، وإنما قال : كالنكرة لما بينهما من تفاوت ما ، وهو أن النكرة معناها بعض غير معين من جملة الحقيقة ، وهذا معناه نفس الحقيقة ، وإنما تستفاد البعضية من القرينة ..." [(٣)] .

وسأورد ماذكره ابن يعقوب المغربي في هذا الشأن مما يزيد هذا المعنى وضوحا ، إذ قال : "... فقد استعمل المعرف باللام الحقيقية في فرد باعتبار حقيقته الموجودة فيه الصادق لفظها عليه ، فالقرينة صيرته فردا مطلقا ، واللام عرفته باعتبار جنسه ، فهو مع المنكر باعتبار القرينة متساويان ، وباعتبار ماتفيد لام الحقيقة من الأشعار بعهديتها ذهنا المصاحب لذلك الاطلاق مختلفان ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾ فليس المراد كل ذئب ولاحقيقة الذئب ولاذئب معين بل فرد من أفراد حقيقة الذئب"[(٤)] .

ولعل الفرق اتضح بين المعرف بأداة العهد الذهني والنكرة ، من كون الحقيقة في الأول معهودة في ضمن فرد من أفرادها وفي الثاني من كون الحقيقة بعضا غير معين منها .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣٨/٢٥) .

(٢) تلخيص المفتاح (ص٦٤) بشرح عبد الرحمن البرقوقي .

(٣) المختصر (٣٢٦/١) .

(٤) مواهب الفتاح (٣٢٦/١) .

ولذلك عبر علامة تونس عن معنى "أل" الواردة في قوله تعالى ﴿ويهب لمن يشاء الذكور﴾ ، بقوله : "أي : يهب ذلك الصنف الذي تعهدونه وتتحدثون به ، وترغبون فيه" ، ونحو هذه الأداة ماورد في قوله تعالى في سورة ص : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[1] .

قال علامة تونس : "والتعريف في "الخصم" للعهد الذهني ، أي : عهد فرد غير معين من جنسه ، أي : نبأ خصم "غير" معين هذا خبره ، وهذا مثل التعريف في ادخل السوق"[2] .

والتعريف بأداة التعريف التي تفيد الجنس يفيد الاستغراق في الغالب .

ففي تفسير قول الله تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[3] .

قال علامة تونس : "وتعريف "الزانية والزاني" تعريف الجنس ، وهو يفيد الاستغراق غالبا ، ومقام التشريع يقتضيه .

وشأن "أل" الجنسية إذا دخلت على اسم الفاعل أن تبعد الوصف عن مشابهة الفعل ، فلذلك لايكون اسم الفاعل معها حقيقة في الحال ولافي غيره ، وإنما هو تحقق الوصف في صاحبه .

وبهذا العموم شمل الإماء والعبيد ، فـ"الزانية والزاني" من اتصفت بالزنى واتصف بالزنى"[4] .

والذي يظهر لي أن "أل" هنا موصولة وليست معرفة ، لأنها دخلت على اسم الفاعل وقد نص النحويون على أن "أل" الداخلة على اسم الفاعل والمفعول موصولة وليست المعرفة .

---

(١) سورة ص : آية (٢١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/٢٣١) .

(٣) سورة النور : آية (٢) .

(٤) التحرير والتنوير (١٨/١٤٦) .

فقال ابن الحاجب ـ في باب الموصول ـ : "وصلة الألف واللام اسم فاعل أو مفعول"[١] .

وقال السيوطي في الهمع : "توصل "أل" بصفة محضة ، وذلك اسم الفاعل والمفعول ، كالضارب والمضروب"[٢] .

وبين الرضي في شرحه على الكافية أن دخولها على اسم الفاعل والمفعول هو مذهب الجمهور فقال : "... فنقول : بناء على مذهب الجمهور : إن أصل الضارب والمضروب ، الضَرَبَ والضُرب ..." [٣] .

ثم بدأ يشرح ويعلل دخولها على هاتين الصيغتين .

وشاهد هذا السياق كله أن "أل" فيما ذكره ابن عاشور موصولة ، وليست "أل" الجنسية اللهم أن يحمل كلامه على مذهب المازني الذي يرى أنها في دخولها على اسم الفاعل والمفعول معرفة لاموصولة ، فيوجه كلامه على ضعف .

قال الرضي : "اعلم أنهم اختلفوا في اللام الداخلة على اسمي الفاعل والمفعول فقال المازني : هي حرف كما في سائر الأسماء الجامدة نحو : الرجل والفرس ، وقال غيره : إنها اسم موصول ..." [٤] .

ويرى ابن عاشور أن التعريف بـ"أل" الجنسية أقوى من التنكير وأبلغ .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة مريم : ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "وجئ بالسلام هنا معرفا باللام الدالة على الجنس مبالغة في تعلق السلام به ، حتى كأن جنس السلام بأجمعه عليه .

وهذا مؤذن بتفضيله على يحيى إذ قيل في شأنه : ﴿وسلام عليه يوم ولد﴾ ، وذلك هو الفرق بين المعرف بلام الجنس وبين النكرة"[٦] .

---

(١) شرح الرضي على الكافية (٣/٩٣) .
(٢) الهمع (١/٢٧٧) .
(٣) شرح الرضي على الكافية (٣/٩٥) .
(٤) ن.م.س (٣/٩٣) .
(٥) سورة مريم : آية (٣٣) .
(٦) التحرير والتنوير (١٦/١٠٠) ومابعدها .

فهو يستظهر حكما شرعيا في المفاضلة بين نبيين من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام عن طريق صيغة بيانية وغرض بلاغي ، أو بالأصح يستأنس بهذا الاستظهار .

فتعريف "سلام" أبلغ من تنكيره ، وهو مفيد بأن "أل" الجنسية الداخلة عليه مؤذنة بأن جنس السلام جميعه الواقع على عيسى عليه الصلاة والسلام يوحي بتفضيله على مقابله لما لم تحمله لفظة "سلام" غير المعرفة من ذلكم المعنى .

وقد سبقت إشارة من علامة بغداد إلى هذا المعنى إذ قال : "وسلام يحيى عليه السلام قيل : لكونه من قول الله تعالى أرجح من هذا السلام ؛ لكونه من قول عيسى عليه السلام ، وقيل : هذا أرجح لما فيه من إقامة الله تعالى إياه في ذلك مقام نفسه مع إفادة اختصاص جميع السلام به"[١] .

فهو يذكر هذين القولين بصيغة التمريض "قيل" ، فكأنه لايرى أنه يمكن أن يؤذن من هاتين الصيغتين حكما شرعيا ولو على سبيل الاستئناس .

لأن كل قائل يفضل بصيغة معينة وقرائن غير جازمة .

(١) روح المعاني (٩١/١٦) .

التعريف بالإضافة

جاءت الإضافة في الجملة القرآنية لأغراض منها :

أن يكون التعريف بها أخصر طريق .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾(١) .

قال علامة تونس : "فالعدول إلى الإضافة هنا لأنها أخصر طريق في الدلالة على هذا المقصد ، فهي أخصر من الموصول ، فلو أريد غير الله لقيل اعبدوا أربابكم فلاجرم كان قوله : "اعبدوا ربكم" صريحا في أنه دعوة إلى توحيد الله ، ولذلك ، فقوله : "الذي خلقكم"زيادة بيان لموجب العبادة ، أو زيادة بيان لما اقتضته الإضافة من تضمن معنى الاختصاص بأحقية العبادة"(٢) .

فالإضافة ليست أخصر طريق مطلقا بل في هذا المقام وبهذا المقصد ، ولذلك قال ابن عاشور : "لأنها أخصر طريق في الدلالة على هذا المقصد" ، والمقصد المراد به هنا هو توحيد الله وعبادته ، واختصاصه بأحقية العبادة وحده ، لأنه الرب الذي خلق الناس من العدم إلى الوجود .

فكان لابد من تقييد الاختصار بمقامه ، قال ابن السبكي : "التعريف بالإضافة يكون لأحد أسباب ، الأول أن لايكون لإحضاره في الذهن طريق أخصر من الإضافة ، وينبغي أن يقيد بما إذا كان المقام مقام اختصار كما صنع في المفتاح"(٣) .

قال صاحب المفتاح : "وأما الحالة التي تقتضي التعريف بالإضافة فهي متى لم يكن للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق سواها أصلا كقولك غلام زيد إن لم يكن عندك منه شئ سواه أو عند سامعك أو طريق سواها أخصر ، والمقام مقام اختصار"(٤) .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢١) .

(٢) التحرير والتنوير (١/٣٢٧) .

(٣) عروس الأفراح (١/٣٤٥) .

(٤) مفتاح العلوم (ص٨٩) .

فإذن لابد من تقييد كونها أخصر طريق بالمقام ودلالاتها على المقصد ، بمعنى إحضارها في ذهن السامع متلبسا بالوصف الذي قصده المتكلم لامن حيث ذاته .

قال الدسوقي في حاشيته : "ظاهره أنها أخصر طرق التعريف وليس كذلك إذ لاتظهر الأخصرية إلا بالنسبة للموصول ، وأما العلم والضمير واسم الإشارة والمعرف باللام ، فالأمر بالعكس ، وأجيب بأن المراد أنها أخصر الطرق في احضار المسند إليه في ذهن السامع ملتبسا بالوصف الذي قصده المتكلم لا إحضاره في ذهن السامع من حيث ذاته ..." (١) .

ومن أغراض التعريف بالإضافة كونها هي الطريق الوحيد للتعريف .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة طه : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾(٢) .

قال علامة تونس : "وتعبيرهم عن الرب بطريق الإضافة إلى هارون وموسى لأن الله لم يكن يعرف بينهم يومئذ إلا بهذه النسبة ، لأن لهم أربابا يعبدونها ويعبدها فرعون"(٣) .

وهذا الغرض في نظري هو غرض موجب لا مرجح ، فكيف يعد من أغراض الإضافة؟ لأن تعبير هؤلاء السحرة عن الله سبحانه وتعالى بطريق الإضافة هو طريق لم يكن لديهم مندوحة عنه ، ولابديل سواه .

و لم أر أحدا من أئمة المعاني من البلاغيين أو المفسرين عرج على هذه النكتة أو أشار إليها .

ومما يتشابه مع هذا الغرض هنا ماذكر في باب الموصول في أحد أغراضه من عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة(٤) فهما سيان . وذاك كهذا .

وقد ذكر الدسوقي في معرض كلامه في التعريف بالموصولية أن هناك مذهبين للسكاكي والتفتازاني ، في اشتراط أن يكون المقتضى مرجحا عند الأول ، وأن

---

(١) حاشية الدسوقي (١/٣٤٤) .

(٢) سورة طه : آية (٧٠) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦/٢٦٢) .

(٤) ينظر : شروح التلخيص (١/٣٠٢) .

يكون موجبا ومرجحا عند الثاني ، مما يمكن حمل كلام ابن عاشور على مذهب التفتازاني في هذا الغرض .

فقال الدسوقي : "... والترجيح من قصد المتكلم هذه طريقة المفتاح ، ومذهب الشارح أن النكتة لابد أن تكون موجبة أو مرجحة"(١) .

وأيضا رأيت العلامة الفنري يذهب في حاشيته إلى هذا المذهب كالعلامة التفتازاني ، إذ قال : "... إذ الظاهر أن المقتضى إما موجب أو مرجح"(٢) .

ويظهر من هذا الغرض أن العلامة ابن عاشور يذهب هذا المذهب .

ومن تلك الأغراض العموم .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾(٣) .

قال ابن عاشور : "والجمع المعرف بالإضافة يفيد العموم ، فقوله "بكلماته" يعم أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على إرادته تثبيت الحق"(٤) .

فالإضافة هنا أفادت العموم لأجل أن المضاف إليه جمعا مضافا إلى معرفة فتعم أنواع الكلام الموحى به إلى نبيه الكريم ﷺ .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الزمر في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِي﴾(٥) .

قال علامة تونس : "والعباد المضاف إلى ضمير الجلالة في الموضعين هنا يعم كل عبد من الناس من مؤمن وكافر ، إذ الجميع يخافون العذاب على العصيان ، والعذاب متفاوت وأقصاه الخلود لأهل الشرك ، وليس العباد هنا مرادا به أهل القرب ؛ لأنه لايناسب مقام التخويف ، ولأن قرينة "عباده" تدل على أن المنادين جميع العباد ، ففرق بينه وبين نحو ﴿ياعبادي لاخوف عليكم اليوم﴾"(٦) .

---

(١) حاشية الدسوقي (٣٠٢/١) .
(٢) حاشية الفنري (ص٢٢٥) .
(٣) سورة الأنفال : آية (٧) .
(٤) التحرير والتنوير (٢٧١/٩) .
(٥) سورة الزمر : آية (١٦) .
(٦) التحرير والتنوير (٣٦٣/٢٣) .

فالإضافة هنا تفيد العموم ، لأن المقام مقام تخويف وتحذير ، فهي تشمل جميع المكلفين من العباد ، وهذا أولى من قوله : "يعم كل عبد من الناس من مؤمن وكافر" ، فليست مقصورة على الناس بل هي تشمل القسم الثاني من المكلفين وهم الجنة ـ بكسر الجيم ـ ولاتشمل من العباد غير المكلف ، فكان التعبير الذي عبرت به أولى .

وليس العباد هنا مرادا بهم المؤمنون والصالحون فحسب ، بل يعم كل مكلف من الخلق ، بقرينة المقام ، ويدخل فيه الصالحون والمؤمنون ضمنا .

وقد تردد الشوكاني في تحديد المراد بالعباد هنا ، فقال : "﴿ياعباد فاتقون﴾ أي : اتقوا هذه المعاصي الموجبة لمثل هذا العذاب على الكفار .

ووجه تخصيص العباد بالمؤمنين أن الغالب في القرآن إطلاق لفظ العباد عليهم وقيل : هو للكفار وأهل المعاصي ، وقيل هو عام للمسلمين والكفار"[(١)] .

فقد حاول أن يحدد المراد بالعباد من خلال استعمال القرآن لهذه اللفظة ، فذكر أن غالب استعمال القرآن لها في حق المؤمنين .

وقد تتبعت النظم القرآني فوجدت أن كلمة "عبادي" مضافة إلى ياء المتكلم ذكرت خمس مرات[(٢)] ، منها اثنتان في هذه الآية الكريمة ، وقد بينا المراد منها والمقصود بها ، وثلاثة أخر في الجمل القرآنية الآتية :

(١) ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾[(٣)] .

(٢) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِي﴾[(٤)] .

(٣) ﴿يَاعِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[(٥)] .

---

(١) فتح القدير (٤/٥٦٩) .

(٢) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة (ع-ب-د) (ص٤٤٣) .

(٣) سورة الزمر : آية (١٠) .

(٤) سورة الزمر : آية (١٧) .

(٥) سورة الزخرف : آية (٦٨) .

والثلاثة الأخر مقصود بها المؤمنون ، وبهذا يظهر في هذه اللفظة التي أردت الوقوف على معانيها في النظم الكريم أنه لاثمة فرق ذو بال ، يحدد أمر الاستعمال في هذه اللفظة التي هي مناط البحث في هذا الموضع على وجه الخصوص ، وإن كان يفهم من كلام الشوكاني أن وجه الغالبية في لفظة العباد مطلقا لابالإضافة إلى ياء المتكلم .

وعلى كل فتردده في تحديد المقصود منها واضح ، على أنه ذكر العموم الذي تفهمه الإضافة في هذا المقام .

وأيضا من تلك الأغراض الإيماء إلى العموم ، والإيماء إلى الرد على المكذبين .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة السجدة : ﴿الم تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[(١)] .

قال علامة تونس : "واستحضار الجلالة بطريق الإضافة بوصف "رب العالمين" دون الاسم العلم وغيره من طرق التعريف لما فيه من الإيماء إلى عموم الشريعة ، وكون كتابها منزلا للناس كلهم بخلاف ماسبق من الكتب الالهية ، كما قال تعالى : ﴿مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾"[(٢)] .

فقد ذكر هنا الغرض الأول للإضافة في هذه الجملة القرآنية وأنه إيماء إلى عموم الشريعة بقرينة "العالمين" .

ثم ذكر الغرض الثاني فقال : "وفيه إيماء إلى أن من جملة دواعي تكذيبهم به أنه كيف خص الله برسالته بشرا منهم حسدا من عند أنفسهم ، لأن ربوبية الله للعالمين تنبئ عن أنه لايسأل عما يفعل ، وأنه أعلم حيث يجعل رسالته"[(٣)] .

والغرض الأول لازمه قريب وهو واضح . والغرض الثاني لازمه قوله "لاريب فيه" ؛ إذ تومئ إليه الجملة القرآنية التي قبل التركيب الإضافي . وتصرح به

---

(١) سورة السجدة : آية (١-٣) .

(٢) التحرير والتنوير (٢١/٢٠٧) .

(٣) ن.م.س .

الجملة التي بعده وهي قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[١] .

وقد ذكر علامة بغداد أغراضا بلاغية في هذه الآية بقوله : "وإضافة الرب إلى العالمين أولا ثم إلى ضمير سيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم ثانيا ـ أي في قوله "من ربك" ـ بعد مافيه من حسن التخلص إلى إثبات النبوة وتعظيم شأنه علا شأنه ، فيه أنه عليه الصلاة والسلام العبد الجامع الذي جمع فيه مافرق في العالم بالأسر ، وووروده على أسلوب الترقي دل على أن جمعيته صلى الله تعالى عليه وسلم أتم مما لكل العالم ، وحق له صلوات الله وسلامه عليه"[٢] .

وقد ذكر عدة أغراض بلاغية للإضافة في هذه الآية والتي وليتها في قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾[٣] . وربط بين الإضافتين الأولى "من رب العالمين" ، والثانية "من ربك" .

ومايهمنا هو الأغراض البلاغية للإضافة ، فقد ذكر التعظيم للمضاف إليه في ضمير الكاف المخاطب به ﷺ هذا في قوله "من ربك" ، ثم ذكر الإيماء إلى العموم التي أفادته الإضافة في قوله "من رب العالمين" ، وهو محل الشاهد في هذا السياق .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة للإكمال والإتمام .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : وضمير "أجلهن" للأزواج اللائي توفي عنهن أزواجهن ، وعرف الأجل بالإضافة إلى ضميرهن دون غير الإضافة من طريق التعريف ، لما تؤذن به إضافة أجل من كونهن قضين ماعليهن"[٥] .

---

(١) سورة السجدة : آية (٣) .

(٢) روح المعاني (١١٧/٢١) .

(٣) سورة السجدة : آية (٣) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٣٤) .

(٥) التحرير والتنوير (٤٤٦/٢) .

فإضافة أجل إلى ضمير النسوة الأرامل فيه إفادة إتمامهن وإكمالهن لما أنيط به من أمد عليهن .

ومنها أيضا أن تكون الإضافة للتحقيق .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) .

قال علامة تونس : "على أن إضافة "عند" لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققا ، لأن المضاف إليه أكرم الكرماء . فلايفوت الأجر الكائن عنده"(٢) .

فالإضافة في قوله "عند ربهم" تفيد هذه العندية التحقيق ، لأنها عند من لايخلف وعده ، ومن أوفى بعهده من الله .

وقد سبقت إشارة إلى هذا المعنى من العلامة أبي السعود العمادي ، إذ قال : "و"عند" متعلق بما تعلق به "لهم" من معنى الثبوت ، وفي إضافته إلى الرب المضاف إلى ضميرهم مزيد لطف بهم ، وإيذان بأن أجرهم متيقن الثبوت مأمون من الفوات"(٣) .

فذكر غرضين اثنين للإضافتين في هذا التركيب "عند ربهم" ، الأول التحقيق في إضافة لفظ "عند" إلى ربهم ، والثاني مزيد التلطف بالمؤمنين العاملين من إضافة لفظ "رب" إلى ضميرهم .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة لقصد التسجيل .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة : آية (٦٢) .

(٢) التحرير والتنوير (٥٤٠/١) .

(٣) تفسير أبي السعود (١٠٨/١) .

(٤) سورة الأنعام : آية (٤) .

قال ابن عاشور : "وإضافة الرب إلى ضمير "هم" لقصد التسجيل عليهم بالعقوق لحق العبودية ، لأن من حق العبد أن يقبل على مايأتيه من ربه ، وعلى من يأتيه يقول له : إني مرسل إليك من ربك ، ثم يتأمل وينظر ، وليس من حقه أن يعرض عن ذلك ؛ إذ لعله يعرض عما إن تأمله علم أنه من عند ربه"(١) .

فهو يفطن إلى ملمح دقيق جدا وهو أن الإضافة في معرض ذكر قبائحهم ، تكون للتسجيل على هؤلاء المعرضين ، الذين يعرضون عن آيات ربهم ، فليست الإضافة للتشريف لهم ، كما تشعر به كلمة "رب" ، وإنما ليسجل عليهم هذا الإعراض ، وذلك العقوق .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة للتأييد .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الزخرف : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾(٢) .

قال ابن عاشور : "ووجه الخطاب إلى النبي ﷺ وأضيف لفظ "الرب" إلى ضميره إيماء ، إلى أن الله مؤيده تأنيسا له ، لأن قولهم ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ قصدوا منه الاستخفاف به ، فرفع الله شأنه بإبلاغ الإنكار عليهم بالإقبال عليه بالخطاب ، وبإظهار أن الله ربه ؛ أي : متولي أمره وتدبيره"(٣) .

وعلامة تونس ينظر إلى المقام الذي وردت فيه الإضافة ويربطه بسياق الآيات السابقة واللاحقة ليستشف معنى الإضافة الذي يتطلب إدامة نظر وحسن تقدير . ولايأخذ اللفظ الإضافي أو التركيب الإضافي لينظر إليه وحده ، ولذا رأى أن الإضافة هنا للتأييد من قبل الرب جل وعلا إلى الرسول ﷺ ردا على استخفافهم برسوله ﷺ واستهزائهم به .

وقد ذكر أبو حيان في هذا التركيب كله "رحمة ربك" دون تفصيل أن الإضافة للتشريف فقال : "ثم في إضافته في قوله "رحمة ربك" تشريف له ﷺ وأن هذه الرحمة التي حصلت لك ليست إلا من ربك ، المصلح لحالك والمربيك"(٤) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٣٤/٧) .
(٢) سورة الزخرف : آية (٣٢) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٠١/٢٥) .
(٤) البحر المحيط (١٤/٨) .

بينما حدد علامة بغداد الإضافة ، ورأى أنها للتشريف ، فقال : "وفي إضافة "الرب" إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام مافيه"[١] .

والغرض البلاغي الذي ذكره ابن عاشور أولى وأدق .

ومن أغراضها أيضا التذكير والتلميح .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[٢] .

قال علامة تونس : "وعبر عن التوراة بـ"كتاب موسى" بطريق الإضافة دون الاسم العلم وهو التوراة ، لما تؤذن به الإضافة إلى اسم موسى من التذكير بأنه كتاب أنزل على بشر كما أنزل القرآن على محمد ﷺ تلميحا إلى مثار نتيجة قياس القرآن على كتاب موسى بالمشابهة في جميع الأحوال"[٣] .

وفي التعبير عن التوراة بالإضافة دون الاسم العلم لتذكيرهم بأنه قد سبق أن أنزل الله على بشر كتابا ، وتلميحا لهم إلى المشابهة بين ذين الأمرين ، فلماذا الطعن في القرآن ، واستبعاد حصول هذا الأمر ، ووقوع هذا الشأن .

ومن تلك الأغراض التسلية .

ففي تفسير قول الله تعالى في سورة فصلت : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "والتعبير عن الجلالة بلفظ "ربك" بما في معنى الرب من الرأفة به والانتصار له ، ولما في الإضافة إلى ضمير الرسول ﷺ من التشريف ، وكلا الأمرين تعزيز للتسلية"[٥] .

فالإضافة على أنها ذلك التركيب "ربك" إلا أنها أفادت نتيجة مراعاة المقام معنى آخر هو التسلية والتصبر وتعزيزهما بما يستشف من معنى الرأفة والرحمة

---

(١) روح المعاني (٧٨/٢٥) .

(٢) سورة الأحقاف : آية (١٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/٢٦) .

(٤) سورة فصلت : آية (٤٥) .

(٥) التحرير والتنوير (٢١٨/٢٤) .

والانتصار في لفظة "رب" ، والتشريف والرفعة المكتسبة للمضاف إليه من المضاف . فمراعاة المقام وأخذه في الاعتبار له حظ في لطائف معاني التركيب الإضافي .

ومن تلك الأغراض التفظيع .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[١] .

قال علامة تونس : "والعدول في قوله "عن أمر ربه" إلى التعريف بطريق الإضافة دون الضمير لتفظيع فسق الشيطان عن أمر الله ؛ بأنه فسق عبد عن أمر من تجب عليه طاعته ، لأنه مالكه"[٢] .

فإضافة "أمر" إلى "ربه" تفيد فظاعة عصيان المأمور أمر مالكه وخالقه لأنها معصية لمن لاعذر في عصيانه ولامحيد عن طاعته .

وقد ألمح إلى ذلك علامة بغداد فقال : "والتعرض لعنوان الربوبية المنافية للفسق لبيان قبح مافعله"[٣] .

فهذه إشارة إلى ورود لفظ "الرب" في قوله "أمر ربه" ويفهم منها بالتالي الغرض البلاغي للإضافة .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة للتهكم .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة السجدة : ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[٤] .

قال علامة تونس : "وإضافة "يوم" إلى ضمير المخاطبين تهكم بهم ، لأنهم كانوا ينكرونه ، فلما تحققوه جعل كأنه أشد اختصاصا بهم على طريقة الاستعارة التهكمية ، لأن اليوم إذا أضيف إلى القوم أو الجماعة إذا كان يوم انتصار لهم على عدوهم ، قال السموأل :

---

(١) سورة الكهف : آية (٥٠) .

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٣٤١) .

(٣) روح المعاني (١٥/٢٩٤) .

(٤) سورة السجدة : آية (١٤) .

وأيامنا مشهورة في عدونا لها غرر معلومة وحجول

ويقولون : أيام بني فلان على بني فلان ، أي : أيام انتصارهم"[١] .

فهو يبين حقيقة الإضافة بين "يوم" والضمير "هم" ، لأن اليوم هو يوم الحساب فكيف يكون "يومهم"؟

قال ابن عاشور مبينا ذلك : "وسبب ذلك أن تقدير الإضافة على معنى "اللام" وهي تفيد الاختصاص المنتزع من الملك . قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال

وقال تعالى : ﴿ذلك اليوم الحق﴾ أي : يوم نصر المؤمنين على المشركين في الآخرة نصرا مؤبدا ، أي : ليس كأيامكم في الدنيا التي هي أيام نصر زائل"[٢] .

فبين أن الإضافة على معنى اللام وعضدها بقول عمرو بن كلثوم في ظهور اللام التي تفيد الملك في أصل معناها ، وتفيد الاختصاص في مثل هذا المقام ، ليصح أن يضاف لهم "اليوم" على سبيل التهكم .

وقد سبقت إلماحة من علامة بغداد إلى أن المقام مقام توبيخ لا إلى غرض الإضافة ، فقال : "والتوبيخ به - أي : بالنسيان - من بين الأسباب ؛ لظهوره وكونه صادرا منهم ، لايسعهم إنكاره"[٣] .

وفي هذا بيان لدقة علامة تونس وصدق حسه البلاغي .

ونحو هذا الغرض وغرض التحقير ماورد في قوله تعالى في سورة طه : ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "وأضاف الإله إلى ضمير السامري تهكما بالسامري وتحقيرا له"[٥] .

فالإضافة في قوله "الهك" أفادت تهكما وتحقيرا للمضاف إليه وهو كاف الخطاب المقصود به السامري .

---

(١) التحرير والتنوير (٢١/٢٢٥) ومابعدها .

(٢) ن.م.س (٢١/٢٢٦) .

(٣) روح المعاني (٢١/١٣٠) .

(٤) سورة طه : آية (٩٧) .

(٥) التحرير والتنوير (١٦/٢٩٩) .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة للتشريف .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[(١)] .

قال علامة تونس : "وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله "إن ربك" لتشريف المضاف إليه"[(٢)] .

والغرض البلاغي واضح جدا في أن الإضافة أفادت تشريف المضاف إليه .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى : ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[(٣)] .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى : ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾[(٤)] .

ومن تلك الأغراض التهويل .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾[(٥)] .

قال علامة تونس : "وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله ، لصدوره من أقدر القادرين"[(٦)] .

فالعذاب في ذاته مخيف ، وقد أكسبته الإضافة إلى لفظ الجلالة التهويل .

ونحو هذا الغرض إضافة إلى غرض التعظيم ماورد في قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾[(٧)] .

قال علامة تونس : "والبأس تقدم الكلام عليه في سورة البقرة ، وإضافته إلى ضمير الله تعالى لتعظيمه وتهويله"[(٨)] .

فالبأس إذا أضيف إلى لفظ الجلالة أفاد أنه بأس عظيم ومهول .

---

(١) سورة الأنعام : آية (١١٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٨) .

(٣) سورة الأعراف : آية (٥٥) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٧١/٨) .

(٤) سورة الأعراف : آية (٧٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢١٨/٨) .

(٥) سورة الأنعام : آية (٤٠) .

(٦) التحرير والتنوير (٢٢٤/٧) .

(٧) سورة الأنعام : آية (١٤٨) .

(٨) التحرير والتنوير (١٤٩/٨) .

ونحوه في إفادة التعظيم ماورد في قوله تعالى : ﴿وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[(١)] .

فإضافة النور إلى لفظ "ربها" أفاد أنه نور عظيم ، لأن الله هو نور السموات والأرض .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة لكمال الملاطفة .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[(٢)] .

قال علامة تونس : "وفي تعريف لفظ الجلالة بلفظ الرب مضافا إلى ضمير المخاطب دون اسم الجلالة العلم من كمال الملاطفة مالايخفى"[(٣)] .

وهكذا يستظهر من المقامات اعتبارات تراعى في التراكيب الإضافية ، ولو تماثل في الظاهر التركيب نفسه .

ومن تلك الأغراض أن تكون الإضافة مفيدة ماتفيده أداة التعريف من العهد والاستغراق .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[(٤)] .

قال ابن عاشور : "وإضافة "آيات" إلىضمير الجلالة هنا يفيد تعريفا لآيات معهودة ؛ فإن تعريف الجمع بالإضافة - يأتي لما يأتي له التعريف باللام – يكون للعهد ويكون للاستغراق ، والمقصود هنا الأول ؛ أي : أرينا فرعون آياتنا التي جرت على يد موسى ، وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿في تسع آيات إلى فرعون قومه﴾ ، وهي : انقلاب العصا حية ، وتبدل لون اليد بيضاء ، وسنو القحط ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والطوفان ، وانفلاق البحر"[(٥)] .

وقد أشار الزمخشري إلى هذا المعنى فقال : "وفي قوله تعالى ﴿آياتنا كلها﴾ وجهان :

---

(١) سورة الزمر : آية (٦٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٦٦/٢٤) ومابعدها .

(٢) سورة الكهف : آية (٢٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٩٨/١٥) .

(٤) سورة طه : آية (٥٦) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٤٢/١٦) .

أحدهما : أن يحتذى بهذا التعريف الإضافي حذو التعريف باللام ، أو قيل : الآيات كلها . أعني أنها كانت لاتعطي إلا تعريف العهد والإشارة إلى الآيات المعلومة التي هي التسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام ، العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل ، والضفادع والدم ، ونتق الجبل . والثاني أن يكون موسى قد أراه آياته ..." (١) .

فالزمخشري يرى أن الإضافة تكون بمعنى أداة التعريف في هذه الآية ، من معنى الاستغراق أو معنى العهد .

وقد نقل عنه ذلك البيضاوي ، واختار معنى العهد فقال : "على أن المراد بآياتنا آيات معهودة وهي الآيات التسع"(٢) .

وقد عقب على ذلك الشهاب الخفاجي فقال : "على أن تعريف الإضافة تجري فيه جميع معاني اللام ، كما صرح به الزمخشري ، فالمراد به هنا العهد وهي آيات موسى عليه الصلاة والسلام المعهودة ... وجوز فيه أن يكون أيضا للاستغراق العرفي كما في جمع الأمير الصاغة"(٣) .

وأشار إلى هذا المعنى علامة بغداد فقال : "والإضافة ـ على ماقرر ـ للعهد"(٤) .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(٥) .

قال ابن عاشور : "وإضافة "يوم" إلى ضمير المخاطبين باعتبار كونهم فيه ، كقول النبي ﷺ في خطبة حجة الوداع : "كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا" فالإضافة قائمة مقام التعريف بـ"أل" العهدية"(٦) .

---

(١) الكشاف (٥٤١/٢) .

(٢) تفسير البيضاوي (٢٠٩/٦) .

(٣) حاشية الشهاب (٢٠٩/٦) ومابعدها .

(٤) روح المعاني (٢١٥/١٦) .

(٥) سورة الزمر : آية (٧١) .

(٦) التحرير والتنوير (٧٠/٢٤) .

فالإشارة إلى معهود حاضر وهو اليوم الذي يحصل فيه ذلك الخطاب ، ويقال فيه هذا الكلام .

بينما رأى علامة بغداد أن الإضافة هنا على معنى الاختصاص ، فقال : "والإضافة لامية تفيد الاختصاص ، لأنه يكفي للاختصاص ماذكر"[١] .

والذي ذكر هو قوله : "وجوز أن يراد به يوم القيامة والآخرة لاشتماله على هذا الوقت أو على مايختص بهم من عذابه وأهواله ، ولاينافيه كونه في ذاته غير مختص بهم"[٢] .

فملابسة كون عذابهم واقعا بذلك اليوم ، والعذاب مما يخصهم مسوغ لمجئ الإضافة بمعنى اللام التي تفيد الاختصاص .

وبذا ترى وجه دقة التأمل عند علامة تونس .

---

(١) روح المعاني (٢٤/٣٢) .
(٢) ن.م.س .

الباب الخامس

الإنشاء

الفصل الأول : الأمر والنهي .

الفصل الثاني : الاستفهام .

الفصل الثالث : التمني والنداء .

الفصل الأول

الأمر . النـهي

لغة :

هو مصدر الفعل الرباعي أنشأ ينشئ . ومعناه الإيجاد والابتداء والاختراع[١] وفي عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ : "قوله تعالى : ﴿ثم أنشأناه خلقا آخر﴾ ، الإنشاء ابتداء الخلق ، وكل من ابتدأ خلق شئ واخترعه فقد أنشأه ، ومنه أنشأ الشاعر القصيدة ، وأنشأ فلان بفعل كذا ، أي : ابتداء بفعله"[٢] .

واصطلاحا :

له حد اصطلاحي شائع بين الدارسين ، ومسطر في كتب البلاغيين ، وهو : الكلام الذي لايحتمل الصدق والكذب لذاته ، لأنه ليس له خارج يطابقه أو لايطابقه[٣] .

وهذا التعريف فيه نظر لأنه لم يحصل به حد الإنشاء ، والحد لابد أن يكون جامعا مانعا .

وقد رأيت الجم الغفير من أهل التحقيق من البلاغيين يكشفون مافي هذا الحد من وجه الضعف الذي دفعهم لئن يميطوا اللثام عن جنبات مآخذه ، وبيان الخلل في استقامة مؤداه ومدلوله .

بدءا من العلامة التفتازاني الذي تنبه لذلك عندما عرض لشرح قول المصنف القزويني في التلخيص : "... لأن الكلام إما خبر أو إنشاء ؛ لأنه إن كان لنسبته خارج تطابقه أو لاتطابقه فخبر . وإلا فإنشاء"[٤] .

---

(١) ينظر: الصحاح ، مادة (نشأ) (٧٧/١) ، لسان العرب (١٧٠/١) ، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم (ص٥٤٧) .

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي ، مادة (نشأ) (ص٥٧٥) .

(٣) تنظر : شروح التلخيص (١٦٦/١) ومابعدها ، (٢٣٤/٢) ومابعدها ، المطول (ص٢٢٤) ، حاشية الفنري (ص١٥٨) ، الأطول (ص٤٣) ، التجريد وتقرير الانبابي (٣٧٥/١) ومابعدها ، (٩٤/٣) ومابعدها .

(٤) تلخيص المفتاح بشرح البرقوقي (ص٣٨) .

فقال العلامة التفتازاني معقبا على ذلك : "وتحقيق ذلك أن الكلام إما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد إلى كونه دالا على نسبة حاصلة في الواقع بين الشيئين وهو الإنشاء ، أو تكون نسبته بحيث يقصد أن لها نسبة خارجية تطابقه أو لاتطابقه وهو الخبر"[١] .

وقد عقب على ذلك العلامة الدسوقي شارحا محصل هذا الكلام فقال : "قوله : "وتحقيق ذلك" أي : الفرق بين الإنشاء والخبر ، وقوله : "أن الكلام" يعني مطلقا ، وحاصله أن للإنشاء أيضا نسبة خارجية تطابقه أو لاتطابقه ، والفرق بينه وبين الخبر قصد المطابقة واللامطابقة في الخبر ، وعدم قصد ذلك في الإنشاء ، وفي قوله "تحقيق الخ" إشارة إلى أن مايقتضيه ظاهر المتن من أن الفرق بينهما أن الخبر له خارج ، والإنشاء لاخارج له كلام ظاهري خلاف التحقيق ، وقد علمت مافي ذلك التحقيق وأن الحق خلافه"[٢] .

أي : خلاف مافي المتن لاخلاف تحقيق السعد ؛ لأن كلام الدسوقي زيادة شرح وإيضاح لكلام العلامة التفتازاني ، وكلامهما إنما هو توجيه لاستقامة كلام المتن ، فقد جعلوا قيد "القصد" معتبرا في النسبة الخارجية للخبر ، وغير معتبر في النسبة الخارجية للإنشاء ، ولذا أمكن حمل كلام المتن في عدم اعتداده بالنسبة الخارجية للإنشاء ، من جعلها كلا نسبة . فمثلا قولك : أكرم ـ بصيغة الأمر ـ له نسبة كلامية ، وله نسبة خارجية . فالأولى طلب الإكرام من المخاطب والثانية الطلب النفسي للإكرام عند المتكلم ، فإن كان الطلب النفسي ثابتا للمتكلم في الواقع ، كانت هناك مطابقة بين الخارج والنسبة الكلامية ، وإلا فلا . فتحقيق هذه المسألة أن النسبة الخارجية للإنشاء موجودة ، ولكنها غير مقصودة . ومعنى غير مقصودة أي : أنها غير حاكية لمعنى حاصل في الخارج ، بل هي موجدة لهذه النسبة بخلاف الخبر الذي يحكي نسبة حاصلة في الخارج .

---

(١) المختصر (١٦٧/١) .

(٢) حاشية الدسوقي (١٦٧/١) .

وقد أصاب صاحب مواهب الفتاح حين قال في بداية مبحث الإنشاء : "... لفظ الإنشاء في الجملة يطلق على الكلام الذي لاتحتمل نسبته الصدق والكذب لعدم قصد حكاية تحققها في الخارج كما في الخبر"[١] .

فقيد قصد الحكاية هو الذي يفرق لنا بين الأساليب الإنشائية والخبرية ، حتى ولو وردت بعض المعاني الخبرية في أساليب إنشائية ، أو المعاني الإنشائية في أساليب خبرية ، أمكن التفرقة بينهما دون أدنى ريب .

وهذا ماأشار إليه أستاذنا في دلالات التراكيب حين أصل هذه المسألة بالشواهد والأمثلة ـ مما سمح له به مقامه ، ولم يسمح لي به المقام ـ في وجه التفرقة بين هذه المعاني ولو وردت على غير أساليبها ، فقال : "الفرق بين الضربين هو ماتحسه في العبارة من قصد المتكلم إلى الحكاية والخبر أو إيجاد النسبة ووقوعها"[٢] .

ونبه عقب إيراده شواهد لمعان إنشائية في قوالب لفظية خبرية فقال : "والمهم هنا أن القالب اللفظي ليس فيصلا بين الخبر والإنشاء ، وإنما مايجده السامع من طبيعة المعنى وقصد المتكلم به"[٣] .

بينما ذكر الدكتور عبد الفتاح عثمان هذه المسألة ، وفهمت من كلامه أن الدسوقي هو الذي فطن لهذه المسألة ، إذ قال : "وقد فطن إلى هذا أحد البلاغيين وهو الدسوقي ..."[٤] .

فوددت أن أرد على مايتوهم من مثل هذا الكلام من فهم تفرد الدسوقي في هذه الفطنة بأن هناك من البلاغيين من أهل التحقيق والنظر من سبقه إلى ذلك التنبيه وهو مسطور في كتبهم ، نحو مافي المختصر[٥] ، ومواهب الفتاح[٦] ، وحاشية

---

(١) مواهب الفتاح (٢٣٤/٢) ومابعدها .

(٢) دلالات التراكيب (ص١٨٩) .

(٣) ن.م.س .

(٤) في علم المعاني (ص١١١) .

(٥) ينظر : المختصر (١٦٧/١) .

(٦) ينظر : مواهب الفتاح (١٦٦/١) ومابعدها .

الفنري[١] ، وحاشية الحفيد[٢] ، والأطول[٣] ، والحواشي والنكات والفوائد المحررات[٤] ، والتجريد[٥] ، وغيرها .

وقبل أن أختم هذا المبحث لابد من الإشارة إلى أن إحدى الرسائل العلمية الجادة الموسومة بالنظم القرآني في آيات الجهاد[٦] عرضت لتعريف الخبر والإنشاء ، فاطرحت تعريف البلاغيين له ، وذكرت تعريفا للخبر والإنشاء ، لايثبت للمناقشة العلمية ولاللبحث الواعي . فعرفت الخبر بأنه : "ماتركب من جملة أو أكثر وأفاد فائدة مباشرة أو ضمنية"[٧] .

ويقصد بالمباشرة أي : فائدة الخبر ، وبالضمنية أي لازم الفائدة .

ولاغرو أن هذا التعريف منقوض بصيغ المدح والذم والإنشاء الطلبي بأجمعه وماورد من المعاني الإنشائية على الأساليب الخبرية ، إذ أن ذلك كله أفاد ، وإلا لم يحسن السكوت عليه .

ثم عرف الإنشاء : "بأنه ماسوى الخبر مما أفاد طلبا أو قسيمه" ، فما هو القسيم؟ إنه يحتاج إلى تعريف آخر .

فهذا لايمكن أن يعتمد عليه كتعريف البتة ، ولايصح أن يكون بديلا لتعريف البلاغيين .

---

(١) ينظر : حاشية الفنري (ص١٦٠) ومابعدها .

(٢) تنظر : حاشية الحفيد (ص٦٨) ومابعدها .

(٣) ينظر : الأطول (ص٤٤) .

(٤) تنظر : الحواشي والنكات والفوائد المحررات للعبادي لوحة ٤٧ ومابعدها ، مخطوطة في مكتبة الحرم المكي رقم ٣٣٥١ .

(٥) ينظر : التجريد (٣٨٣/١) ومابعدها .

(٦) حازت هذه الرسالة على درجة ممتاز مع مرتبة الشرف ، ونوقشت في عام ١٤١٣هـ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

(٧) النظم القرآني في آيات الجهاد (ص٢٥٣) .

أقسام الإنشاء

يقسم البلاغيون[١] الإنشاء إلى قسمين : طلبي وغير طلبي .

الطلبي : هو مايستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب .

وأنواعه خمسة : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء .

وهذا القسم هو مناط بحث البلاغيين ، وموضع عنايتهم ، ومستودع أسرار هذا الباب لكثرة لطائفه واعتباراته ، وتزايد دقائقه ونكاته .

وغير الطلبي : وهو مالايستدعي مطلوبا .

وأساليبه كثيرة :

منها بعض أفعال المقاربة وهي : عسى ... حرى ... اخلولق .

وأفعال المدح والذم ، نحو : نعم ... بئس ... حبذا ... لاحبذا .

وصيغ العقود[٢] ، نحو : بعت ... وهبت ... استأجرت ... رهنت ... أنا بائع .

والقسم بالباء أو الواو أو التاء أو بصيغة أخرى نحو : لعمرك .

وأفعال التعجب ، وكم الخبرية ، ورب .

وأساليب الإنشاء غير الطلبي ليس وراءها من المباحث البيانية مايدفع البلاغيين للبحث ، أو يستدعي الدراسة .

قال العلامة التفتازاني عنها : "فلايبحث عنها لقلة المباحث البيانية المتعلقة بها ولأن أكثرها في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء"[٣] .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٢/٢٣٤) ومابعدها .

(٢) وإنما قيل : صيغ العقود ولم يقل : أفعال العقود لتدخل فيها المشتقات نحو : أنا بائع وماشاكله.

(٣) المختصر (٢/٢٣٦) .

الفصل الأول

الأمر ـ النهي

الإنشاء الطلبي
الأمر

إن الجدة في الوقوف على هذه الأساليب ليس في مكرور القول ومعاده مما ألفه الدارسون في هذا الحقل ، والمتخصصون في هذا الفن ، من الصيغ الأربع التي تتناقلها الكتب ، ويحبرها المؤلفون في مؤلفاتهم ، وإنما هو مايزخر به هذا الأسلوب من خروج عن مألوف المعنى أو بالأصح عن معناه الأصلي إلى معان لايدرك دقائقها ولايكشف حقائقها ، ولايبصر مواردها وطرائقها إلا الألمعي الذي تضئ قبسات فكره الوثاب ، وحسه الحي اليقظ فيما يسطره من قيم المعرفة ، ونفيس الإدراك ، ليعيها في خالد السطور ، نير الصدور ، وتبقى على مرور الأزمان كالطود المنيف .

وأحسب أن وظيفة البلاغة ووجه جدتها الذي لابد أن يكون في ذهن كل معنى بها هو مايقتدر به نابه البلاغيين في سبر أغوار بليغ النصوص وتحليله ، وبيان دقائق معانيه ، ووجوه دلالات تراكيبه ، وأسرار حسن تأليفه ، وكل مايتصل به من الثراء الأدبي والعطاء الفني الذي أصلت البلاغة لأجله ، لتكون هذه هي آليتها وسر جدتها .

ومع كل دراسة جادة لنص أدبي أنتجه أي بليغ في أي عصر يمكن استخلاص سمات بلاغية تستحق التسجيل وتعد إضافة .

لأن البلاغة منطلق للدراسة وليست دراسة مصوغة ومفصلة للنصوص ، فتطبق على الأعمال الأدبية .

وحياة البلاغة الحقيقية هي فيما تقوم به من دراسات تصل فيها إلى أعماق النص لافيما تقوم عليه من دراسات في كتب البلاغيين .

ولذا فبقاء البلاغة خالد ببقاء البليغ من النصوص أو المتكلمين .

وهذه مهمتها التي يجب أن توظف فيها ، وهو سر تميز وإبداع الإمام عبد القاهر الجرجاني ، الذي يحث في النصوص عن أسرار جمالياتها ، ليبين لنا أن هذا النهج هو النهج الأصيل للبلاغة وهو منهج البحث والتفتيش والتنقير ، لا ليقعد لنا

بلاغة ننقلها عنه ، ونقف بها على حدود ماوقفت به سفائن بحثه عليه .

كان يعلمنا من خلال ذلك الكم الهائل والكثير من تلك الشواهد الزاخرة كتبه بها أن البلاغة في النص البياني وعلينا استظهارها منه ، لا أنها خارجة عنه وهي مقاييس بين أيدينا نطبقها عليه .

وهذا هو منهج الزمخشري وسر تميز كشافه ـ على مافيه من اعتزاليات ـ حتى عند أهل السنة والجماعة .

ويكفي للناظر غير السابر من الدلائل على صحة المقول في الكشاف ماتوافر عليه من الكشف عن معين علمه المتألق ماطافت به من أفكار حذاق العلماء ومتفرديهم من شروح وحواش حول هذا الكتاب .

وعلى نفس هذا النهج تفجر مداد قلم علامة تونس على طروسه ، وبدأ يخط لنا من نفيس العلم مايستحق الدراسات ، ويستوجب البحث الجاد والتحقيقات والتدقيقات .

وسيظهر من الأساليب البلاغية في هذا الباب عند خروجها عن معناها الأصلي مايزيد الأمر تأكيدا ، والبرهان برهانا ، والدليل دليلا .

فالأمر يخرج عن معناه الأصلي وهو : طلب الفعل على وجه الاستعلاء[(١)] إلى أساليب بلاغية .

من تلك الأساليب البلاغية التي يخرج إليها الأمر الإباحة .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[(٢)] .

قال ابن عاشور : "وقوله تعالى : ﴿فالآن باشروهن﴾ الأمر للإباحة ، وليس معنى قوله : "فالآن" إشارة إلى تشريع المباشرة حينئذ بل معناه "فالآن" اتضح الحكم فباشروهن ولاتختانوا أنفسكم"[(٣)] .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٣٠٨/٢) ومابعدها ، المطول وحاشية السيد على المطول (ص٢٣٩) ومابعدها .

(٢) سورة البقرة : آية (١٨٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٨٣/٢) .

فالأمر أفاد إباحة مباشرة المسلمين نساءهم في ليالي الصيام ، لأن هـذا الفعـل كان محظورا عليهم إلا في جزء يسير من الليل ، وهو من بعـد صـلاة المغـرب حتـى العشاء .

قال العلامة العمادي : "روي أن المسلمين كانوا إذا أمسوا حـل لهـم الأكـل والشرب والجماع إلى أن يصلوا العشاء الأخيرة ..." [١] .

فلما نزلت هذه الآية حل لهم ذلـك في جميـع الليـل إلى أن يتبـين لهـم الخيـط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر [٢] .

وقد صرح بهذا المعنى صاحب البحر المحيـط إذ قـال : "وهـذا أمـر أريـد بـه الإباحة ، لكونه ورد بعد النهي ، ولأن الاجماع انعقد عليه" [٣] .

فهو يستدل على كون الأمر للإباحة ، لوروده بعد النهي عن هذا الفعل وهو "المباشرة" كما روي ذلك عن المسلمين ، ولكون الإجمـاع انعقـد علـى إباحـة هـذا الفعل في ليالي رمضان بنص الآية وأجمع على ذلك الأئمة .

ونحو ذلك قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [٤] .

قال ابن عاشور : "والأمر "فاقتلوا المشركين" للإذن والإباحة ، باعتبـار كـل واحد من المأمورات على حدة ، أي : فقد أذن لكم في قتلهم ، وفي أخذهـم ، وفي حصارهم ، وفي منعهم من المرور بالأرض التي تحت حكـم الإسـلام ، وقـد يعـرض الوجوب إذا ظهرت مصلحة عظيمة ، ومن صور الوجوب مايأتي في قولـه : ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر﴾ والمقصود هنا : أن حرمة العهد قد زالت" [٥] .

---

(١) تفسير أبي السعود (٢٠١/١) .

(٢) ينظر : ن.م.س ، روح المعاني (٦٥/٢) ومابعدها .

(٣) البحر المحيط (٥٦/٢) .

(٤) سورة التوبة : آية (٥) .

(٥) التحرير والتنوير (١١٥/١٠) .

فالأمر هنا للإباحة وهي الإذن بالفعل أو الترك كما قال ابن السبكي[١] .

بينما رأى صاحب البحر المحيط أن الأمر هنا يفيد التشجيع وتقوية النفس ، مع الإباحة .

قال أبو حيان الأندلسي : "وجاء الأمر بالقتل على سبيل التشجيع وتقوية النفس ، وأنهم لامنعة عندهم من أن يقتلوا ، وفي إطلاق الأمر بالقتل دليل على قتلهم بأي وجه كان ..." [٢] .

وهذا معنى لطيف ، لأن البلاغة هي الغوص على دقائق المعاني لاالتقيد بما ذكره الأصوليون[٣] من صيغ الأمر .

وعليه فإن إدراك ماتوحي به العبارة من المعاني إذا لم يصرف عنه قرائن صارفة ، هو من باب إثراء المعاني ووفرتها .

ونحوه ماورد في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[٤] .

ومن تلك الأساليب الامتنان .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا﴾[٥] .

قال ابن عاشور : "والأمر في "كلوا" مستعمل في المنة ، ولايحمل على الإباحة هنا ؛ لأن إباحة المغانم مقررة من قبل يوم بدر"[٦] .

فالأمر هنا يفيد الامتنان على المسلمين بأكل الغنائم لا أنه يفيد إباحتها ، لأن إباحتها سبقت قبل يوم بدر في قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٧] ، ولايقال إن

---

(١) ينظر : عروس الأفراح (٣١٣/٢) .

(٢) البحر المحيط (١١/٥) .

(٣) ينظر : فصول الأصول لخلفان بن جميل السيابي (ص١١٩) ومابعدها .

(٤) سورة الكهف : آية (٨٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٣/١٦) .

(٥) سورة الأنفال : آية (٦٩) .

(٦) التحرير والتنوير (٧٩/١٠) .

(٧) سورة الأنفال : آية (٤١) ، وينظر : روح المعاني (٣٦/١٠) .

هذا الأمر الذي نحن بصدده تأكيد للتحليل السابق ، لأنه يجاب بأن التأسيس أولى من التأكيد .

قال أبو حيان : "وليس الأمر هذا منشئا لإباحة الغنائم ، إذ قد سبق تحليلها قبل يوم بدر ، ولكنه أمر يفيد التوكيد"[(١)] .

وربما اجتمع الامتنان والإباحة في صيغة واحدة ، نحو ماورد في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[(٢)] .

قال علامة تونس : "وقوله "اشكروا لله" معطوف على الأمر بأكل الطيبات الدال على الإباحة والامتنان ، والأمر في "اشكروا" للوجوب لأن شكر المنعم واجب"[(٣)] .

ورأى ابن السبكي أن الامتنان قسم من الإباحة ، فقال في عده لصيغ الأمر : "الامتنان : نحو فكلوا مما رزقكم الله ، والظاهر أنه قسم من الإباحة لكن معه امتنان"[(٤)] .

وبغض النظر عن أنه قسم من الإباحة أو قسم منفرد بذاته ، فإنه معنى يظهر في هذه الصيغة ، لتسجله البلاغة .

وقد ألمح أبو حيان لمعنى الامتنان في هذه الآية عندما عرض لبيان المفعول وهو قوله "مارزقناكم" فقال : "﴿مارزقناكم﴾ فيه إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة ، لما في الرزق من الامتنان والإحسان"[(٥)] .

والمراد بالامتنان هنا هو أكل الطيبات ، لأنه أشار في تفسير "اشكروا" إلى ذلك فقال : "والشكر ليس على هذا الإذن الخاص ، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص"[(٦)] .

---

(١) البحر المحيط (٥١٥/٤) .
(٢) سورة البقرة : آية (١٧٢) .
(٣) التحرير والتنوير (١١٤/٢) .
(٤) عروس الأفراح (٣٢١/٢) .
(٥) البحر المحيط (٦٥٩/١) .
(٦) ن.م.س .

ومنها التهديد .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[(١)] .

قال ابن عاشور : "وصيغة الأمر للتهديد مثل ﴿اعملوا ماشئتم﴾"[(٢)] .

لأن الأمر بالانتظار وهو قوله "انتظروا" صادر عن هود عليه السلام لقومه بعد أن دعاهم للتوحيد بقوله : ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[(٣)] ، فاستكبروا وأبوا ورفضوا ماجاء به ، حينئذ قال لهم : ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[(٤)] ، ثم فرع على هذا الأمر بالانتظار مهددا فقال : "فانتظروا" .

قال ابن عاشور : "والفاء في قوله "فانتظروا" لتفريع هذا الإنذار والتهديد السابق ؛ لأن وقوع الغضب والرجس عليهم ، ومكابرتهم واحتجاجهم لما لاحجة له ، ينشأ عن ذلك التهديد بانتظار العذاب"[(٥)] .

والمراد بالتهديد السابق هو قوله ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ .

وقد سبقت إشارة ابن عطية إلى معنى الأمر في هذه الآية ، فقال : "وقوله ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ الآية وعيد وتهديد"[(٦)] .

ويشتمل التهديد على الإنذار ، فيكون هاهنا غرضان ، قال العلامة التفتازاني عند قول المصنف : "والتهديد"[(٧)] : "أي : التخويف وهو أعم من الإنذار لأنه إبلاغ مع التخويف"[(٨)] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٧١) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٣١/٨) .
(٣) سورة الأعراف : آية (٦٥) .
(٤) سورة الأعراف : آية (٧١) .
(٥) التحرير والتنوير (٢١٣/٨) .
(٦) المحرر الوجيز (٤٢٠/٢) .
(٧) تلخيص المفتاح (٣١٤/٢) .
(٨) المختصر (٣١٤/٢) .

قال العلامة الدسوقي معقبا على كلام السعد : "قوله "لأنه إبلاغ الخ" أي : لأن الإنذار إبلاغ مصحوب بالتخويف ، وكان الأوضح لأنه تخويف مع إبلاغ ، وذلك كما قيل في قوله تعالى : ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ فصيغة "تمتعوا" مع مابعدها تخويف بأمر مع إبلاغه عن الغير ، والتهديد هو التخويف مطلقا سواء كان مصحوبا بإبلاغ أو لا ؛ بأن كان من عند نفسه فيكون أعم من الإنذار ؛ لأنه تخويف مقيد ، والمقيد أخص من المطلق"[١] .

ومن شواهد هذه الصيغة قوله تعالى : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[٣] .

ومنها التعجيز .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "والأمر في قوله "أنبئوني" أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أن الآمر عالم بذلك ، فليس هذا من التكليف بالمحال كما ظنه بعض المفسرين.

واستعمال صيغة الأمر في التعجيز مجاز ، ثم إن ذلك المعنى المجازي يستلزم علم الآمر بعجز المأمور ، وذلك يستلزم علم الآمر بالمأمور به"[٥] .

وقد اعتضد لكون الأمر للتعجيز بقرينة علم الملائكة بأن الله عالم بأن الملائكة لايعلمون ذلك ، لأن هذه الصيغة تظهر عجز الملائكة عن إنبائها بتلك الأسماء لاتكليفها بمحال .

وقد ألمح إلى هذا المعنى العلامة ناصر الدين البيضاوي فقال : "﴿فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء﴾ تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم عن أمر الخلافة ..."[٦] .

---

(١) حاشية الدسوقي (٢/٣١٤) .
(٢) سورة فصلت : آية (٤٠) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٤/٢٠٥) .
(٣) سورة هود : آية (٩٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٢/١٥٢) .
(٤) سورة البقرة : آية (٣١) .
(٥) التحرير والتنوير (١/٤١٢) .
(٦) تفسير البيضاوي (٢/١٢٦) .

وقد صرح به الشهاب الخفاجي فقال معقبا : ""قوله تبكيت لهم وتنبيه على عجزهم" إشارة إلى أن الأمر هنا تعجيزي ..."[١] .

وأشار إلى ذلك أيضا العلامة أبو حيان الأندلسي فقال : "﴿أنبئوني﴾ أمر تعجيز لاتكليف"[٢] .

ونحو هذا الغرض ماورد في قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٤] .

ومنها التوبيخ .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٥] .

قال علامة تونس : "والأمر في قوله ﴿كلوا مما في الأرض﴾ مستعمل في التوبيخ على ترك ذلك ، وليس للوجوب ولا للإباحة ؛ إذ ليس الكفار بأهل للخطاب بفروع الشريعة ، فقوله : "كلوا" تمهيد لقوله بعده ﴿ولاتتبعوا خطوات الشيطان﴾"[٦] .

فخطاب الكفار بالأكل من الحلال الطيب ليس الأمر فيه للإباحة ، لأن الكفار لايعقل أن يخاطبوا بالأكل من الحلال الذي لايكون خطابا إلا لمن كان ملتزما بالإسلام ، لكون هذا الأمر من فروع الشريعة التي يتوجه فيها الخطاب للمسلمين لا للكفار .

فهذه قرينة على أن الأمر يراد به في حق هؤلاء الكفار معنى آخر وهو التوبيخ .

---

(١) حاشية الشهاب (١٢٦/٢) .
(٢) البحر المحيط (٢٩٦/١) .
(٣) سورة الأنعام : آية (٩٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٧٩/٧) .
(٤) سورة البقرة : آية (٢٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٣٨/١) .
(٥) سورة البقرة : آية (١٦٨) .
(٦) التحرير والتنوير (١٠١/٢) .

بينما ذكر صاحب البحر المحيط أن الأمر في هذه الآية للإباحة والتسويغ ، فقال : "﴿كلوا﴾ أمر إباحة وتسويغ ، لأنه تعالى هو الموجد للأشياء فهو المتصرف فيها على مايريد"[١] .

ولعل معرفة سبب النزول يدفع إلى القول بأنها للإباحة ، قال الواحدي : "قوله تعالى : ﴿ياأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا﴾ ، قال الكلبي عن أبي صالح : نزلت في ثقيف ، وخزاعة ، وعامر بن صعصعة ، حرموا على أنفسهم من الحرث والأنعام ، وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي"[٢] .

وقد ذكر ابن عاشور سبب النزول ، ولكنه يرى أن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب ، ويرى على ذلك أن الأمر للتوبيخ .

ومنها الإهانة والتشفي .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٣] .

قال علامة تونس : "وصيغة الأمر في قولهم : "فذوقوا" مستعملة في الإهانة والتشفي"[٤] .

فالخطاب موجه من أهل النار إلى أهل النار ، من المتبوعين إلى الأتباع ، ومعنى أولاهم ، أي : دخولا أو منزلة[٥] ، وأخراهم كذلك ، فهم من أمم أهل النار والعياذ بالله ، والأمر يراد به الإهانة لهؤلاء الأتباع ، والتشفي منهم ، لكونهم قالوا : ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنْ النَّارِ﴾[٦] .

فرد عليهم المتبوعون بقولهم : "فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون" . أي : نحن وإياكم مشتركون في العذاب والضلال ، وليس لكم

(١) البحر المحيط (٦٥٢/١) .
(٢) أسباب نزول القرآن للواحدي (ص٥١) ومابعدها .
(٣) سورة الأعراف : آية (٣٩) .
(٤) التحرير والتنوير (١٢٤/٨) .
(٥) ينظر : تفسير أبي السعود (٢٢٧/٣) .
(٦) سورة الأعراف : آية (٣٨) .

فضل علينا حتى يخفف عنكم من العذاب من شئ فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تقترفونه من الضلالات والخطيئات[١] .

وقد ألمح علامة بغداد إلى هذا المعنى في تفسير هذه الآية الكريمة ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون﴾ ، فقال : "والظاهر أن هذا من كلام القادة قالوه على سبيل التشفي"[٢] .

ورأى فيه معنى آخر إذ كان من مقول الله ، فقال : "وجوز أن يكون من كلام الله تعالى للفريقين على سبيل التوبيخ"[٣] .

ونحو هذا الغرض وهو الإهانة ماورد في سورة الدخان في قوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾[٤] .

ومنها الوعيد .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف أيضا : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾[٥] .

رأى علامة تونس في صيغة الأمر هنا معنى آخر من المعاني التي يخرج فيها الأمر عن صيغته الأصلية ، فقال : "والأمر مستعمل للوعيد ، فيتأخر تنجيزه إلى يوم القيامة"[٦] .

وهذا خروج في الصيغة من جهة الزمان ، فكأن ابن عاشور يتابع السكاكي في كون الأمر حقه أن يكون على الفور لاعلى التراخي . قال الخطيب القزويني : "ثم الأمر قال السكاكي حقه الفور لأنه الظاهر من الطلب ، ولتبادر الفهم عند الأمر بشئ بعد الأمر بخلافه إلى تغيير الأمر الأول دون الجمع وإرادة التراخي"[٧] .

---

(١) ينظر : تفسير القرطبي (١٣٢/٧) ، تفسير أبي السعود (٢٢٧/٣) .

(٢) روح المعاني (١١٧/٨) .

(٣) ن.م.س .

(٤) سورة الدخان : آية (٤٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣١٦/٢٥) .

(٥) سورة الأعراف : آية (٣٨) .

(٦) التحرير والتنوير (١١٨/٨) .

(٧) التلخيص (١٧٠) بشرح البرقوقي .

فيرى علامة تونس أن تعليق الأمر من الآمر إلى زمن لما يقع بعد وحكايته ، يكون على سبيل الوعيد للمأمورين لما فيه من العقاب ، ولتأخير تنجيزه ، ويقابله ماإذا كان الأمر معهما للثواب ومفيدا له ، ويتأخر وقوعه ، فيسمى وعدا .

ومنها الاعتبار .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[1] .

قال علامة تونس : "فقوله ﴿ولنجعلك آية﴾ معطوف على مقدر دل عليه قوله : "فانظر إلى طعامك" ، "وانظر إلى حمارك" ؛ فإن الأمر فيه للاعتبار ، لأنه ناظر إلى ذلك لامحالة ، والمقصود اعتباره في استبعاده أن يحيي الله القرية بعد موتها ، فكان من قوة الكلام انظر إلى ماذكر جعلناه آية لك على البعث ، وجعلناك آية للناس ، لأنهم لم يروا طعامه وشرابه وحماره ، ولكن رأوا ذاته وتحققوه بصفاته"[2] .

فالأمر هنا في هاتين الصيغتين "فانظر" ، "وانظر" للاعتبار والتفكر في موته وبعثه بقرائن طعامه وشرابه الذي لم يتغير مع مرور هذه السنوات العديدة ، وحماره الذي تناخرت عظامه وتآكلت من الموت ، ليعتبر ويتفكر فيما قاله من استبعاد إحياء الله القرية الميتة التي مر عليها[3] .

وقد ذكر ابن السبكي هذا الغرض من الأغراض البلاغية للأمر فقال : "الأمر بمعنى الاعتبار ذكره العبادي أيضا في ترجمة غير الفارسي ومثله بقوله تعالى : ﴿انظروا إلى ثمره إذا أثمر﴾"[4] .

وقد وافق علامة تونس ابن السبكي أن الأمر في سورة الأنعام في قوله : ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾[5] يفيد الاعتبار والاستبصار .

---

(١) سورة البقرة : آية (٢٥٩) .

(٢) التحرير والتنوير (٣٧/٣) .

(٣) ينظر : فتح القدير (٣٥٠/١) ومابعدها ، روح المعاني (٢٢/٣) ومابعدها .

(٤) عروس الأفراح (٣٢١/٢) .

(٥) سورة الأنعام : آية (٩٩) .

قال علامة تونس في ذلك : "والمأمور به هو نظر الاستبصار والاعتبار بأطواره"[١] .

والمراد بقوله "بأطواره" أي : أطوار النبات .

ومنها الإرشاد .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "والأمر مستعمل في الإرشاد"[٣] .

فالأمر في هاتين الصيغتين ، في قوله "اقتلوا" ، وقوله "اطرحوه" تفيد غرضا بلاغيا وهو الإرشاد لهؤلاء الأخوة الذين ضاقوا ذرعا بمحبة يوسف من قبل أبيهم ، فأرادوا أن يتخلصوا منه بالقتل أو بالطرح في غيابة الجب .

والصادر منه الأمر في هاتين الصيغتين الأخوة بعضهم لبعض كما ذكر ذلك المفسرون[٤] وأشاروا إليه .

وقد أشار ابن السبكي إلى هذا الغرض فقال : "الإرشاد كقوله تعالى : ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ قال الغزالي والإمام : الإرشاد الندب لمصالح الدنيا والآخرة ، فيحتمل أن يكون قسما من المندوب تحصل به مصلحتان دنيوية وأخروية ، فيكون حكما شرعيا ، ويحتمل أن يكون من نوع الإشارة والإخبار أن ذلك مصلحة في الدنيا فيكون قسما آخر ليس من الحكم الشرعي"[٥] .

فالإرشاد هو الحث على ماينفع في الدنيا وفي الآخرة ، أو مايكون فيه منفعة في الدنيا .

فعلى الأول يكون حكما شرعيا ، وهو المندوب أي : المستحب لاالواجب وعلى الثاني يكون خلافه .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٠٣/٧) .

(٢) سورة يوسف : آية (٩) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٢٣/١٢) .

(٤) ينظر : تفسير الطبري (١٥٢/٧) ، تفسير ابن كثير (٤٨٦/٢) .

(٥) عروس الأفراح (٣٢١/٢) .

وهذه التقسيمات ليس وراءها طائل في البلاغة بل في علم الأصول ، والذي يخصنا هو خروج الأمر إلى غرض الإرشاد لاتقسيم الإرشاد .

وربما اجتمع غرض الإرشاد والاعتبار في صيغة واحدة ، نحو ماورد في قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[١] .

قال علامة تونس : "وتفرع عن هذه القصة العجيبة الأمر بالنظر في عاقبتهم بقوله : ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ فالأمر للإرشاد والاعتبار"[٢] .

فالأمر في هذه الجملة القرآنية الكريمة يدعو إلى النظر والاعتبار بما حل بقوم لوط من عذاب وتدمير .

وكلمة "انظر" نفسها فيها إيحاء بذين المعنيين ، لأن النظر يستدعي الاعتبار والإرشاد في مثل هذا المقام .

وقد ألمح علامة بغداد إلى غرضين آخرين وهما التعجيب والتحذير ، فقال : "﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي : مآل أولئك الكافرين المقترفين لتلك الفعلة الشنعاء ، وهذا خطاب لكل من يتأتى منه التأمل والنظر تعجيبا من حالهم ، وتحذيرا من أفعالهم"[٣] .

ومنها التحذير .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الطلاق : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾[٤] .

قال ابن عاشور : "فقوله ﴿واتقوا الله ربكم﴾ تحذير من التساهل في أحكام الطلاق"[٥] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (٨٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٣٨/٨) .

(٣) روح المعاني (١٧٢/٨) .

(٤) سورة الطلاق : آية (١) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٩٨/٢٨) .

لأن إيراد اتقاء الله في هذا المقام الذي يجب فيه مراعاة حدود الله وعدم تعديها في أحكام الطلاق إنما يكون تحذيرا للمسلمين من التساهل فيه ، لأن الله قال عقبه في الآية نفسها : ﴿وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ . وهذه الجملة القرآنية تؤكد معنى التحذير في صيغة الأمر .

ومنها التعجيب .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾[١] .

قال علامة تونس : "وقوله "انظر" تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد ، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها حتى إن الناظر يستطيع أن يراها ، فأما الأمر فهو مستعمل في التعجيب من حال إعراضهم"[٢] .

والتعبير بالنظر للمعقول وهو تصريف الآيات ودلائل الوحدانية لتنزيلها منزلة المشاهد ، من كون الناظر فيها يستطيع أن يراها .

والأمر مستعمل في التعجيب من حال الناظر إلى الحجج والبراهين والأدلة مع الإعراض عنها .

وقد أشار علامة بغداد إلى ذلك فقال : "وهذا تعجيب لرسول الله ﷺ وقيل لمن يصلح للخطاب من عدم تأثرهم بما مر من الآيات الباهرات"[٣] .

ومنها التهويل إضافة إلى غرض التعجيب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الصافات : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[٤] .

---

(١) سورة الأنعام : آية (٤٦) .

(٢) التحرير والتنوير (٧/٢٣٥) .

(٣) روح المعاني (٧/١٥٣) .

(٤) سورة الصافات : آية (٧٣) .

قال علامة تونس : "والأمر بالنظر مستعمل في التعجيب والتهويل ، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصري ، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة كما يقتضيه السياق فالنظر قلبي ، ولامانع من إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين"[(١)] .

فاعتبار المقام ومراعاته يكشف للمتأمل عن معنى لم يكن ليقف عليه أو يتباصر به إذ لم يكن يضع في اعتباراته ذلك .

فالأمر "انظر" ذكرنا أنه للتعجيب وذكرنا أنه للاعتبار ، ونذكر هنا أنه للتعجيب وللتهويل ، لأن المقام مقام تهديد وتخويف ، فكان معناه في هذا السياق يوحي بدلالات هذين الغرضين .

فالتعجيب من حال من أرسل إليهم رسل الله بدلائل وآيات ومعجزات ليؤمنوا بالله ربهم ، فما كان منهم إلا الكفر والإعراض .

والتهويل صادر من حالة من جاءتهم النذارة بالعذاب ، فلم يتعظوا بذلك الإنذار ولابذلك التخويف الذي جاء به المنذرون ، فانظر كيف كانت عواقب أحوال هؤلاء المنذرين ـ بفتح الذال ـ .

وقد أشار إلى ذلك علامة بغداد إذ قال : "﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ من الهول والفظاعة لما لم يلتفتوا إلى الإنذار ، ولم يرفعوا إليه رأسا"[(٢)] .

ومنها التسوية .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الطور : ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "وفرع على "اصلوها" أمر للتسوية بين صبرهم على حرها وبين عدم الصبر وهو الجزع ، لأن كليهما لايخففان عنهم شيئا من العذاب ، ألا ترى أنهم يقولون : ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص﴾ لأن جرمهم عظيم لامطمع في تخفيف جزائه"[(٤)] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٢٨/٢٣) .

(٢) روح المعاني (٩٤/٢٣) .

(٣) سورة الطور : آية (١٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٤٤/٢٧) .

وقد ألمح الزمخشري إلى ذلك فقال : "أي : سواء عليكم الأمران الصبر وعدمه"[١] .

وإن كان لفظة "سواء" صرحت بذلك المعنى من التسوية بين الصبر وعدمه ، ونحو هذا الغرض ماورد في تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[٢] .

قال علامة تونس : "والأمر في "أنفقوا" للتسوية أي : أنفقوا أو لاتنفقوا ، كما دلت عليه "أو" في قوله "طوعا أو كرها" ، وهو في معنى الخبر الشرطي ، لأنه في قوة أن يقال : لن يتقبل منكم إن أنفقتم طوعا أو أنفقتم كرها .

ألا ترى أنه قد يجئ بعد أمثاله الشرط في معناه كقوله تعالى : ﴿استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾"[٣] .

وقد أطال الزمخشري[٤] شرح هذا التركيب بما ملخصه ماذكره علامة تونس.

قال العلامة الدسوقي : "يعني أن صيغة الأمر تستعمل للتسوية بين شيئين وذلك في مقام توهم أن أحدهما أرجح من الآخر ، كقوله تعالى : ﴿أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم﴾ ، فإنه ربما يتوهم أن الإنفاق طوعا مقبول دون الإكراه فسوى بينهما في عدم القبول ، وكقوله تعالى : ﴿اصبروا أو لاتصبروا﴾ فإنه ربما يتوهم أن الصبر نافع ، فدفع ذلك بالتسوية بين الصبر وعدمه"[٥] .

ومنها التنكيل .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٦] .

قال علامة تونس : "والأمر في قوله "ذوقوا" مستعمل في التنكيل"[٧] .

---

(١) الكشاف (٢٣/٤) .
(٢) سورة التوبة : آية (٥٣) .
(٣) التحرير والتنوير (٢٢٦/١٠) .
(٤) ينظر : الكشاف (١٩٥/٢) .
(٥) حاشية الدسوقي (٣١٨/٢) .
(٦) سورة الذاريات : آية (١٤) .
(٧) التحرير والتنوير (٣٤٥/٢٦) .

فالأمر يفيد التنكيل بهم ، لأنهم كانوا يستعجلون بهذا العذاب ويستهزئون بيوم الدين . وحين يقولون : أيان يوم الدين؟ على سبيل الاستهزاء والتهكم ، فكان هذا النكال بهم هو جزاءهم ومايستحقونه ، ولايبعد أن يكون الأمر للإهانة أيضا كما لايخفى .

ومنها التثبيت .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الدخان : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[(١)] .

قال علامة تونس : "فالخطاب في "ارتقب" للنبي ﷺ والأمر مستعمل في التثبيت"[(٢)] .

لأن المقام هنا مقام وعد من الله لنبيه ﷺ بالانتقام من أهل الكفر ، وهو أيضا مقام وعيد للكافرين على تكذيبهم .

فجاء الأمر هنا مفيدا التثبيت في نصرة رسوله ﷺ ونصرة دينه ، لأن هؤلاء الكفرة كانوا يستهزئون بالقرآن وبالرسول ﷺ .

ومنها الاستمرار .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الروم : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "والأمر مستعمل في طلب الدوام"[(٤)] .

فالخطاب موجه للنبي ﷺ وهو مقيم وجهه للدين حنيفا ، فالأمر يفيد غرضا بلاغيا وهو الاستمرار والدوام على ذلك .

وإذا كان الخطاب موجها لأمته فهو يفيد هذا المعنى أيضا .

ونحوه قوله تعالى في سورة النساء : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة الدخان : آية (١٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٨٥/٢٥) .

(٣) سورة الروم : آية (٣٠) .

(٤) التحرير والتنوير (٨٨/٢١) .

(٥) سورة النساء : آية (١٣٦) .

قال علامة تونس في وجه من وجوه خمسة في تفسير هذا الأمر في قوله "آمنوا" : "أن يراد بالأمر بالإيمان الدوام عليه تثبيتا لهم على ذلك ..." [(١)] .

وقد أشار إلى ذلك الزمخشري فقال : "ومعنى "آمنوا" اثبتوا على الإيمان وداوموا عليه وازدادوه"[(٢)] .

ونحوه ماورد في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾[(٣)] أي : استمر على تلاوة كتاب ربك .

ومنها التسخير والتعجيز .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾[(٤)] .

قال علامة تونس : "والأمر في ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ مستعمل في التسخير والتعجيز كناية عن النفي ؛ إن لم يخلقوا من الأرض شيئا فلاتستطيعوا أن تروني شيئا خلقوه في الأرض ، وهذا من رؤوس مسائل المناظرة ، وهو مطالبة المدعي بالدليل على إثبات دعواه"[(٥)] .

ومعنى التعجيز ظاهر جدا ، فهم عاجزون عن إراءة الله خلق معبوداتهم ، لأنها لم تخلق شيئا .

ولكن معنى التسخير الذي هو عند البلاغيين[(٦)] انقياد المأمور للأمر من غير قدرة له فيه . أحسبه غير ظاهر ، وقد مثلوا له بقوله تعالى : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[(٧)] .

---

(١) التحرير والتنوير (٥/٢٣٠) .

(٢) الكشاف (١/٥٧١) .

(٣) سورة الكهف : آية (٢٧) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٥/٣٠٣) .

(٤) سورة الأحقاف : آية (٤) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٦/٩) .

(٦) ينظر : شروح التلخيص (٢/٣١٧) ، بغية الإيضاح (٢/٥٤) .

(٧) سورة البقرة : آية (٦٥) .

بينما جعل ابن عاشور الأمر في قوله "كونوا" أمر تكوين ، فقال : "وقوله ﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ "كونوا" أمر تكوين"[(١)] .

ولايخفى أن مآل التكوين والتسخير عند ابن عاشور بمعنى واحد ، وإن اختلفت التسمية .

---

(١) التحرير والتنوير (١/٥٤٤) .

النهي

النهي : هو طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء[١] .

وقد داخل هذا المبحث بل الإنشاء بصفة عامة بعض المسائل الأصولية التي يعد الكلام فيها من خلط مسائل علم بمسائل علم آخر .

قال صاحب بغية الإيضاح تعليقا على بعض المسائل الأصولية : "الحق أنه لامعنى لذكر مثل هذا هنا ؛ لأنه من خلط مسائل علم بمسائل علم آخر"[٢] .

وسوف أتجاوز بإذن الله تلك المسائل الأصولية ، محاولا رصد المعاني البلاغية التي يخرج إليها النهي عن معناه الأصلي .

من تلك المعاني البلاغية التي يتخرج إليها النهي : الإباحة .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة القصص : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[٣] .

قال علامة تونس : "والنهي في "لاتنس نصيبك" مستعمل في الإباحة"[٤] .

وهذا النهي موجه لقارون وصادر من الناصحين من قومه ، وهم بذلك يحاولون إبانة الحق له وإيضاح الطريق السوي له ، لأنه بغى في الأرض وأفسد ، فقالوا له : لاتفرح ولاتبطر بما أتاك الله من الكنوز والأموال ، واطلب بها الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا ، ولاتبغ الفساد في الأرض .

وإنما قالوا له لاتنس نصيبك من الدنيا وهو لم ينس ذلك ، لأن هذه الجملة احتراس من إيهام وعظهم إياه ترك حظوظ الدنيا بقولهم : "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة" ، فجاءت جملة الاحتراس وهي جملة النهي مفيدة إباحة أخذه من أمواله مايكون لدنياه[٥] .

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٢/٣٢٤) .

(٢) بغية الإيضاح (٢/٥٦) .

(٣) سورة القصص : آية (٧٧) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٠/١٧٩) .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير (٢٠/١٧٩) .

وذكر العلامة القرطبي تأويلا آخر في جملة النهي وهي قوله : ﴿ولاتنس نصيبك من الدنيا﴾ نسبه لابن عباس رضي الله عنهما والجمهور فقال : "قوله تعالى ﴿ولاتنس نصيبك من الدنيا﴾ اختلف فيه ، فقال ابن عباس والجمهور : لاتضيع عمرك في ألا تعمل عملا صالحا في دنياك ، إذ الآخرة إنما يعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها"[(١)] .

وهذا إذا صح عن ابن عباس رضي الله عنهما فيكون معنى الأمر على حقيقته .

بينما ذكر العلامة القرطبي[(٢)] تأويلات أخرى منسوبة لكبار الأئمة من المفسرين كقتادة والحسن ، والإمام مالك وغيرهم تفيد المعنى الذي قدمنا ذكره وهو الأظهر .

ومنها التسوية .

ففي تفسر قوله تعالى في سورة النحل : ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "والمراد من النهي هنا دقيق لم يذكروه في موارد صيغ النهي . ويجدر أن يكون للتسوية ، كما ترد صيغة الأمر للتسوية ، أي : لاجدوى في استعجاله ، لأنه لايعجل قبل وقته المؤجل له"[(٤)] .

فهو يرى أن البلاغيين لم يذكروا معنى التسوية التي يخرج إليها النهي كما ذكروا ذلك في الأمر .

وكلامه هنا لايسلم له به ، إذ أن بعض البلاغيين وهو ابن السبكي ذكر أن النهي يرد بمعنى التسوية ، فقال في المعاني التي يخرج إليها النهي لا الأمر : "ويمكن أن يكون منها التسوية مثل : ﴿اصبروا أو لاتصبروا﴾"[(٥)] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٠٧/١٣) .

(٢) ينظر : الجامع لأحكام القرآن (٢٠٧/١٣) ومابعدها .

(٣) سورة النحل : آية (١) .

(٤) التحرير والتنوير (٩٧/١٤) .

(٥) عروس الأفراح (٣٢٧/٢) .

فقوله "أو لاتصبروا" يفيد التسوية كما أفاد قوله "اصبروا" التسوية ، اللهم إلا أن يريد ابن عاشور أن البلاغيين أي : جمهورهم لم يذكروا هذا المعنى البلاغي للنهي فيحمل كلامه على هذا الوجه من الصحة .

وعلى كل فالمعنى الذي استظهره في الآية الكريمة معنى دقيق ، فالنهي في قوله "فلاتستعجلوه" ليس على حقيقته من طلب الكف عن استعجال أمر الله ، بل معناه غير مجد استعجالكم إياه وعدم استعجالكم ، لأنه لايأتي إلا في وقته المحدد له.

ونحو هذا الغرض البلاغي ماورد في سورة المؤمنون في قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنصَرُونَ﴾[1] .

قال ابن عاشور : "والنهي عن الجؤار مستعمل في معنى التسوية ، وورود النهي في معنى التسوية مقيس على ورود الأمر في التسوية ، وعثرت على اجتماعهما في قوله تعالى : ﴿اصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم﴾"[2] .

وقد سبق أن ذكرت كلام ابن السبكي وإشارته إلى آية سورة الطور ، التي ورد فيها النهي للتسوية ولاتثريب علي في إعادته ، إذ قال ابن السبكي : "ويمكن أن يكون منها التسوية ، مثل ﴿اصبروا أو لاتصبروا﴾"[3] .

فليس ابن عاشور هو الذي عثر على اجتماعهما في هذه الآية بل ذكرها ابن السبكي قبله .

ومعنى التسوية في آية سورة المؤمنون ، أي : لاتجأروا إذ غير مجد جؤاركم ، لأنه لاناصر لكم من عذابنا . فجؤاركم وعدمه مستويان في عدم الجدوى والفائدة.

ومنها التذكير والإرشاد .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة ص : ﴿وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[4] .

---

(١) سورة المؤمنون : آية (٦٤-٦٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٨٥/١٨) .

(٣) عروس الأفراح (٣٢٧/٢) .

(٤) سورة ص : آية (٢٢) .

قال علامة تونس : "والنهي في "لاتشطط" مستعمل في التذكير والإرشاد"[١].

لأن النهي صادر من الخصم الذين تسوروا المحراب على داود عليه السلام ، وهذا النهي موجه لداود عليه الصلاة والسلام على سبيل التذكير والإرشاد ، لأن داود عليه الصلاة والسلام نبي ولايصح في حقه الظلم والجور فينهى عنهما ، بل خرج هذا النهي إلى معنى بلاغي وهو التذكير والإرشاد .

وروي أن هذا الخصم إنما هم ملائكة في صورة بشر ، وهذا المعنى البلاغي في النهي معنى لطيف ينم عن دقة رهافة حس ابن عاشور ، وينبئك عن ذلك ماذكره أبو حيان إذ قال : "وفي أمرهم له ونهيهم بعض فظاظة على الحكام ، حمل على ذلك ماهم فيه من التخاصم والتشاجر ، واستدعوا عدله من غير ارتياب في أنه يحكم بالعدل"[٢] .

وينبئك أيضا عن ذلك ماذكره علامة بغداد إذ قال في هذا النهي : "واحد الخصمين قد يقول نحو ذلك للإيماء إلى أنه المحق ، وقد يقوله اتهاما للحاكم ، وفيه حينئذ من الفظاظة مافيه .

وعلى ماذكرنا ، أولا : فيه بعض فضاضة ، وفي تحمل داود عليه السلام لذلك منهم دلالة على أنه يليق بالحاكم تحمل نحو ذلك من المتخاصمين لاسيما إذا كان ممن معه الحق ، فحال المرء وقت التخاصم لايخفى"[٣] .

وهذا على إجراء النهي في قوله "ولاتشطط" على بابه أو بالأصح على حقيقته ، وهو غير مراد هنا ، حتى نعى علامة بغداد على المتصدرين للحكم بين الناس مايصدرونه من ردود فعل على المتبجحين عليهم بالكلام ، فقال : "والعجب من حاكم أو محكم أو من للخصوم نوع رجوع إليه كالمفتي كيف لايقتدي بهذا النبي الأواب عليه الصلاة والسلام في ذلك ، بل يغضب كل الغضب لأدنى كلمة

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٢٣٤) .

(٢) البحر المحيط (٧/٣٧٦) .

(٣) روح المعاني (٢٣/١٧٢) .

تصدر ولو فلتة من أحد الخصمين يتوهم منها الحط لقدره ، ولو فكر في نفسه لعلم أنه بالنسبة إلى هذا النبي الأواب لايعدل والله العظيم متك[(١)] ذباب ، اللهم وفقنا لأحسن الأخلاق ، واعصمنا من الأغلاط"[(٢)] .

على أن المعنى البلاغي في صيغة النهي يوضح لنا مورد النهي ومرماه ، وينأى بنا عن أن نرتب عليه من الآداب ما لم يفهمه .

قال علامة تونس : "ومخاطبة الخصم داود بهذا خارجة مخرج الحرص على إظهار الحق وهو في معنى الذكرى بالواجب ، فلذلك لايعد مثلها جفاء للحاكم والقاضي وهو من قبيل : اتق الله في أمري .

وصدوره قبل الحكم أقرب إلى معنى التذكير وأبعد عن الجفاء ، فإن وقع بعد الحكم كان أقرب إلى الجفاء ، كالذي قال للنبي ﷺ في قسمة قسمها : اعدل ، فقال له الرسول : ويلك فمن يعدل إن لم أعدل"[(٣)] .

بل ذكر ابن عاشور حكم الشرع من جهة المذهب المالكي فيمن يتلفظ على القاضي ، فقال : "وقد قال علماؤنا في قول الخصم للقاضي : "اتق الله في أمري" ، أنه لايعد جفاء للقاضي ، ولايجوز للقاضي أن يعاقبه عليه كما يعاقب من أساء إليه"[(٤)] .

ففهم الدلالة البلاغية في الأساليب يبني حكما صحيحا ، وينجي من الوقوع في مزال الأقلام ، ومطارح الأفهام .

ومنها التحذير .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[(٥)] .

---

(١) متك الذباب هو خرطوم الذباب . ينظر : المعجم الوسيط ، مادة (متك) (١/٨٥٣) .

(٢) روح المعاني (٢٣/١٧٢) .

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/٢٣٤) .

(٤) ن.م.س .

(٥) سورة المائدة : آية (٢١) .

قال علامة تونس : "وقوله : "ولاترتدوا على أدباركم" تحذير مما يوجب الانهزام ، لأن ارتداد الجيش على الأعقاب من أكبر أسباب الانخذال"[(١)] .

فالنهي هنا أفاد التحذير من الوقوع في مثل هذا الأمر ، لا النهي عن الكف عنه .

والكلام صادر من موسى عليه الصلاة والسلام إلى قومه بني إسرائيل إلى دخول الأرض المقدسة التي قيل إنها فلسطين أو الشام[(٢)] .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[(٣)] .

قال علامة تونس : "وقوله "ولاتتبعوا خطوات الشيطان" تحذير مما يصدهم عن الدخول في السلم المأمور به بطريق النهي ، عن خلاف المأمور به"[(٤)] .

فقد أمروا بالدخول في السلم وحذروا بطريق النهي عما يصدهم عنه بما مآله تأكيد الدخول في السلم .

لأن التحذير من اتباع خطوات الشيطان هو تحذير من كل مزلق يبعد عن الدخول في السلم .

والمراد بالسلم هو السلم الحقيقي الذي هو خلاف الحرب ، أو المراد به الاستسلام والطاعة ، أو المراد به شعب الإسلام[(٥)] ـ بضم الشين وفتح العين ـ .

ومنها التهييج وإثارة الغضب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة القصص : ﴿فَلاتَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾[(٦)] .

قال علامة تونس : "وقيل النهي للتهييج ، لإثارة غضب النبي ﷺ عليهم ، وتقوية داعي شدته معهم .

---

(١) التحرير والتنوير (١٦٢/٦) .

(٢) ينظر : تفسير الطبري (٥١٣/٤) ، تفسير القرطبي (٨٣/٦) .

(٣) سورة البقرة : آية (٢٠٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٧٩/٢) .

(٥) ينظر : تفسير أبي السعود (٢١٢/١) ، فتح القدير (٢٦٤/١) .

(٦) سورة القصص : آية (٨٦) .

ووجه تأويل النهي بصرفه عن ظاهره أو عن بعض ظاهره هو أن المنهي عنه لايفرض وقوعه من الرسول ﷺ حتى ينهى عنه ، فكان ذلك قرينة على أنه مؤول"[١] .

وإجراء النهي على معنى بلاغي هو التهييج والإلهاب وإثارة الغضب هو خروج به عن ظاهر معناه الذي يمكن اجراؤه عليه دون أدنى بعد .

وأحسب أن ابن عاشور قدم له بصيغة التمريض لأجل أن هناك مايساعد على إجرائه على ظاهره .

ثم إن القرينة التي ذكرها لصرف هذا النهي عن ظاهره ، لايلزم منها هذا المعنى البلاغي .

وقد فسر العلامة ابن كثير هذه الآية على ظاهرها فقال : "﴿فلاتكونن ظهيرا للكافرين﴾ أي : معينا للكافرين ، ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم"[٢] .

ونحو هذا الغرض مارآه ابن عاشور في قوله تعالى : ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾[٣] .

قال علامة تونس : "وقيل : هو للتهييج أيضا ، وتأويل هذا النهي آكد من تأويل قوله ﴿فلاتكونن ظهيرا للكافرين﴾"[٤] .

ولايخفى تقديم ابن عاشور له بصيغة التمريض وإن نبه على أنه آكد من تأويل الآية السابقة .

وقد أجراه العلامة ابن كثير على ظاهره فقال : "﴿ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي : لاتتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك ، لاتلوي على ذلك ولاتباله ؛ فإن الله معل كلمتك ومؤيد دينك ، ومظهر ماأرسلك به على سائر الأديان . ولهذا قال : ﴿وادع إلى ربك﴾ أي : إلى عبادة ربك وحده

---

(١) التحرير والتنوير (١٩٥/٢٠) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤١٤/٣) .
(٣) سورة القصص : آية (٨٧) .
(٤) التحرير والتنوير (١٩٥/٢) .

لاشريك له ولاتكونن من المشركين﴾"[١] .

بينما جعل ابن عاشور هذه الآية : ﴿وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢] ، تحتمل أحد أمرين : إما الغرض البلاغي في النهي وهو التهييج ، أو أن يكون المقصود بهاالمسلمون ، فقال : "أما قوله : ﴿ولاتكونن من المشركين﴾ فإن حملت من فيه على معنى التبعيض ، كان النهي مؤولا بمثل ماأولوا به النهيين اللذين قبله أنه للتهييج أو أن المقصود به المسلمون"[٣] .

والمراد بالنهيين اللذين قبله هما المذكوران سابقا ، وهما قوله تعالى : ﴿فلاتكونن ظهيرا للكافرين﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ولايصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ . وقد رأينا كيف أجراها العلامة ابن كثير على ظاهرها دون أن يكون خطاب النبي ﷺ بها قرينة على تأويلها .

بينما ذكر العلامة أبو حيان أن هذه المناهي من باب التعريض فقال : "وهذه المناهي كلها ظاهرها أنها للرسول ﷺ وهي في الحقيقة لأتباعه"[٤] .

وقد سبقت إشارة العلامة الزمخشري إلى المعنى الذي ذهب إليه ابن عاشور حين قال علامة خوارزم : "والنهي عن مظاهرة الكافرين ، ونحو ذلك من باب التهييج"[٥] .

وقد تابعه على هذا المعنى العلامة ناصر الدين البيضاوي حين قال : "هذا وماقبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم"[٦] .

وعقب عليه العلامة الخفاجي فقال : "قوله "هذا وماقبله للتهييج" لأنه لايتصور منه ذلك حتى ينهى عنه ؛ فكأنه لما نهاه عنهم عن مظاهراتهم ومداراتهم ، قال إن ذلك مبغوض لي كالشرك ؛ فلاتكن ممن يفعله .

---

(١) تفسير ابن كثير (٤١٤/٣) .
(٢) سورة القصص : آية (٨٧) .
(٣) التحرير والتنوير (١٩٦/٢٠) .
(٤) البحر المحيط (١٣٣/٧) .
(٥) الكشاف (١٩٤/٣) .
(٦) تفسير البيضاوي (٩٠/٧) .

أو المراد نهي أمته وإن كان الخطاب له ﷺ "[١] .

ومنها التهكم .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الذاريات : ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾[٢] ـ بكسر النون ـ .

قال ابن عاشور : "والنهي مستعمل في التهكم إظهارا لغضب الله عليهم"[٣] .

والخطاب موجه من الله سبحانه وتعالى تسلية لرسوله ﷺ وتعريضا بالمشركين بأن لهم عذابا مماثلا لعذاب الظالمين من الأمم السابقة قبلهم ، وقد كان المشركون يستعجلون بالعذاب من باب الاستهزاء والتهكم بهذا العذاب الموعود .

فجاء قوله "فلايستعجلون" ـ بكسر نون الوقاية وحذف ياء المتكلم تخفيفا ـ نهيا خارجا عن معناه الأصلي إلى معنى التهكم بهم لبيان غضب الله عليهم .

ويؤكد هذا المعنى الجملة القرآنية التي وليته وهي قوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾[٤] .

ومنها التوبيخ .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾[٥] .

قال علامة تونس : "والمقصود من النهي توبيخهم على تأخرهم في اتباع دعوة الإسلام"[٦] .

فالنهي هنا نهي توبيخ لليهود المخاطبين بهذا الخطاب ، لكونهم أهل كتاب فكان حريا بهم أن يكونوا أول من يؤمن به ، فهو مصدق لما معهم ، ثم إن الله قد أسبغ عليهم من النعم والعلم مايدفعهم لذلك .

---

(١) حاشية الشهاب (٩٠/٧) .
(٢) سورة الذاريات : آية (٥٩) .
(٣) التحرير والتنوير (٣١/٢٧) .
(٤) سورة الذاريات : آية (٦٠) .
(٥) سورة البقرة : آية (٤١) .
(٦) التحرير والتنوير (٤٦٠/١) .

فقال جل شأنه : ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾(١) .

ومنها التأييس .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾(٢) .

قال علامة تونس : "والنهي في قوله ﴿لاتعتذروا﴾ مستعمل في التأييس"(٣) .

فصيغة النهي هنا خرجت إلى معنى اليأس أو بالأصح التأييس لهؤلاء الفريق المتخلف عن غزوة تبوك سواء كانوا من منافقي الأعراب أو منافقي أهل المدينة .

ومنها الدعاء .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾(٤) .

قال ابن عاشور : "يجوز أن يكون هذا الدعاء محكيا من قول المؤمنين الذين قالوا : سمعنا وأطعنا بأن اتبعوا القبول والرضا ، فتوجهوا إلى طلب الجزاء ومناجاة الله تعالى"(٥) .

فإشارته إلى أسلوب النهي الذي يخرج إلى الدعاء تجري على هذا النمط ، دون أن يقول : إن صيغة النهي تفيد الدعاء ، لظهور هذا المعنى البلاغي ظهورا جليا فلايستدعيه القول إلى الإفصاح عنها بطريق التنصيص عليها .

---

(١) سورة البقرة : آية (٤٠-٤١) .

(٢) سورة التوبة : آية (٩٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٧/١١) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٨٦) .

(٥) التحرير والتنوير (١٣٩/٣) .

ولاغرو أن هذا الأسلوب البلاغــي يزخـر بـه آي التـنزيل ، ففـي هـذه الآيـة ثلاث صيغ هي قوله : "لاتؤاخذنا" ، وقوله : "لاتحمل علينا" ، وقوله : "لاتحملنا" ، تفيد هذا المعنى البلاغي .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : آية (٨) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣/١٦٩) .

الفصل الثاني

الاستفهام

الاستفهام

هذا هو المبحث الثالث من مباحث الإنشاء الطلبي الذي ذكر فيه العلامة الطاهر من المباحث مايستحق الدراسة الواعية ، ويستوجب من الدارسين التفريق بينها .

ولعل تقسيمات البلاغيين لأدوات الاستفهام والفروق بين الهمزة وهل إنما هي في ذاتها توطئة للدخول في هذا الباب .

فهذه التوطئة المحمودة ، والجهد المشكور لايمكن أن يكون هو البلاغة التي تختفي وراءها أساليب هذا الباب .

فليس قولنا إن الهمزة للتصور والتصديق ، وهل للتصديق ، وبقية الأدوات للتصور جمالا أسلوبيا نحمد فيه جهد بحثنا ، ودقيق معرفتنا .

أو قولنا : إن "من" الاستفهامية للعاقل ، و"ما" لغير العاقل ، و"كم" للعدد ، و"متى" لمطلق الزمان ، و"إيان" لمستقبل الزمان ، و"أين" للمكان ، و"كيف" للحال و"أي" للتمييز بين أحد المتشاركين في أمر يعمهما ، و"أنى" بمعنى "كيف ، ومن أين ، ومتى" ، لايعد كل ذلك مما تستشرف له نفوس البلاغيين الحاثة خطاها في استجلاء دقيق الدلالة وخفي التركيب ، والمغرمة بجمال الأسلوب وروائع البيان .

لأن ذلك كله ينضوي تحت أصل الدلالة التي تتجاوزها البلاغة إلى الكشف عن دقائق الأغراض ومعايشة دلالة الاستفهام المنبعثة في أجزاء التركيب كله ، والمنطوية على خافي الحس ، وبعيد المعنى ، في تحليل الجملة .

وتبدأ انطلاقتها الحقيقية من خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي الذي هو : طلب حصول صورة الشئ في الذهن بأدوات مخصوصة[١] .

قال أستاذنا د. محمد أبو موسى : "والأدخل في باب دراسة مزايا الأسلوب والكشف عن جوانبه ذات الظلال والإيماض هو بحث ألوان الحس ، ومايخطر في القلب مما يثيره الاستفهام حين لايراد به طلب الفهم"[٢] .

---

(١) ينظر : المختصر (٢/٢٤٦) .

(٢) دلالات التراكيب (ص٢١٥) .

وقد كان تركيز علامة تونس في تحريره وتنويره على هذا الأسلوب من جانبين :

الأول : وهو الأهم : دار حول المعاني البلاغية التي يخرج إليها هذ الأسلوب.

الثاني : دار حول بناء الجملة مع أدوات الاستفهام .

وهذا الجانب الأخير إنما يومض عليه إيماضا خافتا ، لأنه بصدد التفسير وبيان معاني الجملة القرآنية وليس بصدد علم البلاغة والكتابة فيها .

فاقتضى البحث مني أن أساير به نمط المباحث الإنشائية السابقة ، والتنبيه أثناء تلك المعاني على مايستوجب التنبيه أو يلفت النظر بالاهتمام .

وهذه المعاني البلاغية في هذه الأبواب هو وجه ثرائها ومنبع أسرارها ، وهي ليست محددة في أنماط معينة ، بل كل جملة لها إشعاعتها وخصائصها الخاصة بها ، حتى ولو اشتركت جملتان في معنى بلاغي واحد ، فكيف إذا كانت كل منها لها معنى مغاير .

فالوقوف على هذه المعاني البلاغية المتزايدة هو أجدى للبليغ في البحث ، وأسعد بالبلاغة ، وأحفل بالعطاء .

قال العلامة التفتازاني في مطوله : "... والحاصل أن كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن مايناسب المقام .

ولاينحصر المتولدات فيما ذكره المصنف ، ولاينحصر أيضا شئ منها في أداة دون أداة ، بل الحاكم في ذلك هو سلامة الذوق وتتبع التراكيب ، فلاينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته من غير أن تتخطاه ، بل عليك بالتصرف واستعمال الروية والله الهادي"(١) .

ولايخفى أن القرآن الكريم حافل بتلك الأساليب لاسيما المكي منه ، وهذا ماأشار إليه الأستاذ عبد العليم فودة ، إذ قال : "والقرآن المكي يحوي من أساليب الاستفهام أروع الصور ، وأكثرها للوجدان إثارة ، وأشدها على النفس وقعا .

---

(١) المطول (ص٢٣٨) ومابعدها .

فنرى تلك الأساليب تتوالى في مواضع كثيرة منه ، مؤدية شتى المعاني البلاغية محققة هذا التلوين الكلامي الذي يهز المشاعر هزا ، ويبعث في النفس شغفا وشوقا إلى تتبعه في حركة سيره ، ومجرى انتقاله"[١] .

ولربما يتساءل المرء في دخيلة نفسه عن الأسباب التي تدفع لخروج الاستفهام عن معناه الأصلي ، فيجيب على هذا التساؤل صاحب الخصائص إذ يقول : "اعلم أنه ليس شئ يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان ، وهو على بابه ملاحظا له ، وعلى صدد من الهجوم عليه .

وذلك أن المستفهم عن الشئ قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء"[٢] .

ثم ذكر بعضا من تلك الأسباب التي تدفع إلى الخروج عن معنى الاستفهام الحقيقي ، فقال : "منها : أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه ، ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به ، ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد ، لما له في ذلك من الغرض ، ومنها أن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه ، حتى إن حلف بعد أن قد سأله عنه حلف صادقا ، فأوضح بذلك عذرا ، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها"[٣] .

ولسنا بصدد الدوافع وإن كنا أومأنا إليها إيماءة ، وألممنا بطرف منها إلمامة ، وإنما نحن بصدد المعاني البلاغية التي حفل برصدها والإشارة إليها وتسجيلها التحرير والتنوير .

---

(١) أساليب الاستفهام في القرآن (ص٢٩٢) ومابعدها .
(٢) الخصائص (٢/٤٦٤) .
(٣) ن.م.س (٢/٤٦٤) ومابعدها .

فمن تلك المعاني البلاغية النفي .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ﴾[(١)] .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في معنى النفي بقرينة الاستثناء"[(٢)].

فالاستفهام هنا خرج إلى معنى بلاغي هو النفي ، أي : لاأحد يغفر الذنوب إلا الله ، وقد جعل أداة الاستثناء قرينة قائمة على النفي في هذه الجملة القرآنية .

وورود هذه الجملة القرآنية بصيغة الاستفهام أبلغ من مجيئها بصيغة الخبر ، قال علامة بغداد : "... وإيراد التركيب على صيغة الإنشاء دون الإخبار بأن لم يقل ومايغفر الذنوب إلا الله ، تقرير لذلك المعنى ـ أي : معنى الغفران الواسع الدال عليه اسم الذات في هذا المقام ـ وتأكيد له ، كأنه قيل : هل تعرفون أحدا يقدر على غفر الذنوب كلها صغيرها وكبيرها سالفها وغابرها غير من وسعت رحمته كل شئ"[(٣)] .

وقد تباصر بمعنى الجملة الاستفهامية في هذا المقام علامة خوارزم إذ قال : "﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة ، وأن التائب من الذنب عنده كمن لاذنب له ، وأنه لامفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه ، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى مايقدر عليه وجب العفو والتجاوز . وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة ، وبعث عليها ، وردع عن اليأس والقنوط ، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم ، والمعنى أنه وحده معه مصححات المغفرة ..."[(٤)] .

وفي قول الزمخشري "وإن عدله يوجب المغفرة للتائب" ، وقوله "وجب العفو والتجاوز" معتقد معتزلي في إيجاب الله على نفسه التوبة على من تاب .

---

(١) سورة آل عمران : آية (١٣٥) .

(٢) التحرير والتنوير (٤/٩٣) .

(٣) روح المعاني (٤/٦١) .

(٤) الكشاف (١/٤٦٤) .

وقد ذكر ذلك العلامة أبو حيان الأندلسي بعد أن ساق كلام الزمخشري بالنص فعقب قائلا : "وهو كلام حسن غير أنه لم يخرج عن ألفاظ المعتزلة ، في قوله "وإن عدله يوجب المغفرة" ، وفي قوله "وجب العفو والتجاوز" .

ولو لم نعلم أن مذهبه الاعتزال لتأولنا كلامه بأن هذا الوجوب هو بالوعد الصادق"[١] .

وإنماذ كرت كلام الزمخشري لبيان شئ من معنى الاستفهام المراد به النفي ، وسعة دلالاته التي تكمن وراءه .

وقد صرح العلامة البيضاوي بدلالة الاستفهام في هذه الجملة القرآنية على النفي إذ قال : "﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ استفهام بمعنى النفي ... والمراد به وصفه سبحانه وتعالى بسعة الرحمة ، وعموم المغفرة ، والحث على الاستغفار ، والوعد بقبول التوبة"[٢] .

وقد عقب العلامة الخفاجي على كلام المصنف بقوله : "وكون الاستفهام نفيا يصحح الاستثناء المفرغ ظاهر"[٣] .

فهو يبين أن الاستثناء المفرغ الدالة عليه أداة الاستثناء "إلا" يصححه ويجوزه كون الاستفهام بمعنى النفي .

وهذه قرينة لفظية غالبة في دلالة الاستفهام على النفي ، وقد جعلها ابن عاشور كذلك .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الرحمن في قوله تعالى : ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في النفي ، ولذلك عقب بالاستثناء فأفاد حصر مجازاة الإحسان في أنها إحسان .

---

(١) البحر المحيط (٣/٦٥) ومابعدها .

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٦٤) .

(٣) حاشية الشهاب (٣/٦٤) .

(٤) سورة الرحمن : آية (٦٠) .

وهذا الحصر إخبار عن كونه الجزاء الحق ، ومقتضى الحكمة والعدل..."[١].

فأداة الاستفهام هنا حرف وهو "هل" ، وفي الجملة القرآنية السابقة اسم وهو "من" وكلاهما ورد في الاستفهام المراد به النفي ، فليس ثمة أداة تختص به .

وقد وردت أيضا أداة الاستثناء أو بالأصح أداة الحصر وهي "إلا" ، فكان المعنى ماجزاء الإحسان إلا الإحسان .

وقد سبقت إشارة العلامة الشوكاني إلى هذا المعنى فقال : "﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ماقبلها ، والمعنى : ماجزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة"[٢] .

وقال علامة بغداد : "﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ استئناف مقرر لمضمون ماقبله ، أي : ماجزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في الثواب"[٣] .

فقد أشارا إلى أن الاستفهام بمعنى النفي حين فسراها تفسير معنى ، بحرف النفي "ما" ، فأبانا عن المعنى البلاغي للاستفهام في هذه الجملة القرآنية .

ومنها التشويق .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة طه : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾[٤] .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في التشويق إلى الخبر مجازا ، وليس مستعملا في حقيقته ، سواء كانت هذه القصة قد قصت على النبي ﷺ من قبل أم كان هذا أول قصصها عليه"[٥] .

فغرض الاستفهام في مطلع سرد قصة موسى عليه الصلاة والسلام هو تشويق المخاطب لهذه القصة ولتلك الأحداث التي حصلت بها .

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧١/٢٧) .

(٢) فتح القدير (١٧٦/٥) .

(٣) روح المعاني (١٢٠/٢٧) .

(٤) سورة طه : آية (٩-١٠) .

(٥) التحرير والتنوير (١٩٣/١٦) .

ويعتضد ابن عاشور بكون هذا الاستفهام للتشويق بقرينة أخرى مذكورة في أحداث القصة تفيد التشويق وهي قوله تعالى : ﴿إذ رأى نارا﴾ .

قال ابن عاشور : "وفي قوله : ﴿إذ رأى نارا﴾ زيادة في التشويق"(١) ، وبين وجه التشويق في هذا الظرف بقوله : "وخص هذا الظرف بالذكر ، لأنه يزيد تشويقا إلى استعلام كنه الخبر ، لأن رؤية النار تحتمل أحوالا كثيرة"(٢) .

بينما اختلف الأئمة قبل ذلك في معنى الاستفهام هنا ، وأشار إلى ذلك الشيخ محيي الدين زادة في حاشيته على البيضاوي فقال : "وقوله تعالى ﴿هل أتاك﴾ يحتمل أن يكون أول ماأخبر الله تعالى به عن أمر موسى عليه الصلاة والسلام فيكون الاستفهام في ﴿هل أتاك﴾ للإنكار أي : لم يأتك إلى الآن ، وقد أتاك الآن ، فتنبه له ، وهذا قول الكلبي ، ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك سابقا فيكون الاستفهام تقريرا ، فكأنه قال : أليس قد أتاك"(٣) .

بينما رأى العلامة الخفاجي في حاشيته على البيضاوي أن الاستفهام للتقرير ، فقال : "والاستفهام تقريري لاإنكاري بناء على أنه أول إتيانه له"(٤) .

بينما تابع العلامة الخفاجي في كون الاستفهام للتقرير العلامة الألوسي إذ قال : "والاستفهام تقريري ، وقيل : "هل" بمعنى "قد" ، وقيل الاستفهام إنكاري ومعناه النفي ، أي : ماأخبرناك قبل هذه السورة بقصة موسى عليه السلام ونحن الآن مخبروك بها ، والمعول عليه الأول"(٥) .

وحرف "هل" هنا بمعنى "قد" . وقد ذكر ذلك ابن عاشور فقال : "وأوثر حرف "هل" في هذا المقام لما فيه من معنى التحقيق ، لأن "هل" في الاستفهام مثل "قد" في الإخبار"(٦) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٦/١٩٣) .

(٢) ن.م.س (١٦/١٩٤) .

(٣) حاشية محيي الدين شيخ زادة (٣/٣٠٨) .

(٤) حاشية الخفاجي (٦/١٩١) .

(٥) روح المعاني (١٦/١٦٥) .

(٦) التحرير والتنوير (١٦/١٩٣) .

وبذا يظهر لك أن علامة تونس لايتابع أحدا ، وإنما يعتمد على القرائن الواردة في التركيب ، وعلى ذوقه ورؤيته ورهافة حسه البلاغي .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾(١) .

قال ابن عاشور : "والاستفهام مستعمل في التشويق إلى رؤية ذلك"(٢) .

لأن المقصود بالذين بدلوا نعمة الله كفرا ... الآية هم أهل مكة الذين أسكنهم الله جوار بيته وأسبغ عليهم نعمه ومنها نعمة الأمن ، وشرفهم برسوله ﷺ ورغم ذلك كله كفروا بأنعم الله وارتضوا بالظلمات عن النور وبالضلالة عن الهدى فأحلوا قومهم القتل والذل والقحط في الدنيا والعذاب الشديد في نار جهنم في الآخرة(٣) ، فجعل علامة تونس هذا الاستفهام للتشويق إلى حال هؤلاء ، وهو معنى لاأكاد أتبينه بل أرى أن ماذكره العلامة العمادي من إفادة الاستفهام معنى التعجيب هو الأقرب إلى البيان ، حين قال : "﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل التي لاتكاد تصدر عمن له أدنى إدراك ، أي ألم تنظر"(٤) .

وتابعه على ذلك علامة بغداد إذ قال : "﴿ألم تر﴾ تعجيب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الأباطيل ، أي : ألم تنظر"(٥) .

ومنها العرض .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾(٦) .

---

(١) سورة إبراهيم : آية (٢٨) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٢٧/١٣) .
(٣) ينظر : تفسير أبي السعود (٤٥/٥) ، فتح القدير (١٣٣/٣) .
(٤) تفسير أبي السعود (٤٥/٥) .
(٥) روح المعاني (٢١٨/١٣) .
(٦) سورة طه : آية (١٢٠) .

قال علامة تونس : "و﴿هل أدلك﴾ استفهام مستعمل في العرض ، وهو أنسب المعاني المجازية للاستفهام ، لقربه من حقيقته"[(١)] .

فالمعنى الذي خرج إليه الاستفهام هو العرض عند ابن عاشور ، ولكن الذي يتأمل النظم والسياق يجد أن المعنى يكمن فيه التشويق أيضا مع العرض ، وربما يظهر فيه الإغراء بالأكل من مثل هذه الشجرة الموصوفة بهذا الوصف الدافع للأكل منها .

وهذه المعاني البلاغية تبدو لي في الاستفهام ، وأستغفر الله أن أكون قد تقولت بقول غير مراد في الجملة القرآنية ، لأني لم أجد من كلام الأئمة من المفسرين مايعضد وجهتي ، ولأن هذه المعاني غير مشفوعة بقرائن لفظية في التركيب مؤيدة أو ناقضة ، بل هي حس نفسي في إدراك دلالات ذات ظلال وإشعاع للمعنى البلاغي للاستفهام ، وقد يغتفر ذلك في الشعر ، ولكن القرآن جانبه مقدس والحديث فيه لابد أن يكون بالأدلة لابالإدراك النفسي . وقد قوي هذا في نفسي فقلته .

وقد وجدت الدكتور عبد العزيز عتيق عد هذه الآية الكريمة من التشويق إذ قال : "ومن هذا القبيل ـ أي التشويق ـ قوله تعالى على لسان إبليس عندما راح يوسوس لآدم ، ويغريه بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الاقتراب منها : ﴿قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى﴾"[(٢)] .

وأيضا وجدت الدكتور أحمد مطلوب[(٣)] ذكر معنى التشويق في الآية .

وقد سبقت إشارة الألوسي إلى المعنى الذي ذكره ابن عاشور في الغرض البلاغي للاستفهام في هذه الجملة القرآنية إذ قال : "قال ﴿ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد﴾ ناداه باسمه ليكون أقبل عليه ، وأمكن للاستماع ، ثم عرض عليه ماعرض على سبيل الاستفهام الذي يشعر بالنصح"[(٤)] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٢٥/١٦) .

(٢) علم المعاني (ص١١٦) .

(٣) ينظر : أساليب بلاغية (ص١٢٤) .

(٤) روح المعاني (٢٧٣/١٦) .

ونحو هذا الغرض أي غرض "العرض" مارآه في قوله تعالى في سورة الصف : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١] .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في العرض مجازا ، لأن العارض قد يسأل المعروض عليه ليعلم رغبته في الأمر المعروض ، كما يقال : هل لك في كذا؟ أو هل لك إلى كذا؟ والعرض هنا كناية عن التشويق إلى الأمر المعروض ، وهو دلالته إياهم على تجارة نافعة ، وألفاظ الاستفهام تخرج عنه إلى معان كثيرة ، هي من ملازمات الاستفهام ، كما نبه عليه السكاكي في المفتاح ، وهي غير منحصرة فيما ذكره"[٢] .

وقد جعل العرض كناية عن التشويق ، وهذا ماتميل إليه النفس وترتضيه ، لأن الجملة فيها تشويق صادر عن الدلالة على تجارة منجية من عذاب أليم ، وقد ذكر العلامة البقاعي معنى التشويق في الآية الكريمة إذ قال : "﴿هل أدلكم﴾ وأنا المحيط علما وقدرة ، فهي إيجاب في المعنى ذكر بلفظ الاستفهام تشويقا ليكون أوقع في النفس فتكون له أشد تقبلا"[٣] .

ومعنى قوله "فهي إيجاب" أي : الآية بمعنى الأمر ، وقد ذكر المفسرون أن معنى "تؤمنون" و"تجاهدون" أي : آمنوا وجاهدوا[٤] .

والشاهد في كلام البقاعي أنه ذكر أن معنى الاستفهام البلاغي هو التشويق .

وقد ذكر الدكتور عبد العزيز عتيق أن الاستفهام في الآية الكريمة للتشويق ، فقال : "التشويق : وفيه لايطلب السائل العلم بشئ لم يكن معلوما له من قبل ، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور ، نحو قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾"[٥]

---

(١) سورة الصف : آية (١٠-١١) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/١٩٣) ومابعدها .

(٣) نظم الدرر (٧/٥٨٥) .

(٤) ينظر : الكشاف (٤/٩٩) ، تفسير أبي السعود (٨/٢٤٥) ، فتح القدير (٥/٢٧٥) .

(٤) علم المعاني (ص١١٦) .

وقد رأى الدكتور مصطفى الصاوي الجويني[(١)] أن الاستفهام في الآية بمعنى التشويق ، وأيضا رأى ذلك الدكتور أحمد مطلوب في كتابه أساليب بلاغية[(٢)] .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة سبأ في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[(٣)] ، وقوله تعالى في سورة النازعات : ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾[(٤)] .

ومنها التهويل .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الانفطار : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[(٥)] .

قال علامة تونس : "و﴿ماأدراك مايوم الدين﴾ تركيب مركب من "ما" الاستفهامية ، وفعل الدراية المعدى بالهمزة . فصار فاعله مفعولا زائدا على مفعولي درى ، وهو من قبيل : أعلم وأرى ، فالكاف مفعوله الأول ، وقد علق على المفعولين الآخرين بـ"ما" الاستفهامية الثانية .

والاستفهام الأول مستعمل كناية عن تعظيم أمر اليوم وتهويله ، بحيث يسأل المتكلم من يسمعه عن الشئ الذي يحصل له الدراية بكنه ذلك اليوم ، والمقصود أنه لاتصل إلى كنهه دراية دار"[(٦)] .

فقد حلل هذا التركيب المفيد لغرض التهويل في الاستفهام ، والوارد في مواطن متعددة من النظم القرآني وهي :

(١) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[(٧)] .

(٢) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾[(٨)] .

---

(١) ينظر : البلاغة العربية تأصيل وتجديد (ص٢٧) .

(٢) ينظر : أساليب بلاغية (ص١٢٤) .

(٣) سورة سبأ : آية (٧) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٤٧/٢٢) .

(٤) سورة النازعات : آية (١٨) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧٦/٣٠) .

(٥) سورة الانفطار : آية (١٧) .

(٦) التحرير والتنوير (١٨٣/٣٠) .

(٧) سورة الحاقة : آية (٣) .

(٨) سورة المدثر : آية (٢٧) .

(٣) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[١] .
(٤) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾[٢] .
(٥) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾[٣] .
(٦) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾[٤] .
(٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾[٥] .
(٨) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾[٦] .
(٩) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾[٧] .
(١٠) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾[٨] .
(١١) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾[٩] .

فقد ورد هذا التركيب في هذه المواطن[١٠] من النظم الحكيم ، مفيدا معنى التهويل ، حتى عد ابن عاشور هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فقال : "ومثل هذا التركيب مما جرى مجرى المثل فلايغير لفظه"[١١] .

والفعل "أدرى" في هذا التركيب متعد إلى ثلاثة مفاعيل ، وهذا معنى قول علامة تونس السابق "وهو من قبيل أعلم وأرى" .

ومفعوله الأول الكاف . وعلق عن مفعوليه بأداة الاستفهام "ما" .

---

(١) سورة المرسلات : آية (١٤) .
(٢) سورة المطففين : آية (٨) .
(٣) سورة المطففين : آية (١٩) .
(٤) سورة الطارق : آية (٢) .
(٥) سورة البلد : آية (١٢) .
(٦) سورة القدر : آية (٢) .
(٧) سورة القارعة : آية (٣) .
(٨) سورة القارعة : آية (١٠) .
(٩) سورة الهمزة : آية (٥) .
(١٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة (درى((ص٢٥٦) .
(١١) التحرير والتنوير (١٨٣/٣٠) .

والاستفهام الذي أفاد معنى التهويل هو الأول وهو قوله "وماأدراك" ، أما الاستفهام الثاني وهو "مايوم الدين" فهو استفهام حقيقي ، قال علامة تونس : "والاستفهام الثاني حقيقي"(١) .

وربما تقدم على هذا التركيب استفهام نحو ماورد في سورة الحاقة ، في قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾(٢) ، ونحو ماورد في سورة القارعة في قوله تعالى : ﴿الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾(٣) .

فيكون الاستفهام الذي تقدمها أيضا مفيدا للتعظيم والتهويل ، قال ابن عاشور في تركيب سورة الحاقة ـ وهو مماثل لتركيب سورة القارعة ـ : "و"ما" اسم استفهام مستعمل في التهويل والتعظيم ، كأنه قيل : أتدري ماالحاقة؟ أي : ماهي الحاقة ، أي : شئ عظيم الحاقة ، وإعادة اسم المبتدأ في الجملة الواقعة خبرا عنه تقوم مقام ضميره في ربط الجملة المخبر بها ..." (٤) .

وقد سبقت الإشارة من علامة خوارزم إلى هذا المعنى البلاغي ، فقال : "﴿ماالحاقة﴾ والأصل ، والحاقة ماهي ، أي : أي شئ هي تفخيما لشأنها وتعظيما هولها ..." (٥) .

ثم أوضح حقيقة ذلك التركيب وهو قوله "ماأدراك" فقال : "﴿وماأدراك" وأي شئ أعلمك ماالحاقة ، يعني أنك لاعلم لك بكنهها ، ومدى عظمها ، على أنه من العظم والشدة بحيث لايبلغه دراية أحد ولاوهمه ، وكيفما قدرت حالها فهي أعظم من ذلك"(٦) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٣/٣٠) .
(٢) سورة الحاقة : آية (١-٣) .
(٣) سورة القارعة : آية (١-٣) .
(٤) التحرير والتنوير (١١٣/٢٩) .
(٥) الكشاف (١٤٩/٤) .
(٦) ن.م.س .

ومنها الاستغراب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَانُ﴾(١) .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في الاستغراب ، يعنون تجاهل هذا الاسم ، ولذلك استفهموا عنه بما دون "من" باعتبار السؤال عن معنى هذا الاسم"(٢) .

والاستفهام صادر من المشركين لما أمرهم الرسول ﷺ بالسجود للرحمن ، فقالوا : ومالرحمن .

فالغرض البلاغي الاستغراب ، لكن السؤال الذي لامناص من وروده في هذا المقام ، هو لماذا الاستفهام بما دون من؟ وماهو سر ذلك؟

وقد أجاب علامة تونس أن ذلك باعتبار أن السؤال عن معنى الاسم لاعن مسماه . وهذا معنى ظاهر ، ويزول به التساؤل .

وإجابة ابن عاشور هنا إنما هي اختياره مما أفاده صاحب الكشاف إذ قال : "﴿ومالرحمن﴾ يجوز أن يكون سؤالا عن المسمى به ، لأنهم ماكانوا يعرفونه بهذا الاسم ، والسؤال عن المجهول بـ"ما" ، ويجوز أن يكون سؤالا عن معناه ، لأنه لم يكن مستعملا في كلامهم كما استعمل الرحيم والرحوم والراحم ، أو لأنهم أنكروا اطلاقه على الله تعالى"(٣) .

ومنها الاستئذان .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الحج : ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٤) .

قال علامة تونس : "والاستفهام مستعمل في الاستئذان ، وهو استئذان تهكمي لأنه قد نبأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم"(٥) .

---

(١) سورة الفرقان : آية (٦٠) .

(٢) التحرير والتنوير (٦٢/١٩) .

(٣) الكشاف (٩٨/٣) .

(٤) سورة الحج : آية (٧٢) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٣٦/١٧) .

وهو يلوح بهذا إلى أن معنى "أفأنبئكم بشر من ذلكم" بأنه استئذان بهذا الإنباء ، ولكن الإنباء حصل قبل سماع الجواب ، فدل ذلك على أن هذا الاستئذان استئذان تهكمي .

بينما عده صاحب البحر المحيط وعيدا وتقريعا فقال : "﴿قل أفأنبئكم بشر من ذلكم﴾ وعيد وتقريع"(١) .

على أن المعنى الذي استظهره علامة تونس أدق وأجلى في البيان .

ومنها الاستبطاء .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾(٢) .

قال علامة تونس : "و"متى" استفهام مستعمل في استبطاء زمن النصر"(٣) .

وقد أشار العلامة البيضاوي إلى هذا المعنى فقال : "﴿متى نصر الله﴾ استبطاء له لتأخره"(٤) .

وهذه الجملة القرآنية من شواهد البلاغيين المشهورة لهذا الغرض في كتبهم(٥)

ونحو هذا الغرض إضافة إلى غرض التخصيص ماورد في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾(٦) .

قال ابن عاشور : "والاستفهام مستعمل في الاستبطاء والتحضيض كما في قوله تعالى : ﴿فهل أنتم منتهون﴾"(٧) .

فالاستفهام موجه من الرسول ﷺ إلى أهل الكتاب والأميين الذين أوضح لهم النبي ﷺ الحق بشتى الطرق ، وبلغهم الدعوة بأقوى حجة وأوضح بيان ، ثم

---

(١) البحر المحيط (٣٥٨/٦) .

(٢) سورة البقرة : آية (٢١٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٣١٦/٢) .

(٤) تفسير البيضاوي (٣٠٠/٢) .

(٥) ينظر : الإيضاح (ص٢٣٤) ، المطول (ص٢٣٥) ، عروس الأفراح (٢٩١/١) .

(٦) سورة آل عمران : آية (٢٠) .

(٧) التحرير والتنوير (٢٠٢/٣) .

استبطأ منهم تأخرهم في الدخول في الإسلام بعد هذا البيان كله ، فورد الاستفهام أيضا ليحضهم على الدخول في هذا الأمر العظيم .

قال أبو السعود : "﴿أأسلمتم﴾ متبعين لي كما فعل المؤمنون ، فإنه قد أتاكم من البينات مايوجبه ويقتضيه لامحالة ، فهل أسلمتم وعملتم بقضيتها ، أو أنتم على كفركم بعد ، كما يقول ـ من لخص لصاحبه المسألة ، ولم يدع من طرق التوضيح والبيان مسلكا إلا سلكه ـ : فهل فهمتها؟ على منهاج قوله تعالى : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ إثر تفصيل الصوارف عن تعاطي الخمر والميسر ..."[(١)] .

والآية التي نظر بها الطاهر آية سورة المائدة في الخمر وهي قوله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾[(٢)] ذكرت[(٣)] على أنها من خروج الاستفهام بمعنى الأمر .

بينما كان علامة تونس أكثر دقة ، إذ يرى في هذه الصيغة أنها تدل على الحث في مقام الاستبطاء ، معتضدا برأي علامة خوارزم ، فقال صاحب التحرير والتنوير عند تفسيره آية سورة المائدة : "... ثم قال ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ، فجاء بالاستفهام لتمثيل حال المخاطبين بحال من بين له المتكلم حقيقة شئ ثم اختبر مقدار تأثير ذلك البيان في نفسه .

وصيغة : هل أنت فاعل كذا ، تستعمل للحث على فعل في مقام الاستبطاء نبه عليه في الكشاف عند قوله تعالى : ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ في سورة الشعراء ، ومنه قول تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

(دينار اسم رجل وكذا عبد رب ، وقوله : أخا عون أو عوف نداء ، أي : يأأخا عون)"[(٤)] .

---

(١) تفسير أبي السعود (١٩/٢) .

(٢) سورة المائدة : آية (٩١) .

(٣) ينظر : علم المعاني للدكتور عبد العزيز عتيق (ص١١٦) ، أساليب بلاغية ، د. أحمد مطلوب (ص١٢٤) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/٧) .

وقد صرح صاحب الكشاف بأنها للاستبطاء ونص كلامه كالآتي : "﴿هل أنتم مجتمعون﴾ استبطاء لهم في الاجتماع ، والمراد منه استعجالهم واستحثاثهم ، كما يقول الرجل لغلامه : هل أنت منطلق؟ إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الانطلاق ، كأنما يخيل له الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تأبط شرا ..." [(١)].

فالصيغة نفسها تدل على الاستبطاء كما شرح ذلك هذان الإمامان ، وهذا هو وجه التحقيق بها ، وأما كونها تفهم الأمر فإنما يكنى بها عنه ، وقد نبه على ذلك علامة تونس في تفسيره قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[(٢)] .

قال علامة تونس : "... كان الاستفهام في قوله تعالى ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ مستعملا في استبطاء عدم الشكر ، ومكنى به عن الأمر بالشكر"[(٣)] .

ولم يغفل الإشارة أيضا إلى ماذكره البلاغيون[(٤)] من دخول "هل" على الجملة الاسمية في هذا التركيب ، إذ قال : "وكان العدول عن إيلاء "هل" الاستفهامية بجملة فعلية إلى الجملة الإسمية ، مع أن لـ"هل" مزيد اختصاص بالفعل ، فلم يقل : "فهل تشكرون" ، وعدل إلى "فهل أنتم شاكرون" ليدل العدول عن الفعلية إلى الاسمية على ماتقتضيه الاسمية من معنى الثبات والاستمرار ، أي : فهل تقرر شكركم ، وثبت ، لأن تقرر الشكر هو الشأن في مقابلة هذه النعمة ، نظير قوله تعالى : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ في آية تحريم الخمر"[(٥)] .

فمعنى "هل" في آية الخمر ، أي : هل تقرر انتهاؤكم عن الخمر وثبت ، لأن تقرر الانتهاء عن الخمر هو المطلوب إزاء ذلك التحذير .

---

(١) الكشاف (١١٢/٣) .
(٢) سورة الأنبياء : آية (٨٠) .
(٣) التحرير والتنوير (١٢٢/١٧) .
(٤) ينظر : الإيضاح (ص٢٢٩) ، المطول (ص٢٣١) ، لطائف التبيان في علمي المعاني والبيان (ص٨٧) .
(٥) التحرير والتنوير (١٢٢/١٧) .

ومنها التحذير والإنذار .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾[١] .

قال ابن عاشور : "فالاستفهام مستعمل في معنى التحذير والإنذار"[٢] .

لأن المقام مقام تحذير وإنذار من موالاة المؤمنين للكافرين الذين يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فورد النهي عن اتخاذهم أولياء في قوله ﴿لاتتخذوا الكافرين أولياء﴾ وعقبه الاستفهام بالتحذير والإنذار من ذلك .

بينما ذكر العلامة العمادي أن الاستفهام في هذه الآية للإنكار فقال : "﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا﴾ أي : أتريدون بذلك أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة على أنكم منافقون ، فإن موالاتهم أوضح أدلة النفاق أو سلطانا يسلط عليكم عقابه ، وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها بأن يقال : أتجعلون... ألخ للمبالغة في إنكاره وتهويل أمره ببيان أنه مما لايصدر عن العاقل إرادته فضلا عن صدور نفسه ، كما في قوله عز وجل : ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم﴾"[٣] .

ونحو هذا الغرض البلاغي وهو غرض التحذير إضافة إلى غرض التوبيخ ماورد في قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "والاستفهام للتوبيخ والتحذير"[٥] .

فإذا كان الخطاب القرآني موجها إلى أهل الكتاب وجاريا على طريقة الخطاب الوارد قبله في قوله : ﴿وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾[٦]

---

(١) سورة النساء : آية (١٤٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٢٤٣/٥) .

(٣) تفسير أبي السعود (٢٤٦/٢) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٨٣) .

(٥) التحرير والتنوير (٣٠٠/٣) .

(٦) سورة آل عمران : آية (٨٠) .

على قراءة الجمهور[١] "تبغون" بتاء الخطاب ، يكون الاستفهام حينئذ توبيخا لهم وتحذيرا . وهو موضع الاستشهاد .

أما إذا كان على قراءة حفص[٢] "يبغون" بياء الغيبة ، فهو خطاب متوجه للمسلمين بالتعجيب من حال أهل الكتاب ، ويكون الاستفهام على هذا الوجه للتعجيب .

قال علامة تونس : "وقرأه أبو عمرو ، وحفص ويعقوب : بياء الغيبة ـ أي "يبغون" ـ فهو التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إعراضا عن مخاطبتهم إلى مخاطبة المسلمين بالتعجيب من أهل الكتاب ، وكله تفريع ذكر أحوال خلف أولئك الأمم كيف اتبعوا غير ماأخذ عليهم العهد به ، والاستفهام حينئذ للتعجيب"[٣] .

بينما عد العلامة الزمخشري الاستفهام للإنكار وهو سر تقدم المفعول على فعله في الآية الكريمة ، فقال : "وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل"[٤] .

وقد تابع الزمخشري طائفة من المفسرين منهم العلامة البيضاوي[٥] والخفاجي[٦] والآلوسي[٧] . وكلام الزمخشري أظهر .

---

(١) ينظر : كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص٢١٤) ، سراج القارئ المبتدي وتذكار القارئ المنتهي لأبي القاسم البغدادي (ص١٨٢) .

(٢) ن.م.س .

(٣) التحرير والتنوير (٣/٣٠٠) ومابعدها .

(٤) الكشاف (١/٤٤١) ومابعدها .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي (٣/٤٢) .

(٦) ينظر : حاشية الخفاجي (٣/٤٢) .

(٧) ينظر : روح المعاني (٣/٢١٣) .

ومنها التوبيخ والتعجب .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة يونس : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(١) .

قال علامة تونس : "فالاستفهام مستعمل في التوبيخ ، لأن المذكور بعده شئ ذميم ، واجتراء عظيم ، وجهل كبير مركب"(٢) .

فالاستفهام في قوله ﴿أتقولون على الله مالاتعلمون﴾ ، توبيخ لهم على مقالتهم التي هي محض الافتراء ، وعظيم الاجتراء ، فقبحوا بها ، ووبخوا عليها .

وقد سبقت إشارة العلامة البيضاوي إلى هذا المعنى إذ قال : "﴿أتقولون على الله مالاتعلمون﴾ توبيخ وتقريع على اختلافهم وجهلهم ، وفيه دليل على أن كل قول لادليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لابد لها من قاطع ، وأن التقليد منها غير سائغ"(٣) .

ونحو هذا الغرض وهو غرض التوبيخ ماورد في قوله تعالى : ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾(٤) .

قال علامة تونس : "وقوله ﴿قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ هو من كلام موسى ، وقيل من كلام الله ، وهو توبيخ شديد لأنه جرده عن المقنعات وعن الزجر ، واقتصر على الاستفهام المقصود منه التعجب فالتوبيخ"(٥) .

فهو يرى أن التعجب يغلب في مواطن التوبيخ ولايلزم وروده في كل توبيخ وذلك لأن الاستفهام التوبيخي إنما يرد في حالة يستلزم عليها التوبيخ ويتولد منها معنى التعجب .

---

(١) سورة يونس : آية (٦٨) .

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٣٢) .

(٣) تفسير البيضاوي (٥/٤٨) .

(٤) سورة البقرة : آية (٦١) .

(٥) التحرير والتنوير (١/٥٢٣) .

كما أن معنى التوبيخ يلازمه الاستفهام ، لأن من يأتي مايوبخ عليه يستلزم تساؤل الناس عنه .

قال علامة تونس : "لأن التوبيخ يلازم الاستفهام ، لأن من يأتي مايستحق التوبيخ عليه من شأنه أن يتساءل الناس عن ثبوت الفعل له ، ويتوجهون إليه بالسؤال ، فينتقل من السؤال إلى التوبيخ ، ويتولد منه معنى التعجيب من حال الموبخ ، وذلك لأن الحالة التي وبخوا عليها حالة عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه ، فحقيق بكل سامع أن يعجب منها ، وليس التعجب بلازم لمعنى التوبيخ في كل موضع ، بل في نحو هذا مما كان فيه الموبخ عليه غير مألوف من العقلاء"[١] .

وقد ذكر هذا الكلام عند قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾[٢] .

وعد الاستفهام في الآية الكريمة للتوبيخ ، وأطال في ذكر العلاقة المجازية بين المعنى الحقيقي للاستفهام والمعنى المجازي مما لاطائل تحته .

فقال : "والاستفهام هنا للتوبيخ لعدم استقامة الحمل على الاستفهام الحقيقي فاستعمل في التوبيخ ..."[٣] .

بينما عده الزمخشري للتقرير مع المعنيين اللذين ذكرهما علامة تونس ، قال صاحب الكشاف : "﴿أتأمرون﴾ الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم"[٤] .

وقد تبعه البيضاوي فقال : "﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ تقرير مع توبيخ وتعجيب"[٥] .

---

(١) التحرير والتنوير (٤٧٥/١) .

(٢) سورة البقرة : آية (٤٤) .

(٣) التحرير والتنوير (٤٧٤/١) .

(٤) الكشاف (٢٧٧/١) .

(٥) تفسير البيضاوي (١٥٣/٢) .

وأيضا تبع الزمخشري طائفة من المفسرين منهم الخفاجي[(١)] والألوسي[(٢)] .

أما الآية السابقة وهي قوله : ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير﴾ فلم يشر إليها الزمخشري ولاالبيضاوي ولاالخفاجي .

بينما سبقت إشارة العلامة الألوسي لها ، فقال : "﴿أتستبدلون﴾ الخ القائل إما الله تعالى على لسان موسى عليه السلام ، ويرجحه كون المقام مقام تعداد نعم ، أو موسى نفسه ـ وهو الأنسب بسياق النظم ـ والاستفهام للإنكار"[(٣)] .

ومنها التحضيض والتهييج .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[(٤)] .

قال ابن عاشور : "والاستفهام في قوله ﴿من ذا الذي يقرض الله﴾ مستعمل في التحضيض والتهييج على الاتصاف بالخير ، كأن المستفهم لايدري من هو أهل هذا الخير والجدير به . قال طرفة :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني　　　عنيت فلم أكسل و لم أتبلد"[(٥)]

فالاستفهام يستعمل في الحض على هذا الفعل والاتصاف بهذا الوصف ، ويزيد ذلك تحضيضا وإلهابا على هذا الخير قوله ﴿يقرض الله﴾ وقوله ﴿فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ .

ومنها التهكم والتأييس .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[(٦)] .

---

(١) ينظر : حاشية الخفاجي (٢/١٥٣) .

(٢) ينظر : روح المعاني (١/٢٤٨) .

(٣) روح المعاني (١/٢٧٤) .

(٤) سورة البقرة : آية (٢٤٥) .

(٥) التحرير والتنوير (٢/٤٨١) .

(٦) سورة الأعراف : آية (٣٧) .

قال علامة تونس : "والاستفهام في قوله ﴿أين ماكنتم تدعون من دون الله﴾ مستعمل في التهكم والتأييس"[١] .

فسؤال الملائكة لهؤلاء المتوفين حال الوفاة عن معبوداتهم التي كانوا يدعونها من دون الله إنما هو سؤال تهكم بحالهم ، وتأييس لهم عن نفع تلك المعبودات إياهم.

ونحو هذا الغرض وهو غرض التأييس إضافة إلى غرض الإنكار ماورد في قوله تعالى : ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[٢] .

ونحو ذين الغرضين التأييس والإنكار ماورد في قوله تعالى : ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾[٣] .

ومنها التنبيه على الخطأ .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة سبأ : ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾[٤] .

قال علامة تونس : "و"من" استفهام للتنبيه على الخطأ ، ولذلك أعقب بالجواب من طرف السائل بقوله : "قل الله" لتحقق أنهم لاينكرون ذلك الجواب ، كما في قوله تعالى : ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار﴾ إلى قوله ﴿فسيقولون الله﴾ في سورة يونس"[٥] .

والاستفهام موجه من النبي ﷺ إلى المشركين تنبيها على أن آلهتهم التي يدعونها من دون الله لاتملك لهم نفعا ولاضرا ولارزقا ولاحياة ولانشورا ، ليفطنوا إلى خطأهم الذي هم فيه .

بينما ذكر علامة بغداد أن الاستفهام للتبكيت فقال : "﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أمر النبي ﷺ أن يقول ذلك تبكيتا للمشركين بحملهم على

---

(١) التحرير والتنوير (١١٧/٨) .
(٢) سورة الأنعام : آية (٧١) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٠٠/٧) .
(٣) سورة الأنعام : آية (٨٠) ، وينظر : التحرير والتنوير (٣٢٧/٧) .
(٤) سورة سبأ : آية (٢٤) .
(٥) التحرير والتنوير (١٩٢/٢٢) .

الإقرار بأن آلهتهم لايملكون مثقال ذرة في السموات ولافي الأرض ، وأن الرزاق هو الله عز وجل ، فإنهم لاينكرونه ..." [١] .

ولاتثريب أن يجتمع هذان المعنيان وهما التنبيه على الخطأ والتبكيت في الاستفهام .

ونحو هذا الغرض من التنبيه ولفت النظر ماورد في سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [٢] .

ومنها التسوية .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [٣] .

ذكر علامة تونس أن للفظ سواء استعمالين ، ومايهمنا هو الثاني إذ قال : "وثانيهما : أن يقع مع همزة التسوية ، وماهي إلا همزة استفهام كثر وقوعها بعد كلمة "سواء" ، ومعها "أم" العاطفة التي تسمى المتصلة ، كقوله تعالى : ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾" [٤] .

فبين أن هذا التركيب الذي ترد فيه كلمة "سواء" متبوعة بهمزة الاستفهام وبعدها "أم" ، يفيد التسوية ولايفيد الاستفهام الحقيقي في أي مقام وقع .

والذي يفهم من كلامه أن هذا التركيب تنوسي فيه الاستفهام حتى سميت الهمزة همزة التسوية وإن كان أصلها الاستفهام .

وقد صرح بهذا المعنى علامة خوارزم إذ قال : "والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأسا" [٥] .

وقد ذكرنا هذا المعنى هنا ، لأن أصله الاستفهام ، وإن انسلخا منه .

---

(١) روح المعاني (١٤٠/٢٢) .

(٢) سورة العنكبوت : آية (١٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٢٩/٢٠) .

(٣) سورة البقرة : آية (٦) .

(٤) التحرير والتنوير (٢٥٠/١) .

(٥) الكشاف (١٥٢/١) .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾[١] .

ومنها التمني .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[٢] .

ذكر علامة تونس احتمال معنيين بلاغيين في الاستفهام في هذه الآية منها التمني ، فقال : "ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملا في التمني"[٣] .

فهم يتمنون وجود الشفعاء في ذلك الموقف العصيب ، فهذا معنى الاستفهام في هذا المقام على هذا الوجه .

بينما ذكر ابن عاشور أنه ربما يكون الاستفهام بمعنى النفي ، أو يكون الاستفهام على حقيقته ، فليس ثم معنى بلاغي فيه .

وقد أشار الألوسي إلى معنى التمني في هذه الآية إذ قال : "و"هل" مما له اختصاص بالفعل ، والعدول للدلالة على أن تمني الشفيع أصل وتمني الرد فرع ..."[٤] .

فذكر أن "هل" لهامزيد اختصاص بالفعل لا بالاسم ، والعدول عن إيلائها الفعل لبيان أن تمني الشفيع في قوله ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ أصل ، وتمني الرد إلى الدنيا كرة أخرى فرع في قوله : "أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل" .

وموضع الشاهد في هذا الإيراد هو التعبير عن الاستفهام بالتمني ، لأنه المعنى البلاغي له .

ومنها التقرير .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٥] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٩٣) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢١٨/٩) ومابعدها .

(٢) سورة الأعراف : آية (٥٣) .

(٣) التحرير والتنوير (١٥٦/٨) .

(٤) روح المعاني (١٢٨/٨) .

(٥) سورة البقرة : آية (٣٣) .

قال علامة تونس : "والاستفهام في قوله ﴿ألم أقل لكم﴾ الخ تقريري ، لأن ذلك القول واقع لامحالة ، والملائكة يعلمون وقوعه ولاينكرونه"[١] .

وهذا هو معنى الاستفهام التقريري ، فالمخاطبون به هم الملائكة الذين يقرون هذا الأمر ولاينكرونه .

فالاستفهام التقريري هو حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإلجائه إليه[٢] .

أي : بما يعرفه ثبوتا أو نفيا .

ولكن ماهو السر في انسحاب الاستفهام التقريري غالبا على النفي كما في الآية؟ ويجيب عن ذلك السر ابن عاشور فيقول : "إنما أوقع الاستفهام على نفي القول ، لأن غالب الاستفهام التقريري يقحم فيه مايفيد النفي لقصد التوسيع على المقرر حتى يخيل إليه أنه يسأل عن نفي وقوع الشئ ، فإن أراد أن يزعم نفيه ، فقد وسع المقرر عليه ذلك ، ولكنه يتحقق أنه لايستطيع إنكاره ، فلذلك يقرره على نفيه ، فإذا أقر كان إقراره لازما له ، لامناص له منه ، فهذا قانون الاستفهام التقريري الغالب عليه ، وهو الذي تكرر في القرآن ..." [٣] .

وربما يكون الاستفهام التقريري واقعا بالإثبات ، وقد أشار إليه فقال : "وقد يقع التقرير بالإثبات على الأصل ، نحو ﴿أأنت قلت للناس﴾ وهو تقرير مراد به إبطال دعوى النصارى ، وقوله : ﴿أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم﴾"[٤] .

وقد اشترط البلاغيون[٥] أن يلي المقرر به همزة الاستفهام ، كالآيات المذكورة آنفا .

بينما ذكر العلامة البيضاوي أن الهمزة في هذه الجملة القرآنية للإنكار ، إذ قال : "والهمزة للإنكار دخلت حرف الجحد فأفادت الإثبات والتقرير"[٦] .

---

(١) التحرير والتنوير (٤١٩/١) .
(٢) المختصر (٢٩٤/٢) .
(٣) التحرير والتنوير (٤١٩/١) ومابعدها .
(٤) ن.م.س (٤٢٠/١) .
(٥) ينظر : شروح التلخيص (٢٩٤/٢) .
(٦) تفسير البيضاوي (١٢٩/٣) .

وعقب عليه الخفاجي بقوله : "وقوله : "والهمزة الخ" الإنكار في معنى النفي والجحد بمعنى النفي ، ونفي النفي إثبات"[١] .

وقد أوضح صاحب البحر المحيط أن الهمزة في الآية للتقرير فقال : "﴿ألم أقل﴾ تقرير لأن الهمزة إذا دخلت على النفي كان الكلام في كثير من المواضع تقريرا نحو قوله تعالى : ﴿ألست بربكم﴾ ، ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ، ﴿ألم نربك فينا وليدا﴾ ، ولذلك جاز العطف على جملة إثباتية نحو ﴿ووضعنا﴾ ، و﴿لبثت﴾"[٢] .

وهذا الأظهر في آية سورة البقرة أن الهمزة للتقرير لا للإنكار .

وماذكره صاحب البحر المحيط من مسوغ العطف بين الجملة المثبتة والمنفية في الظاهر ، هو كون الهمزة للتقرير ، فأصبح نفي النفي إثباتا كما أشار إلى ذلك العلامة القزويني[٣] .

ونحو هذا الغرض قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[٥] .

ومنها الإنكار .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[٦] .

قال علامة تونس : "وقوله ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ استفهام إنكاري توبيخي ، أي : كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم ، واتبعتموها في فداء أسراهم ، وسمى الاتباع والإعراض إيمانا وكفرا على طريقة

---

(١) حاشية الخفاجي (١٢٩/٣) .

(٢) البحر المحيط (٢٩٩/١) .

(٣) ينظر : الإيضاح (ص٢٣٨) .

(٤) سورة الأعراف : آية (١٧٢) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٦٨/٩) .

(٥) سورة الانشراح : آية (١) ، وينظر : التحرير والتنوير (٤٠٨/٣٠) .

(٦) سورة البقرة : آية (٨٥) .

الاستعارة لتشويه المشبه وللانذار بأن تعمد المخالفة للكتاب قد تفضي بصاحبها للكفر به"[(١)] .

فالاستفهام للإنكار التوبيخي على ماوقع منهم من تعمد مخالفة التوراة في قتالهم إخوانهم وبني جلدتهم وإخراجهم من ديارهم وقد نهوا عن ذلك ، ثم ماكان منهم من فدائهم من الأسر ، ولكن السؤال الوارد في هذا المقام هو كيف يقع الإنكار التوبيخي على فعل الإيمان وهو قوله "أفتؤمنون"؟ على أن الإيمان وصف مدح لاقدح؟

ويجيب عن ذلك علامة تونس فيقول : "وإنما وقع "تؤمنون" في حيز الإنكار تنبيها على أن الجمع بين الأمرين عجيب ، وهو مؤذن بأنهم كادوا أن يجحدوا تحريم إخراجهم أو لعلهم جحدوا ذلك ، وجحد ماهو قطعي من الدين مروق من الدين"[(٢)] .

فالإيمان الكامل أو المطلق يكون صفة مدح أما الإيمان الناقص فيكون صفة ذم .

فالإيمان هنا ببعض الكتاب وهو كلا إيمان ، فلاقيمة له ، وهذا وجه ألمح إليه علامة تونس بقوله : "وهو مؤذن" الخ ، إضافة إلى الوجه الذي صرح به من أن الإنكار وقع على الجمع بين الأمرين وهو الإيمان والكفر .

وقد سبقت من الخفاجي إشارة إلى هذا المعنى إذ قال : "قوله "أفتؤمنون الخ" الاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكام الله"[(٣)] .

ونحو هذا الغرض وهو الاستفهام الإنكاري ماورد في قوله تعالى : ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[(٤)] .

قال علامة تونس : "والاستفهام إنكاري"[(٥)] .

---

(١) التحرير والتنوير (٥٩١/١) .

(٢) ن.م.س .

(٣) حاشية الشهاب (١٩٧/٢) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٧٠) .

(٥) التحرير والتنوير (٢٧٩/٣) .

فالخطاب موجه لأهل الكتاب منكرا عليهم كفرهم بآيات الله والحال أنهم يشهدون بأنها آيات الله ومعجزاته ويعلمون أنها الحق .

فأنكر عليهم صدور الكفر منهم ومعهم من الأدلة والآيات ماكان يستوجب منهم الإيمان .

قال علامة بغداد : "﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ جميعا وأنتم تعلمون حقيتها بلاشبهة بمنزلة علم المشاهدة"(١) .

ونحو هذا الغرض البلاغي ماورد في الآية التي وليتها وهي قوله تعالى : ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(٢) .

فالاستفهام هو إنكار عليهم مايفعلونه من إلباسهم الحق بالباطل ، وإخفائهم نبوة محمد ﷺ وصفاته وهم يعلمون به العلم الذي ليس فيه من شك(٣) .

ويشترط(٤) في هذا المعنى من الاستفهام أن يلي المنكر همزة الاستفهام ، كما في هذه الآيات .

ونحو هذا الغرض البلاغي ماورد في سورة الإسراء : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنْ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلا عَظِيمًا﴾(٥) .

قال علامة تونس : "والاستفهام إنكار وتهكم"(٦) .

إنكار تكذيبي لما ادعاه بعض الكفار من كون الملائكة بناتا لله تعالى ، وهم مصطفون بالبنين .

وأيضا تهكم بأصحاب هذه الفرية من كون الله يخصهم ويؤثرهم بما يرونه الأفضل ويخص نفسه بما يرونه المفضول ، ويبين لك عن وجه ذلك قوله تعالى :

---

(١) روح المعاني (١٩٩/٣) .

(٢) سورة آل عمران : آية (٧١) .

(٣) ينظر : البحر المحيط (٥١٥/٢) ، تفسير أبي السعود (٤٩/٢) .

(٤) ينظر : شروح التلخيص (٢٩٦/٢) .

(٥) سورة الإسراء : آية (٤٠) .

(٦) التحرير والتنوير (١٠٧/١٥) .

﴿أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾[٢] .

ومما يؤكد شدة النكير عليهم في آية الإسراء قوله تعالى : ﴿وإنكم لتقولون قولا عظيما﴾ .

قال ابن عاشور : "وجملة ﴿إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ تقرير لمعنى الإنكار وبيان له ، أي : تقولون : اتخذ الله الملائكة بنات ، وأكد فعل "تقولون" بمصدره تأكيد لمعنى الإنكار ، وجعله مجرد قول ؛ لأنه لايعدو أن يكون كلاما صدر عن غير روية ، لأنه لو تأمله قائله أدنى تأمل لوجده غير داخل تحت قضايا المقبول عقلا"[٣] .

---

(١) سورة النجم : آية (٢١) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٠٣/٢٧) .

(٢) سورة الطور : آية (٣٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٧٤/٢٧) .

(٣) التحرير والتنوير (١٠٨/١٥) .

الفصل الثالث

التمني . النداء

التمني

التمني : "هو طلب حصول الشئ على سبيل المحبة"[١] .

أو : "هو طلب أمر محبوب لايتوقع حصوله"[٢] .

والتعريف الأول لصاحب المختصر ، وقد اعترض عليه صاحب مواهب الفتاح بأنه غير مانع لدخول بعض أقسام الأمر والنهي وغيرهما من أقسام الطلب المقرون بمحبة في هذا التعريف[٣] .

ثم عرفه ابن يعقوب المغربي بتعريف قال فيه : "هو طلب حصول الشئ بشرط المحبة ونفي الطماعية"[٤] .

لكن العلامة الدسوقي في حاشيته صحح تعريف صاحب المختصر بأن المحبة فيه مقيدة بالتجرد عن الطمع وهذا مالم يفطن له ابن يعقوب المغربي ، فكان منه ذلك التعقيب[٥] .

أما التعريف الآخر المذكور عقب تعريف صاحب المختصر ، فهو لصاحبي البلاغة الواضحة ، وهو كما يبدو تعريف واضح وليس عليه من تعقيب .

والأمر المتمنى المحبوب المطلوب إما أن يكون مستحيلا نحو قوله تعالى : ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٦] .

قال علامة تونس : "وهذا المبطئ يتمنى أن لو كان مع الجيش ليفوز فوزا عظيما ، وهو الفوز بالغنيمة والفوز بأجر الجهاد ، حيث وقعت السلامة والفوز برضا الرسول ﷺ ، ولذلك أتبع "أفوز" بالمصدر والوصف بعظيم .

---

(١) المختصر (٢/٢٣٨) .

(٢) البلاغة الواضحة (ص٢٠٧) .

(٣) ينظر : مواهب الفتاح (٢/٢٣٨) .

(٤) ن.م.س .

(٥) ينظر : حاشية الدسوقي (٢/٢٣٨) .

(٦) سورة النساء : آية (٧٣) .

ووجه غريب حاله أنه أصبح متلهفا على مافاته بنفسه ، وأنه يود أن تجري المقادير على وفق مراده ؛ فإذا قعد عن الخروج لايصيب المسلمين فضل من الله"(١) .

ووجه استحالة هذا التمني هو حصوله بعد انقضاء زمنه ، ومضي وقته ، واستحالة أن يرجع مافات من الزمن وأن يعود مامضى وانقضى .

وهذا المبطئ هو الموصوف حاله في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٢) .

فهو طلب نفسي عارم ورغبة حبيسة جامحة تنبع من ثنايا النفس ودخائلها ، لتكشف نوازعها وتظهر رغائبها تتمنى الفوز وقت المغانم والسلامة وقت المغارم ، وهي حال أبعد ماتكون عن حال أهل الإيمان الذين يرون الحسنيين في الحالين حال الشهادة وحال النصر ، ليميز الله الخبيث من الطيب .

وعلى كل فمناط الإيراد هذا التمني المستحيل الذي وقته وقع وانقطع ، ومضى وانقضى .

وإما أن يكون ذلك الأمر المتمنى ممكنا غير مطموع في نيله ولايرجى حصوله نحو قوله تعالى في سورة القصص : ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(٣) .

قال علامة تونس : "والذين يريدون الحياة الدنيا لما قوبلوا بالذين أوتوا العلم كان المعنى بهم عامة الناس وضعفاء اليقين الذين تلهيهم زخارف الدنيا عما يكون في مطاويها من سوء العواقب ، فتقصر بصائرهم عن التدبر إذا رأوا زينة الدنيا ، فيتلهفون عليها ، ولايتمنون غير حصولها ، فهؤلاء وإن كانوا مؤمنين إلا أن إيمانهم

---

(١) التحرير والتنوير (١١٩/٥) ومابعدها .
(٢) سورة النساء : آية (٧٢-٧٣) .
(٣) سورة القصص : آية (٧٩) .

ضعيف ، فلذلك عظم في عيونهم ماعليه قارون من البذخ فقالوا ﴿إنه لذو حظ عظيم﴾ أي : ذو بخت وسعادة"[١] .

وتمنى أن يكون للذين يريدون الحياة الدنيا من قوم قارون مثل مالقارون من الثراء والغنى أمر ممكن لامستحيل .

ويلحظ في كلا الجملتين القرآنيتين اللتين للتمني سواء كان مستحيلا أو ممكنا أن أداة التمني هو الحرف "ليت" ، وهو الحرف الذي يدل بأصل وضعه في اللسان العربي على التمني[٢] .

وهو حرف يدخل على الجملة الاسمية ، فينصب المبتدأ ويرفع الخبر ، ولايدخل حرف التمني هذا على الجملة الفعلية .

ويطرح في هذا المقام سؤال لامناص من إيراده كما لامناص من الإجابة عنه وهو أليس للجملة الفعلية حظ من أن تكون جملة متمنى بها كالجملة الاسمية؟ أم أن الجملة الفعلية مبخوسة الحق في هذا الجانب ، فتقسر قسرا لئن تكون جملة اسمية فيتمنى بها؟!

ولئن قيل ذلك ، فإن الجملة الاسمية لايمكن أن تكون نائبة عن الجملة الفعلية في جميع خصوصياتها ، ليصح إقامتها مقامها في مجئ أسلوب التمني منها ، وهذا يدفع للتركيز على جانبين اثنين :

أولا : هناك سر ألفت النظر إليه وحسبي ذلك ، وهو سر اختصاص هذا الأسلوب بالجملة الاسمية في أصل وضعه اللغوي .

فلابد أن يكون هذا النظام المحكم في هذه اللغة الخالدة منطويا على سر أسلوبي وليس الأمر مجرد مصادفة أو مما يمكن أن يمر عليه دون أن ينبه إليه .

ولايرد لقائل أن يقول : إن حرف التمني "ليت" يدخل على الجملة الفعلية إذا لحقته "ما" الكافة نحو : ليتما يومض بارق الهوى ، فيسقط وجه التساؤل الذي طرحت ، والسر الذي عليه نبهت ، لأنه يقال في الإجابة عن ذلك : لقد كان هذا

---

(١) التحرير والتنوير (١٨٣/٢٠) .

(٢) ينظر : شروح التلخيص (٢٣٨/٢) ومابعدها .

الإيراد بمحل من الذهن عند لفت النظر إلى هذا التساؤل ، لأن دخول "ما" الكافة على حرف التمني "ليت" إنما هو فرع عن أصل وضع "ليت" ، فما زال التساؤل قائما عن سر أصالة وضع "ليت" في اختصاصها بالجملة الاسمية .

على أنه يجب أن يكون في الاعتبار وأمام الواعي من الأنظار أن الجملة الاسمية غير الجملة الفعلية لأن لكل خصوصياته ، ولاتسد إحداهما دون الأخرى ، فكان حريا من جهة النظر أن يرد هذا الأسلوب في القسمين ، وأن يحفل بالتعبير عن الجملتين .

ولايرد أن ينظر منظر بأن "هل" في الفعلية مثل "ليت" في الاسمية ، لأن الفرق كبير ، والبون بعيد ، وشتان بين الحرفين في التنظير .

لأن "هل" لها مزيد اختصاص بالجملة الفعلية ودخولها عليها أكثر ، لكنها تدخل على الجملة الاسمية دون مسوغ يؤهلها لذلك ، بل بنفسها .

بينما "ليت" مختصة بالجملة الاسمية في أصل وضعها ، ولاتدخل على الجملة الفعلية بنفسها ، بل لابد من مسوغ يؤهلها في الدخول عليها وهو "ما" الكافة .

و"ما" الكافة غير مختصة بـ"ليت" ، بل تدخل عليها وعلى غيرها ، لتهيئتهم للدخول على مالم يستطيعوا الدخول عليه في أصل وضعهم اللغوي .

إضافة إلى أن "هل" ليست الحرف الأول والوحيد الذي يمثل أسلوب الاستفهام ، بينما "ليت" هي الحرف الأول والأصلي الذي يمثل أسلوب التمني .

ولذلك تجد الحرف الأول أو الأصلي في الأسلوب نفسه مثل الهمزة في الاستفهام لها من الصلاحيات مايفي بجميع أغراض المتكلم في اختياراته اللغوية للبدائل المختلفة في خصوصيات معاني أقواله وأحواله .

بمعنى مجمل أن الهمزة تدخل على الجملة الاسمية والجملة الفعلية وتأتي للتصور كما تأتي للتصديق .

ثانيا : الاقتصار على أداة واحدة متأصلة في الأسلوب نفسه كحرف "ليت" في التمني . هل يعد ذلك مؤشرا على قلة استعمال هذا الأسلوب في فن القول ، أو بالأصح في اختلاجات نوازع النفس ورغائبها .

وأكاد أجزم أن التمني ماهو إلا مسلك تنفس وهروب من الواقع المعاش إلى الرغبة التي عز مطلبها ، وتنآى السبيل إليها ، ولذا فهو يكثر في كلام الشعراء الذين يجمحون بخيالهم ويتمنون ما لم ينالوه على أرض الواقع .

ولاأود الإطالة فيما ألفت إليه الأنظار ، وأوجه إليه الأفكار ، من تساؤلات ترد على الخاطر الفاتر ، والفكر القاصر ، ولكني أود رصد الحقائق والإلماح إلى الدقائق .

وربما يظهر بعد هذا الطرح وجه مجئ "لو" و"هل" و"لعل" كحروف مساعدة في هذا الاستعمال .

وقد وردت هذه الحروف الثلاثة في تراكيب الجملة القرآنية لإفادة معنى التمني كما ورد حرف "ليت" مفيدا هذا الأسلوب في الجمل القرآنية المذكورة آنفا.

وقد مر[1] بنا في باب الاستفهام أن حرف "هل" يجئ للتمني ، وذكرت قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[2] ، وبقي ماأرجأته لهذا المقام ، وهو شاهد قرآني أخر لحرف "هل" في إفادته التمني ، في سورة الشعراء وهو قوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾[3] .

قال ابن عاشور : "و"هل" مستعملة في استفهام مراد به التمني مجازا ، وجئ بعدها بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ، أي تمنوا إنظارا طويلا يتمكنون فيه من الإيمان والعمل الصالح"[4] .

ولايقال : كان الأولى أن توضع هذه الجملة القرآنية في باب الاستفهام لاهنا لأنا نقول : ليس معنى مجئ "هل" في التمني انسلاخها من معنى الاستفهام ، بل تفيد معنى التمني ويلحظ فيها أصل معناها .

---

(١) ينظر (ص٥٥٤) .

(٢) سورة الأعراف : آية (٥٣) .

(٣) سورة الشعراء : آية (٢٠٠-٢٠٣) .

(٤) التحرير والتنوير (١٩/١٩٥) .

ولذا كان قولهم : هل نحن منظرون يفيد أن الأمر المتمنى وهو الإنظار لشدة عنايتهم به ، وفرط تمنيهم له ، كأنما هو بسبيل الحصول ، ومحل الوقوع .

ومثل كلمة "هل" في إفادة هذا المعنى كلمة "لعل" ، وقد نبه على ذلك البلاغيون[١] .

و لم ينبه عليه ابن عاشور حتى في آية سورة غافر المشهورة كشاهد بلاغي ، وهي قوله تعالى : ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[٢] .

وذكر علامة تونس في بعض المواطن التي وردت فيها كلمة "لعل" بأن الترجي ليس من الإنشاء ، فقال : "و"لعل" إذا جاءت في ترجي الشئ المخوف سميت إشفاقا وتوقعا ، وأظهر الأقوال أن الترجي من قبيل الخبر وأنه ليس بإنشاء مثل التمني"[٣] .

فالترجي عنده خبر وليس من الإنشاء ، بينما عده من عده من البلاغيين خبرا.

وقد أشار إلى ذلك الدسوقي إذ قال : "ومنهم ــ أي البلاغيين ــ من يجعل الترجي قسما سادسا"[٤] أي : إضافة إلى أبواب الإنشاء الخمسة .

أما الحرف الأخير من الحروف المفيدة للتمني ، وهو حرف "لو" ، فقد اشار إليه عند تفسير قول الله تعالى : ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾[٥] .

قال علامة تونس : "و"لو" في قوله ﴿لو أن لنا كرة﴾ مستعملة في التمني ، وهو استعمال كثير لحرف "لو" .

وأصلها الشرطية حذف شرطها وجوابها ، واستعيرت للتمني بعلاقة اللزوم ، لأن الشئ العسير المنال يكثر تمنيه ، وسد المصدر مسد الشرط والجواب ، وتقدير

---

(١) ينظر : شروح التلخيص (٢/٢٤٥) .
(٢) سورة غافر : آية (٣٦-٣٧) .
(٣) التحرير والتنوير (١٩/٩٣) .
(٤) حاشية الدسوقي (٢/٢٣٨) .
(٥) سورة البقرة : آية (١٦٧) .

الكلام لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم ، وانتصب ماكان جوابا على أنه جواب التمني وشاع هذا الاستعمال حتى صار من معاني "لو" .

وهو استعمال شائع وأصله مجاز مرسل مركب ، وهو في الآية مرشح بنصب الجواب"[١] .

وقد ذكر صاحب مغني اللبيب اختلافات النحاة وآراءهم في حقيقة "لو" المفيدة للتمني ، هل هي قسم برأسها ، أم أنها "لو" المصدرية ، أم أنها "لو" الشرطية[٢] .

وهذا الأخير هو مارجحه ابن عاشور .

ويستدل على أنها للتمني في هذا الموضع بكون الفعل منصوبا في جوابها وهو قوله تعالى "فنتبرأ" ، وإنما ينصب الفعل في جواب الطلب .

وكلامه حول "لو" نحوي أكثر منه بلاغي ، ولعل الملمح البلاغي الذي يفهم من كلامه ولم يصرح به هو أنه لما ذكر أن "لو" أصلها شرطية فهم منه أن مجئ حرف "لو" دون حرف "ليت" لإفادة التمني من أجل أن الأمر المتمنى وهو الرجوع إلى الدنيا مرة أخرى تأكدت فيه عزة حصوله ، واستحالة وقوعه ، لأن "لو" الشرطية تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، فالامتناع يلمح في التعبير بها دون غيرها من أدوات التمني .

وقد أشار إلى معنى التمني في هذه الآية الزمخشري إذ قال : "(لو) في معنى التمني ، ولذلك أجيب بالفاء الذي يجاب به التمني ، كأنه قيل : ليت لنا كرة فنتبرأ منهم"[٣] .

ونحو هذا المعنى البلاغي لـ"لو" قوله تعالى : ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٤] .

---

(١) التحرير والتنوير (٩٨/٢) .

(٢) ينظر : مغني اللبيب (٢٦٦/١) ومابعدها .

(٣) الكشاف (٣٢٧/١) .

(٤) سورة آل عمران : آية (٦٩) ، وينظر : التحرير والتنوير (٢٧٨/٣) .

النداء

النداء : هو طلب الإقبال حسا أو معنى بحرف نائب مناب "أدعـو" لفظا أو تقديرا[1] .

ومعنى طلب الإقبال حسا واضح ، أما معنى فنحو : ياصبا نجد .

وتدور الدراسة البلاغية حول هذا المبحث في جانبين :

الجانب الأول : هو استعمال بعض حروف النداء موضع بعضها الآخر .

لأن حروف النداء الثمانية تنقسم إلى قسمين :

(أ) قسم ينادى به القريب ، ويضم حرفين اثنين : الهمزة ، و"أي" .

(ب) قسم ينادى به البعيد ، ويضم ستة أحرف : "يا" ، و"أيا" ، و"هيا" ، و"آ" ، و"آي" ، و"وا"[2] .

وقد ينادى القريب بأدوات البعيد ، نحو ماورد في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾[3] .

قال علامة تونس : "وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير بعيد عن سماع الأمر الاهي ، للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملأ الأعلى ، حتى ينال بذلك حسن السمعة مع مافيه من التكريم عند الآمر ، لأن شأن الآمر والمخاطب ـ بالكسر ـ إذا تلطف مع المخاطب ـ بالفتح ـ أن يذكر اسمه ولايقتصر على ضمير الخطاب حتى لايساوي بخطابه كل خطاب"[4] .

فنداؤه مع أنه غير بعيد بأداة البعيد لعلو منزلته عليه الصلاة والسلام وللتنويه بشأنه ، ولرفعة مقامه ، وهو موضع الشاهد في هذا الإيراد .

ولم يعرج العلامة الطاهر على هذا الجانب إلا بهذا النزر القليل ، لقلة وروده في الجمل القرآنية ، ولقلة أسراره ومعانيه البلاغية .

---

(١) ينظر : المختصر (٢/٣٣٤) ، مواهب الفتاح (٢/٣٣٣) ، حاشية الدسوقي (٢/٣٣٤) .

(٢) ينظر : مواهب الفتاح (٢/٣٣٣) ومابعدها ، حاشية الدسوقي (٢/٣٣٤) .

(٣) سورة البقرة : آية (٣٣) .

(٤) التحرير والتنوير (١/٤١٧) .

أما الجانب الثاني : فهو خروج النداء عن معناه الحقيقي إلى معان بلاغية ، وهو جانب ورد كثيرا في الجمل القرآنية ، وكان علامة تونس أكثر احتفاء به ، وأبسط مقالا فيه .

فمن تلك المعاني التحسر .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾(١) .

قال علامة تونس : "والنداء للتحسر ، وليس للخطاب ، لأن الذي كلمها هو الملك ، وهي قد توجهت إلى الله"(٢) .

فتوجهها إلى الله في دعائها إياه إنما كان عقب هول مفاجأة حملها دون أن يمسها بشر ، فكان ذلك النداء الموجه إلى الله تحسرا على وقوع هذا الأمر ، ويزيد هذا المعنى وضوحا الاستفهام الإنكاري الوارد بعد النداء ﴿أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر﴾ ، فالملك هو الذي أخبرها بهذا الأمر كما ورد ذلك في سورة مريم ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾(٣) .

فلما أصابتها حسرة حصول حملها دون بشر ، تركت خطاب الملك ، وتوجهت متحسرة بنداء إلى الله عز وجل يصور تلك الحسرة وذلك الكمد .

ونحو هذا الغرض البلاغي في النداء ماورد في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٤) .

---

(١) سورة آل عمران : آية (٤٧) .

(٢) التحرير والتنوير (٣/٢٤٨) .

(٣) سورة مريم : آية (١٦-٢١) .

(٤) سورة الأنعام : آية (٢٧) .

قال علامة تونس : "وحرف النداء في قولهم "ياليتنا نرد" مستعمل في التحسر لأن النداء يقتضي بعد المنادى ، فاستعمل في التحسر ، لأن المتمنى صار بعيدا عنهم أي : غير مفيد لهم ، كقوله تعالى : ﴿أن تقول نفس ياحسرتي على مافرطت في جنب الله﴾"[١] .

فقد جعل حرف النداء في هذه الجملة القرآنية على بابه ، بينما جعله بعضهم[٢] حرف تنبيه لأنه ليس هناك ثمة منادى حقيقي ينادى .

والمنادى هنا تمني العودة مرة أخرى للدنيا ، فعلم أن النداء غير حقيقي بل لمعنى بلاغي وهو التحسر على ماهم فيه من مشاهدة النار والوقوف عليها .

وقيل إن المنادى محذوف ، وتقديره : ياقومنا ليتنا نرد ...الخ[٣] .

ولعل عدم التقدير أولى من التقدير ، وماذكره علامة تونس هو الأولى ، وقد عضده بمناداة الحسرة في قوله : ﴿أن تقول نفس ياحسرتي على مافرطت في جنب الله﴾ ، أي : احضري فهذا أوانك ووقتك[٤] . وكذاك تمني الرجوع إلى الدنيا ، فهذا وقته وأوانه .

و لم يزد علامة بغداد على ذكر الوجه النحوي في "يا" إذ قال : "و"يا" للتنبيه أو للنداء والمنادى محذوف أي : ياقومنا مثلا"[٥] .

ومن تلك المعاني التبرئ إضافة إلى معنى التحسر .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[٦] .

قال علامة تونس : "ونداؤه قومه نداء تحسر وتبرئ من عملهم ، وهو مثل قول النبي ﷺ بعد وقعة بدر ، حين وقف على القليب الذي ألقى فيه قتلى

---

(١) التحرير والتنوير (٧/١٨٤) .
(٢) ينظر : البحر المحيط (٤/١٠٧) .
(٣) ينظر : روح المعاني (٧/١٢٨) .
(٤) ينظر : تفسير البيضاوي (٤/٤٨) ، حاشية الخفاجي (٤/٤٨) ، التحرير والتنوير (٢٤/٤٥) .
(٥) روح المعاني (٧/١٢٨) .
(٦) سورة الأعراف : آية (٩٣) .

المشركين فناداهم بأسماء صناديدهم ، ثم قال : ﴿لقد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا﴾"(١) .

فنداء شعيب عليه الصلاة والسلام قومه بعد هلاكهم بالرجفة التي أخذتهم ، فأصبحوا في دارهم جاثمين ، إنما هو نداء غير حقيقي ، لأنه يخاطب به هلكى ، ليفيد معنى بلاغيا هو التحسر عليهم لشدة حزنه على موتهم كافرين ، بقرينة إنكاره على نفسه ذلك في قوله ﴿فكيف آسي على قوم كافرين﴾ ، كما يفيد الاستفهام التبرئ منهم بقرينة قوله : ﴿لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾.

ومن تلك المعاني التشهير .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الحجر : ﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٢) .

قال علامة تونس : "والنداء في ﴿ياأيها الذي نزل عليه الذكر﴾ للتشهير بالوصف المنادى به"(٣) .

فنداؤهم النبي ﷺ بهذا الوصف تشهير به في زعمهم ، لأن نداءهم لايقصد به حقيقة النداء ، وماهو إلا معنى بلاغي يقصد به مايوافق مقام مقالهم من التهكم والسخرية والتشهير في زعمهم .

وقد سبق(٤) التطواف على هذا المعنى في وجه التعريف بالموصولية في هذه الجملة القرآنية .

ومن تلك المعاني الإكرام .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٥) .

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٩) .

(٢) سورة الحجر : آية (٦) .

(٣) التحرير والتنوير (١٦/١٤) .

(٤) ينظر (ص٤٤٦) .

(٥) سورة الأعراف : آية (١٠٤) .

قال علامة تونس : "والظاهر أن خطاب موسى فرعون بقوله ﴿يافرعون﴾ خطاب إكرام ، لأنه ناداه بالاسم الدال على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته فليس هو بترفع عليه ؛ لأن الله تعالى قال له ولهارون : ﴿فقولا له قولا لينا﴾ .

والظاهر أيضا أن قول موسى هذا هو أول ماخاطب به فرعون كما دلت عليه سورة طه"[1] .

فابن عاشور يرى أن مناداة هذا الطاغية الكافر بـ"يافرعون" من قبل نبي الله موسى إنما هو من باب الإكرام ، ومن باب القول اللين المأمور به موسى وهارون في قوله : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا﴾[2] .

لأن كلمة فرعون تدل على الملك والسلطان بحسب متعارف أمته كما صرح الطاهر بذلك .

ومنها طلب الإصغاء .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[3] .

قال علامة تونس : "ونداؤهم موسى وهو معهم مستعمل في طلب الإصغاء لما يقولونه ، إظهارا لرغبتهم فيما سيطلبون"[4] .

وهذا المعنى البلاغي أظهر مايكون وقوعه في قاعات الدرس في مناداة المعلم لبعض تلاميذه بأسمائهم أثناء الشرح .

وقد تنبه علامة تونس إلى أن مناداة موسى من قبل قومه في مثل هذا المقام يكون لطلب الإصغاء لما سيقولونه من كلام أو يطلبونه من أمور .

ومنها التوجع .

ففي تفسير قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا﴾[5] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٧/٩) .

(٢) سورة طه : آية (٤٤) .

(٣) سورة الأعراف : آية (١٣٨) .

(٤) التحرير والتنوير (٨١/٩) .

(٥) سورة الكهف : آية (٤٩) .

قال علامة تونس : "ونداء الويل ندبة للتوجع من الويل ، وأصله نداء استعمل مجازا بتنزيل مالاينادى منزلة ماينادى لقصد حضوره ، كأنه يقول : هذا وقتك فاحضري .

ثم شاع ذلك فصار لمجرد الغرض من النداء وهو التوجع ونحوه"[١] .

ونداء الويل ليس ندبة ، وإنما الندبة تكون في النداء بحرف "وا" لابحرف "يا" نحو : وازيداه ، وقد نص على ذلك النحاة[٢] .

والتعبير بأن النداء ندبة للتوجع فيه تسامح من ابن عاشور ، إذ أنه على التحقيق ليس ندبة بالمعنى الاصطلاحي .

فنداؤهم الويل وهو لاينادى كمناداة الحسرة في قوله تعالى : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[٣] .

وقد ألمح علامة خوارزم إلى هذا المعنى إذ قال : "﴿ياويلتنا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها خاصة من بين الهلكات"[٤] .

وقد نقل هذا الكلام العلامة البيضاوي فقال : "﴿ويقولون ياويلتنا﴾ ينادون هلكتهم التي هلكوها من بين الهلكات"[٥] .

وعقب عليه العلامة الخفاجي بقوله : "قوله ﴿ينادون هلكتهم﴾ ... ونداؤها على تشبيهها بشخص يطلب إقباله ، كأنه قيل : ياهلاك أقبل فهذا أوانك ، ففيه استعارة مكنية تخييلية ، وفيه تقريع لهم ، وإشارة إلى أنهم لاصاحب لهم غير الهلاك أو طلبوا هلاكهم لئلا يروا ماهم فيه .

وأما تقدير المنادى أي : يامن بحضرتنا وملتنا ففيه حذف وتقدير لما تفوت به تلك النكتة ، والويل والويلة الهلاك"[٦] .

---

(١) التحرير والتنوير (٣٣٨/١٥) .

(٢) ينظر : شرح الكافية الشافية لابن مالك (١٣٣٩/٣) ومابعدها ، النحو الوافي (٨٩/٤) ومابعدها .

(٣) سورة الزمر : آية (٥٦) .

(٤) الكشاف (٤٨٧/٢) .

(٥) تفسير البيضاوي (١٠٨/٦) .

(٦) حاشية الخفاجي (١٠٨/٦) .

فهو يرى أن تقدير منادى محذوف يفوت نكتة معنى النداء البلاغي هنا ، وهي نكتة الاستعارة المكنية التخيلية ، ونكتة التقريع لهم ، ونكتة التوجع ونكتة الخلاص بالهلاك ، إضافة إلى أن تقدير منادى فيه تكلف الحذف للمنادى المحذوف ، وتقديره .

وقد توافق علامة تونس مع الشهاب الخفاجي فيما رآه وذهب إليه .

ومنها التأنيس وإزالة الروع .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ﴾[١] .

قال علامة تونس : "والنداء للتأنيس وإزالة الروع"[٢] .

ووجه التأنيس وإزالة الروع أنه أعقب ماوقع أمام عيني موسى عليه الصلاة والسلام من اندكاك الجبل لتجلي الله له ، وسقوط موسى مغشيا عليه ، فكان النداء لأجل الإيناس وإزالة الروع الذي حل بموسى عليه الصلاة والسلام ، وسياق الآية ومقامها يفصحان عن ذلك .

ومنها الترقيق والاستشفاع .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٣] .

قال علامة تونس : "و﴿ابن أم﴾ منادى بحذف حرف النداء ، والنداء بهذا الوصف للترقيق والاستشفاع"[٤] .

ووجه الترقيق والاستشفاع أنه لم يناده باسمه العلم بل ناداه بـ(ابن أم) ، "وتخصيص الأم بالذكر مع كونهما شقيقين ، لما أن حق الأم أعظم وأحق بالمراعاة مع أنها كانت مؤمنة ، وقد قاست فيه المخاوف والشدائد"[٥] .

---

(١) سورة الأعراف : آية (١٤٤) .
(٢) التحرير والتنوير (٩/٩٤) .
(٣) سورة الأعراف : آية (١٥٠) .
(٤) التحرير والتنوير (٩/١١٦) .
(٥) تفسير أبي السعود (٣/٢٧٤) .

وقد ذكر علامة تونس أن حرف النداء حذف دلالة على اضطراب هارون عليه الصلاة والسلام ورعبه ، وفي هذا مزيد تلطف في ارتباط الحال بالمقال في رؤية صاحب التحرير والتنوير حين قال : "وحذف حرف النداء لإظهار ماصاحب هارون من الرعب والاضطراب"[(١)] .

وقد علل حذف حرف النداء بتعليل آخر ليس فيه نكتة بلاغية ، إذ رتبه على كلام سابق ذكر في سورة طه[(٢)] .

ونحو هذا الغرض ماورد في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[(٣)] .

ومنها التعجب .

ففي تفسير قوله تعالى : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي﴾[(٤)] .

قال علامة تونس : "كلمة "ياويلتا" من صيغ الاستغاثة المستعملة في التعجب وأصله يا لويلتي ، فعوضت الألف عن لام الاستغاثة نحو قولهم : ياعجبا .

ويجوز أن يجعل الألف عوضا عن ياء المتكلم ، وهي لغة ، ويكون النداء مجازا بتنزيل الويلة منزلة ماينادى ، كقوله ﴿ياحسرتي على مافرطت في جنب الله﴾"[(٥)] .

فالمنادى هنا "ويلتا" إما أن تكون صيغة استغاثة وقد حذفت لامها وعوض عنها الألف ، وهذا بعيد لأن فيه حذفا وتعويضا وتقديرا .

وأما أن تكون الألف منقلبة عن ياء المتكلم وهي لغة فيه ، وهذا أقرب .

والنداء مستعمل في التعجب من حالة عجزه - أي قابيل - عن القيام بفعل مثل مافعل الغراب .

---

(١) التحرير والتنوير (١١٦/٩) .

(٢) ينظر : ن.م.س .

(٣) سورة الصافات : آية (١٠٢) ، وينظر : التحرير والتنوير (١٥١/٢٣) .

(٤) سورة المائدة : آية (٣١) .

(٥) التحرير والتنوير (١٧٣/٦) .

بينما رأى علامة بغداد أن النداء ، لأجل التحسر والجزع فقال : "﴿قال ياويلتي﴾ كلمة جزع وتحسر ، والويلة - كالويل - الهلكة . كأن المتحسر ينادي هلاكه وموته ، ويطلب حضوره ، بعد تنزيله منزلة من ينادى"[١] .

ولاتثريب في أن تكون نكتة النداء هي التعجب والتحسر والجزع ، والنكت لاتتزاحم .

---

(١) روح المعاني (١١٦/٦) .

الخاتمة

وقد خلصت إلى النتائج الآتية :

- الأفصح لغة التوكيد بالواو لا بالألف ، وإن كان الأخير جائزا .
- قلة العناية بحدود الأبواب البلاغية مع الحاجة إلى ضبط معاقد معارفها ، وذلك لأمرين :

الأمر الأول : يرجع إلى طبيعة منهج دراسة البلاغة عند المتقدمين وتقسيماته.

الأمر الآخر : يرجع إلى قلة المعتنيين بها من المتأخرين .

- كثرة التوكيد في القرآن ، ويبرز في جانبين :

الجانب الأول : وجود أكثر من مؤكد في الجملة القرآنية .

الجانب الآخر : وجود أكثر من جملة مؤكدة في الآية .

- دواعي التوكيد وأغراضه تتجاوز المقامات التحقيقية والاعتبارية المقعدة في كتب البلاغة إلى المتكلم كمتكلم ، والخبر كخبر ، والمخاطب كمخاطب .
- التوجيهات النفسية في أغراض التوكيد ودواعيه باب واسع تستدعي من الباحثين كشف نقابها ، والوقوف على دقائق أسبابها .
- قد يقصد من التوكيد معناه الصريح وهو التحقيق والتقرير ، أو يقصد منه المعنى الكنائي ، سواء كان قريبا أو بعيدا ، ولايراد الصريح ، أو ربما يجتمع المعنى الصريح والكنائي ، نحو ماورد في قوله تعالى : ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [سورة البقرة : آية ١٤٤) .
- النكات البلاغية اللفظية ليست كافية وحدها في تعليل مقاصد الكلام البليغ ، بل لابد من أن تردف بنكات بلاغية معنوية .
- النكات البلاغية العامة ليست كافية وحدها في تعليل مقاصد الكلام البليغ بل لابد من أن تردف بنكات بلاغية خاصة .
- يكون المقام البلاغي هو الفيصل في تحديد الدلالة البلاغية عند تماثل صور التركيب بل عند اتحادها لفظا ومعنى .

– عناصر التوكيد ووسائله ذكر منها الباحث مايربو على ستين عنصرا ووسيلة ، لم يسبقه إلى محاولة استقصائها ودراستها بهذا القدر أحد من البلاغيين .

– مجئ أداة التوكيد "إن" ـ مكسورة الهمزة مشددة النون ـ لمعنى غير التوكيد وهو الاهتمام ، وذلك إذا كانت في غير مقام تردد ولاإنكار .

– قد يجتمع معنى التوكيد ومعنى الاهتمام لأداة التوكيد "إن" في جملة واحدة ، وقد ينفرد أحدهما دون الآخر .

– الدعاء على النفس من الأساليب التي تجري مجرى القسم وتفيد التوكيد ، وقد وردت به الجملة القرآنية والشعر العربي .

– "أن" ـ مفتوحة الهمزة ـ التحقيق فيها أنها من أدوات التوكيد خلافا لمن لم يعدها كذلك .

– الصلات سواء كانت أحرفا أو أسماء أو أفعالا أو مايسميه النحويون من جهة الصناعة النحوية بـ"الزيادة" فيها أسرار بلاغية بالغة الدقة تصل إلى حد التغيير في الدلالة الأسلوبية بأن تكسب الموصول معنى الشرط .

– تتبع تباين ورود صياغة أسلوب فعل معين في الغرض نفسه في الجملة القرآنية يثري الدرس البلاغي ويكشف جانبا من جوانب دلالات التركيب ، نحو ماورد في الفعل "كذّب" من تعديه بالباء وتعديه بنفسه . قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر : آية ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء : آية ١٤١] .

– من عناصر التأكيد التنوين الذي يمثل جانب التصويت والتنغيم ، وهي دلالة صوتية تنضم إلى الدلالات الأخرى ، لتفتح بابا للبلاغيين لاأحسبه مغلقا يتعلق بالجانب الصوتي في بلاغة الجملة .

– بروز دقة طبيعة البلاغة في مساءلتها كل كلمة في النص ماجاء على الأصل وماجاء على خلافه مباينة غيرها من العلوم في هذه الدقة المتناهية .

إذ أن المتعارف عند العلماء السؤال عما لم يجئ على الأصل ، أما ماورد على الأصل فلايسأل عن علته .

– استيجاب الدراسة الاستقرائية للمحتج به من الكلام العربي ، شريطة أن تكون تلك الدراسة الاستقرائية منعوتة في مصطلح المناطقة بالتامة ، لأجل تحقيق القول في شروط مجئ الاختصاص من تقدم المسند إليه ذي الخبر الفعلي الواقع أي المسند إليه بعد نفي ، لكون ذلك يمس اللغة من جهة السماع وتستدعي الدراسة تحقيقه .

– قلة ورود مجئ الاختصاص من تقدم المسند على المسند إليه في حالة النفي في الجملة القرآنية الكريمة ، نحو قوله تعالى : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات : آية ٤٧].

– تقديم ذي الاعتبار الطارئ على ذي الاعتبار الأصلي وإن كان الأخير أهم في الحقيقة وفي نفس الأمر على سابقه .

– كثرة الحذف القرآني الذي شمل الحرف والكلمة والجملة والجمل ، وكثرة أسراره ، ودقيق خفاياه ، ليلمح بإجمال إلى أن الاعتماد على دليل العقل في تأمله وتفكره وبحثه مقصد من مقاصد القرآن .

– الاحتباك نوع من أنواع الحذف وضرب من أضرب البديع ، وفن بلاغي مغفول عنه لم تذكره كتب البلاغة إلا كتاب عقود الجمان للسيوطي .

– الحروف المقطعة في أوائل السور القرآنية الكريمة تنوعت الأقوال بها ، والأولى عدم عدها من حذف الاقتطاع ، والأسلم إرجاع علمها إلى الله سبحانه وتعالى مع الاعتراف بأن له حكمة لم تدركها عقولنا ، ولم تصل إليها أفهامنا ، والوقوف عند هذا الحد ، كوقوفنا عن طلب المتشابه مع كونه ألفاظا عربية وتراكيب مفهومة ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ﴾ [آل عمران : آية ٧].

قال ابن كثير : "ولم يجمع العلماء فيها على شئ معين ، وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه ، وإلا فالوقف حتى يتبين هذا المقام" . (تفسير ابن كثير ١/ ٤٠) .

– على كثرة الحذف في القرآن الكريم ـ حتى ذكر ابن جني أن حذف المضاف وحده في القرآن الكريم بلغ زهاء ألف موضع ـ لم تقع صورتان اثنتان من

الحذف ، صورة حذف التمييز نحو : كم سرت؟ أي : ميلا ، وصورة حذف المستثنى نحو : قبضت عشرة ليس إلا .

وهاتان الصورتان صحيحتان من جهة العربية ، ولم تقعا في النظم الجليل .

- ثراء أساليب الاستعمال في ترك المفعول من جهة لزوم الفعل المتعدى عن طريق استعمالات الأسلوب القرآني له .

- قلة ورود الضرب الذي يترك فيه المفعول ليكون الفعل مطلقا كناية عن الفعل متعلقا بمفعول مخصوص ، في تراكيب الجملة القرآنية المعجزة .

- لايجب ذكر مفعول المشيئة إذا كان غريبا خلافا لمن فهم ذلك من المحققين كالعلامة التفتازاني حين قال في المطول : "فلابد من ذكر المفعول" (المطول ص١٩٤) ، وحين قال في المختصر : "... بخلاف ماإذا كان تعلق فعل المشيئة به غريبا فإنه لايحذف حينئذ ..." (المختصر ١٣٢/٢) ، والعلامة ابن يعقوب المغربي في مواهب الفتاح ، إذ قال : "فإن كان تعلقه به غريبا لم يحذف" (مواهب الفتاح ١٣١/٢) .

بل يستحسن ذكر المفعول إذا كان غريبا كما نص على ذلك الإمام عبد القاهر ، إذ قال : "متى كان مفعول المشيئة أمرا عظيما أو بديعا غريبا كان الأحسن أن يذكر ولايضمر" (دلائل الإعجاز ص١٦٥) . هذا هو وجه التحقيق في المسألة .

- ورد حذف مفعول المشيئة في الجملة القرآنية مع أن المفعول أمر عظيم وبديع غريب في حقيقته وواقع أمره ، وهو قوله تعالى : ﴿قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة﴾ ، وورد حذف المفعول في الشعر العربي في قول المعري :

وإن شئت فازعم أن من فوق ظهرها   عبيدك واستشهد إلهك يشهد

ولاأدعي أن المفعول في هذين الموضعين ليس غريبا وأتكلف ذلك ، بل أرى أن القائلين وهم كفار مكة في الآية القرآنية والشاعر المعري في البيت الشعري يرون عدم غرابة المفعول ادعاء ..

- لايوجد في الجملة القرآنية فعل محبة يجري على نمط فعل المشيئة ، وإن نظره البلاغيون به ، ومثلوا له بمثال مصنوع وهو قولهم : لو أحب لأعطاكم .

ورد شاهدان قرآنيان اثنان لفعل الإرادة الذي يجري على نمط فعل المشيئة في ذكر المفعول إذا كان غريبا وأن يحذف فيما عدا ذلك .

وهما قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ﴾ [آية ١٧] .

وقوله تعالى في سورة الزمر : ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [آية ٤] .

وقد ذكر مفعولاه ولم يحذفا .

– كثرة الأغراض البلاغية للتعريف بأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والإضافة في الجملة القرآنية .

– تفرد الباحث في جمع وبيان تراكيب خاصة لأسماء الإشارة وردت بها الجملة القرآنية ، اختلف العلماء في تقريرها وتحقيقها اختلافا نوعيا ـ لاضديا ـ يثري البحث ويوسع مدى الرؤى ، من نحو : ﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ [الشورى : ١–٣] .

– النكات البلاغية في باب التعريف لايلزم من استظهارها اختصاص المعرف بهذا الطريق دون غيره من بقية المعرفات .

– تفوق دلالة اسم الإشارة دلالة الضمير في مقام إعادة ذكر ذوات موصوفين تقدم ذكرهم لكون الضمير يعيد ذكر الذات ، واسم الإشارة يعيد ذكر الذات باستحضار صفاتها ، من نحو قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة : آية ٥] .

– اسم الموصول يفيد ماتفيده أداة التعريف "أل" من معاني العهد والحقيقة .

– الإضافة تفيد ماتفيده أداة التعريف "أل" من معاني العهد والحقيقة .

– تعدد الاصطلاحات بين الفنون لايلزم منه تعدد ذواتها أو مسمياتها ، وإنما يعني خاصية النظر في المنظور إليه ، كتسمية المبتدأ والخبر بهذا الاسم عند النحاة ، وتسميتهما مسندا إليه ومسندا عند البلاغيين ، وتسميتهما محكوما عليه وحكما عند الأصوليين ، وتسميتهما موضوعا ومحمولا عند المناطقة .

فالذات واحدة ، والاصطلاحات متباينة تبعا لخصوصية النظر .

– تعريف الإنشاء المشهور عند البلاغيين والمسطر في كتبهم ، فيه حظ من النظر المعتبر ، لأنه غير جامع ولامانع ، وللعلماء فيه تأويلات وقيود حتى يصح كونه تعريفا ، مما يجعلنا نتابعهم على ماهم فيه ، ولانحاول استحداث صياغة جديدة وذلك لدافعين :

الدافع الأول : أن ماذكره العلماء من تأويل وقيد أوفى بالمقصود منه كتعريف وأتم بالمراد منه كحد .

الدافع الثاني : أن شهرة هذا التعريف في كتب القوم تشفع له ، وترجح بقاؤه ، لأن الشهرة عامل مرجح في مثل هذا المقام ، حتى قالوا : خطأ مشهور أولى من صواب مهجور ، أو بعبارة أخرى : خطأ معروف أولى من صواب مصروف ، لجعلوا الخطأ أولى ... ومانحن فيه ليس خطأ بل فيه نظر ، ويزول النظر بذكر القيد والتأويل .

– كثرة أساليب الاستفهام في القرآن الكريم لاسيما المكي منه .

– أسلوب التمني ربما يكون أسلوب هروب من الواقع المعاش ، نحو قوله تعالى على لسان مريم : ﴿يَالَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم : آية ٢٣] ، وكقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ : ٤٠] .

– كثرة أدوات الأسلوب أو قلتها ألا تكون مؤشرا على كثرة استعمال الأسلوب أو قلة استعماله .

– قد ذكر المفسرون أغراضا وأسرارا في التوكيد والتقديم والحذف والتعريف والإنشاء لم يذكرها البلاغيون .

– كمال العناية بالبلاغة التطبيقية ، لأنها هي السبيل الأمثل في دراسة البلاغة.

الملحق

إن :

أدوات التنبيه :

صيغة الشرط:

ضمير الفصل

(كان) غير الزائدة :

السين والتاء :

لن :

(ذا) واسم الإشارة مطلقا :

أما :

اللامات :

قائمة المصادر والمراجع

– الإتقان في علوم القرآن
للسيوطي
قدم له وعلق عليه الأستاذ محمد شريف سكر ، راجعه الأستاذ مصطفى القصاص ، دار إحياء العلوم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

– إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر
لأحمد عبد الغني الدمياطي
رواه وصححه وعلق عليه محمد الصباغ ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، لبنان .

– أدب الكاتب
لابن قتيبة
تحقيق محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/الثانية ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .

– ارتشاف الضرب من لسان العرب
لأبي حيان الأندلسي
تحقيق وتعليق د. مصطفى أحمد النماس ، مطبعة النسر الذهبي ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م .

– إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول
للإمام الشوكاني
ت : د. شعبان محمد إسماعيل ، مطبعة المدني بمصر ٦٨ شارع العباسية ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

– الأزهية في علم الحروف
لعلي بن محمد النحوي الهروي
تحقيق عبد المعين الملوحي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

– **أساس البلاغة**
للزمخشري
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ١٩٨٥م .
– **أساليب الاستفهام في القرآن**
لعبد العليم السيد فودة
مؤسسة دار الشعب ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، نشر الرسائل الجامعية .
– **أساليب بلاغية**
للدكتور أحمد مطلوب
دار غريب للطباعة ، ط/الأولى .
– **أسباب النزول**
للواحدي
ت : كمال بسيوني زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
– **الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز**
للعز بن عبد السلام
دار الحديث بالقاهرة ، ١٣١٣هـ .
– **الأطول على التلخيص**
لإبراهيم الاسفرائني المشهور بالعصام
المطبعة السلطانية سنة ١٢٨٤هـ .
– **الإعجاز البلاغي**
د. محمد محمد أبو موسى
مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط/الأولى ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
– **الأعلام**
لخير الدين الزركلي
دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة السابعة ١٩٨٦م .
– **إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن**

لأبي البقاء العكبري
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

– **الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ضمن تفسير الكشاف**
لابن المنير الاسكندراني
شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

– **الإنصاف في مسائل الخلاف**
للأنباري
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، عني بنشره محمود توفيق الكتبي بشارع جوهر القائد ، ط/الأولى سنة ١٣٦٤هـ/١٩٤٥م .

– **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**
لابن هشام الأنصاري
دار الفكر فللطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان .

– **الإيضاح شرح المفصل**
لابن الحاجب
تحقيق وتقديم د. موسى بناي العليلي ، مطبعة العاني ، بغداد ، وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، إحياء التراث الإسلامي .

– **الإيضاح في علوم البلاغة**
للخطيب القزويني
شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، ط/الخامسة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– **إيضاح المبهم من معاني السلم**
للشيخ أحمد الدمنهوري
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .

– **البحر المحيط**

لأبي حيان الأندلسي
دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل عبد الموجود ، على محمد معوض ، وشارك في تحقيقه د. زكريا عبد المجيد النوتي ، د. أحمد النجولي الجمل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

- **البداية والنهاية**
لابن كثير
دقق أصوله وحققه د. أحمد أبو ملحم ، د. على نجيب عطوي ، الأستاذ فؤاد السيد ، الأستاذ مهدي ناصر الدين ، الأستاذ علي عبد الساتر ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ط/الأولى ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- **البديع في ضوء أساليب القرآن**
للدكتور عبد الفتاح لاشين
مطبعة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦م .

- **البديع في المعاني والألفاظ**
للدكتور عبد العظيم المطعني
مطابع سجل العرب ، المكتبة الفيصلية ، ط/الثالثة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

- **البرهان في علوم القرآن**
للزركشي
خرج حديثه وقدم له وعلق عليه مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- **البرهان في متشابه القرآن**
للكرماني
تحقيق عبد القادر عطا ، ط/الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان .

- **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح**
لعبد المتعال الصعيدي
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز .

- **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**
للسيوطي
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع بمطبعة عيسى البابي وشركاه ، ط/الأولى ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .
- **البلاغة تأصيل وتجديد**
للدكتور الصاوي الجويني
مطبعة شركة آلات ولوازم المكاتب بالاسكندرية ، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية .
- **البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)**
للدكتور فضل حسن عباس
دار الفرقان ، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- **البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري**
د. حمد محمد أبو موسى
دار التضامن ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، ط/الثانية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- **البلاغة الواضحة**
لعلي الجارم ، ومصطفى أمين
مطبعة المعارف ، ط/الأولى ، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م .
- **بيان إعجاز القرآن**
للخطابي
ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/الرابعة .
- **البيان في روائع القرآن**
للدكتور تمام حسان
عالم الكتب بالقاهرة ، ط/الثانية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- **البيان والتبيين**
للجاحظ

تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الرابعة.

- **تاج العروس من جواهر القاموس**

لمحمد مرتضى الزبيدي

المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ، ط/الأولى سنة ١٣٠٦هـ .

- **تأويل مشكل القرآن**

لابن قتيبة

شرحه ونشره السيد أحمد صقر ، دار التراث ، القاهرة ، ط/الثانية ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

- **التبصرة والتذكرة**

للصيمري

تحقيق د. فتحي أحمد مصطفى علي الدين ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي ، ط/الأولى ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

- **التبيان في علم المعاني والبديع والبيان**

للطيبي

تحقيق د. هادي عطية مطر الهلالي ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط/الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

- **تسهيل المنطق**

عبد الكريم بن مراد الأثري

مطابع سجل العرب ، الطبعة الثانية .

- **التصريح على التوضيح**

لخالد الأزهري

دار الفكر .

- **التعريفات**

للشريف علي بن محمد الجرجاني

دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/بدون ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

– تفسير البيضاوي
للعلامة ناصر الدين البيضاوي
مع حاشية الشهاب الخفاجي
دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت .

– تفسير الجلالين
لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي
مع حاشية الجمل المسماة بالفتوحات الإلهية .
طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

– تفسير القرآن العظيم
للحافظ ابن كثير
دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط/الثانية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

– تفسير النسفي
لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي
دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

– تقرير الشمس الانبابي
للإنبابي
مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٣٠هـ .

– التلخيص في علوم البلاغة
للقزويني
ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي ، دار الفكر العربي ، ط/١٩٠٤م .

– توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك
للمرادي المعروف بابن أم قاسم
شرح وتحقيق د. عبد الرحمن علي سليمان ، مكتبة الكليات الأزهرية حسين محمد امبابي وشركاه ، الطبعة الثانية .

– التوقيف على مهمات التعاريف
للمناوي

تحقيق د.محمد رضوان الداية ، دار الفكر بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

– جامع البيان في تأويل القرآن

للطبري

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

– الجامع لأحكام القرآن

للقرطبي

دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

– جمهرة أنساب العرب

لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي

عني بضبطها وشرحها أحد أفاضل العلماء ، مطبعة الرحمانية بمصر ، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .

– الجنى الداني في حروف المعاني

للمرادي

تحقيق د. فخر الدين قباوة ، والأستاذ محمد نديم فاضل ، المكتبة العربية بحلب ، ط/الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

– جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع

للسيد أحمد الهاشمي

إشراف صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة بدون ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م .

– حاشية الجمل على الجلالين المسماة بالفتوحات الإلهية

لسليمان عمر العجيلي الشافعي

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

– حاشية الحفيد على مختصر المعاني في البلاغة

لشيخ الإسلام أحمد بن يحيى بن محمد بن سعد الهروي

طبع باستنبول عام ١٣٠٨هـ .

– **حاشية الخضري على شرح ابن عقيل**
لمحمد الدمياطي الشافعي
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م .
– **حاشية الدسوقي على مختصر المعاني في البلاغة**
لمحمد بن محمد بن عرفة الدسوقي
دار الكتب العلمية ، بيروت .
– **حاشية السيد الشريف على الكشاف**
للشريف علي بن محمد الجرجاني
شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
– **حاشية السيد على المطول**
للشريف محمد بن علي الجرجاني
مكتبة الداوري قم إيران .
– **حاشية السيلكوتي على المطول**
لعبد الحكيم السيلكوتي
القسطنطينية ١٢٤١هـ ، بمعرفة الحاج إبراهيم صائب .
– **حاشية الشهاب على البيضاوي**
للشهاب الخفاجي
دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت .
– **حاشية الشيخ زادة على البيضاوي**
لمحيي الدين شيخ زادة
المكتبة الإلأسلامية ، محمد ازدمير ، ديار بكر ، تركيا .
– **حاشية الصاوي على تفسير الجلالين**
لأحمد بن محمد الصاوي المالكي

ضبطه وصححه محمد بن عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط/الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

– حاشية الصبان على الأشموني لألفية ابن مالك

لمحمد بن علي الصبان

رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

– حاشية الصبان على شرح الملوي للسلم

لأبي العرفان محمد بن علي الصبان

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط/الثانية ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

– حاشية العلامة العليمي على شرح الفاكهي على قطر الندى

ليس بن زين الدين العليمي الحمصي

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ/١٩٧١م .

– حاشية الفنري على المطول

لحسن جلبي

المطبعة العثمانية ، طبع سنة ١٣٠٩هـ .

– حاشية ياسين العليمي على شرح التصريح والتوضيح

ليس بن زين الدين العليمي الحمصي

دار الفكر .

– الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين

لهادي عطية مطر الهلالي

عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– الحماسة البصرية

لصدر الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري

تحقيق مختار الدين أحمد ، عالم الكتب ، ط/الثالثة ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

– الحيوان

للجاحظ
تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مطبعة مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر ط/الأولى .

- **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**
لعبد القادر بن عمر البغدادي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

- **الخصائص**
لأبي الفتح عثمان ابن جني
تحقيق محمد علي النجار ، المكتبة العلمية .

- **خصائص التراكيب**
للدكتور محمد أبو موسى
مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الثالثة .

- **درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز**
محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**
لابن حجر العسقلاني
تحقيق محمد سيد جاد الحق ، مطبعة المدني ، ط/الثانية ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**
لشهاب الدين أبو العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي
تحقيق وتعليق : الشيخ علي محمد معوض ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، د. جاد مخلوف جاد ، د. زكريا عبد المجيد النوتي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**
للسيوطي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط/الأولى ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

- **دلائل الإعجاز**

عبد القاهر الجرجاني

قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بمصر ، ط/الثالثة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .

- **ديوان ابن مقبل**

تحقيق د. عزة حسن ، دمشق ، ١٣٨١هـ/١٩٦٢م .

- **ديوان البحتري**

تحقيق حسن كامل الصيرفي

دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م .

- **ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي**

تحقيق د. عزة حسن ، دمشق ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

- **ديوان بشار بن برد**

نشره وقدمه وشرحه وكمله العلامة ابن عاشور

علق عليه ووقف على طبعه محمد رفعت فتح الله ، ومحمد شوقي أمين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م .

- **ديوان جرير**

دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م .

- **ديوان الخريمي**

جمعه وحققه علي جواد الطاهر ، ومحمد جبار المعيبد

دار الكتاب الجديد ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ، ١٩٧١م .

- **ديوان ذي الرمة**

تحقيق كارليل هنري هيس مكارتني

طبع على نفقة كلية كمبريدج في مطبعة الكلية ١٣٣٧هـ/١٩١٩م .

- **ديوان رؤبة**

تحت مجموع أشعار العرب

اعتنى بتصحيحه وترتيبه وليم بن لورد البروسي

منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط/٢ ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

– ديوان زهير

صنعة أبي العباس ثعلب

قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. حنا نصر الحتى ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط/الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

– ديوان عروة بن الورد

شرح ابن السكيت

تحقيق عبد المعين الملوحي ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي .

– ديوان الفرزدق

دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م .

– ديوان قيس بن الخطيم

عن ابن السكيت وغيره

تحقيق د. ناصر الدين الأسد ، مطبعة المدني ، ط/الأولى ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م .

– ديوان المتنبي

شرحه وكتب هوامشه مصطفى سبيتي

دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– ديوان لبيد

شرح الطوسي

قدم له ووضع هوامشه وفهارسه د. حنا نصر الحتى ، الكتاب العربي ، بيروت ، ط/الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

– رد الأذهان إلى معاني القرآن

لأبي بكر محمود جومي رئيس قضاة نيجيريا

طبعته مؤسسة غومبي ، كادونا ، نيجيريا ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

– رصف المباني في شرح حروف المعاني

للمالقي
تحقيق أحمد محمد الخراط ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ .
- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**
لشهاب الدين محمود الألوسي
دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات**
محمد باقر الخونساراي
ط/الثانية ١٣٦٧هـ .
- **السبعة في القراءات**
لابن مجاهد
تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط/الثانية .
- **سر الفصاحة**
لابن سنان الخفاجي الحلبي
تحقيق علي فودة ، الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ .
- **سراج القاري المبتدئ وتذكار القارئ المنتهي**
للبغدادي
شرح منظومة حرز الأماني ووجه التهاني لأبي محمد بن أبي القاسم الرعيني الأندلسي الشاطبي .
- **سنن ابن ماجه**
للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني
حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث بالقاهرة .
- **سنن أبي داود**
للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث

أشرف عليه ورقمه وأعد فهارسه د. بدر الدين جتين ، دار سحنون ، تونس
الطبعة الثانية .
- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**
لابن العماد الحنبلي
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .
- **شرح حماسة أبي تمام**
للأعلم الشنتمري
تحقيق د. علي المفضل حمودان ، مطبعة دار الفكر المعاصر ، ط/الأولى ، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
- **شرح ديوان جرير**
جمع وشرح محمد إسماعيل عبد الله الصاوي
مضاف إليه تفسير العالم اللغوي محمد بن حبيب
مطبعة الصاوي ، المكتبة التجارية الكبرى لصاحبها مصطفى محمد ، ط/الأولى .
- **شرح ديوان الحماسة**
لأبي علي أحمد المرزوقي
نشره أحمد أمين ، عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م .
- **شرح ديوان علقمة وطرفة وعنترة**
تحقيق وشرح نخبة من الأدباء
دار الفكر للجميع ١٩٦٨م .
- **شرح السلم في المنطق**
لأحمد الملوي
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط/الثانية ، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- **شرح كافية ابن الحاجب**
لرضي الدين الاستراباذي

قدم له ووضع حواشيه وفهارسه د. إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

- **شرح الكافية الشافية**

لابن مالك الطائي الجياني

حققه وقدم له د. عبد المنعم أحمد هريدي ، دار المأمون للتراث ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى .

- **شرح عقود الجمان**

للسيوطي

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م .

- **شرح المفصل**

لابن يعيش

عالم الكتب ، بيروت .

- **شروح التلخيص**

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون .

- **شعر الأخطل**

صنعة السكري

تحقيق د. فخر الدين قباوة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- **شعر عبدة بن الطيب**

د. يحيى الجبوري

دار الطباعة والنشر والتوزيع ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ١٣٩١هـ ١٩٧١م .

- **شفاء العليل في إيضاح التسهيل**

لأبي عبد الله محمد بن عيسى السليلي

دراسة وتحقيق د. الشريف عبد الله علي الحسيني البركاتي

المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

– الصحاح

لإسماعيل بن حماد الجوهري

تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

– صحيح البخاري بحاشية السندي

من منشورات دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

– صحيح مسلم

وقف على طبعه ، وتحقيق نصوصه ، وتصحيحه وترقيمه ، وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه ، وعلق عليه ملخص شرح الإمام النووي ، مع زيادات عن أئمة اللغة : محمد فؤاد عبد الباقي

مطبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر .

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع

لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي

الناشر دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .

– طبقات المفسرين

للسيوطي

راجع النسخة وضبط أعلامها لجنة من العلماء بإشراف الناشر

دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

– الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز

ليحيى بن حمزة العلوي اليمني

مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

– عروس الأفراح

لابن السبكي

ضمن شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

- **علم أصول الفقه**
لعبد الوهاب خلاف
دار القلم ، الطبعة التاسعة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .
- **علم المعاني**
للدكتور عبد العزيز عتيق
دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .
- **علم المعاني بين بلاغة القدامى وأسلوبية المحدثين**
للدكتور طالب محمد إسماعيل الزوبعي
ط/الأولى ١٩٩٧م .
- **علوم البلاغة**
لأحمد مصطفى المراغي
دار القلم ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ١٩٨٠م .
- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**
لأحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بالسمين الحلبي
تحقيق محمود محمد السيد الدغيم ، دار السيد للنشر ، استنبول ، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**
لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري
ضبطه وخرج آياته وأحاديثه الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**
لمحمد بن علي الشوكاني
ضبطه وصححه أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .
- **فصول الأصول**
لخلفان بن جميل السيابي

وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
– **فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور**
للدكتور رجاء عيد
الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ، الطبعة الثانية .
– **فن البلاغة**
لعبد القادر حسين
الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
– **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان**
لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي المعروف بابن القيم
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
– **في تاريخ البلاغة العربية**
للدكتور عبد العزيز عتيق
دار النهضة العربية .
– **في علم المعاني**
لعبد الفتاح عثمان
دار الهاني للطباعة ، طبعة سنة ١٩٩٠-١٩٩١م .
– **الكامل في اللغة والأدب**
لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد
مكتبة المعارف ، بيروت .
– **كشاف اصطلاحات الفنون**
لمحمد بن علي بن علي بن محمد التهانوي الحنفي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط/الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .
– **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**
للزمخشري
حقق الرواية محمد الصادق قمحاوي

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الأخيرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

– **الكليات**

لأبي البقاء الكفوي

تحقيق عدنان درويش ، الأستاذ محمد المصري ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٨٢م .

– **لباب التأويل في معاني التنزيل**

للخازن

ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

– **لسان العرب**

لابن منظور الأفريقي المصري

دار صادر ، بيروت ، الطبعة الأولى .

– **لطائف التبيان في علمي المعاني والبيان**

للطيبي

تقديم وتحقيق عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي ، المكتبة التجارية ، مكة المكرمة .

– **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**

لضياء الدين بن الأثير

قدمه وعلق عليه د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

– **مجالس ثعلب**

لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب

شرح وتحقيق عبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر .

– **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**

للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي

تحقيق حسام الدين القدسي ، مكتبة القدس ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

– **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**

لابن جني

تحقيق علي النجدي الناصف ، د. عبد الحليم النجار ، د. عبد الفتاح شلبي ، لجنة التراث الإسلامي ، القاهرة ١٣٨٦هـ .

– **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**

لابن عطية الأندلسي

تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .

– **مختار الشعر الجاهلي**

شرحه وحققه وضبطه مصطفى السقا

شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط/الثانية ، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م .

– **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**

للسيوطي

شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت.

– **المساعد على تسهيل الفوائد**

لبهاء الدين بن عقيل

تحقيق وتعليق د. محمد كامل بركات ، دار المدني ، جدة ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م .

– **المصباح المنير**

لأحمد بن محمد الفيومي

مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان .

– **المطول**

للتفتازاني
منشورات مكتبة الداوري ، قم إيران .

– معالم التنزيل
للبغوي
ضبطه وصححه عبد السلام محمد شاهين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

– معاني الحروف
للرماني
حققه د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

– معاني القرآن
لأبي زكريا الفراء
تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي النجار ، دار السرور .

– معاهد التنصيص على شواهد التلخيص
للعباسي
حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد
عالم الكتب ، بيروت ، ط/١٣٦٧هـ/١٩٤٧م .

– معجم الأدوات النحوية
للدكتور محمد التونجي
دار الفكر ، دمشق ، الطبعة السادسة ، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م .

– معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم
وضعه د. إسماعيل أحمد عمايرة ، د. عبد الحميد مصطفى السيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط/الأولى ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م .

– معجم البلاغة العربية
لبدوي طبانة
دار ابن حزم ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

- **المعجم المفصل في علوم البلاغة**
إعداد د. إنعام فوال عكاوي
مراجعة أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**
وضعه محمد فؤاد عبد الباقي
دار الحديث خلف جامع الأزهر ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- **المعجم الوسيط**
قام بإخراجه إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، استانبول ، تركيا ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث .
- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**
لابن هشام الأنصاري
حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الباز ، عباس أحمد الباز .
- **مفاتيح الغيب**
لفخر الدين الرازي
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩٠م .
- **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**
لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة
دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- **مفتاح العلوم**
لأبي يعقوب يوسف السكاكي
منشورات المكتبة العلمية الجديدة ، بيروت ، لبنان .
- **المقتضب**

للمبرد
تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة ، عالم الكتب ، بيروت .
- **المقرب**
لابن عصفور
تحقيق أحمد عبد الستار الجوادي ، عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ط/الأولى ١٣٩١هـ/١٩٧١م .
- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**
لأحمد بن الزبير الغرناطي
تحقيق د. محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- **من بلاغة النظم العربي**
للدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة
عالم الكتب ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م .
- **المنطق الصوري والرياضي**
تأليف عبد الرحمن بدوي
مكتبة النهضة المصرية ، لأصحابها حسن محمد وأولاده ، الطبعة الثالثة ١٩٦٨م .
- **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**
للقرطاجني
تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ، رسالة دكتوراه .
- **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**
للآمدي
تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .
- **الميسر في القراءات الأربعة عشرة**
لمحمد فهد خاروف

مراجعة محمد كريم راجح ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/١٩٩٥م .

- **النحو الوافي**
لعباس حسن
دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة .

- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**
لبرهان الدين البقاعي
خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه عبد الرازق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

- **نقد الشعر**
لأبي الفرج قدامة بن جعفر
تحقيق كمال مصطفى ، الطبعة الثالثة .

- **النكت في إعجاز القرآن للرماني**
ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن
حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ط/الرابعة .

- **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**
لفخر الدين الرازي
تحقيق وتقديم د. إبراهيم السامرائي ، د. محمد بركات حمدي أبو علي ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ١٩٨٥م .

- **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**
لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

الرسائل الجامعية :

– الاستعارة التمثيلية في التحرير والتنوير

رسالة دكتوراة

د. علي محمد أحمد العطار

كلية اللغة العربية بالأزهر .

– معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة

رسالة دكتوراة

د. محمد بن حسين الجيزاني

الجامعة الإسلامية .

– النظم القرآني في آيات الجهاد

رسالة دكتوراة

د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين

وقد طبعت عن طريق مكتبة التوبة بالرياض في ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

الدوريات :

– مجلة كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد التاسع ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

المخطوطات :

– حاشية التفتازاني على الكشاف

مخطوطة رقم ٥٧٦ ، مكتبة الحرم المكي الشريف .

– حاشية يس العليمي على مختصر المعاني للتفتازاني

مخطوطة رقم ٣٣٦١ ، مكتبة الحرم المكي الشريف .

– الحواشي والنكات والفوائد المحررات لأحمد بن قاسم العبادي على مختصر المعاني للتفتازاني

مخطوطة رقم ٣٣٥ ، مكتبة الحرم المكي الشريف .

وهناك نسخة أخرى هي نسخة مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد ، تحت رقم ١٦٣٢ .

- فتوح الغيب في كشف قناع الريب

مخطوطة مصورة عن مكتبة الرباط بالمغرب ، لمكتبة الحرم المكي الشريف تحت رقم ٣٨٠٦ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة